تراثنا

مفرج الكروب

فى أخبار بنى أيوب

تأليف

جمال الدين محمد بن سالم بن واصل

(المتوفى سنة ٦٩٧ هـ)

[الجزء الثالث]

تحقيق

الدكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الاسكندرية

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والارشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة

تراثنا

مفرج الكروب

فى أخبار بنى أيوب

تأليف

جمال الدين محمد بن سالم بن واصل

(المتوفى سنة ٦٩٧ هـ)

[الجزء الثالث]

تحقيق

الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الاسكندرية

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والارشاد القومى

الاقليم الجنوبى

الإدارة العامة للثقافة

النــاشر



دار القلم

١٨ شارع سـوق التوفيقة بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

(١)

هذه ثلاث سنوات أخرى مرت منذ ظهر الجزء الثانى من هذا التاريخ الكبير شغلت خلالها بإنجاز بعض الأعمال العلمية[1] الأخرى ، ولكن مفرج الكروب ظل مع هذا شغلى الشاغل ، لا أكاد أفرغ لنفسى بعض الوقت حتى أعود إليه أراجع نصوصه لأعد الأجزاء الباقية للطبع .

وها أنذا أقدم اليوم للقارىء الكريم الجزء الثالث ، وهو يغطى عصر أولاد صلاح الدين وأخيه الملك العادل ، أى حوادث ربع قرن من الزمان

---

(١) أشير هنا إلى بعض هذه الأعمال وهي :

— الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الإسلامى الحديث ، الجزء الثانى (مصر والشام) ، القاهرة ١٩٥٨ .

— مجموعة الوثائق الفاطمية ، الجزء الأول (وثائق الخلافة والوزارة) ، القاهرة ١٩٥٨ . وقد فاز هذا الكتاب بجائزة الدولة التقديرية .

— رفاعة رافع الطهطاوى (مجموعة نوابغ الفكر العربى) ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٨

— حلية الزمن بمناقب خادم الوطن (سيرة رفاعة الطهطاوى بقلم تلميذه صالح مجدى ، نشر وتحقيق) القاهرة ١٩٥٨ .

— التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٨ .

— AHistary of Egyption Historiography in the 19th bentury (تحت الطبع) .

(٥٩٠ — ٦١٥ = ١١٩٤ — ١٢١٨) وهى حقبة خطرة أوشك فيها البناء الشامخ الذى بناه صلاح الدين أن ينقض ، وأوشكت الوحدة القوية التى كدَّ فى تكوينها أن تنفصم عراها ، فقد اقتسم الملك بعده أولاده الثلاثة الكبار : الملك العزيز عثمان فى مصر ، والملك الظاهر غازى فى حلب ، والملك الأفضل على فى دمشق ؛ ثم لم يلبث أن قام النزاع والتخاصم بين الأخوة الثلاث ، ووقف عمهم الملك العادل عن كثب يرقب الأحداث ، ويتدخل بذكائه ودهائه ليمهد للأمور حتى تصل إلى نتيجتها المحتومة ، فلما نضجت الكمثرى استعان بالأمراء الأسدية حتى اختاروه أتابكا للطفل الصغير الملك المنصور بن الملك العزيز صاحب مصر ، ثم لم يلبث أن عزله وولى العرش مكانه وأعاد للدولة وحدتها كما كانت أيام أخيه صلاح الدين ، ولم يبق خارجها إلا مملكة حلب التى تتابع على حكمها حتى نهاية الدولة سلالة الملك الظاهر بن صلاح الدين .

وكانت حجة الملك العادل التى حاول بها أن يبرر استئثاره بالملك دون أولاد أخيه تمثل مبدءاً جديداً وخطيراً ، فإنه قال : « إنه قبيح بى أن أكون أتابكا لصبى مع الشيخوخة والتقدم ، مع أن المُلْك ليس هو بالميراث ، وإنما هو لمن غلب ، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الملك الناصر — رحمه الله — صاحبَ الأمر ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى ورعاية لحقه .. الخ »[1]

وكان من الممكن أن يقبل هذا القول من الملك العادل لو أنه كان يعنيه حقًا ، أو لو أنه التزمه مع نفسه وأولاده ، ولكن الواضح أنه ساق هذا القول لتبرير فعلته وحسب ، بدليل أنه تمسك بمبدأ الوراثة بعد قليل ، فقسم الملك بين

(١) انظر بقية الحديث فيما يلى هنا ، س ١١١ .

أولاده الثلاثة : الـكامل والمعظم والأشرف ، قبل وفاته ، وظل الملك فى مصر — على الأقل — وراثياً فى عقبه إلى أن انتهت الدولة .

وقد شرح ابن واصل فى هذا الجزء الصراع العنيف الذى قام بين أولاد صلاح الدين شرحاً وافياً مستفيضاً ، وكشف القناع عن الأدوار التى لعبتها القوى الـكبرى التى شاركت فى هذا الصراع ، فقد كان هناك صراع خفى بين أنواع من القوى ، بين الأمراء الأسدية والأمراء الصلاحية ، و بين الأكراد والأتراك ، ووسط هذه اللجة المصطخبة من النزاع كنا نرى أيدى كبار القواد ورجال الدولة الذين عملوا مع صلاح الدين تلعب تارة فى الخفاء وتارة فى العلانية ، فتعمل مرة على إخماد نار الفتنة ، وتعمل مرة أخرى على إشعال نيرانها وتوسيع شقة الخلاف ، وقد جرت عادة المؤرخين الذين أرخوا لهذه الفترة أن يرصدوا حركات أولاد صلاح الدين وعمهم العادل ، ولـكن القارىء لهذا الجزء من مفرج الـكروب يدرك أنه لـكى يفهم أسباب هذا النزاع وأحداثه لا يمكن أن يغفل الأدوار التى لعبها الأمراء الصلاحية من أمثال : فخر الدين جهاركس ، وفارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين سنقر الـكبير ، وصارم الدين قايماز النجمى ، وحسام الدين أبو الهيجا السمين ، و بهاء قراقوش ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى . . الخ .

فتاريخ بنى أيوب — فيما أرى — لا يمكن أن يفهم فهما صحيحاً إذا نحن قصرنا دراستنا على ملوك بنى أيوب وأعمالهم ، بل أصبح من الواجب أن ندرس موقف القوى الحربية التى كانت تـكون الجيش الأيوبى من أكراد وأتراك وخوارزمية وعربية ، والعصبيات التى تـكونت من أسدية وصلاحية وكاملية وصالحية وغيرهم ، وأن ندرس إلى جانب هذا سِيَر كبار القواد والأدوار التى لعبوها فى تطور تاريخ هذه الأسرة .

والمؤلف يؤرخ فى هذا الجزء تأريخا شاملا لمنطقة الشرق الأدنى العربى خلال هذا الربع قرن ، فيشير إلى الأحداث فى اليمن و إلى ولاتها من بنى أيوب ، و يتتبع الصراع الذى كان لا يزال قائماً ومستمراً بين الأيوبيين و بقايا الصليبيين فى الشام ، بل إنه يرصد تحركاتهم خارج العالم الإسلامى فيشير إشارة سريعة إلى الحملة الصليبية الرابعة التى اتجهت إلى القسطنطينية[1] واستولت عليها ، وهو يعنى كذلك بالتأريخ للدول الإسلامية المجاورة وحكامها والعلاقات بينها و بين بنى أيوب ، و بخاصة الخلافة العباسية ، ودولتى الأتابكة وسلاجقة الروم .

(٢)

وابن واصل و إن كان قد عاش بعض سنوات هذه الحقبة التى يؤرخ لها هذا الجزء والتى تبدأ بسنة ٥٩٠ه وتنتهى بسنة ٦١٥ ه إلا أننا لا نعتبره معاصراً لها . فقد ولد سنة ٦٠٤ ، وكان قد بلغ الحادية عشرة من عمره فى نهاية هذه الحقبة ، وهى سن لا تؤهله لإدراك الحوادث إدراكا صحيحاً ، ولهذا فهو لا زال ينقل عمن سبقه من المؤرخين ، وهو فى هذا الجزء ينقل بصفة خاصة عن المؤرخين الآتية أسماؤهم :

— ابن القادسى
— العماد الأصفهانى
— عز الدين بن الأثير
— ضياء الدين بن الأثير

ونقوله عن هؤلاء لها أهمية كبرى، فإن ابن القادسى مؤرخ عراقى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى وأدرك القرن السابع ، وكتابه فى التاريخ ذيّل به على تاريخ

(١) انظر ما يلى هنا ص ١٦٠ تحت عنوان « ذكر استيلاء الفرنج على قسطنطينية » .

ابن الجوزى « المنتظم » ، ومعلوماته عن تاريخ العراق والخلافة العباسية وثيقة وهامة ، غير أن كتابه للأسف من الكتب المفقودة ، ولم يبق منه إلا هذه الشذرات القليلة التى نقلها عنه ابن واصل فى مفرج الكروب ، وشذرات أخرى نقلها سبط ابن الجوزى فى «مرآة الزمان» وابن تغرى بردى فى «النجوم الزاهرة» وغيرهما من المؤرخين اللاحقين .

أما العماد الأصفهانى فكان قد انتهى من التاريخ لعصر صلاح الدين فى كتابه الفذ « البرق الشامى » وعليه اعتمد الأغلبية العظمى من مؤرخى العصر الأيوبى ومن بينهم ابن واصل ، ثم ظل العماد بعد وفاة صلاح الدين على صلة وثيقة بأبنائه وأخيه العادل ورجال دولته ، وألف للتأريخ للسنوات السبع التى عاشها بعد ذلك (توفى ٥٩٧ هـ) ثلاث رسائل هى : «العتبى والعقبى» و «ونحلة الرحلة» و « خطفة البارق وعطفة الشارق » ، وكلها — رغم أهميتها القصوى — مفقودة ، وإن كان أبو شامة قد لخصها تلخيصاً موجزاً جداً فى الصفحات الأخيرة من الجزء الثانى من كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، إلا أن ابن واصل ينقل فى هذا الجزء فقرات كثيرة وهامة جداً من هذه الرسائل ، ومما يزيد فى أهمية هذه النقول أنها لا توجد فى الروضتين أو فى أى مرجع آخر من المراجع التى أرخت للأيوبيين .

وبوفاة العماد فى سنة ٥٩٧ هـ يصبح « الكامل فى التاريخ » لعز الدين ابن الأثير عمدة ابن واصل ومرجعه الأول ، كما أنه ينقل أحياناً — عند التأريخ للأتابكة — عن كتابه الآخر « الباهر » .

كذلك رجع ابن واصل فى هذا الجزء إلى مجموعة رسائل ضياء الدين ابن الأثير ونقل الكثير من هذه الرسائل التى تلقى أضواء جديدة على قصة الصراع بين أولاد صلاح الدين ، ولا غرو فقد كان ضياء الدين وزيراً للأفضل

ابن صلاح الدين — صاحب دمشق ، وإلى رعونته — فيما يذكر ابن واصل وغيره من المؤرخين — ، ترجع أسباب فشل الملك الأفضل فى سياسته وحكمه .

وابن واصل — كعادته — لا ينقل عن هذه المراجع نقلا حرفياً دائماً ، بل قد يلتزم النص الذى ينقل عنه ، وقد يوجز أو يختصر ، وقد يضيف من عنده روايات شفهية سمعها من معاصريه ، وهو فى معظم الأحوال يقارن بين آراء المؤرخين ، ويصوِّب قول هذا أو يخطئ قول ذاك أو يناقش الآراء ويأتى برأى جديد يرى أنه الصواب ، وهو فى كل هذه الاستدراكات يبدأ استدراكه بكلمة « قلت » .

ولندرة المراجع المعاصرة الأصيلة التى أخذ عنها ابن واصل أو لضياعها أصبح كتابه « مفرج الكروب » العمدة والمرجع لمعظم المؤرخين العرب الذين عاشوا بعد القرن السابع الهجرى وكتبوا عن العصر الأيوبى ، من أمثال أبى الفدا ، والذهبى ، والمقريزى ، وابن تغرى بردى ، والنعيمى وغيرهم ، ولهذا اعتبرتُ كتب هؤلاء المؤرخين نسخاً أخرى وراجعت عليها نصوص مفرج الكروب كلما وجدت بها نقولا أو اقتباسات منه .

(٣)

وهذا الجزء ملىء بالمقطوعات الشعرية التى نقلها ابن واصل عن دواوين الشعراء المعاصرين وضمنها كتابه ، ومن هؤلاء :

— ابن سناء الملك

— وشرف الدين بن عنين

---

(١) أنظر ما يلى هنا ، ص ٣٨ هامش ٢ ، ص ٥٦ هامش ١ ، ص ٦٦ هامش ١ ، ص ١٣٨ هامش ٣ .

— والعماد الكاتب الأصفهانى

— وبهاء الدين أسعد بن يحيى السنجارى

— وسالم بن سعادة الحمصى

— وشرف الدين راجح الحلى

— وكمال الدين بن النبيه المصرى

— والخليفة العباسى الناصر لدين الله

— والملك الأفضل على بن صلاح الدين

— والملك العادل أبو بكر

وغيرهم كثيرون

وقد عارضت الشعر على دواوين هؤلاء الشعراء — إن وجدت — لتقويم النص وضبطه بالشكل ، وهذه المجموعة الضخمة من شعر العصر تزيد فى أهمية « مفرج الكروب » فإن بعض هذه المقطوعات مما ينفرد هو بإيرادها ولا توجد فى المراجع الأخرى ، والبعض الآخر لشعراء ضاعت دواوينهم أو لازالت مخطوطة لم تطبع بعد مثل ديوان شرف الدين راجح الحلى ، و بعض ثالث يتضمن أبياتاً لا توجد فى الدواوين المعروفة .

(٤)

وهذا الجزء يشبه الجزءين السابقين بكثرة ما به من وثائق رسمية نقلها المؤلف ليؤكد الحقائق التاريخية التى يرويها أو ليزيدها إيضاحاً وتوثيقاً ، والمؤلف — كعادته — يثبت بعض هذه الوثائق كاملة حينا ومنقوصة حيناً آخر ، وأعود فأكرر هنا الأهمية القصوى لهذه الوثائق باعتبارها المصدر الأول الأكيد للمؤرخين ، ولهذا عنيت بإبراز هذه الأهمية فى مقدمتى الجزءين الأول والثانى ،

ولهذا ألحقت بالجزء الثانى إحدى وعشرين وثيقة أيوبية ، وإتماماً لهذه الخطة وتمهيداً لإخراج مجموعة مستقلة تضم وثائق العصر الأيوبى على نمط المجموعة التى أخرجتها للوثائق الفاطمية ، ألحقت بهذا الجزء اثنتين وثلاثين وثيقة أيوبية أخرى مما عثرت عليه فى بطون المراجع التاريخية والأدبية المختلفة .

وللوثائق التى أوردها ابن واصل فى هذا الجزء أهمية كبرى لضياع أصولها ولانفراد ابن واصل بإيرادها ، وللدلالة على أهميتها يكفى أن نشير هنا بعض منها :

— رسالة بقلم العماد الكاتب مرسلة من الملك الأفضل بن صلاح الدين — بعد وفاة والده — إلى الخليفة الناصر لدين الله

— نموذج طريف لخطبة عقد الزواج فى العصر الأيوبى بين الملك العزيز ابن صلاح الدين وابنة عمه الملك العادل .

— رسالة من ضياء الدين بن الأثير الوزير إلى بعض إخوانه

— قطعة من رسالة مرسلة من الملك الظاهر صاحب حلب إلى الملك المنصور صاحب حماة

— خطابان بقلم الوزير صفى الدين بن شكر من الملك العادل إلى الملك المنصور صاحب حماة

— رسالة من الملك العادل إلى ابن أخيه الملك الأفضل

... الخ ... الخ

(٥)

وهذا الجزء كسابقه فيه عدد كبير من المصطلحات الإدارية والحربية والاجتماعية التى كانت مستعملة فى العصر الأيوبى ، وقد تابعت العناية بها وشرحتها فى الهوامش شرحاً وافياً بقدر ما سمحت لنا به المراجع والمعاجم المتداولة

وأشرت إلى هذه المراجع والمعاجم فى نهاية الشرح ليرجع إليها من يريد التثبت أو الاستزادة ، وقد أشار ابن واصل فى هذا الجزء إلى وظيفة إدارية هامة لم أجد لها ذكراً فى المراجع المعاصرة الأخرى وهى : ولاية البر (ووالى البر) بحماة ، ومن المصطلحات التى شرحناها فيما يلى — على سبيل المثال لا الحصر — :

المثال (ص ٧ ، هامش ٢) وكوكبورى (ص ١٧ ، هامش ٣)

والسنجق (ص ٢٥ ، هامش ١) والغاشية (ص ٢٥ ، هامش ٢)

واليزك (ص ٤٨ ، هامش ١) والكوسات (ص ٥١ ، هامش ٣)

والارتفاعات (ص ٥٤ ، هامش ١) والمفاردة (ص ٩٣ ، هامش ٥)

والكمة (ص ١٣٤ ، هامش ٣) والزردخاناه (ص ١٣٥ هامش ٢)

وتركبلى (ص ١٤٦ هامش ٢) ... الخ ... الخ

ولا زلت أكرر الدعوة إلى ضرورة الاهتمام بهذه المصطلحات الحضارية وجمعها وشرحها فهى من الأدوات الهامة التى لا يمكن لمن يريد التأريخ لنظم الحكم أو الحضارة فى العالم الإسلامى على تلك العصور الاستغناء عنها .

وقد حاولت جهدى كذلك ضبط أسماء المدن والقرى وأسماء الأعلام كما ترجمت ترجمات موجزة فى الهوامش لمشاهير العصر أو أشرت إلى المراجع التى ترجمت لهم ليرجع إليها من يريد .

وفى هذا الجزء أخيراً فقرات تحدث فيها المؤلف عن نفسه فهى تعيننا على تعرف سيرته أو تحديد تاريخ تأليف الكتاب ، ومن أهمها إشارته فى ص ٩ إلى زيارته لحلب فى سنة ٦٢٧ هـ (وكان فى الثالثة والعشرين من عمره) وإقامته هناك فى مدرسة القاضى المؤرخ بهاء الدين بن شداد وتتلمذه عليه .

(٦)

هذا وقد كنت اتخذت نسخة مكتبة كامبردج (المرموز لها بحرف ك) أصلا لنشر الجزئين الأول والثـــانى مع معارضة النص على نسخة باريس رقم ١٧٠٢ ، وأردت أن أسير على نفس النهج فى هذا الجزء على أن أعارض النص على نسخة مكتبة مللاچلبي رقم ١١٩ التى تبدأ بالأحداث التالية لوفاة صلاح الدين ونسختُ أوراق هذا الجزء مكتملة عن نسخة (ك) وبدأتُ العمل لضبط النص وتقويمه ، ولـكننى لم أكد أتقدم فى العمل خطوات حتى تبين لى أن نسخة مللاچلبي أفضل بكثير من نسخة كمبردج ، فقطعتُ أوراق وبدأت من جديد ونسخت النص عن نسخة استانبول واتخذتها أصلا للنشر مع مقابلتها على نسختى باريس ١٧٠٢ وكمبردج ، فقد اتضح لى أن نسخة كمبردج كانت النسخة الأولى التى كتبها المؤلف ، ولـكنه أعاد النظر فيها بعد ذلك ، فعدَّل فى النص كثيراً وقوّمه وأضاف إليه فى بعض الأحيان ، والنسخة المعدلة المصححة هى نسخة استانبول ، وهى لحسن الحظ تبدأ بمـا يبدأ به هذا الجزء الثالث ، فإن عنوان بها هو :

ذكر ما استقرت

الحال عليـــه من الممالك

بعد وفاة السلطان — رحمه الله —

وقد نبهت فى الهوامش إلى الفروق الواضحة التى تدل على أفضلية نسخة مللاچلبي على نسخة كمبردج ، انظر مثلا : (ص ٩٢ . هامش ٥) و (ص ٩٧ ، هامش ٧) و (ص ١٠١ ، هامش ١) و (ص ١٠٨ ، هامش ١) . . الخ

أما نسخة باريس ١٧٠٢ (وقد رمزنا لها بحرف س) فهى — كما بينت فى مقدمة الجزء الأول — أسوأ النسخ ، فهى مضطربة الترتيب والصفحات ، وبها خروم كثيرة[1] ، وكاتبها جاهل كثير الأخطاء .

ومع هذا فإن نسختى كمبردج وباريس لم تخلوا من الفائدة ، فقد أعانتانى أحياناً على قراءة ما تعسر علىّ قراءته فى نسخة الأصل ، وكانت بهما أو باحداهما زيادات تنور النص فأضفتها أتماما للفائدة مع التنبيه دائماً فى الهوامش إلى الفروق الواضحة بين النسخ الثلاث .

ومن الأسباب التى دفعتنى إلى اختيــار نسخة مللاچاپى أصلا للنشر — إلى جانب صحة النص واستيفائه ودقته — أنها أقدم النسخ الموجودة جميعاً ، بل إننى أرجح أنها كانت نسخة المؤلف نفسه أو أنها كتبت أثناء حياته ، فقد كتب اسم المؤلف على الصفحة الأولى وتحته « عفا الله عنه » ، والعادة أن الناسخ إذا كتب الـكتاب بعد وفاة مؤلفه أن يدعو له بالرحمة ، فيتبع اسمه بالدعاء المعروف « رحمه الله » ، أما النص تحت عنوان الـكتاب فهو :

« تأليف الفقير إلى رحمة الله تعالى محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم ابن واصل عفا الله عنه » .

ومما يرجح هذا الظن ويؤكده أن نفس الصفحة تحمل بعد ذلك اسم مواطن للمؤلف من حماة تملك النسخة بعد وفاة المؤلف بخمس وأربعين سنة فقط (أى فى سنة ٧٤٢) ، كما تحمل اسم عالم آخر قريب للسابق نص على قراءته

(١) أنظر ما يلى هنا ص ٣٩ ، هامش ١ و ص ٤٢ ، هامش ١ وص ٧٠ ، هامش ١ و ص ١٣٥ ، هامش ٤ . . الخ

للنسخة فى سنة ٧٨٤ هـ ، أى بعد وفاة المؤلف بسبع وثمانين سنة ، وفيما يلى نص التمليكين :

« كان فى يد على بن الحسن بن على بن عبد الوهاب الحموى ، ابتاعه بالقاهرة فى جمادى الأخرة سنة اثنين وأربعين وسبعمائة » .

و « طالع مفرج الكروب من أوله إلى آخره أقل عبيد و (أحو)جهم إلى رحمته أيوب بن جسن بن على بن عبد الوهاب ، عفا الله عنه وتاب عل(يه وعلى من ت)رحم عليه وعلى والديه ، ودعا له بخاتمة الخير ، وذلك فى شهر ذى الق(عدة من سنة) أربعة وثمانين وسبعماية ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدن(ا محمد وعلى آله وص)حبه وسلم تسليما كثيراً » .

هذا ويوجد على هامش ص ١٠ ا من هذه النسخة تمليك ثالث متأخر ، تاريخه سنة ٨٧٧ هـ ، ونصه :

« نظر فى هذا التاريخ المبارك العبد الفقير إلى (الله) تعالى ، وأحوجهم إلى عفوه محمد بن المرحوم حسن غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالتوبة والمغفرة وللمسلمين أجمعين (كذا) ، آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله و (صحبه) وسلم تسليما كثيراً ، فى تاريخ الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمانمائة من الهجرة النبوية » .

وصفحة العنوان من نسخة استانبول تحمل الدليل على منهج المؤلف فى تجزىء الكتاب ، ففيها ما يشير إلى أن هذه النسخة هى الجزء الثانى ، وهذا هو نص العنوان الذى تحمله الصفحة الأولى :

الجزء الثانى من كتاب
مفرج الكروب
فى أخبار ملوك بنى أيوب
رحمهم الله تعالى

أى أن المؤلف جعل الجزء الأول من كتابه ينتهى بنهاية عصر صلاح الدين ووفاته ، ثم بدأ الجزء الثانى بالتاريخ للأحداث التى تلت وفاة صلاح الدين ، أما كاتب نسخة كمبردج فقد اتخذ لنفسه أساساً آخر لتجزىء الكتاب ، فقد وقف عند كلامه عن مسير الملك العادل إلى الديار المصرية سنة ٥٩٦ ، وبدأ الأحداث الجديدة التالية بالبسملة مكتوبة فى وسط السطر بحروف كبيرة فى صفحة جديدة ويليها « رب يسر وأعن » ، مما يفيد أنه كان يريد تقسيم الكتاب إلى أجزاء ، فجعل الجزء الثانى يبدأ بمسير الملك العادل إلى مصر وتملكه لها ، فهو بهذا أراد أن يجعل الجزء الأول شاملا لعصر صلاح الدين وأولاده ، والجزء الثانى شاملا لعصر العادل وسلالته .

أما نحن فقد اتخذنا أساساً مخالفاً لتقسيم الكتاب ، وذلك لضخامته ووفرة عدد صفحاته التى تنيف فى الأصل على الألف ، فجعلنا الجزء الأول ينتهى بوفاة نور الدين واستقلال صلاح الدين الفعلى بحكم مصر ، وأفردنا لعصر صلاح الدين من مبدئه إلى نهايته الجزء الثانى ، أما هذا الجزء الثالث فيغطى عصر أولاد صلاح الدين وأخيه العادل وينتهى بوفاة العادل سنة ٦١٥ هـ .

ويبقى بعد ذلك ثلاثة أجزاء ، أحدها (وهو الرابع) سيغطى عصر الملك الكامل محمد (٦١٥ — ٦٣٥ هـ) والآخران (الخامس والسادس) يشملان

عصر الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه تو ران شاه وقيام دولة المماليك ، وسألحق بالجزء الأخير الذيل الذى ذيّل به على الكتاب على بن عبد الرحيم بن أحمد ، تلميذ المؤلف ومواطنه ، وقد وصل فيه إلى سنة ٦٩٥ هـ .

هذا وقد كنت أشرت إلى أننى سألحق بهذا الجزء الثالث مجموعة الفهارس التفصيلية للأجزاء الثلاثة معا ، غير أننى لاحظت بعد البدء فى طبع هذا الجزء أنه سيتضخم إذا أنا نفذت هذه الفكرة ، فنصحنى بعض الأصدقاء أن ألحق بهذا الجزء الفهارس الخاصة به وحسب ، فعملت بنصيحتهم على أن ألحق بكل جزء من الجزئين الأولين الفهارس الخاصة به عند إعادة طبعه وخاصة أن نسخ الجزء الأول قد نفدت كلها ، وأوشكت نسخ الجزء الثانى أن تنفد كذلك ، وأرجو أن أوفق قريباً إلى إعادة طبعهما مع إلحاق كل جزء بالفهارس الخاصة به ، وكذلك سيكون منهجى إن شاء الله فى الأجزاء الثلاثة الباقية .

— ٧ —

و بعد فهذا هو الجزء الثالث من مفرج الكروب ، وهذا هو منهجنا فى نشرنا ، نرجو أن نكون قد وفقنا فى أداء الأمانة العلمية حق أدائها ، والله وحده يعلم كم بذلنا من جهد وكم صرفنا من وقت فى ضبط نصه و إخراجه ، وقد كان للترحاب الذى قو بل به الجزءان السابقان ولكلمات التشجيع التى أضفاها علينا أساتذة أجلاء وأصدقاء أعزاء الفضل الأكبر فى شحذ الهمة لإتمام إخراج الكتاب رغم ما يكتنفنا و يحيط بنا من مشاغل العمل والحياة .

فإلى هؤلاء الأساتذة الأصدقاء أزجى أجمل آيات شكرى وفى مقدمتهم أستاذى الجليلين الأستاذ محمد شفيق غربال والدكتور محمد مصطفى زيادة وصديق

الصبا والشباب والعمل الدكتور حسين مؤنس ، وكذلك أقدم شكرى القلبى الصادق إلى الأصدقاء الأجلاء والأساتذة الأعلام : عالمى حلب وحماة الأستاذين طاهر النعسانى وقدرى كيلانى ، وعالمى بغداد الدكتورين عبد العزيز الدورى ومصطفى جواد ، والمؤرخ المحقق الدكتور قسطنطين زريق ، والصديقين البحاثتين الدكتور صلاح الدين المنجد والدكتور بشر فارس .

أما المستشرقون الكبار المعنيون بالتاريخ الإسلامى فإن لهم فى عنقى دين كبير لا أستطيع أن أفيه حقه ، فإليهم جميعاً شكرى الجزيل ، وأخص بالذكر الأستاذ جب بجامعة هارفارد ، والأستاذ برنارد لويس بجامعة لندن ، والأستاذ كلود كاهن بجامعة استراسبورج ، والأستاذ هنرى ماسين بالكوليج دى فرانس .

وكذلك شكرى الكبير إلى الصديقين الأستاذين جورج قنواتى ورشدى الحكيم على النقد[1] القيم الذى تفضل كل منهما بكتابته عن الجزء الثانى من مفرج الكروب ، وإنى أرجو أن أكون قد أفدت من توجيهاتهما العلمية الممتازة .

وأقدم شكرى الجزيل كذلك لصديقى الكريم الأستاذ عبد المنعم عامر ، فقد تفضل بتصحيح تجارب القسم الأعظم من هذا الجزء ، وإلى تلميذى القديم الأستاذ درويش النخيلى المدرس بمدرسة المعلمين بدمنهور على الجهود الضخمة التى بذلها فى عمل فهارس هذا الكتاب ، جزاهما الله عنى وعن العلم كل خير .

وأرجو أخيراً أن استميح القارئ عذراً لما يتخلل هذا الجزء من أخطاء

---

(١) نشر النقد الأول باللغة الفرنسية فى مجلة معهد الدومنيكان بالقاهرة : ونشر النقد الثانى فى مجلة المشرق التى تصدر فى بيروت ، عدد كانون الثانى — شباط ١٩٥٩

مطبعية ، فقد كنت أقوم على تصحيحه وأنا أعد العدة للسفر إلى المغرب لأتسلم عملى هناك مستشاراً ثقافياً للجمهورية العربية المتحدة ، فكان للعجلة أثرها فى كثرة الأخطاء المطبعية ، والعجلة من الشيطان ، حمانا الله وأعاذنا من الشيطان ومن العجلة .

والله أسأله أن يوفقنى دائماً للعمل الصالح وأن يهبنى القوة لإتمام هذا الكتاب ، ولخدمة أمتنا العربية وتاريخها المجيد ؟

جمال الدين الشيال

الاسكندرية فى { ٦ رمضان ١٣٧٩
٣ مارس ١٩٦٠ }

مراجـــع التحقيق

تضاف هذه المراجع إلى قائمتى المراجع التى استعملت فى تحقيق (الجزء الأول والجزء الثانى)

(ا) المراجع العربية

ابن الأثير (ضياء الدين نصر الله بن محمد) :

= رسائل ابن الأثير ، نشر أنيس المقدسى ، بيروت ، ١٩٥٩ م .

البغدادى (عبد اللطيف) :

= الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ، ١٢٨٦ هـ .

ابن خير الله الخطيب العمرى (ياسين) :

= منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء ، نشر سعيد الديوه چى ، الموصل ، ١٩٥٥ م .

الديوه چى (سعيد) :

= الموصل فى العهد الأتابكى ، بغداد ، ١٩٥٨ م .

= الجامع المجاهدى فى مختلف العصور ، مجلة سومر ، ١١ .

رمزى (محمد) :

= القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .

زيدان (جرجى) :

= تاريخ التمدن الإسلامى ، ٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٣٥ م .

ابن شداد (عزيز الدين أبو عبد الله محمد الحلبي) :
= الأعلاق الخطيرة — تاريخ مدينة دمشق — نشر الدكتور سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ .

عبد اللطيف (محمد فهمى) :
= الفتوة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٤٨ م

ابن عمار البغدادى :
= الفتوة ، نشر الدكتور فؤاد حسنين ، القاهرة ، ١٩٥٩ م

عواد (ميخائيل) :
= المآصر فى بلاد الروم والإسلام ، بغداد ، ١٩٤٨ م

كرد على (محمد) :
= غوطة دمشق ، دمشق ، ١٣٦٨ ه . — ١٩٤٩ م

مبارك (على) :
= الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ، ١٣٠٦ ه

(ب) المراجع غير العربية

— Histoire des Patriaches d' Alexandrie. trad : Blochet, Revue de L' Orient Latin, 1907 .

Le Strange, Y. :
= Palestine Under the Moslems, London, 1890 .

Molla Celebi 119

M. b. Sālim Mufa-
rič al-qurūb fī ax-
bār mulūk Banī
Ayyūb II 589-635 h.
21,3 × 14 cm

19147

ابن واصل

كتاب مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب

الجزء الثالث

عصر أولاد صلاح الدين وأخيه الملك العادل

٥٩٠ – ٦١٥ هـ

(١ ب) بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما استقرت الحال عليه من الممالك[1]

بعد وفاة السلطان ـ رحمه الله ـ

لما توفى السلطان الملك الناصر — رحمه الله — :

استقرَّ فى الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولدُه الملكُ الأفضل نورُ الدين على .

وبالديار المصرية وما ينسب إليها الملكُ العزيز عماد الدينُ عثمان .

وبحلب وبلادها الملكُ الظاهرُ غياثُ الدين غازى .

وباليمن عمُّهم الملكُ العزيزُ سيفُ الإسلام ظهيرُ الدين طُغْتِكين[2] بن أيوب .

---

(١) كنا قد اتخذنا نسخة كمبردج التى رمزنا لها بحرف (ك) أصلا لنشر الجزئين الأول والثانى من هذا الكتاب ، وكنا نريد أن نتخذها أصلا كذلك لنشر هذا المجلد الثالث ثم نقابلها على نسخة ملاجلى التى تبدأ بالتأريخ للحوادث بعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ، أى لسنة ٥٩٠ وهى السنة التى يبدأ بها هذا المجلد الثالث ، ولكننا بعد مقابلة نحو العشرين صفحة الأولى وجدنا أن نسخة ملا چلبى تفضل نسخة كمبردچ بكثير ، فهى أكثر تفصيلا واستيفاء ، وهى أقدم عهدا ولهذا نحينا المحاولة الأولى جانباً ، واتخذنا نسخة ملا چلبى أصلا لنشر هذا المجلد الثالث مع مقارنة النص بنسختى كمبردچ وباريس وبالمراجع التاريخية الأخرى ، والنص فى نسخة كمبردچ متصل يكمل ما وقفنا عنده فى المجلد الثانى ، أما فى نسخة ملا چلبى فيبدأ بالبسملة ، ومعنى هذا أن ناسخ هذه المخطوطة قد جزّأ الكتاب أجزاء ، فجعل القسم الذى نشرناه فى المجلدين الأول والثانى والذى ينتهى بوفاة صلاح الدين جزءا أولا ، وجعل ما بعد ذلك جزءا ثانياً . انظر عن النسخ المختلفة ووصفها وقيمتها مقدمة المجلد الأول من نشرتنا هذه ، ثم انظر أيضاً مقدمة هذا المجلد الثالث .

(٢) هكذا ضبط الاسم (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٠٨) بعد أن ترجم لصاحبه ، ولكنه لم يشرح معناه ، وإنما قال : « وهو اسم تركى » .

وبالكَرَك والشَّوْبَك والبلاد الشرقية الملكُ العادلُ سيفُ الدين أبو بكر بن أيوب .

وبحماة وسَلَمية والمعرَّة ومَنْبِج وقلعة نجم الملكُ المنصوُر ناصرُ الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين .

وبحمص والرَّحْبة وتَدْمُر الملكُ المجاهدُ أسدُ الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه .

وببعلبك وأعمالها الملكُ الأمجدُ مجد الدين بهرامشاه بن فَرُّخْشاه ابن شاهنشاه[1] بن أيوب .

وبيد الملك الظافر خِضْر بن السلطان صلاح الدين بُصْرى ، وهو فى خدمة أخيه الملك الأفضل .

وبيد جماعة من أمراء الدولة بلاد وحصون ، منهم :

سابق الدين عثمان بن الداية ، بيده شَيْزَر وأبو قبيس[2] .

وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صَهْيون وحصن بَرْزِيَة[3] .

وبدر الدين دُلْدُرم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر .

وعز الدين أسامة بيده كوكب وعَجْلون .

وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدَّم بيده بَعْرِين وكفر طاب وحصن أفَامِية .

والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان ، والمعهود إليه بالسلطنة ،

---

(١) الأصل : « شاهان شاه » ، والتصحيح عن نسخة (ك)

(٢) أبو قبيس أوبوقبيس حصن فى مقابلة شيزر . راجع : (ياقوت : معجم البلدان) و . (Le Strange : *Palest. Under Moslems. P. 325*)

(٣) هكذا ضبطت عند (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر انها حصن قرب اللاذقية على سن جبل شاهق .

وعنده بدمشق جماعة كثيرة من أمراء الدولة ، وعند الملك العزيز بمصر[1] جمهورُ العساكر من الصلاحية ، والأسدية ، والأكراد ، وهو أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مَغَلّاتها .

ذكر المراسلة إلى الديوان العزيز

(١٢) ولما توفى السلطان — رحمه الله — ، كتب الملكُ الأفضل إلى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين **بالإنشاء العمادى**[2] منه :

« أصدر العبدُ هذه الخدمةَ وصَدْرُه مشروحٌ بالولاء ، وقلبُه معمورٌ بالصفاء ، ويدُه مرفوعةٌ إلى السماء ، للابتهال بالدعاء ، ولسانُه ناطقٌ بشكر النعماء ، وجَنانُه ثابتٌ بين المهابة والمحبة على الخوف والرجاء ، وطَرْفُه مُغْضٍ من الحيــاء ، وهو للأرض مُقبِّل ، وللغرض مُتَقبِّل ، وهو يمتُّ[3] بما قدَّمه وأسلفه سَلَفُهُ[4] من الخدمات ، وذخره ذُخْر الأقوات لهذه الأوقات ، وقد أحاطت العلومُ الشريفةُ بأن الوالد السعيد ، الشهيد[5] الشديد السّديد ، المبيد للشرك[6] المبيد ، لم يزل أيامَ حياتِه ، وإلى ساعة وفاته ، مستقيما على جَدَد الجد ، مستنيما[7] فى صَوْن فريضةِ الجهاد إلى بذل الجُهْد ؛ ومصر — بل الأمصار — باجتهاده فى الجهاد شاهدة ، والأنجاد والأغوار فى نظر عزمه واحدة ، والبيتُ المقدَّسُ من فتوحاته ،

---

(١) هذا اللفظ ساقط فى (ك).

(٢) أورد هذه الرسالة أبو شامة فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥) نقلا عن العماد .

(٣) كذا فى الأصل وفى الروضتين ، وفى (ك) : « يمد » .

(٤) هذا اللفظ غير موجود فى نص الرسالة الذى أورده صاحب الروضتين .

(٥) أضيف هذا اللفظ عن نص الروضتين .

(٦) فى (ك) : « المثبر الشك » .

(٧) النص فى الروضتين : « مستليما » .

والمُلْكُ العقيمُ من نتائج عَزَمَاتِه . وهو الذى مَلَكَ ملوكَ الشِّرْكِ وغَلَّ أعناقها ، وأسر طواغيت الكُفْر وشدَّ خناقها ، وقمع عَبَدَةَ الصلبان وقَصَمَ[1] أصلابها ، وجمع كلمة الإيمان وعَصَمَ جَنابَها ، ونظم أسبابها ، وسدَّ الثغور ، وسدَّدَ الأمور ، وقبض وعَدْلُه مبسوط ، وأمْرُه[2] محوط ، ووِزْرُه محطوط ، وعمله بالصلاح[2] منوط ، وما خرج من الدنيا إلا وهو فى حكم الطاعة الإمامية داخلٌ ، و بمتجرها الرابح إلى دار المقامة راحلٌ ، ولم تكن له وصيّةٌ إلا بالاستمرار على جادّتها ، والاستكثار من مادتها ، و إن مضى الوالدُ على طاعة إمامه ، فالمماليك — أولاده وأخوته[3] — فى مقامه » .

ثم كتب إليه كتاباً[4] آخر **بالإنشاء العمادى** منه :

« أصدر العبدُ هذه الخدمةَ ومطالعُ عبوديته مشرقةُ الأنوار ، ومشارعُ موالاتِه صافيةٌ عن الأكدار ، ويَدُ ابتهاله بالضراعةِ مبسوطة ، وهمةُ اتصاله بالطاعةِ منوطة ، وعينُ استكانته لمهابة تلك الجلالة مُطرقة ، وقدمُ مناصحته من صحته فى نهج النُجْحِ متطرقة ، و بصيرةُ هدايته على الثبات قويّه (٢ ب) وسريرةُ ولايته من وِرْد المبرّات رَوِيّة ، وزنادُ رَوِيّته بسناء المخالصة والمصافاة وَرِيّة .

قد سبقت مطالعته بالحادثة التى فَجَأَتْ وفجعتْ ، والنابيةِ التى راعت وصدَّعتْ ، من انتقال والده مملوكِ الدار العزيزة إلى جوار رحمة الله ورضوانِ

---

(١) النص فى الروضتين : « وقصم » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من نسخة (ك)

(٣) الأصل : « وأخوه » ، والتصحيح عن (ك) .

(٤) انفرد ابن واصل بإيراد هذه الرسالة ، ولا وجود لها فى كتاب الروضتين أو غيره من المراجع المتداولة المعروفة .

رضوانه ، وجنات جنانه وغُرفاتِ[1] غفْرانه . ولقد أسعده اللهُ لما توفَّاه على طاعة أمير المؤمنين ، وقد عُرفت مقاماتُه مدةَ حياته فى إحياء فروض الجهاد وسُنَنِه ، والجرى فى إعلاء منارِ الدولةِ القاهرة على جَدَد الجدّ وسَنَنه ، ولولا اعتصامُ العبد بطاعةِ الدار العزيزة لكادت مَطالعُه تُظلِم ، ومطالبه لا تلتئمْ ، وعقودُ مناجحه لا تنتظِم ، لكن بركة استمساكه بالعبودية شَملتْ ، ومقاصده بسبب الاعتزاز ونسب الاعتزاء إليها كَمُلَتْ ، والكلمةُ على الطاعة اتحدت ، والمظافرةُ من الجماعة تمهَّدت ، وانتظر المملوكُ ما يصله من الأمثلة[2] الشريفة المُشَرَّفة ، والإجابة المُسْعِدَةِ المُسْعِفَة ، فطال انتظارُه ، وأبطأ عليه من ليل أمله من صبح النجاح إسفاره ، فتراحمت به ظنونُه ، وتزاحمت عليه شجونُه ، ولا شك أن مهام الديوان [العزيز][3] كثيرة ، وأن آمالَ رجاء الرجال بظل فضله مستجيرة ، ولكنه رجاءٌ من عوارف الباب الشريف الذى ليس بمُرْتَجٍ لمُرتَجٍ[4] ، وأملٌ من مذاهب مواهبه التى منهج جدّتها وحدّها غير مَنْهجٍ ، أنه إذا ازدحمت الآمال على الديوان ، وتنافست فى تلقى نفائس الإحسان ، قُدِّمَ أمرُ العبد ، وعُجِّل نفعُ أوامه من أوامره بالورد العد » .

وأرسل الملك الأفضلُ القاضىَ ضياءَ الدين أبا الفضائل القَسِم بن يحيى

---

(١) فى (ك ٤٣٣) : « عرفان » .

(٢) المثال (والجمع مثالات وأمثلة) والمقصود به هنا التقليد الذى كان يصدر من الخليفة العباسى إلى أحد ملوك الأيوبيين باقراره على ملكه ، أما المثال فى العصر المملوكى فهو مصطلح معناه الورقة التى كانت تخرج من ديوان الجيش إيذانا باعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية ، فاذا وقّع السلطان على المثال بالموافقة أرسل إلى ديوان النظر لتسجيله وحفظه ، ويكتب بذلك « مربعة » فيها اسم المقطع ورتبته ، ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء حيث يكتب منشور الإقطاع ؛ أنظر : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٣) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك ٤٣٣) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

ابن عبد الله بن الشهرزورى رسولا إلى الديوان العزيز ، و بعث معه عُدَدَ والده وملابسه وخَيْلَه ، وأضاف إلى ذلك من الهـــدايا النفيسة ماعزَّ وجودُه وقُوِّم بآلاف ، وأضاف إلى ذلك أنواعاً من الطيب والألطاف ، ونساء بارعاتٍ فى الحسن من السَّبْى (١) .

وكان القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — لما توفى السلطان بدمشق كما ذكرنا ، فلما توفى السلطان اعتمد عليه الملكُ الأفضل غاية الاعتماد واحترمه غاية الاحترام ، وكان يشاوره فى جليل الأمور ودقيقها . فورد (١٣) كتابُ الملك الظاهر — صاحب حلب — إلى أخيه الملك الأفضل يرغب إليه فى أن يَتحفه بالقاضى بهاء الدين ليكون عنده و يتيمن برأيه ، فأجابه الملك الأفضل إلى ذلك وسيَّره إليه ، فوصل القاضى بهاء الدين إلى حلب ، فأعظمه الملك الظاهر وفوَّض إليه قضاءَ بلاده ، وصار أقرب الناس إليه منزلةً ، ولم تزل منزلته عنده عظيمة وله الإقطاع الجليل والحرمة التى لم يصل إليها أحد من المعممين ، إلى أن توفى الملك الظاهر — رحمه الله — وولى ولدُه الملكُ العزيز ، وقام بأتابكيته الأتابك شهابُ الدين طُغْريل الخادم ، فازدادت منزلةُ القاضى بهاء الدين علواً وعظمة ، وكان الملك العزيز ينزل بنفسه إليه فى كل وقت ، و يأخذ رأيه فى المهمات العظيمة ، ولم تزل له هذه المنزلة العظيمة ، إلى أن توفى فى أيام الملك العزيز — رحمه الله — وقد أناف على التسعين سنة .

---

(١) ذكر صاحب الروضتين (ج ٢ ، ص ٢٢٥) — نقلا عن ابن القادسى — ثبتا بمفردات هذه الهدية ، ننقله هنا لأهميته ، قال : « وفى يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزورى ما كان أصحبه الأفضل من حمل الشام إلى الديوان العزيز ، وهو صليب الصلبوت الذى كان قد أخذه والده ، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا ، مرصعا بالجواهر ، ومعه خادم مختص بخدمته ؛ وحمل فرس أبيه ، وزرديته ، وخوذته — وكانت صفراء مذهبة — ، ودبوس حديد ، وسيف ، وأربع زرديات ؛ وقالوا : « هذه تركته ، وبها كان يقاتل » ؛ وتحفا جمة من الثياب ؛ وحمل فى جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم ، فيهن ابنة بارزان ، وبنت صاحب جبلة » .

وقصدتُ خدمته[١] بحلب سنة سبع وعشرين وستمائة ، وحضرتُ مجلسه واستفدتُ منه ، وأقمتُ بمدرسته[٢] التي أنشأها إلى جانب داره — رحمه الله — نحو سنة وكسر .

ولما وصل القاضى بهاء الدين إلى خدمة الملك الظاهر ، وسيَّره رسولا إلى الإمام الناصر لدين الله ، وأصحبه من الهدايا أضعافَ ما سيَّره أخوه الملكُ الأفضل ، ورتَّبه فى أبهة جميلة ، وعدةٍ من الجند أسْنَى لهم العطايا ، وأعطى القاضى بهاء الدين ألفى دينار وخزانة من خِلَعٍ وثياب ومصوغات ذهب وفضة ، وقال : « أنفق منها واخلع » . ومضى بهاء الدين فى مضاربٍ وخيمٍ وحُجَّاب وحشم ، فأبلغ الرسالة ، وعاد إلى صاحبه مكرَّماً .

وعاد القاضى ضياء الدين إلى الملك الأفضل بعد إبلاغ رسالته مكرَّماً محترماً .

---

(١) هذه إشارة لها أهميتها يذكر فيها المؤلف أنه تتلمذ على بهاء الدين بن شداد ودرس عليه فى مدينة حلب سنة ٦٢٧ هـ .

(٢) المدرسة الصاحبية أو مدرسة القاضى بهاء الدين بن شداد بحلب عرِّف بها (محمد كرد على : خطط الشام ، ٦ ، ص ١٠٥) قال : « أنشأها القاضى بهاء الدين يوسف المعروف بابن شداد ، قال ابن خلكان : إن حلب كانت قبل أن يتصل ابن شداد بخدمة الملك الظاهر قليلة المدارس ، وليس بها من العلماء إلا نفر يسير ، فاعتنى بترتيب أمورها ، وجمع الفقهاء بها ، وعمرت فى أيامه المدارس الكثيرة ، وكان الملك الظاهر قد قرر له إقطاعا جيدا يحصل منه جملة مستكثرة ، فعمر مدرسة بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكى للشافعية ، وذلك فى سنة إحدى وستمائة ، ثم عمَّر فى جوارها داراً للحديث ، وجعل بين المكانين تربة يدفن فيها ، ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصلت بها الاستفادة والاشتغال ، وكثر الجمع بها ؛ وموقع هذه المدرسة فى الزاوية الغربية من الجنينة المعروفة الآن بجنينة الفريق شرقى محلة السفاحية ، ولم يبق منها ولا من دار الحديث سوى حجر مكتوب ، وقد كانتا عامرتين فى القرن العاشر كما فى أعلام النبلاء » انظر أيضاً : (ابن الشحنة : الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، ص ١١١) .

ذكر ما اعتمده الملك الأفضل من الأمور

التى آلت به إلى زوال ملكه

لما أفضى المُلْكُ إلى المَلِكِ الأفضل ، استوزر ضياءَ الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير[١] ، وفوَّض إليه أموره كلها . وهذا ضياء الدين من أهل الجزيرة ، وكان مترسلا فاضلا ، وهو صاحب « المثل السائر » و « والمعانى المبتدعة » وغيرهما من الكتب ، وله أخوان فاضلان هما : عز الدين صاحب التاريخ المشهور ، ومجد الدين أبو السعادات صاحب كتاب « جامع الأصول فى الحديث » ، وكان متقدماً عند ملوك الموصل من بنى أتابك زنكى — رحمه الله — وهؤلاء الإخوة الثلاثة كانوا فضلاء أعياناً [نبلاء][٢] متقدمين فى الدول . .

وكان ضياء الدين المذكور لما اتصل بخدمة الملك الأفضل شاباً غرًّا ، فحسَّن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه ، وأن يستجدَّ له أمراء وأصحاباً غيرهم ، وقال :

« هؤلاء خواصُّ السلطان و ينظرون إليك بتلك العين ، و يعتقدون أن حقَّهم واجب وجوبَ الدَيْن ، وهم — بحكم المعرفة لك من الصغر — يتبسَّطون و يشتطُّون ولا يقنعون ، وأعمالُ دمشق لا تسعهم[٣] ، وجميعها لا تقنعهم ،

---

(١) طبعت أخيرا مجموعة من رسائل ضياء الدين بن الأثير، وهى تضم عددا كبيرا من الوثائق الديوانية الهامة التى تلقى أضواء جديدة على تاريخ البيت الأيوبى وتاريخ مصر والشام وما جاورها فى هذه الحقبة من الزمن . انظر : (رسائل بن الأثير ، نشر وتحقيق أنيس المقدسى ، بيروت ١٩٥٩) ، وانظر ترجمة ضياء الدين عند . (ابن خلكان : الوفيات) و (السيوطي : بغية الوعاة) و (أبو شامة : الروضتين) و (المقريزى : السلوك ج ١) و (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج٦) و (سركيس : معجم المطبوعات العربية) و (مقدمة المقدسى لرسائل ابن الأثير)

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين عن : (ك ٣٥ ء)

(٣) فى (ك) : « لا تشبعهم » .

والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع ؛ وأما الغرباء ، فإنهم يقنعون بأى شئ أعطيتهم ، و يعترفون بحقك و يعظمونك » .

وساعده على هذا القول جماعة من أصحابه ممنْ لا رأى عنده ولا معرفة . فأصغى الملك الأفضل إلى هذا القول ، وأعرض عن أصحاب أبيه ، ففارقه جماعةٌ ، منهم :

الأمير فخر الدين جِهارَكْس (١) .

وفارس الدين ميمون القَصْرى .

وشمس الدين سُنْقُر الكبير .

وتوجَّه هؤلاء إلى الملك العزيز فاحترمهم وأحسن إليهم ، وولَّى فخر الدين جِهارَكْس أستاذية داره ، وفوَّض إلى فارس الدين وشمس الدين سُنْقُر صَيْدا وأعمالها ، وكان ذلك لهما فأقرَّهما عليه ، وزادهما أعمال نابلس و بلادها (٢) .

ولما رأى القاضى الفاضل من الملك الأفضل ووزيره ضياء الدين بن الأثير مالا يعجبه ، عزم على مفارقة الملك الأفضل والتوجه إلى الديار المصرية ، واستأذن الملكَ الأفضلَ فى ذلك فأذن له .

---

(١) هو أبو المنصور جهاركس بن عبد الله الناصرى الصلاحي الملقب بفخر الدين كان من أمراء الدولة الصلاحية ، وقال (ابن خلكان : الوفيات ، ج ١ ، ص ٣٣١) فى ترجمته : «إنه كان كريما نبيل القدر عالى الهمة ، وأنه بنى بالقاهرة القيسارية الكبرى المنسوبة إليه » ثم قال : «ورأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : لم نر فى شىء من البلاد مثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها ، وبنى بأعلاها مسجدا كبيرا وربعا معلقا» ، وتوفى جهاركس فى سنة ٦٠٨ هـ ومعنى جهاركس باللغة العربية : أربعة أنفس .

(٢) لاحظ أن المقريزى عند كلامه عن أولاد صلاح الدين ينقل عن مفرج الكروب دون أن ينص على هذا النقل ، انظر : (المقريزى : السلوك ، نشر الدكتور زيادة ، ج ١ ، ص ١١٤ وما بعدها) .

قال عماد الدين الكاتب :

فقلتُ للملك الأفضل : « لِمَ تركتَ القاضى الفاضل يرحل ، والملكُ بتحوله يتحوّل ؟ » .

فقال : « ما الذى كنتُ أفعله وهو لا يقبل منى ؟ » .

فقلت : « كان ينبغى أن تركب إلى داره وتفعل كلَّ ما يؤثره ، فكنتَ تملك به أمرك ، وتأمن به فى ملكك » .

قال : « نعرف الصواب » ، ولم يرد الجواب .

وكان القاضى بهاء الدين بن شداد قد فارق الملكَ الأفضل قبل ذلك — كما ذكرنا — وصار إلى الملك الظاهر ، وكذلك فارقه جمالُ الدين أبو غالب عبدُ الواحد بن الحصين ، واتصل بخدمة الملك الظاهر وتقدّم عنده .

ولما وصل القاضى الفاضل إلى الديار المصرية ، خرج الملكُ العزيزُ عماد الدين إلى استقباله ، وأعظمه غاية الإعظام ، وأحلّه محل الوالد ، وصار لا يصدر [أمراً إلا] (١) عن رأيه ومشورته .

واستمال الملكُ العزيزُ — رحمه الله — أصحابَ والده وأمراءه ومماليكه وأحسن إليهم وقرّبهم ، فعظم بذلك شأنه ، واجتمعت كلمتهم على نصرته وتقرير قواعد ملكه ، والملكُ الأفضل يفعل ضد ذلك بأصحاب أبيه ، ويقدّم عليهم مَنْ استجدّه ممن لا يُؤبه به ولا ينبغى الاعتماد عليه .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك ٤٣٦) وبها يستقيم المعنى .

قال عماد الدين الكاتب :

« وكنتُ أنا ممن سِيم[١] البُعْد ، وسُئم منه الود ، وتفرَّد الوزيرُ بوزره ، ومدَّ الجَزَرِيُّ فى جَزْره ، ولأجل أهلى وأملاكى بدمشق لزمتنى الإقامة ، وإلى قضاء الله فيها الاستنامة ، وقيل للملك الأفضل : « هذا العماد ، يتعذر عليه الاعتماد ، فإنه لا يصبر على ما تعطيه ، وغيرُ ما كان له من أبيك يأباه ولا يرضيه ، ونحن نكفيك أمر كفايته ، ونبلغ لك أمد بلاغته ، وأىُّ حاجة لك إلى العبارة البارعة ، والفصاحة الصادعة ، والبلاغة البالغة ، والأشغال الفارغة ؟ ! وأمرُ المُلْك يتمشى بالكلام المفهوم ، والخطاب المعلوم ، ومن بقى يرغبُ فى الغريب ، ولا أرب فيه للأريب ، ونحن نقوم لك بما لا غنى عنه من الكتابة ، ولا نخطىء الغرض بالإصابة » .

ومكث الملك الأفضل أشهراً للغنى عنى مُظهراً ، وبظاهر دعاوى أولئك الجماعة مُستظهراً ، وعملوا نُسخ أَيْمانٍ كان فى عقودها حَنْثُها ، وفى عهودها نَكْثُها ، ولم يخفَ عن الملك الأفضل ماهو الأفضل ، وأنه بمن لا حاصل له ولا طائل [٢]على طائل[٢] لا يتحصل ، فاستدعانى وقال :

« مالك انقطعتَ عمن يصلك ، وامتنعتَ عَمَّن بفضلِكَ يعرفك ولا يجهلك ؟ » .

فقلتُ : « شغلنى المصابُ الصلاحىُّ ، عن إصابة صلاحى » .

ولم يزل بخطابه يُبجّلنى ، وبعتابه يخجلنى ، وبترغيبه يقربنى ، وبتقريبه يرغّبنى ، حتى عدتُ إلى قوله ، وعُذْتُ بطَوْله ، وأجرى لى ما جرى به جودُ

(١) فى ك : « اختار » .
(٢) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

جودِهِ ، وأمنت العدم بوجوده ، ولو كُفيتُ شر الشركاء ، لدامت مغارسُ مكارمه مستمرةً على الزكاء ، ولـكنهم أوهموه أنى عزيزٌ عنـد العزيز ، وأن ولاءه من سِرٍّ قلبى فى الحِرْزِ الحريز ، وأنه أبقى علىّ بمصر الإقطاع ، وأن شكرى لإنعامه قد شاع ، وأنك إذا أوليته جميلا ضاع ، و إذا أودعته سراً ذاع ، فلبّسنى بتجميل دولته على وَهْمه وَهمِّه ، وأنس بى لتـكميل رُتبته والغنى بعد عُدْمِه ، وكنتُ أرى فيه — مع قيامه بإكرامى واحترامى — وَقفة ، ورأيت عُصبةَ العصبية إليه متافتة وعليه مُلتِفّة ، وغاب الجزرىّ على أمره ونهيه ، وآل الوثوق به فى أحكام ملـكه إلى وَهْنه وَوَهْيه » .(١)

ذكر ابتداء الوحشة بين الأخوين

الملك الأفضل والملك العزيز ـ رحمهما الله ـ

لما أبعد الأفضلُ أكابرَ أمراء أبيه وأصحابه ، وأعرض عنهم حتى فارقوه وصاروا إلى أخيه الملك العزيز ، وقعوا فى الملك الأفضل عند الملك العزيز ، وحسّنوا له الاستبداد بالملك والقيام بالسلطنة مقام أبيه .

وكان القدس من البلاد المضافة إلى الملك الأفضل ، فأشار ضياء الدين

(١) للعماد الـكاتب ثلاث رسائل صغيرة أرخ فيها للحوادث التى تمت بعد وفاة السلطان صلاح الدين ، وهذه الرسائل هى : « العتبى والعقبى » و « نحلة الرحلة » و « خطفة البارق وعطفة الشارق » ، وكلها ـ رغم أهميتها القصوى مفقودة وإن كان أبو شامة قد لخصها تلخيصا موجزا جدا فى الصفحات الأخيرة من الجزء الثانى من كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين » ، غير أن ابن واصل ينقل هنا أجزاء كثيرة وهامة جدا من هذه الرسائل ، ومما نزيد فى أهمية هذه الأجزاء أنها لا توجد فى الروضتين أو فى أى مرجع آخر من المراجع التى أرخت للأيوبيين ، ولهذه الفقرة أهمية خاصة لأن العماد يتحدث فيها عن نفسه ، وعن علاقته بالعزيز والأفضل ابنى صلاح الدين .

وزيرهُ عليه بأن يخلّي القدس و يسلمه إلى أخيه الملك العزيز ، وقال : « هو يحتاج إلى أموال ورجال ونواب وكُلفـــة عظيمة ، فأعطه لأخيك ، واستجلب بذلك مودته » .

فكاتب الملكُ الأفضلُ أخاه الملك العزيز فى ذلك ، وفوّض إليه القدس وعمله ، فسُرَّ الملكُ العزيز بذلك وقبله ، وشكر الملكَ الأفضلَ ، فلما بلغ النوابَ بالقدس ذلك ، خافوا من محاسبة الملك العزيز لهم ، لأنهم كانوا قد مدوا أيديهم فى الوقوف ، ومن جملتها ثلث نابلس وعملها ، فإن السلطانَ الملك الناصر — رحمه الله — كان قد وقف ذلك على عمارة القدس ومصالحه ، فخان الولاةُ فى ذلك ، فلما سمعوا عَزْمَ الملك الأفضل على تسليم القدس إلى الملك العزيز ، كتبوا إلى الملك الأفضل يبذلون له القيام بالقدس ورجاله من وقفه فقط ، ولا يُحوجونه إلى بذل شىء آخر من ماله ، فأجابهم إلى إبقائه فى أيديهم (١٥ ا) وبدا له [الرجوع][1] عما كان قد كاتب به أخاه ، فتغيّر الملكُ العزيز لذلك وتكدَّر باطنُه .

ولما تقدم عند الملكِ العزيزِ ميمون القصرىُّ وسنقر الكبيرُ أقرَّهما على عملهما بالشام وزادهما نابلس ، وذلك كله من أعمال الملك الأفضل ، فاستوحش لذلك الملك الأفضل وتغيَّر قلبه ، وتأكدت الوحشة بين الأخويْن ، واستمر الحال على ذلك إلى آخر هذه السنة — أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة — .

(١) أضفنا هذا اللفظ ليستقيم به المعنى .

ذكر المتجددات بالشرق فى هذه السنة

بعد موت السلطان — رحمه الله —

لما توفى السلطان — رحمه الله — كان أخوه الملك العادل بالكرك — وقد ذكرنا ذلك — فلما بلغته وفاةُ أخيه ، قدم إلى دمشق وأقام فيها وظيفة العزاء ، ثم توجَّه إلى البلاد الشرقية خوفاً عليها من غائلة العدو ؛ وكنا قد ذكرنا أن السلطان فوَّض إليه ما وراء الفرات من الولايات ، فلما قطع الفرات ، أقام بقلعة جَعْبَر ، وضبط أمور تلك الناحية .

وكان بكتمر — صاحب أخلاط ، وكنا قد ذكرنا تملكه لها بعد سيده شاهَرْمَن — لما بلغته وفاة السلطان ، ضرب البشائر فى بلاده فرحا بموته ، ولقَّب نفسه الملك الناصر ، وراسل عزَّ الدين مسعود[1] بن مودود بن زنكى بن آق سنقر — صاحب الموصل — وعمادَ الدين زنكى بن مودود — صاحب سنجار — ، وصاحب ماردين — وهو حسام الدين يولق[2] أرسلان بن إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق ، وكان صبياً صغيراً ، ملك بعد أبيه قطب الدين

(١) انظر ترجمته بالتفصيل عند : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٦ — ٢١٠) و (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧) و (سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٨) و (ابن شداد : المحسن اليوسفية) و (سعيد الديوهچي : الموصل فى العهد الأتابكى ، بغداد ١٩٥٨ ، ص ٣٢ ، ٣٣) و (ياسين بن خير الله العمرى : منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء ، نشر سعيد الديوهچي ، الموصل ١٩٥٥ ، ص٦٣ ، ٦٤ ، ١٠٩ ، ١٣٧) و (زامباور : معجم الأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية) و (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ — ٢٩٦) .

(٢) ولى حسام الدين يولق حكم ماردين فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ ، وخلفه أخوه ناصر الدين أرتق حوالى سنة ٥٩٧ هـ ، انظر : (زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، الترجمة العربية ، ص ٣٤٥) .

إيلغازى ، وقام بأتابكيته مملوك[١] لأبيه — ؛ وإنما راسل هؤلاء فى معنى الاتفاق معه على نجدته ومساعدته على حرب الملك العادل وأخذ البلاد منه ، فكان أولُ خارج فى إنجاده عسكرَ ماردين ونزلوا الموزَر ؛ ثم تحرك عزُّ الدين — صاحب الموصل — .

فحكى عز الدين بن الأثير ، قال :

لما وصلت الأخبار بوفاة صلاح الدين إلى عز الدين ، جمع أهل الرأى من أصحابه فاستشارهم فيما يفعله ، فأشار عليه أخى مجدُ الدين أبو السعادات — وكان من أكابر أصحابه — بالإسراع فى الحركة (٥ ب) وقصد البلاد التى بيد الملك العادل ، فإنها[٢] لامانع لها منه ؛ فقال مجاهد الدين قايماز :

« ليس هذا برأى ، فإنا نترك وراءنا مثل عماد الدين — صاحب سنجار — ، ومعز الدين سَنْجَر شاه بن سيف الدين غازى — صاحب الجزيرة — ، ومظفر الدين كُوكُبُورى[٣] — صاحب إرْبل — ، وإنما الرأىُ أنّا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ رأيهم وننظر ما يقولون » .

فقال مجد الدين :

« إن كنتم تفعلون ما يشيرون به ويرونه فاقعدوا ، فإنهم لا يرون إلا هذا ، لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوتكم ، وإنما الرأى أن يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم ، ويبذل لهم اليمين على ما بأيديهم ، ويعلمهم

---

(١) هذا المملوك هو نظام الدين البقش ، انظر المرجع السابق .

(٢) الأصل : « وإنه » ، والتصحيح عن نص بن الأثير المنقول فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ — ٢٣٧) .

(٣) له ترجمة طويلة مفصلة عند (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ — ٢٧٧) وعنه ضبطنا الاسم بالشكل ، وقال إن كوكبورى كلمة تركية معناها ذئب أزرق .

أنه على الحركة ، فليس فيهم إلا من يجيب ، ولا يمكنه المخالفة خوفاً أن يقصد ولايته ، لاسيما إذا رأوْا جده وخلوّ البلاد الجزرية من مانع وحامٍ ، فهم لا يشكُّون أنه يملكها سريعاً فيحملهم ذلك على موافقته ، ومتى أراد الإنسان [أن][١] يفعل فعلا لا يتطرق إليه الاحتمالات ، بطلت أفعاله ، وإنما إذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم ، وإن كان بالعكس أحجم » .

وظهرت إمارات الغيظ على مجاهد الدين فسكت ، لسكون مجد[٢] الدين هو الحاكم ورأيه المتبع .

وأقام عز الدين بالموصل يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم أمر غير أخيه عماد الدين — صاحب سنجار — ، فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما .

فرحل عز الدين بعساكره إلى نصيبين ، ووصل إليه أخوه عماد الدين زنكي ، وبعثوا رسلهم إلى الملك العادل يقولون : « تخرج من البلاد وتعيدها إلينا » .

فكتب الملك العادل إلى بني أخيه : الملك العزيز ، والملك الأفضل ، والملك الظاهر، وإلى الملك المنصور — صاحب حماة — ، والملك الأمجد — صاحب بعلبك — ، وابن عمه الملك المجاهد — صاحب حمص — يستنجد بهم ، فبادروا إلى إنجاده بالعساكر ؛ ووصل إليه الملك المنصور — صاحب حماة — ، وتوجَّه إليه عسكر حمص ودمشق وبعلبك مع الملك الظافر خضر ، ورحل الملك العادل إلى حرّان ، فنزل ظاهرها .

---

(١) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة المرجع السابق .

(٢) الأصل : « مجاهد الدين » وهو خطأ ، والتصحيح يقتضيه السياق ، والنص عند ابن الأثير : « فسكت أخي ، لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة ، والحاكم فيهم ، واتبع المرحوم — يعني صاحب الموصل — قول مجاهد الدين ، وأقام بالموصل .. الخ » انظر المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

ولما نزل عزالدين مسعود بن مودود بنصيبين ابتدأ به مرضُ الإسهال،(١٦)
ثم سار عز الدين مسعود وأخوه عماد الدين زنكي فى عساكرهما إلى تل مَوْزن[(١)]
من شَبَخْتان قاصدين الرُّها . فأرسل الملكُ العادل إلى عز الدين يطلب الصلح ،
ويسأل أن تكون حرّان والرُّها والرَّقَة وما معها بيده على سبيل الإقطاع
من عز الدين ، فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

واشتدَّ المرض بعز الدين — صاحب الموصل — وهو نازل تل مَوْزَن ، وعجز
عن الحركة ، فحُمل فى محَفَّة ، وعاد إلى الموصل فى طائفة يسيرة من العسكر ومعه
نائبه مجاهدُ الدين ، وترك سائر العسكر مع أخيه عماد الدين زنكى لتقرير قواعد
الصلح مع الملك العادل .

ثم رحل عماد الدين زنكى إلى سنجار ،ورجع عسكر الموصل إلى الموصل.

وراسل صاحبُ ماردين الملكَ العادل فى الصلح ، وتضرَّع إليه فى أن يرضى
عنه ، ووقع هذا كله والملك الظافر خضر لم يقطع الفراتَ بعدُ ، فكاتبه عمُّه الملك
العادل يأمره بمنازلة سَرُوج وكانت بيد عماد الدين زنكى ، وأمدَّه الملكُ العادل
بالملك المنصور — صاحب حماة — ، والأمير عز الدين ابراهيم بن المقدَّم ، فنازلوا
سَرُوج فى ثامن رجب من هذه السنة — أعنى سنة تسع وثمانين وخمسمائة — ،
وفتحوها من الغد .

وأما بكتمر[(٢)] — صاحب أخلاط — فإنه وثب عليه جماعةٌ من الباطنية
فقتلوه رابع عشر جمادى الأولى من السنة .

---

(١) الأصل : « تل مورن » ، وك : « تل موزر » وقد ضبط الاسم بعد مراجعه : (ياقوت : معجم البلدان) حيث ذكر أنه بلد قديم بين رأس عين وسروج .

(٢) هو سيف الدين بكتمر مملوك ظهير الدين إبراهيم ، ولى الحكم فى خلاط فى ربيع الثانى سنة ٥٨١ هـ إلى أن قتل فى رابع عشر جمادى الأولى سنة ٥٨٩ هـ ، فخلفه بدر الدين آقسنقر بن سكمان . انظر : (زامباور : المرجع السابق ، ص ٣٤٨) .

ثم رحل الملك العادل فى منتصف رجب إلى الرقَّة فملكها فى العشرين منه ، ثم رحل إلى الخابور فملكه ، ثم توجه إلى نصيبين فنزل ظاهرها ، وأتته رسلُ عماد الدين — صاحب سنجار — يطلب منه الصلح .

ذكر وفاة

عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل

ولما رجع عزُّ الدين[1] إلى الموصل ، تزايد به المرض إلى أن توفى فى السابع والعشرين من شعبان من هذه السنة ، فكانت مدةُ ما بين وفاته ووفاة السلطان الملك الناصر نصف سنة ، وكانت مدةُ ملكه للموصل ثلاث عشرة سنة وستة أشهر .

ذكر صفته وسيرته ـ رحمه الله ـ

(٦ ب) كان أسمر مليح الوجه ، حسن اللحية ، خفيف العارضيْن؛ **حكى ابن الأثير** عن أبيه : أن عزَّ الدين كان أشبه الناس بجده الشهيد عماد الدين زنكى ابن آق سنقر .

قال : « وكان ليِّنَ الجانب ، كريمَ الأخلاق ، كثير العطاء ، غزيرَ البذْل ، شديد الحياء ، لم يحدّث أحداً قط إلا وهو مطرق . وكان رقيقَ القلب ، كثير الرحمة لرعيته » .

قال : « وحكى لى أخى مجدُ الدين أبو السعادات قال : قال لى يوما :

(١) انظر خبر مرضه ووفاته وترجمته فى : (ابن الأثير : **الكامل** ، ج ١٢ ، ص ٤٠) وانظر أيضاً . (ابن خلكان . **الوفيات** ، ج ٤ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩٦) .

ما نمت البارحة إلى سَحَر ، فقلنا له : ما سببُ ذلك ؟ قال : كنت سمعتُ أن ابن فلان مريض — وذكر إنسانا بيّاعا[1] بالموصل — فسمعت البارحة صوت مأتم ، فظننت أنه توفى ، فضاق صدرى ؛ و بلغنى أنه ليس لأبويه غيره ، فشقّ ذلك علىّ ، وقمتُ من الفراش إلى أطراف السطح لعلّى أعلمُ مَنْ هو الميت ، فطال الأمر علىّ إلى الثلث الآخر من الليل ، ثم قلت : لِمَ أُعذِّبُ نفسى ؟ فأرسلت خادماً ففتح أبواب الدار ، وأرسلَ من الأجناد مَنْ يستعلم مَنْ هو الميت ، فعاد وذكر شخصاً لم أعرفه ، وحينئذ نمتُ .

وهذا من أتم ما يكون من الشفقة ، إذ حصل له هذا القلق العظيم على رجل من رعيته ليس له معه تقدم صحبة ولا خدمة » .

قال : « وكان ديّنا خيّرا ، ابتنى بجواره مسجداً ، فكان يخرج إليه و يصلى فيه » .

وكان عادلا ، **فمما روى ابن الأثير** من عدله :

« أنه كان بالموصل إنسان من أعيان الدولة ، وكان يتولى ديوان الخاتون بنت حسام الدين تمرتاش[2] ابن إيلغازى بن أرتق — وهى أم عز الدين — ولذلك الإنسان بها جاهٌ عظيم ، وكانت له قرية تجاور قرية لرجل عجمى مقيم بالموصل ، فتعدّى فى حدود قرية العجمى ، وأخذ شيئاً من أرضه ، وطال النزاع بينه و بين العجمى ، فلم ينتصف منه ، فاتفق أنه ورد إلى الموصل واعظ ، فأحضره عز الدين مسعود — رحمه الله — ، وأمره أن يجلس للوعظ فى دار المملكة ، وحضر عز الدين ، وتقدم بأن لا يحجب

(١) الأصل : « بيعا » وما هنا قراءة ترجيحية .

(٢) حسام الدين تمرتاش بن إيلغازى الأرتقى ، ولى الحكم فى ماردين سنة ٥١٦ هـ إلى سنة ٥٤٧ هـ حيث خلفه والده نجم الدين ألبى ، أما الخاتون ابنته ووالدة عز الدين مسعود فاسمها فلانة خاتون . انظر : (زامباور : المرجع السابق ، ص ٣٤٥ — ٣٤٧) .

أحدٌ ، فاجتمع عالَمٌ كثير ، فتكلم ذلك الواعظ ، فقام ذلك العجمى وصاح واستغاث و بيده قصة يشكو فيها حاله ، فأُخذت منه وأُمر بالجلوس إلى أن يفرُغ المجلس . فلما فرغ المجلس ، وقف عزُّ الدين على قصته ، وأحضر القاضى (١٧) وتقدم عليه بأن يحكم بين العجمى وخصمه ، فحكم ، فظهر الحق بيد العجمى ، وأسجل القاضى على نفسه فى المجلس وأشهد عليه ، وسلَّم إلى العجمى حقه ، وأسخط عزُّ الدين والدته فى اتباع الحق .

وأوقف عز الدين أوقافاً حسنة منها المدرسة[1] المعروفة به بالموصل بباب دار الملك للفريقيْن : الحنفية والشافعية ، ورتَّب فيها الفواكه والحلواء والدعوات فى المواسم والأعياد ، وشيرج الوقيد، وغير ذلك .

ذكر استيلاء نور الدين ارسلان شاه
ابن مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر
على الموصل

كان عزُّ الدين — رحمه الله — لما رجع مريضاً ووصل إلى دُنَيْسِر ، أوصى بالملك بعده لولده نور الدين أرسلان شاه ، وجعل القيِّم بأمره مجاهدَ الدين

---

(١) سميت « المدرسة العزية » نسبة إلى عز الدين مسعود ، انظر عنها : (ابن الأثير : الباهر ، ص ١٤٥ ؛ والكامل، ج ١٢ ، ص ٤٣) وقد زار بن خلكان هذه المدرسة ووصفها عند كلامه عن عز الدين مسعود بقوله : « وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة ، وقفها على الفقهاء الشافعية والحنيفية ، فدفن فى هذه المدرسة فى تربة فى داخلها — رحمه الله — ، ورأيت المدرسة والتربة وهى من أحسن المدارس والترب ، ومدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه فى قبالتها ، وبينهما ساحة كبيرة » ، هذا ولم يبق من المدرسة المعزية حتى اليوم سوى غرفة واحدة مربعة الشكل فيها مرقد الإمام عبد الرحمن ، وفوق الغرفة قبة مثمنة الشكل كالقباب التى بنيت فى الموصل فى القرنين السابع والثامن للهجرة ، وقد وصف المدرسة وهذه الحجرة والمحراب وما بهما من نقوش أثرية الأستاذ المحقق مؤرخ الموصل سعيد الديوه چي فى كتابه سالف الذكر : (الموصل فى العهد الأتابكى ، ص ١٤١ — ١٤٢)

قايماز ، فلما وصل إلى الموصل وهو مريض ، أرسل إليه أخوه[1] شرفُ الدين هندو أمير أميران بن مودود يطلب أن يجعل الملك له بعده ، وأرسلت والدتُه الخاتون ابنةُ حسام الدين تَمُرتاش — صاحب ما ردين — فى المعنى ، وبالغت فى الطلب لولدها شرف الدين ، وجمعا جموعا ، وجنّدا أجناداً ، وقال شرف الدين : « إنْ ملّكنى أخى الموصل بعده وإلا ثُرت فى البلد وأخذته قهراً ، فإن عجزتُ سيّرتُ إلى الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب » ، وأرعد وأبرق .

وكان عُمْر نور الدين أرسلان شاه يومئذ عشرين سنة ، وكان الملك العادل يومئذ نازلا[2] بنصيبين ، فلهذا قوى جنانُ شرف الدين ، وظنّ أن أخاه عز الدين يعهد إليه بالملك إذ هو كبيرُ البيت ليردّ الملك العادل . وقال عزُّ الدين لمجاهد الدين :

« حلِّف الناس لولدى نور الدين ، فإنى أخاف أن أموت وليس لكم ملِكٌ ، والملك العادل فى البلاد ، وأخاف أن يَحدُث ضررٌ لا يمكن تلافيه » .

فتوقف مجاهد الدين فى ذلك خوفاً من الفتنة .

قال ابن الأثير :

« ثم أرسل نور الدين أرسلان شاه إلى أخى مجد الدين مع خادم والده — وهو أمين الدين يُمْن — يطلب منه أن يُشير على مجاهد الدين قايماز بتحليف الناس وتَرْك التوانى فيه ، ووعده الزيادة والإقطاع وتمليك القرايا ، وأرسل معه خاتما » .

قال : «فردّ أخى مجدُ الدين الخاتم وقال : خاتم المولى إنما يُعطى على بلاد ،

(١) (ك) : « أخيه » وما هنا هو الصحيح .

(٢) (ك) : « نازل » ، وما هنا هو الصحيح .

وأما هذا الأمر فهو أيسر من أن يُؤخذَ عليه خاتم ، والذى رسم به فأنا مشدود الوسَط فيه ، والمولى لا يشكرنى على هذا ، فإنى أفعله خدمةً لوالده الذى أنا فى خدمته ، إذ هو مرادُه ، ولو أراد غيرَه لا تبعتُه ولم يبدُ منى إلا ما يوافق غرضه والمصلحة له ولدولته ، وأنا أشكر الله تعالى حيث كانت إرادةُ والده موافقة لإرادته ، فإذا خدمتُ خدمةً وافقتْ الغرضيْن ، وأما ما وعدتَه من إنعام وزيادة فليس لى رغبة فى شىء منه ، فإن لى من نعمته ما يفضُل عنى » .

ثم ركب مجدُ الدين من وقته ، واجتمع بمجاهد الدين قايماز بالقلعة فرآه مفكراً ، وشكا إليه مجاهدُ الدين وقال :

« هذا شرف الدين يريد المُلْكَ لنفسه ، والمولى عزُّ الدين يريده لولده ، والملكُ العادلُ بنصيبين ، والفتنة قد رفعتْ رأسها » .

وبينما هما فى الحديث ، وإذا رسول قد جاء من عند عز الدين يقول لمجاهد الدين :

« قد ضجرتُ مما أقولُ لك فى تحليف الناس لولدى ، وأنت تهمل الأمر ، والعدو بالقرب منكم ، وأنتم بغير سلطان ، وأنا[1] فما أظن أنى أعيش يوما آخر ، فما تنتظر ؟ » .

فضجر مجاهد الدين ، وأعاد ما كان يقول لمجد الدين ، فقال له مجد الدين :

« أنت تفعل هذا بنفسك والدولة معك ، ولو شئت لم يكن منه شىء ؛ والرأى أن تأمر بإحضار الأمراء وأرباب المناصب والمقدمين وأعيان البلد وتحلفهم لولده كما يريد ، ومهما بقينا على هذه الحال وليس لنا سلطان لا نزال فى صداع مع شرف الدين » .

---

(١) (ك) . « وأنى » .

فاستدعى مجاهدُ الدين الجماعةَ ، وكتب نسخَ اليمين ، وحلّف الجماعةَ بمقتضاها ؛ ولمـا سمع الذين اجتمعوا مع شرف الدين ذلك تفرقوا عنه ، فحينئذ بعث شرفُ الدين إلى مجاهد الدين يعاتبه لـكونه حلَّفَ الناس قِبَلَه ، وقال : « أنا أردت أن أخدم المولى نور الدين وأتولى القيام بأمره » .

ثم توفى عز الدين — رحمه الله — وأركب مجاهدُ الدين نورَ الدين فى موكب
(١٨) السلطنة ، وحُملت السناجق[1] على رأسه ، ومشى مجاهدُ الدين فى ركابه راجلا وهو يحمل الغاشية[2] ؛ واستقر الملكُ بالموصل و بلادها » .



(١) السنجق (ج : سناجق) لفظ تركى كان يطلق أصلا على الرمح ، ثم أطلق على الراية التى تربط به ، وكانت السناجق تحمل بين يدى السلطان فى مواكبه .

(٢) الغاشية هى السرج أو الغطاء المزركش الذى يوضع على ظهر الفرس فوق البرذعة ، وكان أمراء الأتابكة ثم سلاطين الأيوبيين والمماليك بعدهم يخرجون فى المواكب وبين أيديهم الغاشية ، وقد وصفها (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧) بأنها سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب فى المواكب الحفلة ، كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها أحد الركاب دارية ، رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا .. الخ » .

ودخلت سنة تسعين وخمسمائة :

والملكُ العادلُ سيفُ الدين أبو بكر بن أيوب بالبلاد الشرقية ، وقد استقرَّ ملكه بها . ورجعت النّجدُ إلى بلادها ، واستحكمت الوحشةُ بين الأخوين : الملك العزيز والملك الأفضل ، واتفق رأىُ الأمراء بمصر على أن تكون المملكة مجتمعة للملك العزيز عماد الدين عثمان ، وقالوا : « هو أولى أولاد السلطان بذلك ، إذ هو المحيي لِسُنَّةِ والده فى الشجاعة والكرم » ؛ وأشاروا على الملك العزيز بالتوجه إلى الشام لتجتمع له المملكتان ، وتنتظم ممالكُ والده فى سلكه ، فبرز إلى البِرْكة[1] ، وبذل الأموال ، واستخدم الرجالَ ، وبلغ ذلك الملك الأفضل ، فاشتد خوفه .

وكان من جملة الأسباب الباعثة للملك العزيز على الحركة أن ثغر جُبَيْل — وهو من جملة الفتوح الصلاحية — وكان مستحفظه رجلا كرديًا متنمسًا ، فأرغبه الفرنج ، وبذلوا له مالا ، فسلَّم الثغر إليهم ، فظهر الضعفُ عن استخلاصه ، وخرج الملكُ الأفضل وخيَّم على البقاع ليستخلصه ، فتعذَّر ذلك عليه ، فقالت الأمراء للملك العزيز : « توانيتَ ، فطُرقت[2] البلادُ واستولى عليها الفرنج » ، فحينئذ صمم على الحركة ، وخرج بمضاربه وجحافله لقصد الشام .

---

(١) المقصود بها « بركة الجب » أو « بركة الحاج » وقد عرفها (المقريزى : الخطط ، ج ٣ ص ٢٦٥ — ٢٦٧) بقوله : « هذه البركة فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد منها ، عرفت أولا بجب عميرة ، ثم قيل لها أرض الجب ، وعرفت اليوم ببركة الحجاج من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة ، وعند عودهم .. إلخ » .

(٢) (ك) : « إن أنت توانيت تطرقت البلاد » والتعبير هنا أسلم .

ذكر مفارقة

الأمير صارم الدين قايماز النجمى الملك الأفضل

كان الأمير صارم الدين قايماز النجمى من أكبر أمراء الدولة الصلاحية ، وهو مملوكُ نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك ، فاستوحش من الملك الأفضل لإعراضٍ وَجَدَهُ منه ، فمضى مغاضباً إلى إقطاعه بالسواد ، فسيرَّ إليه الملكُ الأفضل رسولاً يستعطفه ويسترضيه ، فأتاه الرسولُ ، وخان فى الرسالة ، وسوَّل له العصيانَ وحَمَلَه عليه ، وأوهمه أنه إنما قال ذلك نُصْحاً له ، وما كان قصدُ الرسول إلا إبعادَه ، فازدادت بذلك وحشةُ صارم الدين ، ثم عاد الرسولُ من عنده (٨ ب) وبلَّغ الملك الأفضل عنه ما أوحشه ، ثم سلّاه عنه بأن قال : « الآن ملكتَ قيادَ مُلْكك ، وخلصتَ من تحكمه ، وغنمت إقطاعَه ، فأنت تعطيه لأَضْعاف رجاله » .

وكان مقصود هذا القائل أن ينفرد بالملك(١) الأفضل من غير مزاحم ، ثم انحاز صارمُ الدين إلى الملك العزيز وصار من جملة أصحابه .

ولما تحقق الملكُ الأفضل أن الملكَ العزيزَ قاصدُه ، مال إلى مرضاته وقال : « إن كان قصدُ أخى من محاربتى أن تكون الخطبة والسكة باسمه فأنا أجيب إلى ذلك وأتبعُ رضاه » ، فأنكر عليه أصحابهُ — وخصوصاً وزيره ضياء الدين ابن الأثير — وقالوا له : « اللهَ ، اللهَ ، لا يقوم هذا بخاطرك ، وابذل ما عندك من الأموال وقوِّ بها عساكرك ، ولا تدخل تحت الضيمْ ، ونحن بين يديك كما تحب ، وأنت الأكبر من أولاد السلطان ، وأولى منه بالخطبة والسكّة » .

---

(١) ك : « أن ينفرد بالملك الملك الأفضل » .

فقـــال :

« أعرف هذا الذى تقولون ، لـكنى لا أوثر الفتنة وأحبُّ سلامة الإسلام بانتظام الصلح بينى وبين أخى » .

قال عماد الدين الكاتب — رحمه الله — :

قلت للملك الأفضل :

« دعنى أكتب إلى أخيك وأستعطفه وأتلطف له ، وأنا أعلم أنه لا يردُّ قلمى بالسيف ، وأنه يروقه براعتى ، ويصغى إلى قولى ، وإذا أهديتُ له نصيحةً صحيحةً قبلها منى » .

فقال له نصحاؤه :

« هذا يوالى أخاك فى هواه لا فى هواك ، فأعرض عن هذا وخذ فى حديث غيره ، فما عندنا سوى الإباء ، ولا اعتدال مع الاعتداء[1] ، وأين النخوةُ والحميّة ، والنفوس الأبيّة ، وما هذه الرقة والرِكّة ، ولنا الشَوْكةُ والسكّة ، ونحن عبيدُك وخدمُك ، ونطرح نفوسنا تحت قدمك ، فإياك أن نُعْرَف إلا بالجد والعزيمة الصادقة » .

فأصغى إلى قولهم » .

ذكر خروج
الملك الأفضل من دمشق لمحاربة أخيه الملك العزيز

ثم خرج الملك الأفضل بعساكره ، ونزل برأس الماء ، ووصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر — صاحب حلب — بالمظاهرة والمؤازرة ، ووعده بالإنجاد

(١) (ك) : « الأعداء » .

على الملك العزيز ، وشرط عليه أن لا يُبرم أمراً ولا يحله إلا بموافقته ، وأن تكون كلمتهما واحدة (١٩) ، فوقع الاتفاق بينه و بين أخيه الملك الظاهر على ذلك ، وحلف كل منهما لصاحبه بالمعاضدة والموافقة .

وكان الملك الأفضل قبل ذلك قد سيَّر إلى أخيه الملك العزيز رسولاً يسأله عن سبب خروجه إلى الشام ، فلم يُصرِّح له الملكُ العزيز بالجواب ومَغْلَطَه .

ثم سيَّر الملك الأفضل رسولاً إلى عمه الملك العادل — وهو بالشرق كما ذكرنا — يستنجده ويخبره بقصد أخيه له ، ويسأله أن يعاونه عليه ، فأبطأ عليه الجواب ، فسيّر الأمير عزَّ الدين بن الزنجبيلي[1] إليه رسولاً على نجيب ليسرع وصوله إليه ، وأرسل رسلاً أيضاً إلى الملك المنصور — صاحب حماة — ، والملك المجاهد — صاحب حمص — ، والملك الأمجد — صاحب بعلبك — ، يستنجد بهم ، فوردت رُسلُهم كلهم إليه بأنهم على عزم نصرته ومساعدته ، وأنهم لا يتأخرون عن الوصول إليه ، وذلك فى أوائل جمادى الآخرة من هذه السنة .

ذكر وصول الملك العزيز إلى الشام
ورجوع الملك الأفضل إلى دمشق
ومنازلة الملك العزيز لها

رحل الملك العزيز من الديار المصرية فى العساكر المتوافرة من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم .

(١) الأصل : « الزنجيلى » ، والزنجبيلى نسبة إلى زنجبيلة قرية من قرى دمشق ، وقد مر فى (الجزء الثاني من هذا الكتاب ، ص ١٠٣ ، هامش ١) ذكر للأمير عز الدين أبي عمرو عثمان بن على الزنجبيلي الذى كان أميراً من أمراء الأيوبيين باليمن ثم غضب عليه سيف الإسلام طغتكين فعاد إلى دمشق وتوفى بها سنة ٥٨٣ هـ ، ولا أحسب أنه هو المقصود هنا ، فهذه أحداث سنة ٥٩٠ هـ .

وبلغ الملك الأفضل قربُ الملك العزيز ونزوله بالقصيْر من الغور ، والملك نازلٌ بالفوّار ، فضاق ذَرعه ، وكرّ راجعاً إلى رأس الماء ، فلم يشعر إلا بمقدِّمة العساكر المصرية قد خالطت ساقته وكادوا يكبسونه ، فولَّى منهزماً بمن معه إلى دمشق ، ودخلها يوم الجمعة لخمس مضيْن من جمادى الآخرة .

وغد ذلك اليوم وصل الملك العزيز إلى الكسوة فى قوة ظاهرة ، ثم رحل من الكسوة يوم الأحد ونازل دمشق ؛ وكان الملك الأفضل قد استحلف أهل البلد وأنفق فيهم ، وخلع على مقدِّمى الحال ، ونصب آلات القتال على الأسوار .

ذكر وصول الملوك إلى دمشق

ثم وصل الملك العادل سيف الدين — رحمه الله — إلى دمشق ، ووصل الملك الظاهر — صاحب حلب — ، والملك المنصور — صاحب حماة ، — والملك المجاهد — صاحب حمص — ، والملك الأمجد — صاحب بعلبك — ، ودخلوا دمشق ونزلوا بها .

(٩ب) ذكر اجتماع الملك العادل بابن أخيه الملك العزيز ووقوع الاتفاق

ولما استقر الملكُ العادل بدمشق ، سيَّر إلى ابن أخيه الملك العزيز يشفع له فى الملك الأفضل ويسأله الاجتماع به ، فواعده الاجتماع بصحراء[1] المزَّة ، فركب الملكُ العادل والملكُ العزيز واجتمعا بها راكبيْن ، وسأل الملكُ العادلُ الملكَ العزيزَ أن يصالح أخاه ويعود ، فقال له الملكُ العزيز :

---

(١) (ك) : « بصحن المزة » .

« أنا داخل فى رضاك ، وأى شىء أمرتنى به امتثلته : وأقبل كلَّ شىء تشير به علىّ ، وألتزمُ كلَّ شرطٍ تشترطه ، وأنت عمُّنا وشفقتكُ تشملنا » .

فقال له الملك العادل :

« نفِّس الآن الخناقَ عن البلد[1] » .

وكان البلد قد ضويق مضايقةً شديدة ، وقُطعت أنهاره وثماره ، وطارت البركةُ من بساتينه ، وكان ذلك فى أيام المشمش وزمان إقبال الثمار بدمشق ، فقبل الملكُ العزيز ما أشار به عمُّه الملك العادل ، وتأخر إلى صوب داريا والأعوج .

ثم بعث الأمير فخر الدين جِهارَكس — أستاذ داره ، وهو أجل الأمراء الصلاحية وأمثلهم — إلى عمِّه الملك العادل ليقرر معه قواعد الصلح على شرايط وقعَ الإتفاق عليها .

ولما تقررت القواعد ، رحل الملك العزيز من منزلته التى كان نازلا بها[2] إلى مرج الصُّفَّر فنزله ، وحصل له مرض وقع الإرجافُ عليه بسببه ، ثم عوفى من ذلك المرض ، وأمر بعمل نسخة لليمين جامعةٍ لمقترحات جميع الملوك ، حاسمة لمواد الخلاف ، من جملة ما تتضمن .

« أن الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه ، والملك المجاهد أسد الدين شيركوه يكونان مؤازريْن للملك الأفضل وتابعيْن له ، وأن الملك

---

(١) ابن واصل ينقل هنا عن رسالة « العتبى والعقبى » للعماد الأصفهانى ، وقد لخصها أبو شامة فى الصفحات الأخيرة من كتاب « الروضتين » ، غير أن بن واصل ينقل هنا عن هذه الرسالة أخبارا كثيرة أسقطها أبو شامة فى تلخيصه .

(٢) (ك) : « من منزله التى كان نازلا به » وما هنا هو الصحيح .

المنصور — صاحب حماة — يكون فى حيز الملك الظاهر — صاحب حلب — ومؤازرا له » .

و بعث كل من الملوك أميراً من عنده ليحضر الحلف .

قال عماد الدين الكاتب :

« وندبنى الملكُ الأفضلُ فيمن ندبه من الأماثل والأعيان لنكون شاهدين عقد[1] الحلف » .

قال : « نخرجنا من دمشق فى جمعٍ جَمّ من الرسل والشهود والأتباع والحفود ، وذلك ليلة السبت ثانى عشر رجب سنة تسعين وخمسمائة . (١١٠) وأدلجنا[2] تلك الليلة ، وصبحنا المخيّم بكرة ، وضيّقنا النو بتيّةَ — مع سعتها — كثرة . ولما أذن لنا الملكُ العزيز ، رفعنى واصطفانى لمشافهته ، وتناول نسخة اليمين وتأملها ، وأنكر منها كلمات ، وابتكر[3] مقترحات ، والتمس تغيير شروط فقال له الرسل — وأكثرهم ترك — :

« نحن لا نقدر على تغيير ما قرّرَ ، وما لنا إلا أن نعود ونذكّرَ لمرسلينا الغرض » .

فقلنا لهم : « كيف نرجع بلا فائدة ، والصواب إثبات المُقترح ، فإذا رجعنا أعلمناهم بالحال .

---

(١) (ك) : « شاهدين على الحلف » .

(٢) يوجد على هامش هذه الصفحة تمليك هذا نصه : « نظر فى هذا التاريخ المبارك العبد الفقير الى (كذا) تعالى ، وأحوجهم إلى عفوه وكرمه محمد بن المرحوم حسن غفر الله له ولوالديه ولمن دعاله بالتوبة والمغفرة وللمسلمين أجمعين (كذا) ، آمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله و (صحبه) وسلم تسليما كثيرا ، فى تاريخ الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمانمائة من الهجرة النبوية » ، انظر مقدمتنا لهذا الجزء .

(٣) (ك) : « وأنكر مقترحات » .

فقالوا للملك العزيز :

« أحضر كاتبك وعيّنْ ما تلتمسه من الشروط » .

فأشار إلىَّ الملكُ العزيز وقال :

« هذا كاتبُ البيت ويمينُ الدولة ، وبقلمه يتسدد[1] هذا الخلل » .

فعلمت أن ذلك يصعب على الملك الأفضل ، ويعتب علىّ بسببه ، ولم يمكن رد كرامة الملك العزيز ، فأثبتُّ جميعَ ما أملاه واشترطه ؛ ولما خرجنا من عنده ، ردّنى إليه وأجلسنى وآنسنى بالحديث ، فرددتُ معى تاج الدين الكندى ، فأجلسته عنده معى لئلا أتفرّد بالخلوة معه ، فتُظَنَّ بى الظنون ، ويُبتذل عند الملك الأفضل قدرى المصون ، ولم يزل الملك العزيز معنا فى المفاوضة حتى قربتْ العشاء ، وأبطأنا عن الرسل ، وقالوا :

« ما هذا بخبر[2] صحيح ، وما هذا إلا خبط ، أحضرنا هؤلاء الشهود معنا على العهد وهم فروع فصاروا أصولا ، واستجدوا علينا الفضول فصولا[3] » .

قال : « فخرجنا إليهم فوجدناهم يرجمون بنا الظنون ، فاجتمعنا معهم على المشاورة »

فقالوا : « لا يمكننا القعود ولا بد من سرعة العود » .

فعدنا إلى دمشق ، فوصلناها بكرةَ الأحد والجماعة منتظرون لنا ، فأنهينا القصة ، وأعلمنا الملك الأفضل بانفرادنا بالملك العزيز ، فأهمَّه ذلك ولم يُعجبْه ، وقال : « ربما ظنَّ الملكُ العادلُ أن لى مقصوداً باطناً ينافى مقصوده ، وإنى إنما أرسلتكم إلى الملك العزيز برسالة باطنة تخالف الظاهر » .

ثم اجتمع بالملك العادل ، ونفى عنه الريبة ، وأطلعه على الصورة . ونفّذَ الملكُ العزيز أمناءه وأمراءه ليتولوا إنشاء العهد » .

(١) (ك) : « ينسد » .

(٢) الأصل : « الخبر » ، والتصحيح عن (ك ، ص ٤٤٠) .

(٣) الأصل : « الفضول فضولا » والتصحيح عن (ك) .

ذكر تزوج

الملك العزيز بابنة عمه الملك العادل

وخطب الملكُ العزيز ابنةَ عمِّه الملك العادل ، وندب القاضى المرتضى محمد بن (١٠ ب) القاضى الجليس عبد العزيز السعدى وكيلا عنه ، وحضر قاضى القضاة محيي الدين[١] بن زكى الدين وجميعُ عُدوله ، وَوَكَّل الملكُ العادل القاضى محيي الدين أبا حامد بن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون فى تزويج ابنته من ابن عمها الملك العزيز ؛ وكتب عماد الدين الكاتب الكتابَ فى ثوب أطلس ، وأنشأ خطبة العقد وهى[٢] :

« الحمدُ لله الذى خلق من الماء بَشَرًا ، فجعله نسباً وصِهْرًا ، وشرع النكاحَ ووضعه صلةً للأرحام وبِرًّا ، وشدَّ به أزرًا ، ورفع به قدرًا ، وأَطلعَ بسناء سنته فى العالم فجراً ، وأجرى به أجرًا .

نحمده على أنعُمه التى تجلَّت لعيون مجتليها بيضاً غرًّا ، وأياديه التى ملأت الأيدى حوافل غُزرًا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً نتخذها يوم القيامة ذخراً ، ونعدها يومَ الفزع الأكبر جُنَّةً وسِتْرًا ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدرًا ، وأسماهم وأسناهم فى الدنيا والآخرة ذِكْرًا ، الذى بعثه إلى الخلق كافةً عُرْباً وعُجْماً ، وبدوًا وحضرًا ، وبيَّن لهم مناهج الهدى

---

(١) هو قاضى القضاة محيي الدين أبو المعالى محمد بن القاضى زكى الدين على بن محمد ، ولد بدمشق سنة ٥٥٠ هـ وكان أثيرا لدى صلاح الدين ، وهو الذى اختاره ليلقى أول خطبة للجمعة فى المسجد الأقصى بعد استعادته سنة ٥٨٣ هـ ، وتوفى بدمشق فى سابع شعبان سنة ٥٩٨ هـ ، انظر ترجمته بالتفصيل فى : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ — ٣٧١) و (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٨١) .

(٢) هذا نموذج طريف لخطبة عقد الزواج فى العصر الأيوبى .

إيجاباً و إباحة وندباً وحظْراً ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تكثروا ، فإنى أباهى بكم الأمم يوم القيامة » ، وكفى بالنكاح فى تحقيق مباهاته فخراً — صلى الله عليه وعلى آله صلاةً تجمع لهم شرف الدنيا والأخرى — .

وكان من قضاء الله وقدره النكاحُ المسطورُ فى هذا الكتاب الذى فاح فى مناشق الأولياء نشراً ، ولاح فى مشارق الآلاء يسْرًا ، وجمع فى سماء المعالى للأيام والليالى شمساً و بدرًا ، وأمر بأحكام عهده للدين أمرًا ، وسَرَّ بإبرام عقده للدولة سرًّا ، قرنه الله بالميامن والبركات التى تتأبد دهرًا ، وتتخلد عصرًا» .

ثم قرئ كتاب الصداق ، وعُقد العقد بحضور الملك الظاهر صاحب حلب .

ذكر انتظام

الصلح بين الملوك والخلف

ثم اجتمع الفقهاء من جانب الملوك آخر النهار ، وعملوا نسخة اليمين ، وطوّلوا المجلسَ بالمناظرة فيها والجدال .

قال عماد الدين :

« ولو أنهم توافقوا لوُفّقوا ، ولم يقعوا من المِراء فيما وقعوا ، وَلأَعطَوْا القوسَ باريها ، وجرَت القضيةُ (١١١) أحسن مجاريها ، وكنتُ حرّرتُ نُسخةَ يمينٍ يُعجز نسخُها ، ويَبْعُدُ بعد لزوم عقدها فَسْخُها ، لكنهم اختلفوا ولم يتفقوا ، وَوَلَّدوا من ذلك الاختلاف وفاقاً ، وهيهات أن يتفق الضدان ، و يجتمع الفرقدان ، فحرَّرُوا يميناً فى ألفاظها حَنْثُها ، وأبرموا نُسخَةً فى معانيها نَقْضُها ، لتعليق عقودها على شروط يمتنع وجودها » .

ذكر خروج
الملوك لوداع الملك العزيز
وسفره إلى الديار المصرية

ولما كان يوم الجمعة مستهل شعبان من هذه السنة ، خرج الملكُ الظاهر غازى — صاحب حلب — لوداع أخيه الملك العزيز .

قال عماد الدين الكاتب :

« وكنت خرجتُ فى خدمة الملك العادل ، فلما ظهر له موكبُ الملك الظاهر ، تأخَّر وعاد ، فصحبتُ الملكَ الظاهرَ ، وسرتُ فى عراضه ، فأشار علىّ بالسبق أحدُ حجابه ، فسقتُ وسبقتُ ، فلقيت الملكَ العزيزَ وقد ركب لتلقى أخيه ، فوقف لى ، وأبدى لى وجهَ البشاشة[1] ، وهممتُ بالنزول فأبى ، وهويتُ أقبِّل يده فجذبها ، وأحلى مساءلته ومسايرته وأعذبها ، وعدتُ معه وأنا صاحبه ومجاوره ومحادثه، إلى أن لقى أخاه الملك الظاهر ورجع به إلى سرادقه ، فنزلا ويده فى يده ، وجلس الملك العزيز والملك الظاهر إلى جانبه ، وثافَنْتُ السيّديْن، ونافَثْتُ القمريْن ، ثم أذن للخواص والأمراء والأعيان فدخلوا ، ومُدَّ الخوانُ فأكلوا ، ثم تفرق الملكان الأخوان بعد أن أهدى كلٌّ منهما للآخر أنواع الهدايا ، ثم خرج الملك العادل لوداع الملك العزيز فى خواصه ، ثم خرج الملك الأفضل فودَّع أخاه — وهو آخر من خرج — ولم يبق من الأكابر والملوك إلا من ودَّعه ، ثم رحل الملك العزيز من مرج الصُّفَّر ثالث شعبان ، وتوجه إلى الديار المصرية بعساكره » .

---

(١) هذه معلومات هامة وطريفة عن علاقة العماد الكاتب بملوك بنى أيوب .

ذكر رجوع
الملوك إلى بلادهم

ولما كان يوم الأربعاء ثالث عشر شعبان ، عمل الملك الأفضل بدمشق دعوة حضر فيها عمّه الملك العادل ، وأخوه الملك الظاهر ، وجميع الملوك والأمراء والأكابر .

وفى يوم الخميس رابع عشر شعبان ، رحل الملك الظاهر إلى حلب (١١ب) وتفرّق الملوك إلى بلادهم ، وأقام الملك العادل بدمشق إلى ليلة الأحد تاسع شهر رمضان ورحل إلى بلاد الشرق .

ذكر المتجدد
من الحوادث فى هذه السنة بعد ذلك

قال عماد الدين الكاتب :

« لما اتَّسعَ الضيقُ ، وابْتُلِعَ الريقُ ، دخلتُ على الملك الأفضل على العادة ، وهو جالس فى وساد السيادة ، وتحدثنا فى الحوادث ، وحمدنا الله تعالى على حل لواء اللأْوَاء[1] ، فقال لى الملك الأفضل : « قد نظمتُ أبياتاً أكتبها إلى أخى الملك العزيز فى استعطافه واستمالته » ، وقال : « كنتُ فارقت أخى منذ تسع سنين وما التقينا إلا فى هذه السنة » . وأنشدنى فى المعنى لنفسه :

نَظَرْتُكَ نَظْرَةً مِنْ بَعدِ تِسْعٍ تَقَضَّتْ بالتفرُّق مِنْ سِنِين

---

(١) الأصل : الاوا ، والتصحيح عن (ك) ، واللأواء : الشدة .

وَغَضَّ الدَّهرُ عَنها طَرْفَ غَدْرٍ نَسَافَةَ قُرْبِ طَرْفٍ[1] مِنْ جَبِين
وَعَادَ إلى سَجِيَّتِهِ فَأَجْرى بِفُرْقَتِنَا العُيونَ مِنَ العُيُون
نَوِيُّ الدَّهْرِ لم يَسْمَحْ بِوَصْلٍ يُعِيدُ به الهُجوعَ إلى الجُفُون
فراقاً ثم يُعقِبُهُ بِبَيْنٍ يُعِيدُ إلى الحشا عَدَمَ السُّكون
ولا يُبْدى جُيوشَ القُرْبِ حتى يُرَتِّب جَيْشَ بُعدٍ فى الكَمِين
ولا يُدْنى مَحَلِّى مِنْكَ إلَّا إذا دَارَتْ رَحَى الحرْبِ الزَّبون
فلَيْتَ الدَّهْرُ يَسْمَحُ لى بأخرى وَلو أَمْضَى بِهَا حُكْمَ المَنُون

فقلت : « لله دَرُّك ، ما أبدع هذا المعنى ، وألطف هذه الطريقة ، وأكرم هذه السجية الكريمة ! ! فكاتِبْ أخاكَ بما فيه استعطاف واستلطاف، فما يجرى منه بعد هذا خلاف » .

قلت[2] : كان الملك الأفضل رحمه الله فاضلاً متأدباً ينظم الشعر الجيد ، وسأذكر بعد ذلك شيئاً من شعره فى موضعه . لكنه كان قليل السعادة ، ضعيف الآراء .

قال عماد الدين :

« ولو تُرِكَ وفطنته الذكيّة ، لجرت الأمورُ على السداد ، لكن أصحابُه وجلساؤُه أفسدوا أحوالَه ، ورموا أكابر أمرائه بالمكاتبة والخيانة ، فتمكنت الوحشة فى قلبه وقلوب (١١٢ ا) أمرائه ، وقالوا له : « أنت ولى عهد السلطان — رحمه الله — والأكبر من أولاده ، وأحقُّ بالملك من أخوتك » ، وقصدوا

---

(١) فى (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩) : « قرب عين » .
(٢) المتحدث هنا هو ابن واصل مؤلف الكتاب .

تشتيت الشمل الناصرى ، وتشعيث البيت السلطانى ، فتفرّق عن الملك الأفضل كبراء دولته ، ففارقه الأمير عزّ الدين أسامة — صاحب عجلون وكوكب — وهو من أجلاء الأمراء الصلاحية ، فإنه لما رأى من الأحوال مالا يعجبه فارق الأفضلَ وتوجه إلى الملك العزيز ، ففرح بوصوله إليه وأكرمه غاية[١] الإكرام ، ولما استقر عز الدين أسامة عند الملك العزيز أخذ فى تحريضه على الملك الأفضل ، وتقوية عزمه على قصده وأخذ دمشق منه ، وقال له : « إن لم تَنصُر الدولةَ الصلاحية خُذلتْ ، وإن لم تَصُنْها ابتُذلتْ ، وأخوك [الملك الأفضل][٢] قد غُلبَ على اختياره وحكم عليه وزيره الضياء الجزرى ، وقد أفسد أحوال الدولة ، فهو يتصرف فيها برأيه الفاسد ، ويَحمل أخاك على مقاطعتك ومباينتك ، فإن أغفيتَ أُغفلْتَ ، وإن أَمْهلتَ أُهملتَ ، وإن لنتَ غلظوا ، وإن نمت تيقّظوا ، ولا تلتزمْ باليمين فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النيَّة ، ولم يوجدْ ذلك ، فحنثهم فى أَيمْانهم قد تحقق ، وبَرِئتَ أنت من العُهدة ، فاقصد البلاد فإنها فى يدك قبل أن يحصل للدولة من الفساد مالا يمكن تلافيه » .

ثم فارق الملكَ الأفضلَ الأميرُ شمس الدين بن السلار — وهو من أكابر الدولة الصلاحية[٣] — وتوجَّه إلى الملك العزيز ، فساعد عز الدين أسامة على التحريض على الملك الأفضل ، وتقوية عزم الملك العزيز على قصده .

ثم وصل إلى الملكِ العزيزِ القاضى محيى الدين بن الشيخ شرف الدين

---

(١) نسخة (س) بها خروم كثيرة كما سبق أن أوضحنا فى الجزئين السابقين ، والصفحات الماضية من هذا المجلد كلها لا مقابل لها فى (س) ، وبهذا اللفظ نتقابل مع نص نسخة (س) فى صفحة ١١٣ ا منها ، وسنعمل على مقابلة الأصل على هذه النسخة كلما وجدنا للأصل مقابلا بها .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) ، ج ١ ، ص ١١٣ ا .

(٣) هذه اللفظة ساقطة من (س) .

ابن أبي عصرون ، فاحترمه الملك العزيز وولاه القضاء بالديار المصرية ، وضم إليه النظر فى أوقافها .

وأقبل الملك الأفضل بدمشق على القصْف والشرب وسماع الأغانى والأوتار ليله ونهاره ، وأشاع ندماؤه أن عمّه الملك العادل — لما كان عنده — حسَّن له ذلك ورَخَّص له فيه ، وأنه حضر عنده ليلةً وهو فى شربه ولهوه ، فجلس وسمع الغناء ، واستحسن المجلس واستطاب ما هو فيه وندماؤه ، وقال للملك الأفضل : « أىّ حاجة بك إلى التستّر ، اعلنْ بما أنت فيه وافعلْه (٢١ ب) ظاهراً ، فَلاَ خَيْرَ فى اللّذاتِ مِنْ دُونِها سِتْرُ » ، فقبل وصية عمه وتظاهر بلذاته ، وصرف إليها سائر أوقاته ، وفوَّض أمر مملكته[1] إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير يدبرها برأيه الفاسد ، وبقى الأمر على ذلك مدة .

ثم إن الملك الأفضل أصبح يوما تائباً من غير سبب يُعلم[2] ، وأزال المنكرات ، وأمر بإراقة الخمور ، وبضرب آنية الشرب دراهم ودنانير فى دار الضرب ، وأقبل على الزهد والعبادة ، ولبس خشن الثياب[3] ، وشرع فى نسخ مصحف بيده ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه لعبادة ربه تعالى ، وواظب على الصيام فى أكثر الأوقات ، وجالس الفقراء .

---

(١) (س) : « المملكة » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (س) .

(٣) (س) : « ولبس ثياب القطن » .

ودخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

ووردت الأخبار فى أولها أن الملك العزيز على عَزْم الخروج إلى الشام بعساكره ، فأشار العقلاء من الناس على الملك الأفضل بمكاتبة أخيه الملك العزيز وملاطفته واسترضائه ومصافاته ، ولو فعل لَصَلحَ حالُه ، واستمر ملكُه ، فإن أخاه الملك العزيز كان يُقنعه أن يقيم الملكُ الأفضلُ الخطبةَ والسكَّةَ بدمشق له ، إذ هو صاحبُ الديار المصرية ، وعنده معظم العساكر الصلاحية ، ولو فعل ذلك الملك الأفضل وانقاد إلى أخيه الملك العزيز لما عارضه الملك العزيز فى دمشق ، ولأبقاها عليه ، ولم يتمكن الملك العادل من الاستيلاء على ممالك أولاد أخيه ، لكن ترك رأى العقلاء ، وقبل ما أشار به عليه وزيرُه ضياء الدين ابن الأثير ، فإنه أشار بأن يعتصم بعمِّه الملك العادل ، ويلتجىء إليه ويستجير به ، ويستنجد به على أخيه ، وكان هذا من فاسد[1] الرأى ، [2]فإنه أدَّى به[2] إلى ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر توجه

الملك الأفضل إلى الشرق مستنجداً بالملك العادل[3]

ولما تواترت الأخبار إلى الملك الأفضل بأن أخاه[4] الملك العزيز على عزم الخروج إلى الشام ، وأن مقصده إقامة الخطبة والسكَّة باسمه ، وأن الجميع (١٣ ا) يكونون[5] تحت حكمه ، اضطرب لذلك وانزعج له .

(١) (س) : « من أفسد الرأى » .

(٢) هذه الجملة غير موجودة فى (س) .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

(٤) (س) : « أخيه » ، وما هنا هو الصحيح .

(٥) (س) : « يكون » .

قال عماد الدين الكاتب :

« خطبَ[1] الأفضلَ الذُعْرُ ، وذَعَّرَه الخَطْبُ ، وقال : « ما أصدق ذلك عن أخى و إذا أتى من مصر أخى ، فَمَنْ مُصْرِخى » ، قال : « فقلنا له : راسلْه وجامله ، واستسعفه واستعطفه ، وتقرب إليه وقاربه ، ولعله يعتبك فعاتبه ، ولا تتعلق بمن عهدُه[2] يَهِى، وتصرُّفُه على مايَشتهى لاما تَشتهى ، فالأخ أولى بالمساعفة والمساعدة ، ومايطابُ إلا إقامة الخطبة له ، فأجبه إلى ذلك ، ولا تضايقه فيه ولا تنافسه » .

قال : « فكاد يصغى إلى هذا النصح ، فلما خلا به وزيره الضياء وأصحابُه ، حرّفوه عن ذلك كله ، وحسّنوا له أنه لا ينبغى له العدول عن عمِّه الملك العادل ، وأنه ينبغى له أن يرحل إليه مستجيرا به وملتجئا إليه ، فقبل رأيهم ، و برز إلى القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم توجه إلى الشرق ، فلقيه الملك العادل بصفِّين — وقد كان نازلا بالرقَّة — فنزلا بالمخيم بصفين ، وقال له الملك الأفضل : « أنت عمى ومقام والدى ، و بقوة مساعدتك يقوى ساعدى ، ومع إقامتك عندى بدمشق لا يُقدم علىّ الملكُ العزيز » ؛ وسأله وتضرع إليه أن يسير إلى دمشق ، وألحّ عليه فى المسألة ، فأجابه الملك العادل إلى ذلك ، فرحل الملك العادل من صفين متوجهاً إلى دمشق مستهل جمادى الآخرة فى عساكره ، ودخلها تاسع جمادى الآخرة واستقر بها[3] » .

---

(١) عند هذا اللفظ تنتهي ص ١١٣ ب من نسخة (س) ، ويضطرب النص هناك بعد ذلك فتنقطع المقابلة بين النصين .

(٢) (ك) : عقده .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

ذكر توجه

الملك الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر

وابن عمه الملك المنصور — صاحب حماة — واتفاقه معهما

ولما رحل الملكُ العادلُ إلى دمشق ، توجَّه الملك الأفضل إلى حلب ، فخرج إليه أخوه الملك الظاهر ملتقياً ، وكان قد وقع بينهما حلف واتفاق ومراسلة تتضمن أنهما يكونان يداً[1] واحدة ، ويجتمعان على حرب الملك العزيز إن قصد دمشق ، وبذل الملكُ الأفضلُ الملك الظاهر جَبَلَةَ واللاذقيّة وأعمالها ، فاستضافهما الملك الظاهر إلى ممالكه ، ولما التقيا ، ذكّره الملك الأفضل العهدَ (١٣ ب) السابقَ وألزمه إنجاز وعده ، فأجابه إلى ذلك بشرائط اتفقا عليها ، وصعد معه إلى قلعة حلب ، فنزل بها ضيفاً له ، ثم رحل الملك الأفضل من عنده متوجهاً إلى حماة ، فلما قاربها ، خرج إلى لقائه ابنُ عمه الملكُ المنصورُ ناصرُ الدين محمد بن الملك المظفر ، وأضافه بحماة ، وتحالفا وتعاهدا .

ذكر وصول

الملك الأفضل إلى دمشق

ولما قضى الملك الأفضل أَرَبه من اتفاق صاحب حلب وصاحب حماة معه ، توجه إلى دمشق فدخلها ثالث عشر جمادى الآخرة وبها عمُّه الملك العادل مظاهراً

---

(١) (ك) : « يد » .

له فى الظاهر ومؤازراً ، واتفق اجتماعهما وهو فى أول إقبال ثمارها ومشمشها ، وهى فى غاية طيبتها و بهجتها ، فأقاما بها كل يوم يركبان و يتسايران ، وأفضى الملك الأفضل إلى الملك العادل بأسراره ، وشاهد الملك العادل اختلال أحواله ، ولم يعجبه سيرةُ وزيره ضياء الدين بن الأثير، وكان الملك العادل يَجْبَه الملك الأفضل بالتحذير منه ، وهو لا ينزل عنه ولا يبرأ منه .

وأبطأ خبرُ الملك العزيز ، وسكن ما فى القلوب من الخوف منه ، و بالغ الملك الأفضل فى إكرام عمه الملك العادل والقيام بوظائفه ، وأشار على الملك الأفضل أصحابُه أن ينزل لعمه الملك العادل عن السنجق ، ويتوثق منه بيمين ، فاجتمعا يوماً فى الجَوْسق وطاب منه اليمين ، وسأله الاختصاص بالركوب[1] بالسنجق ، فأجابه إلى ذلك ، وصار بعد ذلك الملكُ العادل يركب كل يوم بالسناجق السلطانية ، و يركب الملك الأفضل فى خدمته .

ذكر أمور

وقعت أوجبت الاستيحاش عند الملك الظاهر

من عمه الملك العادل وأخيه الملك الأفضل

كان الملك الأفضل قد اتفق معه أخوه الملك الظاهر على مواترة الرسل بينهما ، فاتفق أن الملك الأفضل أرسل رسلا فى مقاصد ، فرجعوا من غير حصول مقصود ، وكان السبب فى ذلك أن الملكَ المنصور — صاحب حماة —

---

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك) ، وقد ذكر (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨ — نقلا عن المختصر فى أخبار البشر لأبي الفدا —) أن أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك فى ركوبه هو سيف الدين غازى بن زنكى ، ثم أصبح هذا من تقاليد سلاطين بنى أيوب والمماليك فى مصر والشام ، أما السنجق — كما عرفه صاحب صبح الأعشى — فكان راية صغيرة صفراء اللون .

والأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدَّم — صاحب بَعْرين[1] وأَفَامية وكَفْر طاب — كان الشرط أنهما يكونان (١٤ ا) مَضْمُومَيْن إلى الملك الظاهر ، فاتفقا أنهما نفرا من ذلك فى هذا الوقت ، وراسلا الملكَ العادلَ معتصمَيْن به ولائذَيْن بجنابه ، فقبلهما وضمهما إليه ، وكان شرط الملك الظاهر ردَّ الخارجين إليه .

وكان أيضاً الأمير بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق — صاحبُ تل باشر — قد حبسه الملكُ الظاهرُ فى السنة الماضية ليُسلِّم إليه تل باشر ، وحبس معه جماعةً من بنى عمه ، وكان الملك العادل — قبل مجىء الملك الأفضل إليه — قد توجَّه إلى حلب وصعد إلى قلعتهـا ، وشفع إلى ابن أخيه الملك الظاهر فى المذكورين ، وضمن للملك الظاهر عنهم ما يطلبه منهم ، فقبل الملك الظاهر شفاعة عمه وأمر بإطلاقهم له ، وقدموا مع الملك العادل إلى دمشق ، فأحسن إليهم واستخدمهم ، فبعث الملكُ الظاهر إلى الملك العادل يطلب منه أن يقوم له بما ضمنه عنهم ، فلم تقع الإجابة إلى ذلك ، فحصل عنده استيحاش من هذه الأمور .

وكان السببُ فى ميل الملك المنصور إلى عمه الملك العادل وخروجه عن الملك الظاهر ، أن الملكَ الظاهرَ كان قد اتفق معه أنه يضيف إليه جَبَلَة واللاذقية ، وبكسرائيل[2] وصَهْيون ، وحلف له الملكُ الظاهر أنه يستخلص له ما ليس فى يده منها ، وإن احتاج إلى محاصرةٍ حاصر ، وكان هذا الاتفاق فى السنة الماضية ، وحلف الملك المنصور أنه يكون تبعاً له ومؤازراً .

ولما كانت هذه السنة ، ووقع من الاضطراب ما ذكرناه ، خاف الملك

---

(١) (ك) : « بارين » واللفظان صحيحان .

(٢) الأصل : « بيسرائيل » ، والصحيح ما أثبتناه ، راجع : (مفرج الكروب ، نشرتنا هذه ، الجزء الثانى ، ص ٢٥٩) حيث قال ابن واصل : « وفى الجبل على سمت طريق حماة حصن حصين يعرف ببكسرائيل »

المنصور من اتفاق الملك العادل والملك الأفضل عليه ، فالتجأ إلى الملك العادل ، وفعل مثل ذلك عزّ الدين بن المقدم ، فأجابهما الملك العادل إلى ما طلبا من الاتفاق معه ، وتحالفوا على ذلك .

ولما جرى ما ذكرناه ، وتحقق الملك الظاهر أن عمّه الملك العادل وأخاه الملك الأفضل لم يفيا له بما عاهداه عليه ، كاتب أخاه الملك العزيزَ واستنهضه لقصد الشام ، ووعده القيام معه ونصرته ، فقوى عزم الملك العزيز وتهيأ له .

ذكر قدوم

الملك العزيز إلى الشام بعساكره

(١٤ ب) ثم خرج الملك العزيزُ إلى الشام بعساكره الكثيرة المتوافرة من الصلاحية والأسدية والأكراد ، فوصل إلى النوّار — من أرض السواد — وخيّم به ، فكاتب الملكُ العادلُ الأمراء الذين مع الملك العزيز ووعدهم الوعود الجميلة وأخذ فى إفسادهم عليه وتنفير قلوبهم منه .

ذكر اضطراب بعض العسكر

على الملك العزيز ومفارقتهم له

وكانت الأمراء الصلاحية والأمراء الأسدية ينافس كل فريق منهم الآخر ويطلب عِثارَه ، وكانت الأمراء الصلاحية متقدمة عند الملك العزيز ، فحسدتها الأمراء الأسدية ، وأخذ الملك العادل بدقيق حيله يعمل فى تأكيد الإيقاع بين الفرقتين ، ويوقع الفُرقه والاستيحاش بينهما ، وكذا فى الإيحاش بين الأسدية والملك العزيز ، فكاتب الملك العزيز سراً يخوفه من الأسدية ويغريه بإبعادهم ، وكاتب الأسديةَ

بالتنفير من الملك العزيز وتخويفهم منه واستمالتهم إليه ، فاستوحش الملك العزيز من الأسدية واستوحشوا منه ، فكانوا إذا لقوه عرفوا فى وجهه التنكر ، وعرف فى وجوههم مثله ، وتمادى الأمر إلى أن تمكن الخوف منه فى قلوبهم والخوف منهم فى قلبه ، ولما تمكن الاستيحاش منهم ، عزموا على مفارقته وحسّنوا ذلك للأكراد المهرانية فوافقوهم[1] عليه .

وكان مقدم الأمراء الأكراد حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، وما كان يظن الملكُ العزيزُ أنه يحنث فى يمينه ، وأنه تصدر منه مخامرةٌ عليه ، فاجتمعت عليه الأمراء الأسدية وخوّفوه من الملك العزيز ، ولم يزالوا به حتى أجابهم إلى مفارقته والانضمام إلى الملك العادل والملك الأفضل ، ولما اتفقوا على ذلك ، عزموا على مضايقة الملك العزيز واتباعه فى المنازل ،وأن يكاتبوا نوّابهم وأصحابهم بالقاهرة ليستقبلوه ويحولوا بينه وبين القاهرة ، ويكونوا هم والملك العادل والملك الأفضل خلفه ، فيؤخذ أخذاً باليد (١١٥) وتنتزع منه البلادُ ؛ فلما كانت عشية اليوم الرابع من شوال من هذه السنة ، رحل الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين والأكراد المهرانية والأسدية رحلةً واحدة بعد دخول الليل وهم لا بسون عُدة الحرب .

وكان الأمير هكندرى[2] — وهو أكبر الأمراء الحميدية — محالفاً لهم ومعاقداً، فجاء إلى الملك العزيز وأخبره بما اجتمع عليه القوم ، فما تخلخل الملكُ العزيز ولا تزعزع من مكانه ، ولا أظهر ارتياعا لما وقع من هذه الحادثة ، بل ثبت مكانه واستقر ، فقالت له الأمراء الصلاحية :

---

(١) (ك) : « فوافقوا منهم عليه » .

(٢) كذا فى الأصل وفى (ك) ، ولم أجد له ذكرا فى المراجع المعروفة المتداولة هنا وفى حواشى هذا الكتاب .

« دعنا نتبعهم ونقاتلهم ونتركهم عبرةً للمعتبر » .

فقال لهم الملك العزيز :

« لا تُرهِبوهم واتركوهم يذهبوا أين شاءوا لعلنا نصفو من كدرهم ، وهذا ليلٌ ، ولا يُؤمَنُ فيه الاختلاط ، ولا يَعرف الإنسانُ فيه صديقَه من عدوه ، والأولى الأخذ بالحزم والاحتياط » .

وكان المفارقون للملك العزيز معظم العسكر .

وثبت الملك العزيز فى معسكره بالفوّار ومعه خواص أصحابه على الخطر ، وبات تلك الليلة ثابت الجأش والجنان ، وما أظهر أسفاً على فراق مَنْ فارقه من عسكره ، واستدعى رُسلَ الملوك الذين عنده وأجاب كُلاًّ منهم عن رسالته ، وخلع عليهم وسرّحهم .

ذكرى رجوع الملك العزيز

بمن بقى معه من عساكره إلى الديار المصرية واستقراره بها

وأصبح الملك العزيز راحلا بمن بقى معه من عساكره إلى الديار المصرية ، وسار إليها على تيقظ وتحفظ وبَزَكيّة[1] ، وسلك طريق اللجون والرملة ، وخاف من الأسدية المقيمين بالقاهرة أن يوافقوا أصحابهم الغادرين ويسلكوا سيرتَهم فى الغَدْر به ، فقدّم بين يديه أمراء على النُجُب ، وكان نائبه بالقاهرة الأميرُ بهاء الدين قراقوش الأسدى، فبقى على الصفاء للملك العزيز وخلوص النيّة، وتبعه على ذلك من بقى من الأسدية ، ووصل الملك العزيز إلى البلاد ، وأمَّنَ كلَّ من

(١) البزك لفظ فارسى، معناه : طلائع الجيش، انظر: (Dozy : *Supp. Dict. Arab.*)

وجده من مُخَلَّفى الخارجين عليه ، وطيّب قلوبهم وأكرمهم وأحسن إليهم ، واستقر فى كرسى مُلْكه .

ومدحه القاضى السعيد (١٥ ب) ابن سناء الملك بقصيدة ذكر فيها نفاقَ الأسدية عليه وفراقَهم له ، منها :

مَنْ فَرَّ منك فلا يُلامُ ... وَشَرِيدُ(١) بأْسِكَ مَا ينَامُ
وَجنابُ عِزِّك ما يُرا ... عُ مِنَ الخطُوبِ وَمَايُضَامُ(٢)
فَرَّتْ لخوفِكَ غِلْمَةٌ ... وَلَرُبَّمَا خَافَ(٣) الغُلَامُ
هَابُوا مَقَامَك ذَا العظِيـ ... ـمَ ، فلم يَكُنْ لَهمُ مَقَامُ(٢)
وَشديدُ بَطْشِكَ لَا يُقَرُّ (م) عَلَى سَطَاهُ وَلَا يُقَامُ(٢)
وَهُمُ الأُسُودُ ، فما لَهمْ ... طَارُوا كما طَارَ النعامُ ؟(٤)
سَخِرَتْ بِهِمْ أَوْهَامُهم(٥) ... هُزْوًا ، وبالأوهَامِ هَامُوا
لَا يَنفَعُونَ ، وَلَنْ يَضُرُّ (م) وا إِنْ مَضَوْا ، أَوْ إِنْ أَقَامُوا(٦)
فَلَإِنْ عَفَوْتَ فَإِنَّمَا ... يَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ الكِرَامُ(٢)
وَإِنِ انْتَقَمْتَ فَإِنَّ أَيْـ ... ـسَرَ مَا اسْتَحَقُّوا الانْتِقامُ(٢)
(٧)مَا دَارُهُمْ حَرَمٌ(٨) ، وَلَا ... فِى الشَّامِ(٩) صَيْدُهُمُ حَرامُ
وَهُمْ به سَكْرَى ، وَلَيْـ ... ـسَ سِوَى الهمُومِ لَهُمْ مُدَامُ(١٠)

---

(١) الديوان : « وطريد » (٢) هذا البيت غير موجود فى الديوان
(٣) الديوان : « ولطالما فرَّ » (٤) الديوان : « الحمام » .
(٥) الديوان : « أوهامه » .
(٦) بين هذا البيت والذى قبله — فى الديوان — بيت آخر لم يأت به ابن واصل هنا ، ونصه :
« ومضوا وماسُلَّ الحسام ... فكيف لو سُلَّ الحسام »
(٧) يوجد قبل هذا البيت فى الديوان بيت آخر وهو :
ولو اهتدوا بعد الضلالة ... لاستقالوا واستقاموا
(٨) الأصل : « حرما » والتصحيح عن الديوان .
(٩) الديوان : « بالشام » . (١٠) ك : « بهم » .

يَتَأَسَّفُونَ ، وَمِنْ نَدَا مِنْهم يُقَالُ لهمْ نِدَامُ[1]
سَتَسُوقُهمْ بِيَدِ الزَّما نِ ، فَفِى أَنَامِلِكَ الزِّمَامُ
قُمْ فَامْلِكِ الدُّنْيَا بَأَجْمَعِها ، فَقَدْ آنَ الْقِيَامُ
وَرُمِ السَّمَاءَ تَنَلْ كَوَا كِبَهَا ، فَما يُعْيِى[2] الْمَرَامُ
وَلأَنْتَ وَحْدَكَ لَيْسَ يُنْجِى مِنْكَ إِلَّا الانْهِزَامُ
تُغْنِى عَنِ الْجَيْشِ اللُّهَامِ لأَنَّكَ الْجَيْشُ اللُّهَامُ
وَتُنِيرُ آفَاقَ[3] السَّمَاءِ لأَنَّكَ الْبَدْرُ التَّمَامُ
لَازَالَ مُلْكُكَ لا يَزُولُ[4] وَلَا يُضَارُ وَلَا يُضَامُ
تبقى مُوَقًّا لَا انْصِرَا فَ تَتَّقِيهِ[5] وَلَا انْصِرَامُ[6]
وَتَزِيلُ[7] رَاحَتِكَ النَّدَى ، وَحَلِيفُ ذَوْلَتِكَ الدَّوَامُ

(١١٦) ذكر رحيل

الملك العادل والملك الأفضل

إلى مصر متبعين الملك العزيز

ولما جرى [ماجرى][8] من مفارقة الأمراء المذكورين للملك العزيز وصل إلى دمشق بكرة الثلاثاء[9] خامس شوال[9] ، رسولُ حسام الدين أبى الهيجاء

(١) الديوان : « يتنادمون ، ومن بدا منهم يقال له ندام »
ونص المتن هنا أوضح وأصح .

(٢) (ك) « يغنى » . (٣) (ك) : « وتنير فى فلق السماء » .

(٤) الأبيات الأربعة السابقة لهذا البيت غير موجودة فى الديوان ، ومكانها هناك سبعة أبيات أخرى ، فانظرها هناك .

(٥) (ك) : « ينفيه » . (٦) هذا البيت غير موجود فى الديوان .

(٧) الديوان : « وتريك » . (٨) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٩) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

السمين إلى الملك العادل يحثه على سرعة[1] الرحيل إلى الديار المصرية ، ويخبره أن الملك العزيز قد فارقه أكثر العسكر وهو فى جمع قليل ، فإن لم يسرع النهضة خَلْفَه بالعساكر فات المقصود ، وإن بادر بالنهضة هو والملك الأفضل ومَنْ معهما من العساكر ، ساعدوهما على اللحاق به وإدراكه[2] قبل أن يصل إلى مقر مُلْكه ، وانتزعوا البلاد منه وسلموها إلى الملك العادل والملك الأفضل ، فاستدعى الملكُ العادلُ الملكَ الأفضلَ وجلسا خلوة ، وتوثق كل واحد منهما بصاحبه بالأيمان المؤكدة ، فيقال إنهما اتفقا على أن يكون للملك العادل ثُلث الديار المصرية ، وثلثاها للملك الأفضل ، ولما وقَع الاتفاق بين الملكين على هذا الأمر ، ضُربت كوسات[3] الملك العادل ، ونُفِّرَتْ بوقاتُه ، ونُشرت راياتُه ، وبرز فى عساكره متوجهاً فى ساعته فى عساكره وجموعه إلى الديار المصرية ، وأصبح الملك الأفضل يوم الأربعاء غد ذلك اليوم راحلا فى جموعه وحشده ، واجتمع الملكان بالعسكر الخارجين على الملك العزيز ، واتفقت كلمتهم ، ورحلوا كلهم طالبين الديار المصرية .

وكانت الأسدية قد حرصت على الجد فى السير ليسبقوا الملكَ العزيزَ إلى مصر فلم يقدروا ، واجتهدوا فى أن يدركوه فلم يصلوا إلى ذلك وسبقهم[4] إليها ، فأمرهم الملكُ العادلُ بالتثبت ، وأخبرهم أن الغرض المقصود ما يفوتُ .

---

(١) (ك) : « مسارعة » .

(٢) (ك) : « فبادروا اليه قبل أن يصل .. » .

(٣) عرف (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩) الكوسات بقوله : « وهى صنوجات من نحاس شبه التُّرس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بايقاع خاص ، ومع ذلك طبول وشبّابه ، يدق بها مرتين فى القلعة فى كل ليلة ، ويدار بها فى جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة قبل التسبيح على المواذن ، وتسمي الدورة بذلك فى القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه ، ويقال للذى يضرب بالبوق المفسِّر ، وللذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض الكوسى (نفس المرجع ، ص ١٣) .

(٤) (ك) : « وأسبقهم » .

وكان عزُّ الدين جُرْديك النورى نائباً عن الملك العزيز بالقدس ، فبذل له الملكُ الأفضلُ[1] إقطاعا ، وطاب منه تسليم القدس فسلّمه إليه ، فسلّم الملكُ الأفضل[1] باتفاق منه ومن الملك العادل إلى حسام الدين أبى الهيجاء السمين ، وسار معهما إلى الديار المصرية .

ولما علم الملك العادل باستقرار ابن أخيه الملك العزيز (٦ ا ب) بالديار المصرية ، سرّه ذلك ، إذ لم يكن فى الباطن يختارُ إزالة ملكه ، وكان شديد الميل إليه والمحبة له ، وسار الملكُ العادل على سكون وهدوء إلى أن وصل فى مدة مديدة .

ذكر نزول

الملك العادل والملك الأفضل

على بلبيس محاصرين لها[2]

ووصل الملكُ العادلُ والملكُ الأفضلُ[2] بعساكرهما ومن انضم إليهما من الأسدية والأكراد إلى الديار المصرية ، ونازلوا بلبيس وبها جموعُ الصلاحية ، وكان نزولهم عليها وزيادة النيل قد بلغت منتهاها ، واحتمت البلاد بما غمرها من الماء ، وغلا السعر وتعذرت الأقوات ، والصلاحية بها مستظهرون ، وقد اشتدت مئونة الأسدية والأكراد ، وكثرت غراماتهم ، وظهر ندمهم على ما فعلوا ، وعرف الملك العادل أن المصلحة الشاملة فى الصلح وانتظام الشمل ، فبعث يستدعى القاضى الفاضل ليتفق معه على ما فيه صلاح ذات البيْن .

---

(١) هذا سطر ساقط من نسخة (ك) .

(٢) هذه الفقرة ساقطة من (ك) .

ذكر وقوع
الصلح بين الملوك

كان الملك العزيز لما رجع على الصورة التى ذكرناها ، وتحقق أن عمه وأخاه قد قصداه بعساكرهما ومَنْ انضاف إليهما من عساكره المفارقين له ، احتاج إلى استخدام الرجال وتقوية من بقى معه بالمال ، ولم يجد فى بيت ماله ما يفى له بهذا المقصود ، فعرض أهلُ مصر عليه بَذْلَ أموالهم ، وتضرَّع إليه الأماثلُ والأغنياء فى أن يجيب سؤالهم فى قبول أموالهم ، فشكرهم على ذلك ، ولم يقبل منه شيئاً ، وتحقَّق محبتَهم له وخلوص نيتهم وقال :

« الله سبحانه يكفينى ويغنينى ، وليس اعتمادى فى النصر إلا عليه » .

وكان الملك العزيز — رحمه الله — محبباً إلى الرعية لما كان متصفاً به من حسن السيرة والعدل والكرم المفرط .

ولما نازل عمُّه وأخوه بلبيس ، كان فيها خواصٌّ أصحابه وخُلَّصُ أجناده فبينما هو فى ضيق ذات يده وخوفه ، إذ ورد رسول عمه الملك العادل يطلب منه الاجتماع بالقاضى الفاضل — رحمه الله — ، وكان القاضى الفاضل قد تنزَّه عن ملابستهم (١١٧) ومخالطتهم ، واعتزل بنفسه عنهم لما رأى من اختلال أحوالهم وفساد أمورهم ، وأحوجه الملك العزيز أن يلبى دعوة عمه الملك العادل ويخرج إليه ليفرج هذه الغمة ، فركب من القاهرة ، وخرج إليه .

ولما علم بذلك الملك العادل ، ركب وتلقاه أحسن تلقٍّ ، واجتمع به ، واتفق معه على ما فيه المصلحة الشاملة للكل ، وأشار بأنه ينبغى أن يعفو الملكُ العزيز عن الأمراء الأسدية والأكراد ، وأن يصفح[1] عن جرمهم ليرجعوا

(١) (ك) : « يفرج » .

إلى خدمته ويردّ إليهم إقطاعاتهم ، وحلف الملك العادل لابن أخيه الملك العزيز ، واختار المقام عنده بمصر لتقرير قواعد ملكه ، وأشار بأن يحلف كلٌّ من الأخوين لصاحبه ، وأن يرجع الملك الأفضل إلى بلاده ، ولما وقعت الأيمان والاتفاق ، خرج الملك العزيز واجتمع بعمه الملك العادل وأخيه الملك الأفضل ، واتفقوا في الظاهر[1] اتفاقا تاما .

ذكر رجوع

الملك الأفضل إلى دمشق

ومقام الملك العادل بمصر عند الملك العزيز

ولما انتظم الصلح ، رجع الملك الأفضل إلى دمشق بعساكره ، ورجع الملك العزيز إلى القاهرة وصُحبتُه عمه الملك العادل ، فنزل الملك العادل بالقصر ، وأمر ونهى وحكم وتصرف فى كبير الأمور وحقيرها ، وعزل القاضى محيي الدين ابن أبى عصرون عن قضاء الديار المصرية ، وولى القضاء زين الدين يوسف الدمشقى .



(١) الأصل : « الظاهر » ، وما هنا صيغة (ك) ، وهى أفضل .

ودخلت سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

يوم وصول الملك الأفضل إلى دمشق

وفى اليوم السابع والعشرين من صفر ؛ نقل تابوت والده الملك الناصر — رحمه الله — من القلعة إلى التربة التى هو مدفون بها الآن ، وكانت مدةُ مقام تابوته بالقلعة ثلاث سنين .

ولزم الملك الأفضل الزهد والقناعة ، وأقبل على العبادة ، والأمور كلها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وقد اختلت الأحوال به غاية الاختلال ، وكثر شاكوه ، وقل شاكروه .

وبلغ ذلك الملك العادل فأنكره ، (١٧ ب) وتقرر بينه وبين الملك العزيز الخروج إلى الشام لتمهيد القواعد وإزالة ماحدث من المفاسد ، وذلك بعد أن ضبط الملكُ العادل للملك العزيز المُلْكَ بمصر ، وعيَّن الإقطاعات ، وثمّن(١) الارتفاعات ، وعمَّر الأعمال ، ووفَّر الأموال ، وَقَرُبَ إلى الملك العزيز عزُّ الدين أسامة — صاحب عجلون وكوكب — فصار صاحب سر الملك العزيز وحاجبه والواسطة بينه وبين الملك العادل ، وألصق أيضاً به مملوكَ والده صارم الدين قايماز النجمى ، فصار من أهل صفوته وخالصته .

---

(١) الأصل : « ثمَّـر » وما هنا صيغة لك ، وهى أفضل ، والارتفاعات (والمفرد ارتفاع) هى أوجه الإيرادات المالية المختلفة للدولة .

ذكر تبريز

الملك العادل بنية السفر إلى الشام

وتقرير قواعـــده

لما كثرت الأخبار بمصر بما يعتمده ضياء الدين بن الأثير — وزيرُ الملك الأفضل — من الأحوال الرديئة والسيرة المذمومة بالشام ، تحركت عزيمة الملك العادل للسفر بعساكر الملك العزيز ، ووعد بإزالة ضياء الدين بن الأثير وطرده عن البلاد وإصلاح ما فسد من الأحوال .

قلت[1] : هكذا حكى عماد الدين الكاتب

وعندى أنه ربما ذكر ذلك تقيّة فى ذلك الوقت وخوفاً من الملك العادل ، وإلا فالذى أعتقده وبلغنى من جهات عديدة ، أن الملك العادل لما قدم إلى دمشق نجدة للملك الأفضل ، ورأى من ركة الملك الأفضل ما رأى ، حدثته نفسه بالاستيلاء على دمشق وتملكها ، وصار يعمل الحيلة فى ذلك ، ولما قصد الملك العزيز البلاد بعساكره ، توصل الملك العادل إلى تحصيل غرضه بإيقاع الخلف بين الصلاحية والأسدية ، وبين الأسدية والملك العزيز ، ونَفَّر كلاًّ[2] منهم من الآخر ، وأوجب ذلك رجوع الملك العزيز إلى مصر على الصورة التى ذكرناها ، ولما تم له ذلك ، حسَّن للملك الأفضل قَصْدَ الديار المصرية ، واجتمعا بالخارجين على الملك العزيز ، وكان قصد أولئك لحاقَ الملك العزيز ومنعه من الدخول إلى الديار المصرية ، ولم يكن ذلك فى الباطن من هوى الملك العادل ولا اختياره ، ولم يزل يثبطهم ويستوقفهم (١١٨) حتى وصل الملك

---

(١) لم يكن ابن واصل ليقنع بالنقل عن سابقيه من المؤرخين ، بل هو يحاول أحيانا مناقشة آرائهم والإدلاء برأى له جديد ، وهذا مثل لمناقشاته .

(٢) ك : « وتغير كل » .

العزيز إلى كرسى ملكه ، ووصل الملك العادل والملك الأفضل إلى بابيس — كما ذكرنا — وحصراها ، فلم يظن أحد إلا أن الأمر قد تم ، وأن الملك العزيز قد تلاشى أمره بالكلية ، فحينئذ أراد الملك العادل أن يقلّد المنة[1] العظمى للعزيز ، بأن ردَّ الملك العزيز إلى ملكه ، وأبقى عليه بلاده بعد أن وقع الإشراف على أخذها ، فحينئذ استدعى القاضى الفاضل — كما ذكرنا — وقرّر قواعد الصلح ، وردَّ الملك الأفضل إلى بلاده ، [1]ووصل إلى مصر[2] ، وقرّر قواعد الملك العزيز ورتَّب أموره ، وتمكَّن منه التمكن الكلى ، فحينئذ طلب منه فى الباطن أن تكون دمشق له ، ويكون نائباً عنه بها ، ويعطى الملك الأفضل موضعاً صغيراً بعد إخراجه من دمشق ، وتكون الخطبة والسكة للملك العزيز فى الممالك الأيوبية[3] كلها ، ويكون هو السلطان الأعظم مكان أبيه ، فأجابه الملكُ العزيز إلى ذلك ، وتحالفا واتفقا عليه ، لكن كان ذلك كله بينهما ، ولم يظهر للناس سرّه إلا بعد وقوع ما وقع على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

فبرز الملك العادل إلى بركة الجب[4] ونزل بها ، وبرزت العساكر المصرية وفى الظاهر أنه يسير وحده بالعساكر لإصلاح أحوال الشام ويقيم الملك العزيز بمصر ، ولما نزل الملكُ العادل[5] بتلك المنزلة ، خرج الملك العزيز بعزم تشييعه والمقام عنده فى تلك المنزلة فى ذلك الشهر إلى حين توديعه ، وكان الخروج من القاهرة مستهل ربيع الأول من هذه السنة .

وكان عماد الدين الكاتب قدسافر إلى الديار المصرية قبل ذلك لمهام تتعلق به .

---

(١) فى النسختين : « المانة » وما أثبتناه قراءة ترجيحية .

(٢) هذه الفترة ساقطة من (ك) .

(٣) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

(٤) (ك) : « بركة الحبش » ، وما هنا هو الصحيح .

(٥) (ك) : « الملك العزيز » ، وهو خطأ واضح .

قال عماد الدين :

« وخرجت أنا أيضاً بخيمتى لملازمتى القاضى الأجل الفاضل ، وحاجتى إليه فى نجاح ما لى من المقاصد والرسائل ، ووصل إلى مصر الملكُ الزاهرُ مجير الدين داود بن الملك الناصر رسولا إلى الملك العزيز من جهة أخيه الملك الظاهر ـ صاحب حلب ـ ، ومعه سابقُ الدين عثمانُ بن الداية ـ صاحب شيْزر ـ ، والقاضى بهاء الدين بن شداد ، فخيموا بتلك المنزلة عند الملك العزيز ، وشاع أن الرحيل منها (١٨ ب) أول شهر ربيع الآخر لتجتمع العساكر وتنزاح عِلَّتُها » .

قال : « وكان الملك العادل يؤثر مسيرَ الملك العزيز ليتمكن من أغراضه[١] ، ولأن العساكر مع اختلافها تجتمع مع الملك العزيز لعلو همته ، وسمو قدره ، وسماحة يده ، وسعة صدره » .

قال : « فاجتمع الملك العادل والملك العزيز وأشار عليه أن يسافر بنفسه ، وقال له مامعناه : إن الدولة الصلاحية بإدارتك[٢] صلاحها ، و بفلاحك فلاحها ، و بنهضتك ينهض جناحُها ، و بسعدك يَسعَد نجاحها ، و إن لم تجتمع الكلمةُ عليك لم تجتمع كلمة الإسلام ، ولم تستقر العصمة من الكفر بالشام ، وفى كل بلد من إخوتك سلطان ، ما منه لأمرك إذعان ، وغداً عند الحاجة إلى الاستنفار والاستنصار ، وكلٌّ منهم على سِمَةِ النفار ، تنزل النوازل والدوائر بالديار ، فاستخر الله تعالى وانشَط ، ولدولتك احتَط[٣] ، وسرْ مستقبلَ النصر سارًّا ،

(١) (ك) : « أرضه » .

(٢) فى الأصل : « بادالتك » ، ولا يستقيم بها المعنى ، وفى ك : « تأدا إليك » وما هنا قراءة ترجيحية .

(٣) (ك) : « وللذة قلبك أحبط » .

وللجحفل المَجْر جارًّا ، وللدولة الناصرية ناصراً ، ولأيدى المتعدى عنها قاصراً ، وأنت سلطاننا ونحن الأتباع ، والأنصار والأشياع » .

وذكر عماد الدين من هذا شيئاً كثيراً عن الملك العادل ، فأجابه الملك العزيز إلى ذلك ، وضُربت الخيامُ ، ونُصبت الأعلام ، وتكاملت العساكر وتتامّتْ ، واجتمعت وتضامت(٤) .

قال : « وكان الملك الأفضل لما بلغه ذلك يكذب الحديث عنه تارة ، ويصدقه أخرى ، ويقول : قد استوثقتُ من كلٍّ منهم باليمين ، وما منهم من يَهِى موثقُه ، وما وثقت — بعد الله تعالى — من الناس إلا بعمى ، وهو يعصمنى ، ويقينى إنه يقينى » .

وانفصل الملك الزاهر من مصر عند قرب الرحيل ، ومعه القاضى بهاء الدين ابن شداد بعد قضاء الأرب من أداء الرسالة عائدَيْن إلى صاحبهما ، فلما عبرا بدمشق ، أخبرا الملك الأفضل بجلية الحال ، وأنهم على قصد السفر والاستيلاء على البلاد ، فضاق ذَرْعُه بذلك ، واستشار أصحابه ، فأشار عليه شيوخ الدولة وأكابرها من الأمراء وغيرهم بأن يستقبل أخاه وعمه وينقاد إلى أوامرهما ، فإنه إذا استقبلهما على هذه الصورة (١١٩) لا يسعهما إلا قبوله لأنهما إن غيّرا عليه حالا بعد ذلك ، حَآَتْ بهما الغِيَرُ ، وأرِّخت بقبح فعلهما السِّيَر ، فكاد يقبل هذا القول ويصغى إليه ، فدخل عليه وزيرُه ضياء الدين بن الأثير فثنّاه عن هذا الرأى وصرفه عنه وقال له :

« أنت أكبر الأخوة وأفضلهم ، وما ثَمَّ عجز وفى الغيب لله قضايا ، وله ألطاف خفايا ، ودمشق مدينة حصينة وأهلها يحبونك ويؤثرونك » .

---

(٤) (ك) . « وتكاملت العساكر وتتامت ، واجتمعت وتضامت » .

ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر المعروف بالمشمِّر ، وهو شاب وعنده حمية وأنفة وقال :

« أين حكم الإسلام ، وقد استُحِلَّتْ المحارم ، وما ظننتْ أن أحدا يحنث فى يمينه وينقض عهده ، فلا تَهن ولا تجزع فالبادى أظلم ، والْمُسَلِّم إلى الله أسلم » .

وأحضر الملك الظافر المقدمين واستحلفهم ، واستكثر من العُدد والآلات ، وتولى أسباب تحصين البلد ، وقطع مافوق المصلى عند مسجد فلوس بنَصيل[1] ، ورتَّب الرجال حول البلد يتناوبون عليه لحفظه ، وفرّق الأمراء على الأبراج والأسوار .

وورد إلى الملك الأفضل رُسُل أخيه الملك الظاهر يُشِيرُ عليه بتحصين بلده وتقوية عزمه على مقاتلة أخيه وعمه ، ويعده من نفسه المؤازرة والمظاهرة .

ثم أرسل الملكُ الأفضلُ الأميرَ فلك الدين — وهو أخو الملك العادل لأمه ، وإليه تنسب المدرسة الفلكية[2] بدمشق — رسولا إلى الملك العادل .

---

(١) (ك) : « بالتفصيل » انظر أيضاً : (الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣٠) .

(٢) أنشأ هذه المدرسة الأمير أبو منصور فلك الدين سليمان بن شروة بن خلدك أخو الملك العادل أبى بكر لأمه ، وكانت اول الأمر داراً له فحولها إلى مدرسة ، وبنى بها قبراً له دفن فيه بعد وفاته فى المحرم من سنة ٥٩٩ هـ ، وأوقف عليها أوقافا ، وموقعها بحارة الإفتريس داخل بابى الفراديس والفرج ، انظر : (النعيمي : الدارس فى تاريخ المدارس ، نشر جعفر الحسنى ، ج ١ ص ٤٣١ — ٤٣٢) و (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة — الجزء الخاص بتاريخ دمشق . نشر الدكتور سامى الدهان ، دمشق ، ١٩٥٦ ، ص ٢٣٦) .

ذكر مسير

الملك العزيز والملك العادل

إلى الشام ومنازلتهما دمشق

ولما تكاملت العساكر ببركة الجب[1] ، سار الملك العزيز والملك العادل بالجحافل والعساكر المتوافرة ، ولما وصلا إلى الداروم ، وصل فلك الدين أخو الملك العادل لأمه رسولا من الملك الأفضل إلى عمه بمشافهة منه ، فأبلغه الرسالة ، فأقبل عليه الملك العزيز وأنعم عليه .

قال عماد الدين الكاتب :

« وكنتُ حاضراً ، وخلنا أن الأمر قد تم ، وأنه قد صلح الصلح ، ووضح الصُبْح ، فأقام فلك الدين هناك أياماً ، ثم عاد إلى دمشق مثريا بجود النقود ، وبدور البِدَر ،وعاد حميدَ الوِرْد والصَدَر (١٩ ب) وأقمنا نترقب كتابه فنفذ[2] مَنْ ذَكَرَ أنَّ الملكَ الأفضل قد أبى ونبا ، واستوثق وسوَّر وخندق ، وأنه لايجنح إلى السلم ، ويقول : كما كفانى اللهُ فى الماضى يكفينى فى المستقبل » .

قال عماد الدين :

« وجاءنى الخبرُ أن وزيره قدقرَّر عنده عندقرب [العساكر من][3] البلدنهب دورى وأملاكى ، فاستأذنتُ الملكَ العزيزَ فى الدخول إلى البلد ، فأذن لى على

---

(١) (ك) : « بركة الحبش » وهو خطأ واضح .
(٢) (ك) . « فورد » .
(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

كراهية ، فلما دخلتُ البلدَ اجتمعت بالملك الأفضل ، وقلت له القول الأفضل ، فأبى أن يسمع أو أن يقبل ، وحرمت فى حظى الثانى والأول » .

ثم سار الملكان : العادل والعزيز إلى دمشق فنازلاها ، ولم يحدثا قتالا ، والملك العادل مُظْهِرٌ أنه على عهده وميثاقه ، لم يتغير عنه ولم يَحُلْ ، وأنه ليس مقصوده إلا إصلاح[1] ذات البيْن وانتظام الشمل ، وكُتُب الأمراء بدمشق والأكابر متواصلة إلى الملك العادل والملك العزيز ، لأن بعضهم كانت قد حصلت عنده نفرة من الملك الأفضل لأسباب وقعت منه ومن وزيره توجب الاستيحاش ، وبعضهم كوتبوا من جهة الملك العادل والملك العزيز بما طيّب به قلوبهم وبسط فى آمالهم ، فكتبوا يحثونهما على معاجلة الزحف إلى البلد وانتهاز الفرصة ، ويعدون من أنفسهم المساعدة وفتح الأبواب لهم .

ذكر استيلاء

الملك العزيز على دمشق

والاقتصار بالملك الأفضل على صَرْخَد

ولما جرى ماذكرناه[2] من المخامرة[2] من الأمراء المقيمين بدمشق والأكابر ، وتوثق منهم الملك العزيز والملك العادل ، ضُرب البوق وزحف العسكر على البلد ، وذلك ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة — أعنى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة — مستظهرين بالعدد والآلات ، فما صدَّهم عن البلد صادٌّ ، ولا ردَّهم رادٌّ ، ولم يجدوا فى طريقهم مَنْ يقاتلهم غير الملك الظافر

(١) الأصل : « صلاح » ، والتصحيح عن (ك) .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

خضر[1] ابن الملك الناصر ، فإنه قاتل وثبت معه جماعة من عسكر الملك الظاهر — صاحب حلب — ، فقاتل ظناً أن عسكر دمشق يقاتلون معه ، (١٢٠) ولم يعلم حقيقة ما استقر فى الباطن من المخامرة ، فلما لم يَرَ معه مَنْ يقاتل ولّى منهزماً وقد جُرح .

ووصل الملك العزيز من جهة الميدان الأخضر ، ودخل من باب الفرج[2] وقد فتح له ، وبات عند عمته ست الشام[3] بنت أيوب — المعروفة بالحسامية —

---

(١) هو الملك الظافر خضر ، لقبه مظافر الدين ، وكنيته أبو الدوام ، وأبو العباس ، قيل له « المشمر » لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار ، قال : « وأنا مشمر » فغلب عليه هذا اللقب ، ولد بالقاهرة فى خامس شعبان سنة ٥٦٨ هـ ، وهو شقيق الملك الأفضل ، حج على تيماء سنة ٦١٠ فلما وصل إلى بدر وجد عسكر الملك الكامل محمد قد سبقه خوفا منه على اليمن ، وأمروه بالرجوع ، فقال : « قد بقى بينى وبين مكة مسافة يسيرة ووالله ما قصدى إلا الحج ، فقيدونى حتى أقضى مناسكى وأعود ، فلم يلتفتوا إليه ، فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة ، فعاد بلا حج ، وتوفى فى جمادى الأولى — أو الآخرة — سنة ٦٢٧ هـ بحران عند ابن عمه الملك الأشرف موسى ، ولم يكن وقتئذاك ملكها ، وإنما كان مجتازا لها عند دخوله بلاد الروم ، انظر : (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٦ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٦) و (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ١٧٣) و (النعيمي : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج ٢ ، ص ١٨٧) .

(٢) قال (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة — تاريخ مدينة دمشق — ، ص ٣٦) عند وصفه لهذا الباب : « محدث ، أحدثه الملك العادل نور الدين ، وسماه بهذا الاسم تفاؤلا ، لما وجد من التفريج بفتحه ، وكان بقربه باب يسمي « باب العمارة » فتح عند عمارة القلعة ثم سُد ، وأثره فى السور باق » .

(٣) ست الشام بنت أيوب ، أخت صلاح الدين ، وشقيقة الملك المعظم توران شاه بن أيوب فاتح اليمن ، تزوجت الأمير لاجين وأنجبت منه ابنها حسام الدين عمر بن لاجين ، ثم تزوجت ثانية من ابن عمها الأمير ناصر محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، وكانت من أكثر النساء صدقة وإحسانا إلى الفقراء ، وتعمل فى كل سنة فى دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير فيفرق على الناس ، توفيت فى ٢٦ ذى القعدة سنة ٦١٦ هـ ، وقال النعيمي فى كتاب « الدارس فى تاريخ المدارس » : « وقد صنف الشيخ تقى الدين بن قاضى شهبة فى ست الشام كراسة ، وهى عندى » وقد أنشأت ست الشام فى دمشق مدرستين تعرفان باسم « المدرسة الشامية البرانية » و « المدرسة الشامية الجوانية » وتعرف أحيانا باسم « المدرسة الحسامية » نسبة إلى ابنها حسام الدين سالف الذكر فقد دفن بعد وفاته بها . انظر ترجمتها بالتفصيل فى : (النعيمي : الدارس فى المدارس ، ج ١ ، ص ٢٧٧ — ٣١٣) و (الوفيات لابن خلكان) و (شفاء القلوب للحنبلى) و (البداية والنهاية لابن كثير) و (شذرات الذهب لابن العماد) و (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة — تاريخ دمشق — ، ص ٢٣٣ و ٢٤١) .

والدة حسام الدين بن لاچين[١]، وإليها تنسب مدرسة ست الشام[٢] بدمشق .

وأما الملك العادل فإنه وصل إلى باب توما[٣]، ففتحه له الأمير الذى كان مستحفظاً عليه باتفاق كان بينهما ، ودخل العسكر من هذا الباب وباب شرقى[٤]، وبات الملك العادل فى الدار الأسدية[٥] .

ولما دخل الملك العزيز دمشق تلقَّاه أخوه الملك الأفضلُ ، فردَّه الملك العزيزُ إلى القلعة ، ثم خرج الملك العزيزُ فى غد هذا اليوم إلى مُخَيَّمه ، وأقام به إلى أن انتقل الملك الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه ، وأخرج وزيره ضياء الدين بن الأثير مختفياً فى صندوق من بعض صناديقه ، خوفاً عليه من القتل ، وكان قد ترقبه أقوام ليقتلوه فلم يظفروا به .

قال عماد الدين :

« وكنا نظن أن للملك الأفضل مالا مجموعا فلم يظهر شىء[٦] لسوء تدبير وزيره ، فأقام الملك الأفضل بعد خروجه من القلعة نازلا بمسجد خاتون[٧] ، ووزيره مختفٍ عنده إلى أن هرب إلى الموصل » .

---

(١) و (٢) انظر الحاشية ٣ فى الصفحة السابقة .

(٣) عرف به (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة — تاريخ مدينة دمشق — ، ص ٣٥) قال : « باب توما . ينسب إلى عظيم من عظماء الروم اسمه توما ، وكانت له على بابه كنيسة جعلت بعد مسجدا ، وهو الآن مسدود » .

(٤) عرف (ابن شداد : المرجع السابق) هذا الباب بقوله : « سمي بذلك لأنه شرق البلد ، وكان ثلاثة أبواب : باب كبير فى الوسط ، وبابان صغيران من جانبيه ، سد منهما الكبير والباب الصغير الذى من قبليه ، وبقى الباب الصغير الشامى » .

(٥) كانت الدار الأسدية تجاه المدرسة العزيزية وهي التى أنشأها الملك العزيز بن صلاح الدين لصق الجامع الأموى بالقرب من تربة صلاح الدين . انظر : (النعيمي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٣ و ٣٨٢) .

(٦) (ك ١) : « لم يظفر بشىء » .

(٧) أشار ابن شداد : الأعلاق الخطيرة ، نشر سامى الدهان ، ص ١٤٦ و ٢١٨) =

قال عماد الدين :

« ومن العجب أن الملك الأفضل مع علمه بشؤم وزيره ، وأن كل ما هو فيه من النقص والنقض بادباره وسوء تدبيره ، ضمه إليه[1] وترفرف بجناحه عليه ، فأخرجه فى قماشه ، وسرّحه بريشه ورياشه ، وكان ادعى عليه بمال فأقرّ الملك الأفضل بوصوله إلى خزانته ، وبرّأه من حسابه وخيانته[2] ، وانفصل إلى الموصل بمال دمشق وأعمالها ثلاث سنين ، وجمع آلافا مؤلفة ، ولم يُفرّق الأفضل منها مائين » .

قال عماد الدين :

« وعهدى بقوم دخلوا علىّ متأسفين على سلامته ، واستقامة أمره فى ظعنه وإقامته ، فقلت : إنما سألنا الله تعالى كفاية شره وسوءه لا سواه ، فقد أبعده الله فلا قرّب[3] نواه » .

= إلى مسجدين بدمشق كان كل منهما يعرف بمسجد خاتون ، الأول يسمي « مسجد خاتون المثنية » وموقعه تحت القلعة على جسر باب الحديد ، والثانى يعرف بمسجد خاتون أو المدرسة الخاتونية البرانية ، وكان يقع على الشرف القبلى عند مكان يسمي صنعاء الشام المطل على وادى الشقراء ، أوقفته صفوة الملوك زمرد خاتون ابنة الأمير جاولى ، أخت دقاق لأمه ، وزوجة الملك تاج الملوك بورى ، توفيت سنة ٥٥٧ هـ . وأرجح أن المقصود هنا هو المدرسة الأولى لمقتضى السياق فى المتن . انظر أيضاً : (النعيمي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٢) .

(١) الأصل « عليه » ، وما هنا صيغة (ك) وهي أفضل .

(٢) (ك) : « وجنايته » »

(٣) الأصل : « أبعد » ، وما هنا صيغة (ك) ، وهي أصح .

ذكر واقعة غريبة

ذكرها عماد الدين الكاتب

(٢٠ ب) قلت[1] : ذكر عماد الدين أمرا عجيبا أنا أستبعده والله تعالى أعلم بصحته . قال :

« كان قرارُ الملك العـــادل مع الملك العزيز أن يقيم الملكُ العزيز بدمشق ، وأن يكون الملكُ العادل نائباً عنه بمصر ، ويفوِّض تدبيرها إليه ، فلما مَلَكَ الملكُ العزيز دمشق ، وظهرت الأمور ، وانـكشف المستور ، ندم على ما كان قررَّه مع عمه ، فبعث إلى أخيه الملك الأفضل فى السر ، وقال : « إذا طالبناك فاثبت على الامتناع ، ولا تبذل الرضى لنـا إلا بإقامة الخطبة والسكَّة ، ولا تنزل عن رتبتك ، فإنى أقصد لك الرضا وأفعل ما تريد ، ويكون امتناعُك عذرا عند عمى » .

فلما وصلت الرسالةُ بذلك إلى الملك الأفضل أظهر هذا السرَّ لنصحائه المختصين ؛ فقالوا : « لا تنخدع بهذا القول ، فربما كان هذا خديعةً من أخيك ليوقعك ، وهلا كان هذا القولُ منه قَبلُ فى أول الأمر ؛ والمصلحة أن تُطْلِعَ عمَّك الملكَ العادل على هذا السر ، فإنه كأبيك فى الشفقة ، وعلى كل حال لا يترك برَّك ، فإذا استشرتَه أشار عليك بالمصلحة ، وقد جاء لك من السعادة ما لم يكن لك فى حساب ، فإن الملكَ العادلَ يحصل له باطلاعه على هذا الارتيابُ فى الملك العزيز ، وتتأكد نفاره منه » .

فأرسل الملكُ الأفضلُ الحاجبَ جمالَ الدين محاسن بن عجم الموصلى إلى الملك

---

(١) هذا مثل آخر لمناقشة ابن واصل لآراء غيره من المؤرخين الذين ينقل عنهم .

العادل ، فأعاد عليه ما ذكره الملك العزيز ، فقامت قيامتُه وغضب غضباً شديداً ، واجتمع بالملك العزيز ، وعاتبه أشدَّ العتب ، وقرَّعه غاية التقريع ، وقال : « أنا أبنى وأنت تهدم » ، وذكر له ما أُنهى إليه ، فأنكر الملك العزيز ذلك ، وحقَّق عند عمه بطلان هذا القول ، وأنه لم يرسل إلى الملك الأفضل ، ولم يقل له من هذا القول حرفا .

وانحرف عن أخيه الملك الأفضل ، وبعث إليه مَنْ أزعجه وأحرجه ، وإلى صَرْخَد أحوجه ، وأخذ من الملك الظافر بُصْرى — وكانت بيده — ، فرحل إلى حلب ، فأقبل عليه الملك الظاهر وأحسن إليه ؛ وسار الملك الأفضل إلى صَرْخَد بأهله وحريمه[1] ، ومعه أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى فتسلموها واستوطنوها .

ودخل الملك العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان من هذه السنة (٢١ ا) فأظهر العدلَ ، وأبطل المكوس ، وأزال المظالم ، واعتقد الناس أن مقامه عندهم يطول ، وفرحوا به لما كانوا يعرفونه به من الكرم والبذل ، وإقامة منار العدل ، ولم يشعروا به إلا وقد تقدم بالتبريز وأجمع على الرحيل إلى الديار المصرية » .

(١) هذا اللفظ غير موجود فى (ك) .

ذكر استيلاء

الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب على دمشق وأعمالها

وسفر الملك العزيز إلى مصر

ثم سلَّم الملكُ العزيزُ دمشق إلى عمِّه الملك العادل ، ورحل من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان من هذه السنة ، فنزل بمسجد القدم[١] ، ثم ارتحل إلى الكُسْوَة[٢] ، وسافر بالعساكر إلى الديار المصرية .

قال عماد الدين الكاتب :

« ودعتهُ يوم السبت رابع عشر شعبان ، وقال لى عند وداعه : « أمَّا مالُك بالشام فإنى إلى الملك العادل به عادل ، وأما قرارُك بمصر فأنا بجميعه لك ضامن كافل »

ولقد كان بوده إنجاز وعدى ، واقتناء حمدى ، لكن شرط مع عمه أن لا يفرد شيئاً من رسمه ، فدخلتُ فى عموم الشرط وتبدل قربى بالسخط » .

وخرج الملك العادل لوداع الملك العزيز ، ولما عاد من وداعه أمر فقرىء منشورُه بالجامع بتفويض دمشق وأعمالها إليه .

---

(١) عرَّف به (ابن شداد : المرجع السابق ، ص ١٥٥ — ١٥٦) بقوله : « مسجد القدم : بقرب عالية وعويليه ، قديم ، جدده أبو البركات محمد بن الحسن بن طاهر ، وفيه قبر جد أبيه لأمه أبى الحسن بن الواعظ الزاهد ، له منارة ووقف ، ويقال إن قبر موسى — عليه السلام — فيه ، وفيه بئر ، وعلى بابه بئر » ، انظر أيضاً : (محمد كرد على : غوطة دمشق ، ص ٢٣٨) .

(٢) عرَّفها (ياقوت : معجم البلدان) بقوله : « قرية ، هي أول منازل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر ، قال الحافظ أبو القاسم : وبلغنى أن الكسوة إنما سميت بذلك لأن غسان قتلت بها رسل ملك الروم لما أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم ، واقتسمت كسوتهم » ، انظر أيضاً : (ابن شداد : المراجع السابق ، ص ١٩) .

وكانت مدةُ مقام الملك العزيز بدمشق بعد أخذها أربعة عشر يوماً .

وكانت مدة مُلْك الأفضل لها ثلاث سنين وأشهراً .

وأبقى الملك العادل السكة بدمشق والخطبة للملك العزيز ، وأشاع أنه نائبه .

ولما استقر الملك العزيز بصَرْخَد هو وأهله كتب إلى الخليفة كتاباً يشكو إليه فيه اغتصاب عمِّه وأخيه ميراثه من أبيه .

وأوله :

مولاى إنَّ أبا بكرٍ وصاحبَه عثمانَ قد أخذا بالسيف إرْثَ على
فانظر إلى حَظِّ هذا الاسم كيف لقى من الأواخرِ ما لاقى من الأُوَلِ

فكتب الخليفة الناصر لدين الله إليه :

وافى كتابُك يا ابنَ يوسفَ مُعْلِناً بالصدْقِ ، يُخْبِرُ أنَّ أَصْلَكَ طَاهِرُ
(٢١ب) غصبوا عليًّا حقَّه إذلم يَكُنْ بعد النبي له بيثربَ[١] ناصرُ
فاصْبِرْ ، فإن غداً عليه حسابَهم وابشر ، فناصرُكَ الإمامُ الناصرُ

وللملك الأفضل أيضاً فى المعنى :

أما آنَ للسعدِ الذى أنا طالبُ لإدراكه يوماً يُرى وهو طالبى
تُرى[هل][٢] يُرينى الدهرُ أيدى شيعتى تمكنُ يوماً من نواصى النواصبِ

يريد بالشيعة أصحابَه ، لأن اسمه على ، وبالنواصب أصحابَ العادل أبى بكر والعزيز عثمان[٣] .

(١) (ك) : « له معين ناصر » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٣) يوجد فى هامش نسخة ك أمام هذه الأبيات بيتان آخران للأفضل أثبتهما أحد قراء النسخة ويدعي منصور ، وهذا نص ما فى الهامش ، وقد صحح البيتان بعدمراجعة : (ابن الحنبلى شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، ص ٧٠ ب) : وله فى المعنى :

يا من يسوِّد شعره بخضابه لعساه من أهل الشبيبة يَحْصُلُ
ها فا ختضب بسواد حظي مرةً ولك الأمان بأنه لا يَنْصُلُ

ولما وصل الملك العزيز إلى القدس وبه أبو الهيجاء السمين ، وكان خائفاً من الملك العزيز لجرمه الذى تقدم ذكره ، عزم على منازلته ، فلاذ أبو الهيجاء بعفوه ، وبذل القدس على أن يرحل بماله ، فأجيب إلى ذلك ، وتسلَّم الملكُ العزيزُ منه القُدْسَ ، وسلَّمه إلى سنقر الكبير .

ورحل أبو الهيجاء إلى بغداد ، فاحترمه الخليفة وقدَّمه على عسكر لمحاربة العجم ، فصدر منه ما أوجب الإنكار عليه ، فتوجَّه إلى دقوقا فمات بها .

وفى هذه السنة سيَّر الملكُ الظاهر القاضى[1] بهاء الدين بن شدَّاد ، وغرس الدين قِلِج إلى [أخيه][2] الملك العزيز — رحمه الله — بهدايا كثيرة وقَوْد[3] .

وفيها[4] خرَّب الملك العزيز حصنىْ الداروم وغزة



(١) بهذا اللفظ نتقابل مرة ثانية مع نسخة س (ج ١ ، ص ١٣٢ ا)

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٣) مكان هذا اللفظ فى (س) : « لها قيمة جليلة » .

(٤) النص فى (س) : « وفى هذه السنة فى آخرها » .

ودخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة :

والملك العزيز مقيم بالديار المصرية ، وهو سلطان البيت الأيوبى .

وبدمشق الملك العادل .

وفى أوائل صفر منها تسلم الملك الظاهر قلعة عزاز من سيف الدين بن علم الدين سليمان بن جندر[1] ، وكان مَلَكَها بعد أبيه .

وفى السابع والعشرين من ربيع الآخر رحل من مصر القاضى بهاء الدين ابن شدَّاد ، وغرسُ الدين قِلِج بانتظام الصلح [بين الملك الظاهر وأخيه الملك العزيز][2] فخُطب بحلب للملك العزيز ، وضربت السكة باسمه .

وفى هذه السنة تحركت الفرنج لقصد بلاد الإسلام ، فخرج الملك العادل بالعساكر ، فخيَّم بالقصبة ، وهى قريب من صور ، وجهَّز إلى بيروت جماعة من العسكر ومعهم الحجارون والنقّابون ، وأمرهم بهدم رَبَض بيروت ففعلوا ، وحصَّن[3] عزُّ الدين (١٢٢ ا) أسامة القلعة ، وترك[4] فيها جماعة من الأجناد ليحفظوها .

---

(١) (س) : « حيدر » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٣) (ك) : « وجهز عز الدين أسامة للقلعة » .

(٤) (س) : « ونزلت » .

ذكر وفاة

سيف الإسلام صاحب اليمن

وفى شوال من هذه السنة توفى سيفُ الإسـلام ظهيرُ الدين طُغْتِكِين ابن أيوب ، وكان يُلقب بالملك العزيز ، وكان ملـكا جواداً مُمَدَّحا ، وممن مدحه من الشعراء شرفُ الدين بنُ عُنَيْن ومن مدائحه فيه قصيدة منها :

دمشقُ وبى شـــوق إليها مُبرِّحُ ... وإن لام[1] واشٍ[2] أو ألَحَّ عذولُ
بلادٌ[3] بها الحصباء دُرٌّ ، وَتُرْبُها ... عبيرٌ ، وأنفـاسُ الشَّمالِ شَمُولُ
تسلسل منها[4] ماؤها وهو مطلقٌ ... وصَحَّ نسيمُ الروْضِ وهو عليلُ

ومنها :

وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحْرَمَ الغنى ... ورأىُ ظهير الدين فىَّ جميـــلُ ؟
مِنَ القَوْمِ ، أَمَّا أَحْنَفٌ فَمُسَـفَّهٌ ... لديهم ، وأمَّا حاتمٌ فبخيـــلُ
فتى[5] المجـــدِ ، أمَّا جارُه فَمُمَنَّعٌ ... عزيزٌ ، وأما جنـــدُّهُ فذليـلُ
وأمَّا عطايا مَالهِ فمبــــاحةٌ[6] ... عِذَابٌ ، وأما ظِـــلُّه فظليلُ

---

(١) كذا فى جميع النسخ ، وفى الديوان : « وإن لجَّ » .
(٢) (س) : « والٍ » ، وما هنا هو الصحيح وكذلك فى الدوان .
(٣) فى الديوان : « ديار » .
(٤) فى الديوان : « فيها » .
(٥) (س) : « بنى » ولا يستقيم بها المعنى .
(٦) الديوان : « وأما عطايا كفه فسوابغ » .

ذكر استيلاء

الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام على اليمن

وكان الملك المعز هذا شهماً شجاعاً ، إلا أنه فى عقله ضعف ، فكان أبوه[١] يخافه على نفسه ، فأبعده إلى الشام خوفاً منه ، فقدم على عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين قبل مرضه الذى مات منه بيوم واحد ، وقد ذكرنا ذلك ، ثم توجه راجعاً إلى اليمن ، فأدركته وفاة أبيه وهو بالسرين[٢] فبعث إليه جمالُ الدولة كافور جماعةً من الجند[٣] فعزّوه بوالده ، ومضوا به إلى ممالك أبيه فسلموها إليه .

وسنذكر بقية أخباره إن شاء الله تعالى[٣] .



---

(١) (س) : « أبيه » ، وهو خطأ واضح .

(٢) النص فى (س) (ج ١ ، ص ١٣٢ ب) : وهو فى الطريق ، وقد سار قريبا من بلاد أبيه ، فبعث إليه جمال الدولة .. الخ » .

(٣) النص فى (س) يختلف شيئا ما ، وهو : « فمضوا به إليه ، فسلّم إليه ممالك أبيه ، وكان هذا جمال الدولة هو المدبر للدولة ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أخباره » .

ودخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

والملك العزيز بالديار المصرية .

وعمُّه الملكُ العادل مرابط للفرنج ، وقد وصل منهم جمع كثير من داخل البحر ، وانتشروا فى الساحل ، وكثروا فيه .

وكان عزُّ الدين أسامة (٢٢ ب) قد ترك جماعة من الأجناد — كما ذكرنا — فى قلعة بيروت يحفظونها ، وذلك بعد أن خرَّب رَبَضَها ، فخافوا من الفرنج وانهزموا ، و بقيت القلعة خالية ليس فيها من يذبُّ عنها ، وعلم الفرنج بذلك فملكوها واستولوا عليها ، فلعن الناس أسامة لتفريطه فيها .

وقال عماد الدين الكاتب فى ذلك :

إنَّ بَيْعَ الحصون من غير حَرْبٍ ... سُنَّـةٌ سنَّها ببيروتَ سَامَه
لَعَنَ اللهُ كلَّ مَنْ باع ذا البيعَ ... وأخزى بِخِزْيِه مَنْ سَامَه[1]

وسيَّر الملكُ العادل إلى الملك العزيز يطلب منه النجدة ، فوصلت إليه العساكر من مصر ، ووصل إليه سنقر الكبير[2] — صاحب القدس — وميمون القصرى — صاحب نابلس — ونزل بهم على تل العجول بالقرب من غزة ، وكان قبل ذلك قد وقع جمع من الفرنج بأجناد فى أطراف بلد القدس ، فقتلوا منهم جماعة ، وأسروا جماعة ، ورجعوا بغنائم كثيرة .

---

(١) أورد (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٢٣٣) بيتين آخرين فى هذا المعنى : قال : « ونظم بعضهم والفرنج على تبنين :

سلم الحصن ما عليك ملامه ... ما يلام الذى يروم السلامه
فعطاء الحصون من غير حرب ... سنة سنَّها ببيروت سامة »

(٢) (س) : « سيف الدين صاحب القدس » .

ذكر فتح يافا

ثم قصد الملكُ العادل بالعساكر يافا ، فدخلها هجما بالسيف وقتل مقاتلتها ، وأعيان من بها من الفرنج ، فامتلأت أيدى المسلمين بالسبى والغنائم .

وكان هذا الفتح ثالثَ فتح لها ، لأنها فتحت أولا فى أول الفتوح ، وثانياً وجاء ملك الانكلتير فى جموعه فاسترجعها وهذا الفتح فى الأيام الناصرية[1] .

وفتحت هذا الفتح الثالث على يد الملك العادل .

وفتحت فى زماننا فتحاً رابعاً فى سنة أربع وستين وستمائة [على يد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس — صاحب الديار المصرية والشام][2] .

ذكر منازلة

الفرنج تِبْنين

وقدوم الملك العزيز إلى الشام

ولما جرى ما ذكرناه[3] عظم ذلك على الفرنج ، فقصدوا تِبْنين ، وكانت بيد حسام الدين بشارة ، فنازلوها بفارسهم وراجلهم ، وأحدقوا بها وضايقوها .

ونزل الملكُ العادل قبالتهم ، و بعث إلى الملك العزيز يحثه على الخروج إليه

(١) النص فى نسخة الأصل ونسخة ك « وهذان الفتحان فى الأيام الناصرية » وقد صحح النص كما بالمتن ليستقيم المعنى ، أما نسخة س (ج ، ص ١٣٣ أ) فالنص فيها : « وثانيا فان ملك الانكلتير ملك الفرنج رحل إليها فى جموع من الفرنج ، فاسترجعها وفتحها فى الأيام الناصرية بعد ذلك » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) ، ولهذا النص أهميته فهو يدل على أن المؤلف كان يكتب هذا الجزء من كتابه بعد سنة ٦٦٤ هـ .

(٣) (س) : « ما ذكرنا من فتح يافا » .

[من مصر][1] بنفسه ، فتقدم الملك العزيز إلى من عنده من العساكر بالخروج (١٢٣ ا) وسار فى آخرهم لا يلوى على شىء حتى وصل إلى تِبْنين ، واجتمع بعمه الملك العادل على مناجزتهم ساعة وصوله ، فمنعه من ذلك [عمُّه الملك العادل][1] .

فلما جُنَّ الليل رحل الفرنج [2]عن تبنين[2] عائدين إلى صور ، وسار فى أثرهم الملك العزيز والملك العادل بالعساكر يلتقطون من ظفروا به منهم [فغنموا المسلمون شيئاً كثيراً من عسكرهم][3] .

وأمر الملك العزيز بنقل الغلال إلى تبنين وإصلاح ما تهدم بالمنجنيقات من أسوارها .

ذكر رجوع
الملك العزيز إلى الديار المصرية

ثم أبقى الملك العزيز العساكر برمتها عند عمه الملك العادل ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح ، وعاد إلى مصر فى جمع قليل .

وكان سنقر الكبير[4] صاحب القدس قد مات ، فولى الملك العزيز القدس صارم الدين ختلج[5] ، مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه[6] بن أيوب .

ولما قدم الملك العزيز مصر مدحه القاضى السعيد ابن سناء الملك بقصيدة هنأه فيها بالنصر والقدوم ، أولها :

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) هذان اللفظان غير موجودين فى (س) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٤) (س) : « سيف الدين » .

(٥) (ك) : « جناح » .

(٦) الأصل : « شاهان شاه » ، وما هنا صيغة (ك) و (س) .

قدمتَ بالسعْدِ[١] وبالمَغْنَمِ ... كذا قدومُ الملِكِ المقدَّمِ
يا قاتلَ الكُفْرِ وأحزابِه ، ... بالسيف[٢] والدينارِ والدرهمِ
قميصُك الموروثُ عن يوسفٍ ... ما جاء إلا صادقاً فى الدمِ
أغثتَ تِبْنين وخلَّصتها ... فريسةً من ماضِغَىْ ضَيْغَمِ

ومنها :

فَرُدَّهَا سالمةً منهُمُ ... مِنْ بَعْدِ أن قيل[٣] لها سَلِّمى
ما انهزمتْ وانهزموا دونها ... متى غزا جيشاً ولم يُهْزَمِ ؟ !

ومنها :

لا عَدِمَ الإسلامُ عثمانَهُ ... مُصْطَلِى الداهيةِ العَيْلَمِ
شِنْشِنَةٌ تُعرفُ من يُوسُفٍ ... فى النصرِ[٤] لا تُعرف من أَخْزَمِ
ثُمَّ انْثَنَى مِنْ وَجْهِه ظَافِراً ... والسَّيْفُ لم يُثْلَب ولم يُثْلَمِ
وَجاءَ لَمَّا جاءَنَا بالحَيَا ... وعَادَ لَمَّا عَادَ بالأَنْعُمِ
مَقْدِمُهُ صارَ جُمادَى به ... كَمِثْلِ ذى الحجةِ ذا موسمِ[٥]

---

(١) الديوان : « بالنصر » .

(٢) الأصل : « والسيف » ، والتصحيح عن (ك) وهذا البيت والذى يليه غير موجودين فى الديوان .

(٣) الديوان : « من بعد ما قيل » .

(٤) الأصل : « المصر » ، والتصحيح عن (ك) ، والديوان : « فى النصر دع تعرف من أخزم » .

(٥) القصيدة فى الديوان أكثر أبياتا مما هى هنا ، وهنا كذلك أبيات لاتوجد فى الديوان .

ذكر الهدنة مع الفرنج

وأقام الملكُ العادل يوالى الغارات على الفرنج ، ويقصدهم بنفسه وجموعه مرة بعد أخرى ، إلى أن أضجرهم وأسأمهم ، فراسلوه فى طلب الصلح ، فأجاب إليه ، وحلَّف أمراء عسكره لهم ، وأنفذ إلى مقدمى الفرنج مَنْ استحلفهم(١).

واستقرت الهدنةُ ثلاث سنين ، وأمن الناسُ شرَّهم ، ورجع الملكُ العادلُ إلى دمشق ، وتفرقت الجند [جميعها إلى بلادها](٢) .

ذكر وفاة

عماد الدين صاحب سنجار

وقيام ولده قطب الدين محمد مقامه

وفى هذه السنة توفى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى — صاحب سنجار ونصيبين والخابور — ، وكان شهماً شجاعاً .

فملك هذه البلاد بعده ولدُه قطبُ الدين محمد ، وقام بتدبير مملكته مملوكُ والده مجاهد الدين يرنقش(٣) .

وعزم ابنُ عمه(٤) نورُ الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى — صاحب الموصل — على قَصْد نصيبين وأخذها من قطب الدين ، وكان الحاملُ

---

(١) (س) : « الفرنج وملوكهم فحلفهم » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٣) (ك) : « برنقش » ، و س : « يرنقش » .

(٤) (ك) : « عمه » ، أما (س) فالنص فيها « وعزم نور الدين » .

له على هذا العزم[١] أن عماد الدين — صاحب سنجار —[٢] كان قد تعدّى على بعض أعمال الموصل ، وجرت بينهم مراجعاتٌ فى ذلك ، فلم يرجع عمادُ الدين عن تعديه ، ووصل إليه رسول من نور الدين فى معنى إعادة ما أخذ ، فأغلظ [عماد الدين][٢] القول للرسول وردّه خائباً .

فلما توفى عمادُ الدين جلس ابنُ أخيه نور الدين للعزاء فى الموصل [ثلاثة أيام][٢] ثم قصد نصيبين فنازلها وأخذها ، وكان قطبُ الدين بها فاحتمى بقلعتها ، ثم هرب منها هو وأتابكه مجاهد الدين يرنقش ليلاً[٣] إلى ديار بكر ثم إلى حرّان[٣] .

ثم دخل نور الدين قلعة نصيبين ،[٤] وملكها وملك بلادها[٤] ، وراسل قطبُ الدين الملكَ العادلَ ، وبذل له الأموالَ الكثيرةَ لينجده على نور الدين ، ويعيد إليه نصيبين ، [فأجابه إلى ذلك][٢] .

ولما ملك نورُ الدين نصيبين وقع المرضُ بكافة أمرائه[٥] ، وعاد إلى الموصل وقد توفى منهم جماعة .

ثم رجع نور الدين إلى الموصل (١٢٤ ا) لما بلغته حركة الملك العادل إلى الشرق .

ثم رجع قطب الدين إلى نصيبين فملكها .

---

(١) (س) : « على ذلك » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٣) (س) : « إلى بلده سنجار » .

(٤) النص فى (س) : « منازلها وأخذها ، واستولى على ما فيها من الذخائر وملك جميع بلادها » .

(٥) النص فى (س) : « وقع فى مرض هو وجميع أمرائه ، وبلغه حركة الملك العادل إلى البلاد الشرقية » .

ذكر توجه

الملك العادل إلى البلاد الشرقية

ومنازلته ماردين وأخذ رَبَضها[١]

وورد على الملك العادل كتابُ النظام مدبر مملكة حسام الدين يُولَقْ[٢] أرسلان بن إيلغازى بن ألبى الأرتق — صاحب ماردين — يستدعيه ليسلم إليه ماردين ، ويأخذ منه عوضاً عنها .

ووردت عليه رسلُ قطب الدين —صاحب سنجار— يستدعيه إلى نجدته[٣] .

فسار الملك العادل إلى الشرق ، وقطع الفرات ، فلما وصل البلاد لم يَفِ له النظام بما تقرر بينهما باطناً ، وندم على ما كاتبه به ، فبعث الملكُ العادل إلى ابنىْ أخيه : الملك العزيز ، والملك الظاهر ، يستنجد بهما ، فوصله عسكرٌ من مصر وهم ألفا فارس[٤] ، ووصله عسكر من حلب ، عدتهم خمسمائة فارس ، مقدمهم سيف الدين بن علم الدين بن جندر[٥] .

ونازل الملكُ العادلُ ماردين ، وجدَّ فى حصارها ومضايقتها ، فعُدمت بها الأقوات ، وأصاب أجنادها مرض عظيم ، وملك الملكُ العادلُ الرَّبَضَ ونهبه ، وبقى[٦] محاصراً للقلعة .

---

(١) (س) : « أرضها » .

(٢) (س) : « ترلو » .

(٣) (س) : « نصرته » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) بعد التصحيح ، فالنص هناك : « وهم ألفين فارس » .

(٥) (س) : « حيدر » .

(٦) (س) : « وجدَّ فى محاصرة القلعة » .

وفى هذه السنة توفى الأمير غرس الدين قِلِج النورى ، وكان أميراً جليلا ، وكانت بيك [قلعتا][1] الشغر وبَكَّاس، وشقيف دركوش ، وهذه الحصون أعطاها السلطان الملكُ الناصرُ غرسَ الدين قِلِجْ — كما تقدم ذكره — ، فلما مات غرسُ الدين عصى [ابنه][1] شمسُ الدين محمود بن قِلِجْ — وهو الأكبر — بالشغر وبَكَّاس ، وعصى أخوه سيفُ الدين على شقيف وركوس [على الملك الظاهر صاحب حلب][1] .

فقصد الملك الظاهر شقيف وركوش ، ونصب عليه المجانيق وضايقه ، وطلب سيف الدين قِلِجْ الأمان [فأمّنه][1] وسلَّم [إليه][1] الحصن [على ما تقرر بينهما][1] ؛ ثم توجّه الملكُ الظاهرُ إلى الشغر وبكّاس ، ونصب عليها تسعة مجانيق ، وحصرها أربعة أيام ، فطلب شمسُ الدين الأمانَ ، وأجاب إلى التسليم ، وبعث أخاه عماد الدين أبا بكر فأخذ له الأمان ، وقرّر حاله على أن يخرج بماله ورجاله ، وجميع ما فى القلعتين من سلاح وذخائر ، وأن يُعطى خُبزاً مبلغه خمسون ألف دينار ، ثم عوّض الملكُ الظاهرُ (٢٤ ب) شمسَ الدين عن ذخائر القلعتين بضيعة [كبيرة][1] من جبل السُماق .

وكان تسلم [الملك الظاهر][1] هذه الحصون فى ذى الحجة من هذه السنة .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة :

والملك العادل مضايق قلعة ماردين ، وقد أشرف على أخذها .

ذكر وفاة الملك العزيز

عماد الدين عثمان بن الملك الناصر — رحمهما الله —

وكان الملك العزيز فى ذى الحجة من السنة الماضية قد عزم على التوجه إلى اسكندرية ودمياط للنظر فى مصالحهما ، فبرز فى السادس والعشرين من الشهر إلى ذات الصّفا[1] ؛ وأقام بها متصيداً إلى سابع المحرم من هذه السنة ، فاعترضه ذئب فركض خلفه ، فعثر به فرسه ، فسقط إلى الأرض [فحُمّ من ساعته][2] .

ثم ركب وهو محموم ، وعاد إلى[3] الأهرام ، وقد اشدت حُماه ؛ ثم توجه إلى القاهرة[4] فدخلها يوم عاشوراء ، وحدث به يرقان وقرحة فى المعا ، ثم احتبس

(١) (ك) : « دار الصفا » وما بالمتن هو الصحيح ، وهى من القرى المندرسة ، وقد ذكرها صاحب (التحفة السنية ، ص ١٥٤) ضمن الأعمال الفيومية ، وقد يفهم من النص هنا أنها بين القاهرة والإسكندرية ، ولكن الصحيح أنها من قرى الفيوم ، يؤكد هذا ما ذكره المؤرخون الآخرون عن وفاة الملك العزيز ، قال ابن خلكان : « وكان قد توجه إلى الفيوم ، فطَرَدَ فَرَسَه وراء صيد فتقنطر به فرسه فأصابته الحمى من ذلك ، وحمل إلى القاهرة فتوفى بها » ، وقال سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان : وكان سبب وفاته أنه خرج إلى الفيوم يتصيد ، فلاح له ظبي ،فركض الفرس خلفه ، فكبا به الفرس ، فدخل مَربوسَ السرج فى فؤاده فحمل إلى القاهرة .. إلخ » . انظر أيضاً : (ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ١٢٨ — ١٣٠) و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، وفيات سنة ٥٩٥) و (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الأول : البلاد المندرسة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٦٤) .

(٢) مابين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٣) (ك) : « وسار عماد الدين إلى الأهرام » :

(٤) (س) : « إلى مصر » .

طبعه أياماً ، وانتقل إلى رحمة الله ورضوانه منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم .

فكانت مدة ملكه ست سنين إلا شهراً .

وكانت مدة عمره سبعاً وعشرين سنة وأشهراً .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان فى غاية السماحة والكرم والعدل ، والرفق بالرعية والإحسان إليهم .

فكانت الرعية ، يحبونه محبةً شديدة ، وفجعوا بموته فجيعة عظيمة ، إذ كانت الآمال معاقة بأنه يقوم مقام والده ، ويسدُّ مسدَّه .

وقد ذكرنا أن عمه الملك العادل وأخاه الملك الأفضل لمّا قصداه ، ونازلا بلبيس وحاصراها ، وأشرف ملكه على الزوال ، بذلت له الرعيةُ أموالَها ليذبَّ بها عن نفسه ، فامتنع مع شدة حاجته فى ذلك الوقت إلى المال .

وقد حُكى أنه لما امتنع من أخذ مال الرعية ، أشير عليه بأن يقترض من القاضى الفاضل ، فإن أمواله عظيمة ، وهو غير محتاج إليها ، فامتنع من مخاطبة القاضى الفاضل (١٢٥) فى ذلك ، فألحوا عليه فى ذلك حتى أجاب ، وأرسل إلى القاضى الفاضل يستدعيه ، فحضر ، وكان الملك العزيز فى منظرة من دار الوزارة مطلة على الطريق ، فلما رأى القاضى الفاضل مقبلا لم يتمالك من شدة الحياء ، ودخل إلى دار الحرم .

فراسلت الأمراء الملك العزيز وشجعوه حتى خرج واستدعى القاضى الفاضل ، وقال له — بعد أن أطنب فى الثناء عليه والتقريظ له — : قد علمتَ أن الأمور

قد ضاقت عليّ ، وقلّت الأموالُ عندى ، وليس لى إلا حسن نظرك و إصلاح الأمر لنا بمالك أو برأيك أو بنفسك »

فقال له القاضى الفاضل :

« جميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم أولا الرأى والحيلة ، ومتى احتِيج إلى المال فهو بين يديك » .

ووردت رسالة الملك العادل إلى القاضى الفاضل [١] باستدعائه ، وجرى من انتظام الحال ما قدمنا ذكره .

ولقد حُكى عنه ما هو أبلغ من هذا وأحسن ، وهو أن عبد الكريم بن على البيسانى [٢] أخا القاضى الفاضل كان يتولى الحكم والإشراف بالبحيرة مدة طويلة ، وحصّل من ذلك أموالا جايلة ، وكان الناس يحترمونه لأجل القاضى الفاضل ، فجرت بينه و بين أخيه نَبْوَةٌ أوجبت اتضاع حاله عند الناس ، فصُرف عن عمله ، وكان متزوجاً بامرأة من قوم ٍ ذوى قَدْرٍ و يسار ، يعرفون ببنى ميسّر .

فلما صُرف عن عمله انتقل إلى الإسكندرية ومعه زوجته ، فضايقها وأساء عشرته معها لسوء خلقٍ كان فيه .

واتصل ذلك بأبيها ، فتوجه نحو الإسكندرية ، وأثبت عند حاكمها ضررها ، وأنه قد حصرها فى محل ضيق من داره ، فمضى القاضى بنفسه إلى الدار التى فيها الزوجة ، ورام فتح الباب الذى هى فيه فلم يقدر عليه ، فأحضر شهوداً ، وأحضر نقّاباً ، فنقب جانب الدار ، واستخرج المرأة ، وسُلمت إلى أبيها ، ثم أحضر بنّاء [٣] فسدّ ذلك النقب [٤] .

---

(١) (ك) : « ووردت رسالة الملك العادل إلى الملك العزيز باستدعاء القاضى الفاضل » .

(٢) (س) : « النيسابورى » وهو خطأ واضح .

(٣) الأصل : « نقابا » ، وما أثبتناه صيغة (ك) وهى أفضل .

(٤) الأصل : « البيت » وما هنا صيغة (ك) وهى أفضل .

واتصل ذلك بعبد الكريم ، فاهتاج على قاضى الإسكندرية بسببه ، وعزم على أن يبذل بذلا ، ويأخذ منه قضاء الإسكندرية .

فقصد الأمير فخر الدين جهاركس (٢٥ ب) ومعه خمسة وأربعون ألف دينار مصرية ، وقال له : « هذه خمسة آلاف دينار لخزانتك[١] ، وهذه أربعون ألف دينار برسم خزانة السلطان ، وأُوَلَّى قضاء الإسكندرية » .

فأخذ جهاركس المال ، ووعده بقضاء الشغل ، واجتمع بالملك العزيز ليلا[٢] ، وأحضر المال بين يديه ، والملك العزيز حينئذ فى غاية الضرورة إلى بعض ذلك المال ، وقال : « هذه خزانةُ مال أتيتك بها من غير طلب ولا تعب » .

فقال : « من أى الجهات ؟ » .

فذكر له الحال .

فأطرق ملياً ، ثم رفع رأسه وقال :

« أعد المال إلى صاحبه ، وقل له : إياك والعود إلى مثلها ، فما كل ملك يكون عادلا ، وعرِّفه أننى إذا قبلت هذا القدر منه إنما أكون قد بعتُ [به][٣] أهل الإسكندرية ، وهذا لا أفعله أبداً » .

قال فخر الدين جهاركس : « فلما سمعت ذلك منه وجمتُ وجمةً ظهرت سِمَتُها فى وجهى ، فقال لى :

---

(١) (ك) : « برسم خزانتك » .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) و (المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ١٢٧) حيث أورد هذه القصة مع اختلاف يسير فى الألفاظ ، وأغلب الظن أنه كان ينقل فى هذا الموضع عن ابن واصل .

« أراك واجماً ، وأظنك أخذت شيئاً على الوساطة[1] له ؟ » .

فقلت : « نعم »[2] .

فقال : « كم أخذت ؟ » .

فقلتُ له : « أخذتُ خمسة آلاف دينار » .

فأطرق كإطراقه أولا ، ثم قال :

« أعطاك ما لا تنتفع به إلا مرة واحدة ، وأنا أعطيك فى قبالته ما تنتفع به مرات عديدة » .

ثم أخذ القلم ، ووقَّع لى بخط يده بإطلاق جهة [3]تعرف بطنبذا[3] كنت أستغلها فى السنة سبعة آلاف دينار » .

رحمه الله ورضى عنه .

---

(١) (س) : « على الرشا ، فلهذا قد وجمت » .

(٢) (س) : « فقلت نعم قد أخذت خمسة آلاف دينار » .

(٣) هذان اللفظان غير موجودين فى (س) ، هذا وقد رجعت إلى معظم الكتب الجغرافية لمصر الإسلامية فلم أجد بها بلدة بهذا الإسم ، وأرجح أن يكون الرسم الصحيح لها « طنبشا » التى ورد ذكرها فى : (ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٨٥) وخاصة أنه ذكر إلى جانبها أن عبرتها ٧٢٠٠ دينار ، وأنها كانت للمقطعين ، وهذا مبلغ قريب جدا من مقدار ما كانت تغله على جهاركس ، وهو ٧٠٠٠ دينار .

ذكر تمليك

الملك المنصور ناصر الدين محمد[1]

ابن الملك العزيز الديار المصرية

وخلف الملكَ العزيزَ الملكُ المنصورُ محمد ، وكان عمره يوم توفى والده تسع سنين وشهوراً .

وكان الغالبُ على أمر[2] الملك العزيز فخرَ الدين جهاركس — وهو الحاكم فى الدولة — فأحضر رجلاً[3] من أصحاب الملك العادل وأراه الملك العزيز ميتاً، وسيّره إلى الملك العادل وهو محاصر ماردين ، يستدعيه إلى البلاد ، فسار القاصدُ مجدًّا .

فلما كان بالشام رأى بعض أصحاب الملك الأفضل ، وقال له :

« قل لصاحبك إن أخاه الملك العزيز قد توفى ، وليس فى البلاد من يمنعها ، فليسر[4] إليها » ، [فأخبر الملك الأفضل بذلك][5] فلم يلتفت الأفضل إلى هذا القول (١٢٦) .

ومضى القاصد إلى الملك العادل فأخبره ، فتوقف ليرد عليه بعد ذلك ما يعتمد عليه .

وكانت الفرقةُ الأسدية والأكرادُ محبين للملك الأفضل ، مؤثرين له ؛

---

(١) ك : (أحمد) وهو خطأ .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (ك) و (س) .

(٣) (ك) : « فأحضر رجلان من أصحاب الملك العادل وأراهما الملك العزيز ميتا ، وسيره إلى الملك العادل » وهو خطأ واضح .

(٤) (س) : « فليمض » .

(٥) مابين الحاصرتين زيادة عن س (ج ١ ، ص ١٣٧ ا) .

والفرقةُ الصلاحية بالعكس من ذلك ، لما كانوا قدموه من الإساءة إليه ، وممالأة الملك العزيز عليه[١] ، فكانوا مستوحشين[٢] منه[٣] .

فاجتمع فخر الدين جهاركس مقدِّمُ الصلاحية ، وسيف الدين يازكوج مقدّم الأسدية ، ليتفقا على من يولى الملك .

فقال فخر الدين : « نولى ابن الملك العزيز » .

فقال سيف الدين : « إنه طفل ، وهذه البلاد ثغر الإسلام ، ولا بد لها من قَيِّمٍ يجمع العساكر ويقاتل بها ، والرأىُ أنَّا نجعل المُلْكَ فى هذا الطفل ، ونجعل معه بعض أولاد السلطان الملك الناصر يدبره إلى أن يكبر ، فإن العساكر لا تنقاد[٤] إلا لأمير » .

وكان الملكُ العزيز أوصى بالملك لولده ، وأن يكون مدبرُه بهاء الدين قراقوش الأسدى .

فاتفق فخر الدين [جهاركس] وسيف الدين على هذا الرأى .

فقال فخر الدين : « فَمَنْ نولى ؟ »

فأشار سيف الدين بغير الملك الأفضل لئلا يُتَّهم .

فامتنع فخر الدين من ولايته .

فلم يزل يذكر من أولاد السلطان واحداً بعد واحد إلى أن ذكر الملك الأفضل .

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك) و (س) .
(٢) (ك) : « متوحشين » .
(٣) النص فى (س) : « فكانوا مستوحشين من الملك العزيز وخائفين من ابنه أن يتملك »
(٤) (ك) : « فان العساكر بانتقادالأمير » .

فقال فخر الدين : « هو بعيد عنا » .

فقال سيف الدين : « نطلبه من صرخد ، [1] فيصل إلينا بسرعة [1] » .

فشرع فخر الدين يغالطه .

فقال سيف الدين : « نشاور القاضى الفاضل فى ذلك » .

ثم اجتمعا بالقاضى الفاضل ، وعرّفاه صورة الحال ، فأشار الملك الأفضل .

هذا ما حكاه عز الدين بن الأثير :

وحكى غيره : أنه لما مات الملك العزيز اتفقت كلمة الأمراء على تنفيذ ما وصّى به الملك العزيز ، وهو إقامة ابن الملك العزيز فى الملك ، وقيام بهاء الدين قراقوش بأتابكيته ؛ فأجلسوا الملك لمنصور فى مرتبة أبيه ، وترتب بين يديه قراقوش ، وحلفت الأمراء كلهم للملك المنصور ، وامتنع عمّاه : الملك المؤيد ، والملك المعز من الحلف [2] إلا بشرط أن تكون الأتابكية لهما ، وجرت بينهما منازعة ومشاققة كثيرة ، وأجابا بعد ذلك إلى الحلف [2] ، وحلفا .

ثم وقع الاختلاف بين أمراء الدولة ، (٢٦ ب) فقال قوم منهم : « لابد لهذا المُلك من رجلٍ فحلٍ مهيب يدبّره ، وقراقوش مضطرب الآراء ، ضيق العطن ، لا يصلح لهذا الأمر » .

وقال قوم : « نرضى بهذا الخادم ، فإنه أطوع وأسلس [3] مقادة ، ولا نحضر من يستطيل بسطوته [4] وقدرته » .

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك) .

(٢) س : « من الأيمان » .

(٣) (س) : « وأسوس » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

وقال آخرون : « لا تحفظ هذه الديار إلا بملك مرهوب مخوف ، وإن فيها بقايا من جند المصريين الذين [1] انتزعت البلاد من أيديهم قهراً ، ويقصدها أعداء الدين[1] من جهة البحر ، فمتى لم يقم بأمرها ملكٌ قاهر لا تحفظ » .

وطال النزاع بينهم فى ذلك ، ففزعوا إلى رأى القاضى الفاضل ، فقال لهم القاضى الفاضل : « إنى لا أشير عليكم بعزل أحد ولا ولاية أحد ، لأن ذلك مما لا يوافق بعضكم فأستجلب عداوته ، [2] ولكن اجتمعوا بعضكم ببعض وامخضوا بينكم الرأى ، فإذا رضيتم أمراً فاعرضوه علىّ ، ففعلوا ما أشار به ، وتحاولوا بينهم الآراء ثلاثة أيام[2] ، فاتفقت كلمتهم على مكاتبة الملك الأفضل على أن يقدم البلاد ، ويكون أتابكا للملك المنصور سبع سنين ، فإذا انتهى هذا الأجل سُلِّمَ الأمر إليه والتدبير ، ويشترط على الملك الأفضل أن لا يرفع فوق رأسه سنجق ، ولا يذكر إسمه فى خطبة ولا سِكَّة .

ولما اتفقوا على ذلك عرضوه على القاضى الفاضل .

فقال : « قد أصبتم الرأى ، واخترتم الذى اختاره السلطان الملك الناصر — رحمه الله — لكم ، وهو ألين عريكة ، وأسهل تناولا من غيره » .

فأرسلوا القصاد إلى الملك الأفضل يستدعونه ، فلما وصلته القُصَّادُ توجه إليهم مجدا .

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك) .

(٢) هذه الفقرة ساقطة من(ك) .

ذكر قيام

الملك الأفضل بأتابكية

ابن أخيه الملك المنصور بن الملك العزيز

وكان مسير الملك الأفضل من صرخد إلى الديار المصرية لليلتين بقيتا من صفر [١] من هذه السنة [١] ، فى تسعة عشر نفساً ، متنكّراً خوفاً على نفسه من أصحاب الملك العادل .

ولما تقرر أمرُ الإرسال إليه فى طلبه ارتأى فخر الدين جهاركس فى نفسه ، وتحقق أن الملك الأفضل لا يصلح له ، فكاتب فارس الدين ميمون القصرى (١٢٧ ا) صاحب نابلس يشرح له الحال ، ويعلمه أنه غير راضٍ بما جرى ، وأمره أن لا يطيع الملك الأفضل ولا يحلف له ؛ فوقع الملك الأفضل بالقاصد الذى سيّره فخرُ الدين إلى ميمون ، فأخذ منه كتاب فخر الدين فوقف عليه ، ثم قال له : « ارجع فقد قضيت الحاجة » .

وسار الملك الأفضل مجدا وصحبته ذاك القاصد ، وكان الأمراء قد أخرجوا خيمهم إلى بلبيس ، [٢] ونزلوا بها منتظرين وصول الملك الأفضل [٢] ثم وصل الملك الأفضل بلبيس خامس ربيع الأول ، وكان وصوله إليها من صرخد فى سبعة أيام .

ولقيه أخوته والأعيان والأمراء ، وعمل له أخوه الملك المؤيد نجم الدين مسعود طعاما ، وعمل له فخر الدين جهاركس طعاما ، ووطّن نفسه على نزول الملك الأفضل عنده ، فنزل الملك الأفضل فى خيمة الملك المؤيد ، فشقّ ذلك

---

(١) هذه الكلمات ساقطة من (ك) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك)

على فخر الدين ، (١ وجاء إلى خدمة الملك الأفضل ، فقام إليه وأكرمه وأجلسه قريباً منه .

ثم لما فرغ من طعام أخيه صار إلى خيمة فخر الدين جهاركس فنزل فيها وأكل طعامه (١) ، فحانت من فخر الدين التفاتة ، فرأى قاصده الذى كان أرسله إلى ميمون القصرى ، فدهش (٢ لذلك وأسقط فى يده (٢) ، واستوحش باطنه لعلمه بوقوف الملك الأفضل على سوء نيته ومقصده ، فاستأذن الملكَ الأفضلَ فى التوجه إلى العرب المختلفين بمصر (٣) للإصلاح بينهم ، فأذن له .

فخرج ، واجتمع (٤) بزين الدين قراجا ، وأسد الدين سرا سنقر ، واتفق معهما على مفارقة الملك الأفضل ، وأعلمهما أنه لا ينصلح لهم ، فوافقاه على ذلك ، (٥ وسار مجدا إلى القدس ، واتّبعاه ، فوجدوا شجاع الدين طغرل السلحدار متوجها إلى مصر ، فردُّوه معهم ، وقدموا القدس ، واستمالوا ختاخ العزّى وإليه ، فمال إليهم واستمالوا عز الدين أسامه ، و ميمون القصرى ، فقدما عليهم (٥) ، ومع ميمون سبعمائة فارس منتخبة .

ثم اتفقت كلمتُهم على مكاتبة الملك العادل يستدعونه (٦ ليقوم بأتابكية الملك المنصور (٦) ، وورد جوابه إليهم : أن لا يفارقوا مكانهم حتى يفرغ من ماردين ، ويصل إليهم .

---

(١) هذه الفقرة ساقطة من (ك)

(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك)

(٣) هذا اللفظ ساقط من (ك)

(٤) (ك) : « فخرج واجتمع »

(٥) النص فى (ك) مختلف ، وصيغته : « وساروا مجدين إلى القدس ، واستمالوا صارم الدين قايماز ، ووجدوا شجاع الدين طغرل السلحدار متوجها إلى مصر ، فردوه معهم ، واستمالوا عز الدين أسامة وميمون القصرى ، ومع ميمون .. الخ »

(٦) هذه الجملة ساقطة من (ك)

ثم سار الملك الأفضل (٢٧ ب) من بلبيس إلى القاهرة ، وكان الملك المنصور قد خرج إلى لقائه ، فترجّل له الملك الأفضل ، ودخل[١] بين يديه إلى دار الوزارة ، وهى كانت مقر السلطنة .

وكتب الملكُ الأفضل إلى عمه الملك العادل بأنه غير خارج عن الذى يأمره به ، وأنه تحت حكمه ، [٢] ويستطلع أوامره ونواهيه [٢] فيما يعتمده ، فورد جوابه عليه بأن الملك العزيز [٣] إن كان قدمات عن غير وصية فليكتب الأعيان خطوطهم له بذلك وشهاداتهم له ، حتى يرى رأيه ؛ وإن كان قد مات عن وصية فلا يعدل عنها ، ولا ينبغى له التعرض إلى ديار مصر [٣] .

ذكر مسير
الملك الأفضل إلى دمشق

وعزم الملكُ الأفضلُ على قبض من بقى عنده من الأمراء الصلاحية ، فهرب بهرام الرومى ، وبهرام القاجى ، وفخر الدين الحجاد[٤] وجماعة من المغاردة[٥] لما علموا ذلك ولحقوا بالقدس .

---

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك)

(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك)

(٣) النص فى (ك) يختلف عما هنا ، وصيغته : « إن مات عن غير وصية فليكتب الأعيان خطوطهم ، وإن مات عن وصية فلا يعدلوا عنه ، ولا ينبغى له التعرض إلى مصر »

(٤) كذا فى الأصل ، وفى (ك) : « فخر الدين الحاجب » وفى س (ص ١٣٩ ا) : فخر الدين السكنداني » ، ولم أستطع ترجيح إحدى القراءات إذا لم يرد لهذا القائد ذكر فى المراجع الأخرى التى أرخت لهذا العصر .

(٥) هذا نص له أهمية قصوى لمن يدرس تاريخ الجيش فى العصر الأيوبى والمملوكى ، فهو يدل على أن لفظ « المغاردة » استعمل فى الجيش الأيوبى منذ بدايته ، والمغاردة (جمع مغردى) نوع من عساكر الجيش فى ذلك العصر ، وأغلب الظن أنهم كانوا أحرارا ولم يكونوا من المماليك ؛ ففى كتاب السلوك للمقريزى مثلا نصوص مختلفة ذكرت المغاردة على أنهم عنصر آخر غير المماليك =

وقبض الملك الأفضل على من بقى[1] ، منهم علاء الدين شقير ، وعز الدين البكى[2] الفارس ، وأيبك فطيس .

وبرز الملك الأفضل إلى بركة الجب[3] ، وأقام بها أربعة أشهر ، واستحلف بها الأمراء والجند .

وبلغه عن أخيه الملك المؤيد [مسعود][4] أنه يريد الوثوب عليه[5] ، فقبض عليه[6] ، واعتقله ، وأرسل الملكُ الظاهرُ موفقَ الدين بن النحاس إلى الملك الأفضل يحرضه على سرعة السير إلى دمشق ، واغتنام الفرصة فى أخذها .

فلما مرّ موفقُ الدين بالقدس قبض عليه الصلاحية وأهانوه ، ثم استخلصه منهم ميمون القصرى ، وردّه إلى حلب ، فأرسل الملك الظاهر وزيره نظام الدين الكاتب ، وحمّله رسالة إلى الصلاحية بالقدس ، يعرفهم أنه إنما أرسل إلى أخيه فى إصلاح ذات البين ، وحمّله رسالة فى الباطن إلى الملك الأفضل يستحثه فيها على الخروج ، وأمر نظام الدين أن لا يفارقه حتى يخرج .

= منها على سبيل المثال : « وجمعت الأمراء والمناردة وغيرهم ، وقرئت عليهم الكتب » (السلوك ٤٨٠/١) ، و « خلع (السلطان على الأمراء والمناردة والمقدمين وجميع حاشيته وغلمانه » (السلوك ٤٩٣/١) و « وأعطى الأجناد والمناردة من الحلقة والمقدمين والبحرية » (٥٠٧/١) و « وخلعه لكل مفردى أو مملوك أو جندى (السلوك ، ٩٢٢/١) .. إلخ وأغلب الظن كذلك أنهم سموا بهذا الإسم لتبعيتهم المباشرة لديوان المفرد ، وكانت تخرج منه نفقة المماليك من جامكيات وعليق وكسوة الخ

(١) النص فى (ك) وهربوا إلى القدس ، وبقى منهم علاء الدين .. الخ

(٢) (ك) : «عز الدين أيبك» وما بالمتن هو الصحيح ، فهكذا رسم الاسم فى (ابن الأثير الكامل ، ج ١٢ ، ص ٥٥ و (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٨)

(٣) (ك) : « بركة الحبش » وهو خطأ واضح ، أنظر مافات هنا ، ص

(٤) زيد مابين الحاصرتين عن (المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٨) حيث ينقل عن مفرج الكروب .

(٥) (ك) : « إليه »

(٦) هذان اللفظان ساقطان من (ك)

فاجتمع نظـــام الدين مع الصلاحية وخدعهم حتى مكنوه من الذهاب إلى مصر[١] ، [ورجع نظام الدين إلى حلب ، فوصل موفق الدين إلى عند الملك الأفضل ، وأخبره بمـا قال الملك الظاهر][٢] .

ثم رحل الملك الأفضل من البركة ثالث رجب سائرا الى دمشق ، وكاتبت الصلاحيةُ الملكَ العادلَ يخبرونه بقصد الملك الأفضل دمشق .

ذكر وصول

الملك الأفضل إلى دمشق ومنازلته لها

ورتّب الملك العادل ولده الملك الـكامل ناصر الدين محمدا على حصار قلعة ماردين ، وسار فى مائتى فارس إلى دمشق مجداً ، ودخلها فى ثمانية أنفس ، وتبعه الباقون ، ومن جملتهم بدر الدين دُلدرم الياروقى ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين — صاحب عين تاب — ، وكان دخوله إليها قبل منازلة الملك الأفضل لها بيومين .

ونزل الملك الأفضل على جسر الخشب ثالث عشر شعبان ، وزحف من الغد إلى البلد ، وجرى قتال عظيم ، ثم تقدم الملك الأفضل إلى الشرفين[٣] والميدان الأخضر ، وضرب دهليزه به .

---

(١) هذه الفقرة ساقطة من (ك).
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س.
(٣) (س) : « الباب الشرقى » .

ذكر هجوم

بعض العسكر دمشق ثم خروجهم عنها مقهورين

وتقدم مجدُ الدين أخو الفقيه عيسى الهكارى فى جمع [قليل][1] من العسكر قليل ، فهجموا على دمشق من باب السلامة[2] ، بموافقة أمير يقال له شجاع [الدين][3] يونس من الأكراد فدخلوا دمشق واخترقوها ، ووصلوا إلى باب جيرون وباب البريد[4] ، وشرب بعضهم الفقاع فى المدينة ، فكاد العسكر الذى بها يستسلم ، ونزلوا عن الأسوار .

وصاح مجد الدين : « يا أفضل يا منصور » ، وصاحت [5] معهم العامة . لميلهم كان إلى الملك الأفضل[5] ، ولم يتصل بهم مدد من خلفهم ، وطمع الجند[6] الذين فى البلد فيهم فطاردوهم ، وخافوا لما رأوا أنه لا مدد لهم من ورائهم ، فطلبوا باب الفراديس ، وكسروا أقفاله ، وخرجوا منه .

وخرج الملك العادل من القلعة طالباً باب السلامة ، فوجد ابن أخيه الملك الظافر قد قصده ، ودخل منه جماعة ، فحمل عليهم الملك العادل ، ومعه بدر الدين دلدرم الياروقى ، وعز الدين بن المقدم ، وجماعة يناهزون سبعين فارسا ، فأخرجوهم

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك)

(٢) سمي بهذا الاسم تفاؤلا ، لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار راجع : (ابن شداد : الأعلاق الخطيرة — تاريخ مدينة دمشق — ، ص ٣٥)

(٣) مابين الحاصرتين زيادة عن (ك)

(٤) للتعريف بهذين البابين أنظر المرجع السابق .

(٥) صيغة (ك) : « وصاحت العامة مثلهم »

(٦) (ك) : « الخيل »

من البلد[١] ؛ ثم أمر الملك العادل بغلقه [٢] وحفظه على سائر الأبواب[٢] ، ورتّب على كل منها [٣] جماعة .

وقفز إلى البلد [الأمير][٤] رأس الكبش ، وسنقر العزيزى[٥] ، وغيرهما (٢٨ ب) فخلع الملك العادل عليهم وأحسن إليهم .

ذكر تأخر

الملك الأفضل إلى ذيل عقبة الكسوة

ثم قفز من عسكر الملك الأفضل [إلى دمشق][٦] طغرل المهرانى ، ومعه قطعة من العسكر ، فقويت نفس الملك العادل بذلك ، وكاتب علم الدين كرجى ، وعز الدين درباس المهرانى ، [٧] وذكّرهما ما كان بينه وبينهما من الصحبة ، وقال لهما : « إن بنى أخى لو ظفروا بى أهانونى ، وكسروا ناموسى ، وأنا مقصودى أن أذهب بمالى وأهلى وحرمى إلى الشرق وأترك لهم ملك مصر والشام ، فتساعدوننى بتفنيد الملك الأفضل عن الحرب ، وتوقفونه عنه ، فيحصل غرضى وغرضهم ، وتحصلون أنتم على الأجر » ؛ وبعث لهما مالا جزيلا .

---

(١) (ك) : « الباب » .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك)

(٣) (ك) « على كل باب منها » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٥) (س) : « وسيف الدين العزيزى » .

(٦) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٧) النص فى (ك) مختلف كثيراً عما هنا ، وهو : « وسيّر إلى علم الدين كرجي وعز الدين درباس المهرانى شيء (كذا) من المال وقال : اشتهي منكم تفندوا ابن أخي عن الحرب ، فان غرضى أتوجه إلى الشرق ، وأخلى لهم الشام ومصر ، فأشاروا على الأفضل بالتأنى ، فكاتب الملك العادل أمراء العسكر بالرغبة والرهبة ، فدخل إلى دمشق — الخ » .

فأشارا على الملك الأفضل بالتوقف ، وأن ينتظر قدوم الملك الظاهر ، فيقع الاتفاق معه على المصلحة ، فتوقف الملك الأفضل مدة .

وشرع الملك العادل فى تلك المدة يكاتب أمراء العسكر بالرغبة والرهبة وبذل المال ، فدخل دمشق جماعة من الأمراء منهم : سيف الدين على بن مهران ، وفخر الدين إياس البانياسى ، وحسام الدين عيسى بن خوشترين ، (١)وأخوه سيف الدين ، وسابق الدين مثقال الجمدار ، وجماعة من المفاردة ؛ وبذل لهم الملك العادل العطاء ، واستدان جملة من أموال التجار ، وأنفقها فى المقفرين إليه ، فتواصلوا إليه .

وعلم الملك الأفضل انتقاض أمره ، فتأخر إلى ذيل عقبة الكسوة(١) .

ذكر وصول
الملك الظاهر (٢)إلى ظاهر دمشق(٢)
نجدة لأخيه الملك الأفضل

ورحل الملكُ الظاهر من حلب (٣)متوجهاً إلى إنجاد أخيه الملك الأفضل(٣) ، ولما وصل إلى حماة اجتمع به صاحبها الملك المنصور ، وكان قد وافقه وحلف له ، فبعث معه شطراً من عسكره ، واستأذنه فى قصد بعرين ، وأخذها من عز الدين ابن المقدم ، فأذن له فى ذلك .

(١) صيغة (ك) مختلفة عما هنا ، ونصها : « وأخوه سابق الدين ، واستدان جملة من أموال التجار ، وبذل لهم الأموال ، فلما رأى الملك الأفضل ذلك تأخر إلى ذيل العقبة »

(٢) هذه الكلمات ساقطة من (ك) .

(٣) هذه الجملة ساقطة من (ك)

ولما وصل الملك الظاهر إلى (٢٩ ا) حمص خرج إلى خدمته صاحبها الملك المجاهد أسد الدين، وتوجه معه بعسكره[١].

[٢]ولما قدم الملك الظاهر إلى معسكر أخيه الملك الأفضل قوى قلبه به، ونزل فى ميمنة العسكر[٢].

ذكر تقدم
الملكين[٣] الأفضل والظاهر
إلى دمشق ومضايقتهما لها[٣]

[٤]ثم تقدم الملكُ الأفضل والملكُ الظاهر إلى دمشق، ونزلا فوق مسجد القدم، وأخذا فى الحرب والقتال، وقلّت الأقوات بدمشق، وطال على أهلها مدة الحصار[٤].

وكان الملكُ العادلُ قد بعث إلى الأمراء الصلاحية المقيمين بالقدس يستدعيهم إليه، فأقبلوا متوجهين إليه، ولما علم ذلك الملكُ الأفضلُ جرَّد عسكرا، وقدَّم عليهم الملك المجاهد — صاحب حمص — ليحولوا بين الصلاحية ودخول دمشق[٥]، ثم أردفهم بجماعة من الأسدية وعسكر حلب.

فقدمت الصلاحية إلى دمشق من غير الطريق التى توجه الملك المجاهد إليها،

---

(١) النص فى (ك): «جهز معه شطر عسكره (كذا)، ولما قدم الملك الظاهر إلى أخيه وكان قد شاوره صاحب حماة على حصار بعرين وأخذها من ابن المقدم»

(٢) الصيغة فى (ك): «ولما وصل الملك الظاهر إلى الأفضل قوى قلبه به».

(٣) هذا الجزء من العنوان غير موجود فى (ك)

(٤) الصيغة فى (ك) مختلفة عما هنا، ونصها: «ثم تقدم الملك الأفضل والملك الظاهر وباشرا القتال، وضايقا دمشق، وقلت الأقوات على أهلها»

(٥) النص فى (س): ليمنعوا الصلاحية من دخول دمشق».

ودخلوا من جهة عقبة مدره ، واستقروا بدمشق سالمين ، فقوى بهم الملك العادل .

ثم جرّد الملكُ الأفضلُ شجاعَ الدين جوهر الخادم ليقصد الغور وما يليه ، ويحمل الغلال إلى المعسكر، فسيَّر الملكُ العادلُ عزّ الدين أسامة، والجحّاف إلى مقاتلة جوهر ، وكان ميمون القصرى بنابلس ، فالتقى بعسكر الملك العادل بظهر حمار ، وانضاف إليهم ، ولقوا جوهرا وقاتلوه ، فأصاب جوهرا سَهْمُ غَرْبٍ كانت فيه منيته ، وولّي أصحابُه مدبرين .

فعظم على الملك الأفضل ، ومضى العسكر العادلى إلى القدس ، وأخذوا فى قطع الميرة الواصلة من مصر إلى عسكر الملك الأفضل ، فتضرروا بذلك [غاية الضرر][1] ، واشتدت مضايقة الملكَيْن الأفضل والظاهر لدمشق ، وقلّت الأقوات عند[2] الملك العادل فجعل يستقرض من التجار ويحيلهم على قلعة جعبر ، وكانت فيها أمواله ، [3]وتخرّق فى العطاء جداً لكنه أنس من الأجناد فشلا وضجرا[3] ، ونال أهل دمشق من الغلاء ما تمنوا معه الموت .

(٢٩ ب) وزحف الملكُ الظاهر يوماً إلى البلد ، ووصل الحلبيون النقابون إلى السور ونقبوه ، وما بقى لهم مانع دون البلد .

وعاد الملك الظاهر [عند انصرام النهار إلى مخيمه وهو][4] على عزم المباكرة والزحف .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) الأصل : « على » ، والتصحيح عن (س)

(٣) مكان هذه الجملة فى (س) : « وطلبوا منه العسكر نفقة فلم يجد شيئا يعطيهم ، فعند ذلك فشلوا عن القتال وضجروا ، فلما علم الملك العادل ذلك أيقن بذهاب دمشق منه »

(٤) مابين الحاصرتين زيادة عن (س)

وعزم الملكُ العادلُ على تسليم البلد لولا ماحدث من الاختلاف بين الملكَيْن على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وخرجت هذه السنة والبلد محاصر مضايق(١) .

ذكر استيلاء
الملك المنصور صاحب حماة على بَعْرين

(٢)وفى شهر رمضان من هذه السنة قصد الملك المنصور — صاحب حماة — بَعْرين ، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن المقدم ، وبعض جنده ، وضايقها مضايقة شديدة ، وجدَّ فى الزحف على قلعتها ، ونصب عليها المجانيق ، وحصلت له جراحَة حال الزحف ، ثم فتحها فى التاسع والعشرين من ذى القعدة(٢) .

وبعث إلى الملكَيْن الأفضل والظاهر يبشرهما بذلك ، فسُرَّا به كثيراً ، وأمرا فضُربت البشائر فى معسكريهما .

(٣)وأقام الملك المنصور بها مداوياً لجراحته ، وعيَّد عيد الأضحى بها ، وأصلح ما تهدم من سورها(٣) .

---

(١) الخلاف واضح جدا بين النسختين ، نسخة الأصل ونسخة كامبردج ، ويبدو أن نسخة كامبردج هى النسخة الأولى التى كتبها المؤلف ، ولكنه أعاد النظر فيها بعد ذلك ، فعدل فى النص كثيرا وأضاف إليه ، والنسخة المعدلة هي نسخة استانبول التى اعتمدناها أصلا للنشر هنا ، وخير مثال يؤكد ماذكرناه أن هذه السطور وتبلغ صفحة فى الأصل يقابلها فى نسخة (ك) سطور قليلة هذا نصها : « وأن العادل أرسل إلى الأمراء الصلاحية الذين فى القدس يستدعيهم ، فعلم الأفضل بذلك ، فجرد إليهم عسكرا ، فخالفوهم فى الطريق ، فوصلوا إلى دمشق سالمين ، وزحف الملك الظاهر يوما إلى البلد، ووصل النقابون إليه ، ولم يبق إلا أخذها ، لولا ماحدث من الاختلاف بين الملكين على ماسنذكره » .

(٢) الصيغة فى (ك) مختلفة ، ونصها : « فان الملك المنصور كما ذكرنا أخذ إذن الملك الظاهر وضايقها ، ونصب عليها المجانيق ، ثم فتحها فى التاسع والعشرين من ذى القعدة » .

(٣) هذه الفقرة ساقطة من (ك) .

ذكر رحيل

الملك الكامل بن الملك العادل

عن ماردين

وكانت رسلُ الملك الأفضل قد جاءت إلى نور الدين أرسلان بن مسعود — صاحب الموصل — تطلب منه موافقته[١] على الملك العادل ، فأجابه إلى ذلك ، وصالح ابن عمه قطب الدين بن عماد الدين — صاحب سنجار — ، واتفقا على إنجاد صاحب ماردين على الملك الكامل .

ثم سار نور الدين وقطب الدين بعساكر الموصل وسنجار والجزيرة ، ونزلوا أسفل جبل ماردين .

وشرع نور الدين فى جمع الرجَّالة ليزحف إلى الرَّبَض ، وبه الملك الكامل ، ويساعدهم عليه أهل القلعة من فوق .

ولو أقام الملك الكامل فى الرَّبَض لما تمكن عسكر الموصل منه ، وكان قد تمكن تمكنا شديداً ، وضاق خناق أهل القلعة حتى لم يبق إلا تسليمها إليه .

فاتفق أن الملك الكامل نزل إلى الوطا ، ولم يكن [ذلك][٢] رأياً ، فوقعت الحرب بين الملك الكامل والمواصلة ، وكانوا أكثر منه جمعاً ، (١٣٠ ا) فلم يثبت لهم ، وانهزم مصعداً إلى الجبل ، وأسر من أصحابه جماعة ، ثم أطلقهم نور الدين ؛ فرحل الملك الكامل ليلا إلى ميَّافارقين ، ثم منها إلى حرَّان .

---

(١) (ك) : « نجدته »

(٢) مابين الحاصرتين عن (س)

وفى هذه السنة توفى مجاهد الدين قايماز[١] نائب المملكة بالموصل ، وكان دينًا عادلا ، وهو الذى يُنسب إليه الجامع المجاهدى[٢] بظاهر الموصل[٣].

---

(١) أبو منصور مجاهد الدين قايماز بن عبدالله الزينى من أهل سجستان ، اشتراه زين الدين والد الملك المعظم مظفر الدين كوكبورى صاحب إربل وقدمه فى دولته حتى صار صاحب الأمر فيها وانتقل فى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) إلى الموصل وتولى دزدارية قلعتها وصار من أرباب الدولة الذين يعتمد عليهم فى أمورها . أنظر :(سعيد الديوه جي: الموصل فى العهد الأتابكى ، ص١٣١ و (ياسين بن خيرالله الخطيب العمرى:منية الأدباء فى تاريخ الموصل الحدباء، نشر سعيد الديوه‌جي ص ٦٣ — ٦٥ ، ٦٧ ، ٩٩)

(٢) كان مجاهد الدين قايماز من الحكام البنائين المحبين للعمران ، وقد أقام فى الموصل منشآت دينية وعلمية وخيرية كثيرة ، منها : الجامع والمارستان والجسر ، والرباط ، ومكتب الأيتام ، والمدرسة ، وكلها تنسب إليه وتسمى باسمه ، فيقال الجامع المجاهدى ، والمدرسة المجاهدية والرباط المجاهدى . . الخ

وقد بدئ فى بناء الجامع المجاهدى فى سنة ٥٧٢ هـ ، وباشر البناء مهرة البنائين والفنانين وصرفت عليه مبالغ طائلة ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة فى سنة ٥٧٥ قبل أن تكمل عمارة مرافقة ، وتم بناؤه فى سنة ٥٧٦ وقد زين الجامع بزخارف وكتابات جميلة بعضها بالجبس ، والبعض الآخر بالآجر وبالمرمر المطعم بالصدف .

وقد زار الرحالة المعروف ابن جبير مدينة الموصل فى سنة ٥٨٠ هـ وصلى فى هذا الجامع ، ووصفه وصفا رائعا ، قال : « وأحدث فيه بعض أمراء البلدة — وكان يعرف بمجاهد الدين — جامعا على شط دجلة ما أرى وضع جامع أحفل منه بناء ، يقصر الوصف عنه ، وعن تزيينه وترتيبه ، وكل ذلك فى نقش الآجر ، وأما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ، ويطيف به شبابيك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لا مقعد أشرف منها ولا أحسن . . الخ »

والجامع لا يزال موجوداً حتى اليوم ويعرف بجامع الخضر أو الجامع الأحمر ، ولكنه أصغر حجما مما كان عليه يوم بنى ، وأجمل ما بقى منه محراب من العصر الأتابكى فى أعلاه زخارف من الجبس فريدة فى نوعها ، فهى تتألف من زخارف نباتية تتخللها صور حيوانات كالأسد والغزال وطيور أليفة كالبط والحمام ، متداخلة تداخلا كليا مع غيرها من الزخارف بصورة متناظرة بحيث تكون الصور متممة للزخارف النباتية ويصعب على الناظر تمييز ما فيها لأول وهلة . أنظر : (سعيد الديوه‌جي : الجامع المجاهدى فى مختلف العصور ، مجلة سومر ، ١١/١٧٧ — ١٨٧) و (نفس المؤلف : الموصل فى العهد الأتابكى ، ص ١٣١ — ١٣٣)

(٣) النص فى (ك) موجز ومختلف عما هنا ، وهو : « فصالح ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار ، واتفقا على إنجاد صاحب ماردين ، ورحلوا وساروا ، ونزلوا سفح جبل ماردين وكان الملك الكامل قد ضيق على أهل ماردين فوقعت الحرب بينه وبين المواصلة ، فلم يثبت لهم وانهزم وأسر من أصحابه جماعة فأطلقهم نور الدين » .

ودخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

والملكان الأفضل والظاهر محاصران لمدينة دمشق مضايقان لها .

ذكر وصول

الملك الكامل بن الملك العادل

إلى دمشق

لما اشتد الحصار على الملك العادل بدمشق[1] ، وغلت الأقوات ، وقلّ ما بيده ، فارقه جماعة من أصحابه وخرجوا إلى الملك الأفضل . منهم شمس الدين الدكر .[2] الكبير العادلى[3] ، وفخر الدين البانياس ، وقاسم الدين ، وجميع أصحاب صارم الدين قايماز النجمى .

فاجتمع عند ذلك[4] جماعة من الصلاحية وغيرهم[5] من أكابر الأمراء عند الملك العادل ، وقالوا : « السلطان يعلم أنه لا مال عنده بدمشق ، والأجناد والعامة لا يقاتلون إلا بالمال ، والأموال التى لك بالكَرَك وقلعة جَعْبَر لا وصلة

(١) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

(٢) فى الأصل و (ك) : « الذكر » ، والتصحيح عن (س) (ج ١ ، ص ١٤١ ب)

(٣) عند هذا اللفظ ينقطع النص فى نسخة (س) ، وبذلك تقف المقابلة .

(٤) (ك) : « عنده »

(٥) الصيغة فى (ك) مختلفة عما هنا كثيرا ومضطربة ، ونصها : « من الأمراء ، وقالوا : السلطان الملك العادل نعلم أن لامال له بدمشق ، والأموال بالكرك ، ولا وصول إليها ، فحضروا بين يدى الملك العادل باقى امراء ، وقالوا : إن المصلحة تستدعى ولدك الملك الكامل من الشرق عن معه من العسكر ، ويستصحب معه من الأموال ما تتقووا به والا نهلك وغلك وتذهب أنفسنا مع أولاد أخيك ، فأجابهم إلى ذلك ، وكتب إلى ولده الملك الكامل يصل عن معه من العسكر ويحضر معه المال من قلعة جعبر ما يقوى به العسكر »

لك إليها ، ونحن فقد هلكنا وضاق الأمر علينا، وقد بقى رأى واحد ، إن أجبت إليه كانت فيه المصلحة ، وإلا فاعلم أن دمشق تخرج من يدك ، وتذهب أنفسنا مع الملوك أولاد أخيك؛ وهو أن تستدعى ولدك الملك الكامل من الشرق بجميع من معه من العسكر ، ويستصحب معه من الأموال ما تتقوى به » .

فأجابهم إلى ذلك ، وكتب إلى ولده الملك الكامل ليصل بمن بقى معه من العسكر ، ومعه من المال ما يتقوى به الجند .

وكتب إلى النائب بقلعة جعبر أن يسلم إلى الملك الكامل ما يستدعيه منه .

فسار الملك الكامل فى العسكر الذى معه ، ونزل بقلعة جعبر ، واستدعى من النائب بها أربعمائة ألف دينار ، وسار مجداً إلى دمشق ، ولما سمع الملكان الأفضل والظاهر بقدومه أخذا فى التحيّل للقائه ، وصدّه عن دمشق ، ووقع اتفاقهما على أن ينفذا (٣٠ ب) الملكَ المجاهد — صاحب حمص — ويكتبا إلى الملك المنصور — صاحب حماة — ليتوجه معه إلى لقائه .

(١فشرعوا فى كَتْب الكتب إلى الملك المنصور فى ذلك١) ، وعينوا جماعة من عسكر مصر يسيرون معهما .

ثم قال الملك الظاهر :

« أنا أسير بنفسى وألقاه » .

فقال له الملك الأفضل :

« إن رحلت لا تقوى نفسى على المقام بعدك (١ساعة واحدة » .

فوقعت الفترة عن قصده١) وصده .

ووصل الملك الكامل (٢بمن معه من العسكر وما معه من المال سالماً٢) ، فقويت نفس أبيه به قوة عظيمة ، وأيقن بظهور أمره واستيلائه .

(١) هذه الفقرة ساقطة من (ك) .

(٢) (ك) : « ووصل الملك الكامل بالمال والعسكر » .

ذكر وقوع

الخلف بين الملكين : الأفضل والظاهر

ولما استقر الملك الكامل وعسكره عند أبيه ظهر الوهن فى عسكر الملك الأفضل ، (١وكثرت المخامرة والنفاق فيه١) ، وانحلت بذلك العزائم ، ووقع من المفاسد القبيحة أن الملك الظاهر كان له مملوك خاص يؤثره (٢ويميل إليه جداً٢) ، يقال له أيبك ، فُقِد فى عسكره ، (٣فاغتم الملك الظاهر لفقده وعظم عليه ذهابه٣) ، وظنَّ أنه دخل إلى دمشق ، فأنفذ إلى دمشق من يكشف خبره منها ، واطلع الملك العادل على هذه الواقعة ، فأرسل إلى الملك الظاهر يقول له :

« إن محمود بن الشكرى أفسد غلامك ، وحمله إلى أخيك الأفضل » .

فقبض الملك الظاهر على ابن الشكرى(٤) ، فظهر(٥) المملوك عنده ، فنفر قلب الملك الظاهر من أخيه الملك الأفضل ، وامتنع (٦من لقائه مدة ، وتقاعد٦) عن الحرب .

(١) (ك) : « وكثرت المخامرين »
(٢) (ك) : « ويحبه حبا شديداً »
(٣) هذه الفقرة ساقطة من (ك)
(٤) (ك) : « السكرى »
(٥) (ك) « فطلع »
(٦) هذه الجملة ساقطة من (ك)

ذكر تأخر

العسكر إلى رأس الماء ثم تفرقهم

ولما وقعت النَفْرةُ عند الملك الظاهر من أخيه ، واشتد البرد ، وكثرت الأمطار ، رحل الملكان : (١)الأفضل والظاهر(١) إلى سطح الكسوة ، وعزم الملك الأفضل على المقام(٢) هناك ، ثم تغيَّر(٣) هذا العزم ، فرحل هو والظاهر إلى مرج الصُّفَّر ، فأقاما به إلى أواخر صفر من هذه السنة ، ثم سارا إلى رأس الماء ، وعزما على المقام به إلى أن ينسلخ الشتاء ، فاشتد البرد وتواترت الأمطار ، (١٣١ ا) وغلت الأسعار جداً ، فاجتمع الملك الأفضل بأخيه الملك الظاهر ، ووقع اتفاقُهما على الرحيل ، وتأخير حصار دمشق إلى وقت انصرام الشتاء ، ودخول الربيع ، ووافقهما الأمراء على ذلك ، فسار الملك الظاهر على القريتيْن ، وسار الملك الأفضل قاصداً ديار مصر ، وأحرقوا عند رحيلهم مالم يتمكنوا من حمله من الأثقال والخيم والغلات(٤) ، وأحرق الملك الأفضل خيمة أهداها له الملك الظاهر كانت(٥) ثلاثين حملا ، وهلك للملك الظاهر جماعةٌ من مماليكه ، ونفقت له دواب كثيرة بسبب فرط البرد(٦) وعدم الأقوات والعلوفات ، ووصل إلى حاب سادس شهر ربيع الأول .

---

(١) هاتان الكلمتان ساقطتان من (ك)

(٢) (ك) « أن يقيم » .

(٣) (ك) : « ثم انثنى العزم »

(٤) مكان هذه الفقرة فى (ك) : « وأجتمع الأفضل بأخيه . ووقع اتفاقهما على الرحيل، وسار الملك الظاهر على القريتين ، وسار الأفضل قاصداً ديار مصر ، وأحرقوا من الأثقال ما لم يتمكنوا من حملة » ، والفرق بين النسختين واضح ، وفيه دليل كاف على أفضلية نسخه الأصل على نسخة (ك)

(٥) هذا اللفظ ساقط من (ك)

(٦) (ك) : « لشده البرد ، ووصل إلى حلب »

ولما وصل الملك الأفضل إلى أوائل الديار المصرية فارقه معظمُ العسكر ، وتفرقوا فى البلاد لإخراج دوابهم إلى الربيع ، ودخل الملك الأفضل إلى القاهرة فى جمع قليل .

ذكر[١] مسير الملك العادل إلى الديار المصرية

وكان الملك العادل وهو محصور يهيىء القِرَبَ والبقسماط وكل ما يُحتاج إليه لدخول الرمل ، فعلم الناس من ذلك أنه كان مباطنا لبعض العسكر المصرى ، وتحققوا أنه يملك مصر.

ولما سافر الملكُ الأفضل راجعاً إلى مصر رحل الملكُ العادل من دمشق ومعه الأمراء الصلاحية ، وردَّ ابنَه الملكَ الكامل فى عسكره إلى الشرق .

ومضى الملك العادل يطوى المراحل إلى أن دخل الرمل .

و بلغ الملكَ الأفضلَ ذلك ، فرام جَمْعَ عساكره ، فتعذَّر ذلك عليه لتفرقهم فى أخبازهم[٢] ، وتشتتهم فى الأماكن التى يربعون فيها خيلهم ، فخرج فى جمع قليل ، ونزل السائح .

ووصل الملك العادل ، وضرب معه مصافا ، فانكسر عسكر الملك الأفضل وولوا منهزمين لايلوون على شىء ، وكان فيهم جماعة مخاسرون مع الملك العادل .

---

(١) قبل هذا اللفظ فى نسخة (ك) توجد البسملة بخط كبير فى أول الصفحة ويليها « رب يسر وأعن » ، ويبدو أن كاتب هذه النسخة كان يريد أن يقسم الكتاب إلى أجزاء ، فجعل الجزء الثانى يبدأ بمسير الملك العادل إلى مصر وتملكه لها ، ولهذا بدأ هذا الجزء بالبسملة فى صفحة جديدة ، أما نسخة الأصل فالحوادث فيها متصلة غير منقطعة أو مجزأة .

(٢) الخبز (ج : أخباز) بمعنى الإقطاع

ذكر منازلة

الملك العادل القاهرة وتسلمه لها[1]

وقيامه بأتابكية الملك المنصور بن الملك العزيز

ثم سار الملك العادل بالعساكر ، ونزل بركة الجبّ ، وسيرّ إلى الملك الأفضل (٣١ ب) يقول له :

« أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها أعظم معاقل الإسلام ، ولاتحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب إلى صَرْخد وأنت آمن على نفسك»[2].

فاستشار الملكُ الأفضل الأمراءَ ، فرأى منهم تخاذلا ، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوّضه عن الديار المصرية [بالشام][3] ، فامتنع من ذلك ، فطلب أن يعوّضه حّران والرُّها فامتنع ، فطلب منه جانى وجبل جور ، وميّا فارقين ، وسميساط ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلَّم القاهرة منه .

وكانت مدة مقام الملك العادل بالبركة ثمانية أيام .

ودخل القاهرة فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر .

وتوفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى — رحمه الله — فى سابع عشر ربيع الآخر ، وهو اليوم الذى خرج فيه الملك الأفضل من القاهرة .

(١) (ك) : « إياها »

(٢) لاحظ هو التعبير ودلالته التاريخية ، فهكذا كانت مصر وكانت مكانتها على طول عصور التاريخ الإسلامى

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) ص ٤٨٣

وذكر عز الدين بن الأثير :

أنه توفى فى الليلة التى دخل فيها الملك الأفضل إلى القاهرة بعد انهزامه من السائح ، وصلى على القاضى الفاضل — رحمه الله —

وكان مولد القاضى الفاضل على ما بلغنى سنة ست وعشرين وخمسمائة ، فكان عمره نحو سبعين سنة ، ولقد خُتمت به صناعة الإنشاء .

ثم سافر الملك الأفضل إلى صَرْخَد بعد اجتماعه بعمه الملك العادل .

ذكر استقلال(١)

الملك العادل بالسلطة

وإزالة أمر الملك المنصور بن الملك العزيز

ولما استقر الملكُ العادل بالقاهرة أبقى الملكَ المنصور على اسم السلطنة ، فإن الصلاحية إنما حلفوا له ووافقوا على أن يكون أتابكا للملك المنصور ، إلى أن يكبر ويسلِّمَ البلاد إليه ، فأظهر ذلك أياما ، ثم عزم على إبطال ذلك .

(٢)وكانت الأيمان قد تقررت على ذلك(٢) يوم الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر ، وهو ثانى يوم دخول الملك العادل : وفى الخميس الآخر انتقض هذا الأمر .

(١) الأصل : « استيلاء » ، والتصحيح عن (ك)

(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك)

وذكر عز الدين بن الأثير :

أن الأمر إنما انتقض فى شوال من هذه السنة ، وذكر أن السبب فى ذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء (١٣٢ ا) ممن يعلم مَيْلَهم إليه ، وقال :

« إنه قبيح بى أن أكون أتابكا لصبى مع الشيخوخة والتقدم ، مع أن المُلْكَ ليس هو بالميراث ، وإنما هو لمن غلب ، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الملك الناصر — رحمه الله — صاحبَ الأمر ، غير أنى تركتُ ذلك إكراما لأخى ورعاية لحقه .

فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفتُ أن يخرج المُلْكُ من يدى ويد أولاد أخى ، فمشَّيت الأمر إلى آخره ، فلم أرَ الأمر يصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه .

ولما ملكتُ هذا البلد وطنَّت نفسى على القيام بأتابكية هذا الصبى حتى يبلغ أشدَّه ، فرأيت العصبيات غير[1] مقلعة ، والفتن ليست زائلة ، فخشيتُ أن يطرأ علىَّ ما طرأ على الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة آخر ، وما أعلم ما يكون عاقبة ذلك .

وأنا أرى أن هذا الصبى يمضى إلى الكتَّاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلّمه ؛ فإذا بلغ أشده نظرت فى أمره وقمت بمصالحه » .

وقيل إن السبب فى ذلك أن الأسدية لما رأوْا الصلاحية قد قاموا مع الملك العادل حتى أدخلوه مصر ، وأخرجوا منها الأفضل ، خافوا استيلاءهم على الأمر ،

---

(١) (ك) : « ليس »

فحسنوا للملك العادل الاستقلال بالأمر وعزل الملك المنصور ، تقربا إليه ، وحلفوا له على ذلك .

فلما بلغ ذلك الصلاحية نفروا منه وأنكروه ، واجتمع بعضهم ببعض ، وعزموا على القيام على الملك العادل ، وطلبوا من الأسدية موافقتهم على ذلك فلم يفعلوا .

واستتب أمر الملك العادل ، وحلف الجميع له .

وكان ضياء الدين بن الأثير وزير الملك الأفضل قد اتصل بالملك الأفضل لمّا تمكّن أمره ، فلما مَلَكَ المَلِكُ العادل مصر ركب نَجِيبا ، وهرب خوفا على نفسه من الملك العادل .

ووقفتُ على رسالة له إلى بعض إخوانه من جملتها :

. . . ثم أقمنا بعد ذلك فى حصار دمشق فى حروب قائمة وغرامات لازمة ، حتى استنفدت قوى النفوس والأجسام ، ولم نَحْظَ منها إلا بطول المقام ، وسرنا عنها إلى الديار المصرية والعساكر برمتها ، والمهابةُ باقية على حرمتها ، وتركنا مَنْ بها فى بادى الضعف مغضوض الطرْف ، لا يُخشى منه عادية (٣٢ ب) بعد استحصاره ، ولا يُرجى له خروجٌ من وراء جداره ، فوثبَ على خلعه ، وتبعنَا على قلة تُبّعه ، فصادف العسكرَ قد تفرقت فى بلاده ، والمُلْكَ قد أُمْكِنَ من قياده ، فأقدم وما تردد ، وفوّق سهم كيده وسدّد ، ولقد ركب خطراً لا يسلم راكبُه ، وإنْ سلم لم تسلم له مطالبه ، إلا أنه تهيأ له من صُنْع القدر ، ما لم يكن فى وسع البشر ، فواتاه الزمان مبادرا ، وكان محصورا فأصبح حاصرا » .

ولما استقر المُلْكُ بمصر للملك العادل استدعى ابنه الملكَ الكاملَ ناصر الدين محمداً من الشرق ، وجعله نائباً عنه بالديار المصرية ، وجعل خُبزه الأعمال

الشرقية ، وهى التى كانت خبز الملك العادل لما كان نائباً عن أخيه السلطان الملك الناصر بمصر[١] .

ولم يزل الملك الكامل ينوب عن أبيه بالديار المصرية إلى أن توفى أبوه ، وذلك قريب من عشرين سنة ، واستقل[٢] بالملك بعده عشرين سنة وكسْرا ، فملكها نائباً ومستقلاً قريباً من أربعين سنة .

وفى هذه السنة أرسل الملك المنصور — صاحب حماة — إلى عمه الملك العادل يعتذر إليه من مساعدته الأفضل والظاهر ، ويطلب رضاه عنه ، وكان رسوله إليه زين الدين المعروف « بالهَيْطَليَّة » ، فلما قدم عليه تلقاه بالترحيب والإكرام ، وخلع عليه وأحسن إليه ، وأظهر الرضى عن الملك المنصور .

وبلغنى أن الملك العادل قال لكاتب إنشائه : اكتب إلى المولى الملك المنصور أبياتاً فى جواب كتابه .

فكتب الكاتب أبياتاً فيها نوعُ عَتْبٍ وجفاء .

فوقف الملك العادل عليها وقال : « ما يحسن أن يخاطب المولى[٣] الملك المنصور بمثل هذا الخطاب ، اكتب إليه :

« أتظننى مِنْ جَفْوَةٍ أتعَتّبُ ... قلبى عليك أرقُّ مما تَحْسَبُ
لا يُوحِشَنّكَ ما جَنَيْتَ فَتَنْثَنى ... مُتَجَنِّباً ، وَهَوَاكَ لا يَتَجَنَّبُ
ما أنت إلا مُهْجَتى ، وهى التى ... أَحْيَا بها ، فتُرى عليها أَغْضَبُ ؟!
أنت البرئ من الإساءةِ كلِّها ... ولك الرضى ،وأنا المسئ المذنبُ »

---

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك)

(٢) (ك) : « واستقر »

(٣) هذا اللفظ ساقط من (ك)

وحُكى أنه قال لزين الدين هذا : « المولى الملك المنصور إن كانت قد صدرتْ منه (٣٣ ا) هذه الزلة الواحدة ، فله من الحسنات ما يمحوها و يمحقها .

وإذا الحبيبُ أتى بذنبٍ واحدٍ جاءتْ محاسنهُ بألف شفيعِ

ثم حلف الملكُ(١) المنصور ، ووقعت الوُصلة بعد ذلك بين الملك المنصور وعمه الملك العادل ، فتزوج ابنته عصمة الدين ملكة خاتون ، والدة الملك المظفر — رحمه الله —

ذكر تعويض

ابن المقدِّم عن بعرين منبج وقلعة نجم

كانت مَنْبِج وقلعة نجم من جملة بلاد الملك المنصور ، فلما أخذ بعْرين من عز الدين بن المقدِّم ، وكان محصوراً مع الملك العادل بدمشق — كما تقدم ذكره — ؛ وملك الملك العادل مصر طلب ابن المقدِّم من الملك العادل إلزام الملك المنصور ردَّ بعرين إليه ، لكونه إنما قُصد بسببه .

فراسل الملكُ العادلُ الملكَ المنصورَ فى إعادتها إليه ، فاعتذر بأنها مجاورة لبلده ، وما يؤثر مجاورةَ ابن المقدِّم ، وبذل له عوضاً عن ذلك مَنْبِج وقلعة نجم ، وهما خير من بعرين بكثير .

فرضى ابن المقدم بذلك وتسلمهما ، وكانت له أيضاً أفامية ، وكفر طاب ، وخمسة وعشرون ضيعة من المعرَّة يقال لها « المفردة » .

وفى هذه السنة وصل إلى مصر الأمير شمس الدين محمد بن قِلِجْ ، ونظام الدين محمد بن الحسين الأصفهانى — وزير الملك الظاهر — رسولَيْن منه إلى الملك العادل فى أن يحلف للملك الظاهر على ما بيده من البلاد ، ويقيم الملكُ الظاهرُ للملك العادل بحلب الخطبةَ والسِكَّة .

---

(١) الأصل : « الملك » ، والتصحيح عن (ك)

فركب الملك العادل إلى لقائهما ، وأكرمهما[١] إكراما تاما . وقررّ الملك العادل للملك الظاهر على ما بيده ، وحلف له عليه ، وألزمه خمسمائة فارس تسكون فى خدمة الملك العادل فى كل سنة من خيار عسكر حلب .

فرجع الرسولان إلى الملك الظاهر ، فأقيمت[٢] الخطبة والسِكّة بحلب وبلادها للملك العادل .

وقصّر النيل فى هذه السنة تقصيراً عظيما حتى أنه لم يستكمل أربعة عشر ذراعاً ، ولم يركب إلا القليل من الأرض ، فكان ذلك سبباً للغلاء المفرط فى السنة القابلة .



(١) الأصل : « وأكرما » ، والتصحيح عن (ك)
(٢) (ك) : « وأثبت »

(٢٣ب) ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة :

والملك العادل بالديار المصرية ، وعنده الملك الكامل نائبه بها .

والملك الظاهر بحلب مُجدٌّ فى عمارة قلعتها ، وتحصين أسوارها ، وتعميق خنادقها .

وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل نائباً عن أبيه بها .

وبالشرق الملكُ الفائز إبراهيم بن الملك العادل فى مقاتلة المواصلة ومَنْ انضم إليهم .

وبميَّا فارقين الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل ، وكان أبوه قد ملكّه إياها .

وكان الملك الأفضل لما أخذت منه الديار المصرية بعث نوابه ليتسلموا ما وقع الاتفاق عليه من البلاد ، ومن جملتها ميَّا فارقين ، فامتنع الملك الأوحد من تسليم ميَّا فارقين ، فشكا الملك الأفضل ذلك إلى الملك العادل ، (١)فكتب الملك العادل إلى الملك(١) الأوحد يأمره بتسليم ميَّا فارقين إليه فأصر على الامتناع ، فجعل الملك العادل امتناعه عذراً له عند الملك الأفضل ، وسُلمت إليه باقى البلاد ، وهى : حانى ، وجبل جور ، وسُمَيْسَاط ، مضموما ذلك إلى صَرْخد .

وقيل إنه لم يسلم إليه إلا سُمَيْسَاط ، وامتنع الملك الأوحد من تسليم ما عدا ذلك من البلاد المضمومة إلى ميَّا فارقين .

---

(١) (ك) : « فسير إلى الملك الأوحد يأمره

ذكر استيحاش الصلاحية

من الملك العادل وميلهم إلى الملك الأفضل

لما أبطل الملكُ العادلُ أمرَ الملك المنصور بن الملك العزيز نفروا من ذلك وكرهوه .

وكان الملك العادل قد جهّز فخر الدين جهاركس إلى بانياس لحصرها وأخذها من حسام الدين بشارة .

« وإنما فعل الملك العادل ذلك استصلاحا لجهاركس ، إذ هو مقدّم الصلاحية ، وغضباً على بشارة لكونه كان لما توجه إلى مصر خَلْفَ الملك الأفضل طلبه ليحلف له ويكون معه ، فامتنع .

فنازل جهاركس بشارة ، وأعانه الملكُ المعظمُ على ذلك ، حتى تسلمها .

وكان فارسُ الدين ميمونُ القَصْرى بنابلس ، فكتب إلى الملك العادل ، يقول له :

« إنما دخلنا فى طاعتك ، ووافقناك ، مراعاة لولد الملك العزيز ابن أستاذنا ، خوفا أن يتطرق إلى ملكه[1] ضرر ، والواجب (١٣٤) أنك تعيده إلى ملكه ، وإلا حصل الفساد فى قلوب الجند ، ودخل الوهن على الدولة » .

ولما وردت رسالته بذلك إلى الملك العادل ، أغلظ له فى الجوب .

فأعاد ميمون القول :

« بأنك إن استمررت على القاعدة التى اتفقنا عليها فنحن على طاعتك ، وإن لم تفعل فأعطنا دستورا لنذهب حيث[2] شئنا ، ويقوم عذرنا عند الله تعالى وعند الناس » .

---

(١) (ك) : « إلى بلدنا

(٢) (ك) : « أين »

فأجاب الملك العادل :

« بأنى لم أدخل فى هذا الأمر حتى علمتُ ما يلزم من الضرر إن لم أدخل فيه ، والجماعة راضون بى ، فإذا كرهتَ مجاورتى فَصِرْ إلى أرزَن الروم وتزوج بصاحبتها مَامَا خاتون ، فإنها طلبت منى رجلا كبيراً تتزوج به ، ويقوم بتدبير ملكها » .

فكاتب ميمون القَصْرى الصلاحية بأن يقوموا معه ويتفقوا على الملك العادل .

فأجابوه :

« بأنا قد افتضحنا بين الناس ، بأنا نقيم كل يوم ملكا ونعزل ملكا ، ثم إلى مَنْ نسلم الأمر ؟ الأفضل ما فيه رجاء ، وباقى[1] أخوته غير الظاهر ليست لهم فى النفس عظمة ، والظاهر فما يمكنه أن يخلى بلاده ويصير إلينا » .

فلما سمع ميمون جوابَهم أنفذ إلى أرزن الروم ، فكشفوا له حال المرأة المذكورة فوجدها محصورة محكوما عليها .

وأرسل الملك الظاهر فى شهر ربيع الأول من هذه السنة نظام الدين الأصفهانى — وزيره — ، وعَلَمَ الدين قيصر الصلاحى ، فلما وصلا إلى بلبيس أرسل إليهما الملك العادل يقول لهما : « أقيما مقامكما ، ولا تدخلا مصر ، وإن كانت معكما رسالة فحمِّلاها لقاضى بلبيس حتى ينهيها إلىَّ ، وإن لم تفعلا فارجعا من حيث جئتما » .

فرجعا ، فلما وصلا إلى نابلس اجتمعا بميمون القَصْرى ، ورغَّباه فى الانحياز إلى الملك الظاهر ، فوافقهما على ذلك ، ورجعا إلى صاحبهما .

(١) الأصل : « وما فى » ، والتصحيح عن (ك)

وحصلت عند الملك نَفْرَةٌ من ردِّ رسولَيْه على هذه الصورة ، [1]وكاتب الصلاحية ورغَّبهم ، وكاتبهم ميمون القصرى[1] ، فمال إليه جماعة منهم .

وتكررت المكاتبات والمراسلات[2] ، بينهم و بين الملك الأفضل وهو بصَرْخَد ، و بينهم و بين الملك الظاهر .

وكان عز الدين أسامة — صاحب عجلون وكوكب — أمير الحاج فى السنة الماضية ، فلما رجع من الحج نزل إليه الملك الأفضل من صَرْخَد ، ودعاه إلى موافقته فأجابه ، (٣٤ ب) وحلف له ، وعرَّفه الملك الأفضل جلية الحال .

فكتب عزُ الدين أسامة[3] إلى الملك العادل ، فأخذ حِذْرَه و تيقظ لنفسه ، وكتب إلى ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى يأمره بقصد صَرْخَد ومنازلتها ، وكتب إلى الأمراء يأمرهم بالاجتماع مع ولده على ذلك .

ولما علم الملك الأفضل بذلك ترك صَرْخَد وتوجَّه إلى أخيه الملك الظاهر عاشر جمادى الأولى من هذه السنة .

وتوجه الملك المعظم إلى بُصرى على قصد محاصرة صَرْخَد ، وكتب إلى فخر الدين جهاركس وميمون القصرى يدعوهما إلى منازلة صَرْخَد[4] مع الملك المعظم[4] فمغلطاه ولم يصلا إليه .

فبعث عز الدين أسامة إليهما و إلى جماعة الصلاحية ، فجرى بين عز الدين و بين الفارس ألبلى الصلاحى منافرة ، فأغلظ البلى القول وتعدى إلى الفعل باليد .

---

(١) النص فى (ك) : « وكانت الصلاحية قد كاتبتهم ميمون ورغَّبتهم . . »
(٢) هذا اللفظ ساقط من (ك)
(٣) (ك) : « فكتب عزالدين أسامة بذلك إلى »
(٤) هذه الفقرة ساقطة من (ك)

وثارت الصلاحيةُ على أسامة ، فاستجار بميمون القصرى ، فأجاره وأعاده إلى دمشق .

وتوجه ميمون القصرى وجمعٌ[(١)] من الصلاحية إلى صَرْخَد ، واجتمعوا[(٢)] بالملك الظافر خِضْر ، وكتبوا إلى الملك الظاهر يحثونه[(٣)] على سرعة الحركة ، ومنازلة دمشق ليأخذوها من الملك العادل ، ويستعيدوا منه الديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى عز الدين إبراهيم بن المقدِّم ، وصارت البلاد بعده ، وهى : منبج ، وقلعة نجم ، وكفر طاب ، وأفامية لأخيه شمس الدين عبد الملك بن المقدِّم .

ولما وصلت كتبُ الصلاحية إلى الملك الظاهر ، وعنده أخوه الملك الأفضل ، جمع وحشد وعزم على قصد دمشق .

ذكر استيلاء
الملك الظاهر على منبج وقلعة نجم

ثم قصد الملك الظاهر منبج وفيها شمسُ الدين عبد الملك بن المقدِّم ، فزحف عليها وتسلمها يوم نزوله عليها ، وهو التاسع عشر من رجب من هذه السنة .

وامتنع شمس الدين بالقلعة ، فنازله الملك الظاهر سبعة أيام ، وكان له خندق مملوء ماء ، فوقف الملك الظاهر على حافة الخندق ، وصاح فى الحلبيين ، فرموا أنفسهم فى الخندق سباحة ، وأخذوا فى القلعة عدة نقوب .

---

(١) (ك) : « وجماعة »
(٢) (ك) : « واجتمعا »
(٣) (ك) : « يستحثونه »

فلما رأى صاحبها ذلك طلب الأمان ، وسلَّم الحصن إلى الملك الظاهر .
ولما نزل إليه اعتقله .

(١٣٥) ثم سار الملك الظاهر إلى قلعة نجم ، وبها سعد الدين بن فاخر [١] نائباً عن ابن المقدم ، فنازلها وضايقها ، ثم تسلمها فى آخر رجب .

ثم توجه الملك الظاهر إلى حلب ، وأرسل الشيخ تقى الدين على بن أبى بكر الهرَوَى إلى الملك المنصور — صاحب حماة — يطلب منه أن يسير معه ، ويساعده على محاربة الملك العادل .

وكان مضمون الرسالة : « أنك تعلم محبتى لك ، وشفقتى عليك ، واعتمادى عليك ، وتعلم سوء باطن الملك العادل لنا ، وأن مقصوده أن تكون البلاد كلها له ، ولو قدر علينا ما أبقى منا أحدا ، وقد علمتَ ما فعله [٢] بأولاد أخيه السلطان الملك الناصر [٢] ، مع أنه هو الذى ملّكه وأظهره إلى الوجود ، [بعد ما كان لا يؤبه له] [٣] .

[٤] وكيف تثق [٤] ، وقد أخذ منك منبج وقلعة نجم وأعطاهما لابن المقدم ، واختاره عليك ؟ وأنت متى وافقتنى عليه رددتُ عليك منبج وقلعة نجم ، مضافة إلى كفر طاب وأفامية ، والبارة ، ومفردات المعرّة ، وأحلف لك على هذا كله » .

ولما وردت الرسالة على الملك المنصور بذلك اعتذر من الإجابة إليه ، واعتذر « بأنى حلفت له ، ولا يسعنى أنى أحنث فى يمينى » .

---

(١) (ك) : « سعد الدين فاخر »

(٢) (ك) : « ما فعله بأخواتى أولاد الملك الناصر »

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك)

(٤) هذه الجملة ساقطة من ك

فلما تحقق الملك الظاهر استمرار الملك المنصور على طاعة الملك العادل، توجه إلى المعرّة فأقطعها ، وذلك في العشر الأول من شعبان ، ثم توجه إلى كفر طاب فأخذها ، وهى لابن المقدِّم .

و بعث إلى قراقوش نائب ابن المقدم بأفامية يطلب منه تسليمها إليه ، فامتنع وأصرّ على العصيان .

ثم توجه الملك الظاهر إلى أفامية ، واستحضر شمس الدين بن المقدِّم ، وكان معتقلا بحلب ، ومعه جماعة من أصحابه ، ونازل أفامية ، وأمر بضرب جماعة ابن المقدم ليسلم قراقوش حصن أفامية ، فرآهم قراقوش وهم يُضربون ، فلم يلتفت إليهم ، فأمر بضرب شمس الدين بالسياط ، فضرب ضربا مبرحا ، وجعل يستغيث إلى قراقوش ليسلم الحصن(١) ، فأمر قراقوش بضرب الطبول فى أعلى القلعة لئلا يسمعوا صوته ، ورموه بالنشاب .

ولما أيس الملك الظاهر من أخــذ الحصن ترك عليها من يحاصرها ثم رحل عنها .

ذكر منازلة

الملك الظاهر حماة ورحيله عنها

ثم توجه الملك الظاهر إلى حماة ونازلها محاصراً لها لثلاث بقين من (٣٥ ب) شعبان من هذه السنة . ونزل شمالى البلد ، وشعّث التُربة التقوية و بعض البساتين ، وزحف من الغد من جهة الباب الغربى ، وقاتل قتالا شديداً ، ثم زحف فى آخر

---

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك)

شعبان من جهة الباب الغربى والقبلى ، ثم انحدر إلى جهة باب العميان ، وجرى عنده قتال كثير ، وجُرح بسهم فى ساقه .

واستمرت الحرب أياما من رمضان ، ولم يتحصل على مقصود ثم وقع الصلح بينه و بين الملك المنصور على مالٍ بذله له الملك المنصور ،قيل إن مبلغه ثلاثون ألف دينار صورية ، وعلى أنه إن ملك الملك الأفضل والظاهر دمشق دخل فى طاعتهما .

ولما تقرر ذلك رحل الملك الظاهر عنه .

ذكر منازلة

الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق

وهى المنازلة الثانيـــة

ثم توجه الملك الظاهر إلى دمشق ونازلها هو وأخوه الملك الأفضل .

وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصرى ، ومَنْ وافقه من الأمراء الصلاحية .

و بقلعة دمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل . وأبوه بالديار المصرية .

واستقرت القاعدة بين الملك الأفضل وأخيه الملك الظاهر أنهم إذا ملـكوا دمشق يتسلمها الملك الأفضل ، ثم يسيرون إلى الديار المصرية ، فإذا ملـكوها تسلم الملك الظاهر دمشق وكان الشام جميعه له ، ويملك الملك الأفضل مصر .

ذكر تسليم

صرخد إلى زين الدين قراجا

ولما نازل الملكان الأفضل والظاهر دمشق تخلَّف عنهما فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجا .

فأرسل إليهما الملك الأفضل عَلَمَ الدين قَيصْر الناصرى ، فتوجه إليهما ، ورغبَّهما فى الحضور ، وموافقة الأفضل والظاهر ، فأجابا بعد مراجعات كثيرة على أن يتسلم زين الدين قراجا صرخد ، ويعطى عشرة آلاف دينار ، ويعطى جهاركس عشرين[1] ألف دينار ، فوقعت الإجابة إلى ذلك .

وسلمت صرخد إلى قراجا ، وأنزل الملك الأفضل والدته وأهله (٣٦ ا) منها ، وسيَّرهم إلى حمص ، فأقاموا عند الملك المجاهد صاحبها .

وقدم جهاركس وقراجا العسكر ، فقوى بحضورهما جأشُ الأفضل والظاهر ، لأنهما كانا أكبر الأمراء الصلاحية .

ذكر وصول

الملك العادل إلى نابلس

ولما بلغ الملكَ العادلَ تَوَجُّهُ الملك الأفضل والظاهر إلى دمشق انزعج لذلك ، وخرج [2]من مصر[2] بعساكره ، وقدم إلى الشام ، ونزل بنابلس .

وقدَّم قطعة من عسكره إلى دمشق ، فدخلوها قبل نزول الأفضل والظاهر عليها .

---

(١) الأصل : « عز الدين » والتصحيح عن (ك) .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

ذكر مضايقة

الملك الأفضل والظاهر دمشق

وضايق الأفضل والظاهر دمشق مضايقةً شديدة ، وزحفوا رابع عشر من ذى القعدة من هذه السنة ، واشتد القتال ، والتصق العسكر بالأسوار ، ثم زحفوا لها ثانياً وثالثاً . .

وجدَّ الظاهر فى القتال ، وترجل ، ووصل إلى قريب السور ، وأخذ فيه عدة نقوب ، ولم يبقَ إلا أن يملك البلد ، وصعد العسكر إلى سطح خان ابن المقدِّم ، وهو ملاصق السور فلو لم يدركهم الليل لمُلك البلد .

ذكر الاختلاف

بين الملكين : الأفضل والظاهر

ولما تحقق الملك الظاهر (١)أن البلد مأخوذٌ لا محالة(١) ، لم تطب نفسه بأن يملكه أخوه ، فأرسل إلى الملك الأفضل يقول له :

« إذا فتحت دمشق تسلمتُها أنا ، وسيَّرتُ العساكر معك إلى الديار المصرية ليفتحوها لك » .

فأرسل إليه الملك الأفضل (٢)يقول له(٢) :

« قد علمتَ أن والدتى وأهلى — وهم أهلك — على الأرض ، وليس لهم

---

(١) (ك) : « أخذ البلد لا محالة » .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

موضع يأوون إليه ، فأحسب أن هذا البلد لك تُعيرنى إياه أُسكنه أهلى هذه المدة إلى أن تملك مصر » .

فلم يجب الملك الظاهر إلى ذلك ، ولجَّ فى أن يتعجل أخذه لنفسه .

وقيل إن الذى أوجب هذا الاختلاف أن الملك العادل كتب إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يقول لكل واحد منهما (٣٦ ب) : « إن أخاك لا يريد البلد إلا لنفسه ، و إن العسكر متفقون معه فى الباطن على ذلك » .

فطلب كلٌّ من الملكين البلد لنفسه ، ووقع الخلف بينهما .

وكتب الملك العادل إلى الأفضل يعده بالبلاد التى عُينت له بالشرق ، و بذل له مع ذلك مالا .

ففترت همتُه ، وقال للأمراء الصلاحية ومَنْ جاء إليه من الجند : « إن كنتم جئتم إلىَّ ، فقد أذنت لكم فى العوْد إلى الملك العادل ، و إن كنتم جئتم إلى أخى فأنتم وهو أخير » .

وكان الكل يريدون الأفضل للين عريكته ، فقالوا : « ما نريد سواك والعادل أحب إلينا من أخيك » .

فأذن لهم فى العود ؛ فهرب فخر الدين جهاركس ، وزين الدين قراجا — صاحب صرخد — والحجّاف ، وعلاء الدين شقير ، وسعد الدين بن علم الدين قيصر فَمِنْ هؤلاء مَنْ دخل دمشق ، ومنهم مَنْ ذهب إلى إقطاعه ، وتحلّلت العزائم .

وخرجت هذه السنة والملكان الأفضل والظاهر منازلان دمشق .

وفى هذه السنة تجهز نور الدين أرسلان شاه بن مودود — صاحب

الموصل — فى عساكره إلى حرّان والرُّها ليستولى عليها ، ومعه ابن عمه قطبُ الدين محمد بن عماد الدين — صاحب سنجار — ، وذلك فى شعبان ، وذلك لما تحققوه من قَصْد الملك الأفضل والملك الظاهر دمشق ، وطمعوا أن يحصلوا فى هذه الفترة على تلك البلاد .

وسار معهما صاحب ماردين ، وكان الزمان شديد الحر ، فنزلوا رأس عين ، وكثرت الأمراض فى عسكرهم .

وكان بحرّان الملك الفائز إبراهيم بن الملك العادل ومعه عسكر ، فأرسل إليهم يطلب الصلح ، و بلغهم اختلال حال الأفضل والظاهر ، وأنه ربما يقع الصلح بينهما و بين عمهما العادل .

فأجاب نور الدين إلى الصلح ، وحلف الفائز ومَنْ عنده من الأمراء على القاعدة التى استقرت ، وحلفوا أيضاً لنور الدين أنهم يحلفوا للملك العادل ، فإن امتنع كانوا عليه .

وحلف نور الدين للملك العادل ، وسارت الرسل من عنده ومن عند الفائز إلى الملك العادل فى طلب اليمين فأجاب إلى ذلك .

ورجع نور الدين فى ذى القعدة من السنة .

وفى هذه السنة كان الغلاء العظيم بالديار المصرية ، وتعذرت الأقوات بها حتى أكل الناس الميتة وأكل بعضهم بعضاً ، ثم تبع ذلك وباء[1] ، عظيم وموتان .

وفى هذه السنة توفى عماد الدين (١٣٧) الكاتب — رحمه الله — ،

(١) ك : « فناء » .

وكان جامعاً[1] لفنون كثيرة : الأدب ، والفقه ، والخلاف ، والتاريخ ، وله النظم البديع والنثر الفائق ، وكتب لنور الدين والملك الناصر صلاح الدين ، ونال عنده المنزلة العالية ، وله التصانيف البديعة : كالبرق الشامى ، وخريدة القصر ، والنصرة فى أخبار وزراء الدولة السلجوقية ، وغير ذلك .

وكان مولده سنة تسع عشرة وخمسمائة ، فكان عمره تسعا وسبعين سنة .



(١) ك : « عالما » .

ودخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة :

والملكان الأفضل والظاهر منازلان دمشق وقد اختلفا وفترت عزائمهما .

ذكر رحيل

الملك الأفضل والملك الظاهر عن دمشق

ولما جرى ما ذكرناه من هرب فخر الدين جهاركس وزين الدين قراجا وغيرهما من الأمراء ، ووقع الاختلاف بين الملكين ؛ رحلا عن دمشق أول محرم من هذه السنة .

فرجع الملك الظاهر إلى حلب ، وتوجه الملك الأفضل إلى حمص . فلما قدم الملك العادل إلى دمشق (١توجه إلى خدمته واجتمع به ، ثم رحل إلى البلاد الشرقية التي اتفقا عليها .

ذكر قدوم

الملك العادل إلى دمشق

ولما رحل الملكان عن دمشق ، وبلغ ذلك الملك العادل ، رحل إليها ، فدخل إلى دمشق١) واستقرَّ بها .

وفي انتصاره وظهوره يقول شرف الدين بن عُنَيْن قصيدة يمدح بها صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر — وزير الملك العادل — مطلعها :

---

(١) النص في (ك) : « بعد رحيلهما واستقر بها » .

ما قامَ لولا هواكَ المدنَفُ[1] الوَصِبُ يبكي الطلولَ، وأهلُ المنحنى غيَبُ[2]

ومنها :

يا أيُّها الصاحبُ المولى الوزيرُ ومَنْ إلى مكارمه[3] العلياء تنتسبُ
دُعيتَ في الدولة الغرّاء صاحبَها حقاً، فظنّ جهولٌ أنه كَذِبُ[4]
كثَّرتَهم في دمشقٍ وهي خاليةٌ وقد أناخَ عليها جَحْفَلٌ[5] لَجِبُ

(٣٧ ب)

كتائبٌ أضحت البيداءُ مُتْأَقَةً منهم[6]، وضاقت بها البُطْنانُ والحَدَبُ
يقودُهم من بني أيوبَ كلُّ فتىً، ماضي العزائمِ، لا نِكسٌ ولا نَخِبُ[7]
أُسْدٌ مخالبُها بيضُ الظُّبي، ولها مِنَ الذَّوابلِ غِيلٌ نَبْتُهُ أَشِبُ
حتى إذا أشرفتْ منهم دمشقُ على حربٍ لها الويلُ من عُقْباه والحَرَبُ
منحتَها منك عَزْماً صادقاً خضعتْ له ظُبي الهندِ والخَطّيّةُ القُضُبُ[8]
فكان رأيُك فيها رايةً طلعتْ بالنصرِ، فانجابتْ اللأْواءُ والكُرَبُ
وبات أثبتَهم جأشاً وأحزمَهم رأياً، وأمضى سلاحاً عزمُه الهربُ
وكان ظنُّهُمُ أن تلتقي بهمُ مصرُ البوارَ[9]، وتغشى النُوبةَ النُّوَبُ
فأَجْفَلُوا، وزعيمُ القومِ غايةُ ما يرجو من الله أنْ تبقى له حَلَبُ

---

(١) ك : « الواله »، وما هنا صيغة الأصل والديوان
(٢) القصيدة في الديوان طويلة فراجعها هناك، وما هنا مقتطفات منها
(٣) في الديوان : « مفاخره »
(٤) كذا في الأصل وفي ك، والنص في الديوان : « وظن جهول أنه لقب »
(٥) الديوان : « الجحفل »
(٦) الديوان : « منها »، وما هنا صيغة الأصل و (ك)
(٧) الأصل : « لجب »، والتصحيح عن الديوان، والنخب الجبان
(٨) الديوان : « السلب »
(٩) كذا في الأصل والديوان، وفي (ك) : « الهوان

ولما رجع الملك الظاهر إلى حلب ذهب معه إليها جماعة من الأمراء الصلاحية ، منهم : فارس الدين ميمون القَصْرى ، وسرا سُنْقُر ، وألبكى الفارس .

فأقطع الملكُ الظاهرُ ميمونَ القَصْرى عَزَازَ وأماكن أخرى ، وحمل إليه ثمانين ألف درهم ، وخلعاً كثيرة له ولأصحابه ، وعشرة أرؤس من الخيل العراب ، وعشر بغلات ، وعشر زرديات ، ومائة ثوب ألواناً ، وحمل إلى ألبكى وأسد الدين سرا سنقر دون ذلك ، فلم تطب قلوبهما به .

ثم قصد الملك الظاهر منبج ، وكان الملك الفائز بن الملك العادل قد قصدها فى غيبته وملكها ، فاستعادها وخرّب سورها وقلعتها ، ونقل ذخائرها إلى حلب وأقطعها عماد الدين بن المشطوب .

وفى هذه السنة أنفذ قراقوش — نائب شمس الدين بن المقدم بأفامية — إلى الملك الظاهر يبذل له أفامية ، بشرط أن يعطى شمس الدين إقطاعاً يقوم به ، وكان بتقريرٍ بينه و بين شمس الدين .

فأجاب الملك الظاهر إلى ذلك ، وأقطعه الراوندان ، وكفر طاب ومفردة المعرّة ، وحلف له على ذلك وتسلم أفامية .

ثم فى هذه السنة هرب شمس الدين إلى قلعة الراوندان وعصى بها ، فقصده الملك الظاهر واستنزله منها ، وأخذ كل ماله من الأموال والذخائر ، فقصد بدر الدين دلدرم — صاحب تل باشر — (١٣٨ أ) مستشفعاً به إلى الملك الظاهر فى أن يعيد إليه ما أخذ منه ، فلم يجد استشفاعه شيئاً ، فقصد الملك العادل فأقطعه إقطاعاً وأحسن إليه .

ذكر وصول

الملك العادل إلى حماة

وانتظام الصلح بينه و بين الملك الظاهر

وفى هذه السنة توجَّه الملك العادل بالعساكر إلى حماة ، ونزل على تل صفرون ، وقام الملك المنصور بجميع وظائفه وكُلَفِهِ وما يحتاج إليه .

و بلغ الملكَ الظاهرَ وصول عمِّه إلى حماة بنيَّة قَصْدِهِ وحصاره ، نخاف واستشعر ، وأمر بالاستعداد ، وجمع المِيَر والذخائر ، واستحلف الحلبيين ، وأحضر[1] إليه مقدميهم . وقال :

« أنا واثق بعد الله تعالى بكم ، وليس لى اعتماد إلا عليكم[2] » .

فقالوا : « نحن عبيدُك ، وسنبذل مُهَجَنا بين يدَيْك » .

وراسل عمَّه ، ولاطفه ، وأهدى إليه ، ووقعتْ بينهما مراسلات ومكاتبات ، واستقرَّ الأمر آخراً على أن قُرِرتْ بيده مَنْبِج وأفامية وكفر طاب ، وكان الملك العادل قد رام انتزاعها منه وردَّها إلى ابن المقدِّم .

وانتزع منه من إقطاع ابن المقدِّم مفردةَ المعرة ، وهى خمس وعشرون ضيعة ، وسلمت إلى الملك المنصور .

وسُلِّمتْ قلعة نجم إلى الملك الأفضل مع سَرُوج ، ووعد بانتزاع رأس عيْن من[3] صاحب ماردين ، وكانت بيده سُمَيْساط .

---

(١) (ك) : « وأخرج »

(٢) النص فى (ك) مختلف قليلا ، وهو « أنا واثق بالله تعالى ثم بكم ، والاعتماد عليكم »

(٣) (ك) : « من يد صاحب »

وحلف الملك العادل للملك الظاهر .

وسلَّم الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف مظفر الدين [موسى][١] حرّان وما معها ، وسيَّره إلى الشرق .

وكان بميَّا فارقين الملكُ الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل .

وتقرر بقلعة جَعْبَر الملكُ الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن الملك العادل .

ثم رجع الملك العادل إلى دمشق ، وأقام بها ، وقد انتظمت الممالكُ الشامية والشرقية والديار المصرية كلُّها فى سلك ملكه ، وخُطب له على منابرها كلِّها ، وضُربت السكة فيها باسمه .

وفى هذه السنة توفى القاضى محيي الدين بن زكى الدين قاضى القضاة بدمشق و بلادها ، وكان إليه قضاء حلب و بلادها (٣٨ ب) من الأيام الناصرية .

ولما ورد القاضى بهاء الدين بن شداد إلى حلب كان بحلب زين الدين بنا البانياسى ينوب فى القضاء بها عن محيي الدين فعلم مَيْلَ الملك الظاهر إلى تولية القاضى بهاء الدين القضاء[٢] ، فطلب دستوراً من الملك الظاهر فأعطاه ، وسافر إلى دمشق ، فولَّي الملكُ الظاهر بهاءَ الدين القضاء ، فأنكر محيي الدين بن زكى الدين على زين الدين طَلَبَ الدستور ، وقال : « لو كنتَ أقمتَ وولَّي غيرَك ناظرتُ عنك ، فأما إذ فَعَلْتَ ما فعلتَ ما بقيتُ أتكلم فى قضاء حلب » .

وكان محيي الدين — رحمه الله — فاضلا مترسلا ، وله النظم والنثر البديعان .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من (ك) .

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك)

ولما توفى وَلِّي الملكُ العادلُ قضاءَ دمشق ولدَه زكىَّ الدين ، وهو الذى لما أراد الملكُ المعظمُ عزلَه والإخراق[1] ؛ به بعث إليــه قَبَاءً[2] وكُمَّة[3] وتقدم إليه بلبس ذلك ، فلبسه ، فحصل له غمّ بسبب ذلك ، فمات بعد أيام قلائل .

وفى هذه السنة قدمتْ إلى حماة عصمةُ الدين ملــكة[4] خاتون ابنــة الملك العادل ، وزُينت حماة لمقدمها ، وكان يوماً مشهوداً .



(١) الأصل : « الاحراق » ، والتصحيح عن (ك)

(٢) شرح هذا اللفظ فى (مفرج الكروب ، ج ، ١ ، ص ٢٧٩ ، هامش ٤)

(٣) الـكمة (والجمع كمام) فسرها Dozy : *Supp. Dict. efrab* بأنهما قلنسوة مستديرة ومرتفعة ponnet, hant et rond ، وقد تترجم إلى baveçan أى الشكيمة من الحديد التى توضع فى فم الحصان ، والمعنى الأول هو المقصود هنا .

(٤) هذا اللفظ ساقط من (ك)

ودخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

والملك العادل مقيم بدمشق .

وفى هذه السنة وردت الأخبار بوصول الفرنج إلى عكا ، واجتماعهم بها ، وبأن فرنج صقلية قاصدون الديار المصرية .

فسيَّر الملك الظاهر إلى الملك العادل خمسمائة فارس ، ومائة راجل من الحلبيين[1] حجَّارين ونقَّابين وزردخاناة[2] ، ليبعث ذلك إلى مصر .

ولليلة بقيت من المحرم من هذه السنة توفى فلك الدين سليمان[3] أخو الملك العادل لأمه ، وكان يُلقب الملك المبارز .

ذكر حوادث[4]

حدثت باليمن[5]

فى خامس صفر من هذه السنة ورد إلى الملك المنصور — صاحب حماة — كتابٌ من المختص والى البرّ بحماة ، وكان حَجَّ سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، يخبر

---

(١) الأصل : « حلبيين » ، والتصحيح عن (ك)

(٢) شرحنا هذا المصطلح فى (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ ، هامش ٤) وذكرنا هناك أنه يعنى أصلا خزانة الزرد أو خزانة السلاح ، وقد يعنى نوعا من السجن يجن فيه كبار الأمراء أو علية القوم ؛ ولكن يبدو من السياق هنا أن اللفظ قد يطلق على صناع الزرد أو السلاح .

(٣) انظر مافات هنا ص

(٤) بهذا اللفظ تتقابل ثانية مع نسخة س .   (٥) (ك) : « صدرت »

(٦) هذا نص هام يشير إلى وظيفة لها أهميتها وهى « ولاية البر » وإن كنت لم أجد لها تفسيرا فى المراجع المتداول ذكرها هنا

فيه بقتل الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهـــير الدين طُغتِــكين ابن أيوب .

وسطر الـكتاب يتيما فى[1] رابع عشر المحرم ، منه .

« وأما أخبار اليمن : فإن ابن سيف الإسلام قتله جماعة من الأكراد ، وتشوشت البلاد ، (١٣٩ ا) وكلٌّ استقلَّ بما تحت يده ، والبلاد سايبة تريد رجلا [يحفظها][2] ، وسريَّةُ بن سيف الإسلام عصت فى قلعة منيعة[3] ، هى أحصن القلاع وأمنعها ، وعندها من الأموال ما لا يحصى عدده .

وذُكر عنها أنها قالت : ما نسلِّم هذا الحصنَ وهذه الأموالَ إلا لرجل من ولد السلطان » .

هذا ما ذكره المختصُّ فى كتابه .

ونحن نذكر ما بلغنا من أحوال الملك المعز :

كنا قد ذكرنا تملـكه بعد أبيه لبلاد اليمن ، ثم إنه بعد ذلك جرت له باليمن حروبٌ ، منها : أنه خرج عليه الشريفُ عبد الله بن عبد الله[4] الحسنى[5] وضرب معه مصافاً ، فانـكسر الشريف .

ثم خرج عليه من مماليك أبيه نحو ثمانمائة مملوك ، وحاربوه ، واعتصموا بصنعاء ، فـكسرهم ، وأخذها منهم .

ثم ادعى بعد ذلك الخلافةَ ، وانتسب إلى بنى أمية ، وجعل شعارَه

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك)

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ج ١ ، س ١٤٦ ا)

(٣) هذه الـكلمة ساقطة من (ك)

(٤) هذان اللفظان ساقطان من (ك) و (س)

(٥) (س) : « الحسينى »

الحضرة(١) ، وقطع خطبةَ بنى العباس ، وخطب لنفسه بالخلافة على منابر اليمن ، وخطب بنفسه على المنبر يوم الجمعة .

وقد ذُكر أن عقيدته كانت فاسدة ، وأنه ادعى الربوبية ، وأمر كاتبه أن يكتب : « من مقر الإلهية » ، ثم نُهى عن ذلك ، فانتهى خوفاً من القتل .

[وبلغ عمه الملك العادل دعواه النسب إلى بنى أمية ، فأنكره وساءه فعلُه ، وجحد أن يكون لبنى أيوب نسب يتصل ببنى أمية .

وخافته مماليك أبيه لهوجه وسفهه ، ففارقوه وتحزبوا عليه وحاربوه ، ووافقهم على ذلك جماعةٌ من أمراء الأكراد ، منهم : شمسُ الدين بن الدقيق(٢) ، وباخل ، وغيرهم ، فاتفقوا كلُّهم على قتله ، وضربوا معه مصافاً فى السنة الماضية ، وهى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، فكسروه وقتلوه ، ونصبوا رأسه على رمح ، وداروا به بلاد اليمن ، ونهبوا زبيد تسعة أيام .

وكان له أخٌ صغير يُلقب بالملك الناصر ، فجعلوا له اسم السلطنة ، وترتب أتابكا له سيفُ الدين [سنقر](٣) — مملوكُ والده(٤) — .

ثم اضطربت الأمور على سيف الدين سنقر ، وتحزَّبتْ عليه العساكرُ وقاتلوه ، وجرتْ بينهم حروب كثيرة ، وآخرها أنه انتصر وقَتَل جماعةً من الأكراد والأتراك ، وحبس جماعة ، وصفتْ له اليمنُ .

ثم مات بعد أربع سنين .

وكان تزوج أمَّ الملك الناصر ، وأولدها ولداً ذكراً ، (٣٩ ب) فتزوجها

---

(١) (ك) : « ودخل سعاده الحضره » وما هنا هو الصحيح
(٢) (س) : « بن الرفيق »
(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك)
(٤) (س) : « مملوك جده »

بعده أمير من أمراء الدولة ، يقال له : « غازى بن جبريل » وقام بأتابكية المُلك .

ثم سَمَّ الملكَ الناصرَ فى كوز فقاعٍ على ما قيل ، و بقى غازى متملكاً البلاد [وحده][١] مدة ، ثم قتلته جماعةٌ من عرب البلاد .

وذُكر أن سببَ قتلهم[٢] له ، اتهامهم إياه بقتل الملك الناصر . و بقيت اليمن خالية بغير سلطان .

ورأيتُ فى بعض التواريخ أن الملك الناصر هو ابن الملك المعز إسماعيل ، وهو خطأ ، فإن الذى تحققته من جهة لا أشك فى صحتها[٣] ما ذكرتُه أولاً .

وكان لسعد الدين شاهان شاه بن الملك المظفر تقى الدين عمر — رحمه الله — ولدٌ يقال له سليمان شاه ، قد خلع لباس الجند ، ولبس لباس[٤] الفقراء ، و يحمل ركوةً على كتفه ، و ينتقل مع الفقراء من مكان إلى مكان .

فاتفق أنه حجَّ إلى مكة — شرفها الله تعالى — وكانت أمُّ الملك الناصر قد تغلبت على زبيد ، وأحرزت الأموال عندها وكانت تنتظر وصول رجل من بنى أيوب تتزوجه وتملِّكه البلادَ .

فبعثت إلى مكة بعض[٥] غلمانها يكشف[٦] لها عن أخبار مصر والشام ، فوقع بسليمان شاه ، وقد جاء حاجاً مع الفقراء ، فسأله عن اسمه ونسبه فعرفه[٧] .

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٢) (ك) : « سبب قتله »

(٣) النص فى س : « من جهة من لا شك فيه ولا فى صحته ، وهذا مثل طيب على تحرى ابن واصل الدقة فى مؤلفه هذا ، فهو لا ينقل دون تثبت ، بل هو يناقش ويشير إلى أخطاء غيره ويصححها .

(٤) ك و س : « ثياب »

(٥) هذا اللفظ ساقط من (ك)

(٦) (ك) : « يكشفون »

(٧) (ك) : « فسأله عن اسمه ونسبه شخص من غلمانها فعرفوه » والنص فى س : « معرفة أنه من ملوك بنى أيوب »

فكتب إليها [غلامها][١] وعرفها ذلك ، فاستحضرته ، وخلعت عليه . وتزوجته ، وملكته اليمن ، فملأها ظلماً وجوراً ، واطّرح زوجته التى ملكته البلاد ، وأعرض عنها .

وكتب إلى السلطان الملك العادل — وهو عمّ جدّه — كتاباً جعل فى أوله: « إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » .

فاستقلّ الملكُ العادل عقلَه ، وعلم أنه لا بد لليمن من سلطان قاهر ، يمضى إليها ويدبّر أمر[٢] مُلْكها ، [وكتبت هى أيضاً إلى الملك العادل تشكوه فيه][١] فكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر الحوادث

المتجددة بالشرق

تقدم الملكُ العادل فى هذه السنة إلى ولده الملك الأشرف موسى بمنازلة ماردين[٣] ، فنازلها بعسكره ، ومعه الملك الأفضل نور الدين ، وانضاف إليهم عسكرُ الموصل وسِنْجار ، ونزلوا بحرزم تحت جبل ماردين ، وأقاموا مدة ولم يتحصلوا على غرض ، فدخل الملك الظاهر فى الصلح بينهم و بين الملك العادل ، وأرسل (١٤٠ ا) إلى الملك العادل فى ذلك ، فأجاب إلى الصلح ؛ على أن يحمل إليه صاحبُ ماردين مائةَ ألف وخمسين ألف دينار ، ويُخطب له ببلاده ، وتضرب السكّةُ باسمه ، ويكون عسكره[٤] فى خدمته متى طلبه .

---

(١) ما بين الحاصرتين عن س (ج ١ ، ص ١٤٧ ا)

(٢) هذا اللفظ ساقط من ك والنص فى س : « يمضى إليها ويملكها »

(٣) (ك) : « ميافارقين » وهو خطأ

(٤) (ك) : « عنده »

فأجيب إلى ذلك .

وحصل للملك الظاهر بطريق هذه(١) الوساطة عشرةُ آلاف دينار ، وضيعة تسمى « القرادى » من أعمال شبختان .

فرحل الملك الأشرف عنهم وتفرقت العساكر .

وفى هذه السنة نزل ابن لاون — صاحب الأرمن — على جسر الحديد ، لحرب أهل أنطاكية ، وأتلف مرزه الأبرنس صاحبها ، وأخرب البلد المختص بالخيّالة والأبرنس ، وقطع مادة الميرة المتواصلة من أنطاكية إلى حلب .

وفى هذه السنة ورد الخبرُ أن الفرنج الذين كانوا اجتمعوا بعكا عاد أكثرهم إلى داخل البحر ، وما تخلّف إلا من عجز عن السفر ، وأن الغلاء كثر بعكا ، ومتى قُطعتْ عنهم الميرة هلكوا .

ذكر إخراج

الملك العادل الملكَ المنصورَ

ابنَ الملك العزيز من الديار المصرية

كنا ذكرنا استقلال الملك العادل بتملُّك الديار المصرية وإزالة اسم الملك المنصور محمد بن الملك العزيز .

ولما كانت هذه السنة تقدم الملك العادل بإخراجه من الديار المصرية ، لأنه خاف من الصلاحية وممن يميل إلى الملك العزيز أن يقوموا مع ولده وتعود الفتنة والعصبية كما كانت .

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك)

فأخرج [الملك المنصور بن العزيز](١) من مصر فى الخامس والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة ، ومعه والدته وأخوته ومَنْ يختص به ، وسُيِّروا إلى الرُّها ، فأقاموا بها مدة ، ثم انتقلوا إلى حلب ، وأقاموا عند الملك الظاهر صاحبها .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أن الملك الظاهر فى مرض موته جعل الملكَ المنصورَ هذا ولىَّ العهد بعد ولديْه : الملك العزيز ، والملك الصالح .

وفى هذه السنة شرع الملك العادل فى عمارة فصيل دائر حول سور دمشق بالكلس والحجر ، وهو من سفل الخندق إلى مقدار قامة ، وعمَّق الخندقَ ، وأجرى الماء فيه .

ذكر نزول

الملك المنصور بعرين مرابطا للفرنج

وفى هذه السنة توجَّه الملكُ المنصورُ بعساكره إلى بعرين ، فنزل بقلعتها مرابطا لفرنج الساحل ، وأقام بها .

وطلب من الملك العادل النجدة ، فتقدَّم الملك العادل إلى الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — ، وإلى الملك المجاهد — صاحب حمص — بإنجاده ، [ففعلوا ذلك](٢) .

ووصل من الصاحب صفى الدين بن شُكْر كتابٌ إلى الملك المنصور — صاحب حماة —(٢) منه :

---

(١) ما بين الحاصرتين عن (س)

(٢) ما بين الحاصرتين عن (س)

« علم المملوك حركةَ المولى ونزولَه قبالة حصن الأكراد ، وما عزم عليه من المصابرة والجهاد .

وقد كتب السلطانُ — أعزَّ الله أنصارَه — إلى صاحب حمص و بعلبك — أبقاهما الله — بمقتضى ما أشار المجلسُ ونَبَّه عليه من إنفاذ عسكرهما إليه .

وقد علم الله أن المملوك لا يألو جهداً فى خدمته ، التى يعدها من السعادة والمبادرة إلى امتثال أمثلته التى صارت له كالعادة » .

ثم ورد كتاب من الملك العادل إلى الملك المنصور يخبره بأنه قد كتب إلى الملك الظاهر يأمره بتسيير نجدة من عنده إلى خدمته ، (١)وأنه قد أنكر على صاحب حمص وصاحب بعلبك تأخرَّ النجدة عنه(١) .

وورد كتابٌ من صفىِّ الدين بن شُكْر إليه ، منه :

كُنْ كيف شئتَ من البُعادِ فأنت فى قلبى قريب

عَرَضَ(٢) المملوك كتاب المولى [على](٣) السلطان — خلَّد الله ملكه — ، وقد كتب إلى الملك الظاهر ، والملك الأمجد ، والملك المجاهد ، — عزَّ نصرُهم — بتسيير عساكرهم إليه وورودها عليه ، و إعانته على جهاده ، ومرابطته والانقياد إلى آرائه وطاعته ، فجزاه اللهُ عن الإسلام ماجزاه ، فقد أوتى من الفضل مالم يؤت سواه ، وقد قام بأمور الجهاد لما قعد عنه من عداه ، وقد اقتنى الأجرْين ، وحاز الشكريْن ، وقام بالحقيْن ، وأدَّى ما يجب عليه من الفرضيْن ، فشكرُه مخلَّدٌ فى صحائف الأيام ، وحمدُه تنطق به ألسنةُ الأقلام .

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (س)

(٢) الأصل : « غرض » ، والتصحيح عن (ك) و (س) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .

وقد أهل له فى الآخرة عن هذا السعى المشكور دار السلام » .

ولما وصلت نجدة الملك الظاهر إلى عند الملك المنصور ، ونجدة الملك الأمجد تهيأ لملتقى الفرنج — خذلهم الله تعالى —[1] .

ذكر الوقعة

التى أوقعها الملك المنصور بالفرنج

(١٤١) وكانت فى ثالث شهر رمضان من هذه السنة

وكان من حديثها : أن الفرنج اجتمعوا من حصن الأكراد وطرابلس والحصون التى حولها .

وجاءوا فى فارسهم وراجلهم .

وركب الملكُ المنصورُ فى العساكر التى معه ، وتقدم إليهم ، وقاتلهم ، فهزمهم ، وأخذ[2] جماعةً من مقدميهم وخيَّالتهم ، وبعث بهم إلى حماة ، فدخلوها راكبين خيولَهم ، لابسين عُدَدَهم ، وبأيديهم رماحُهم ، وكان يوما مشهوداً .

وفى ذلك يقول بهاء الدين أسعد يحيى السنجارى قصيدةً يمدحه بها ، ويهنئه بهذا الفتح الجليل :

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س)

(٢) (ك) : « وقتل » ، ولا يلتئم بها المعنى ، وما بالمتن هو الصحيح ، والنص فى س : « وقتل جماعة من مقدميهم ورجالتهم وخيالتهم ، وأسر منهم جماعة كبيرة ، وبعث بهم الى حماة » .

مطلعها :

الْمجدُ يُدرَكُ بالعسَّالة الذُبلِ والمَشْرَفيَّةِ ، لا بالوعدِ والأملِ[١]

والجَدُّ فى الجِدِّ ، فاجْنُبْهَا[٢] مُسَوَّمَةً يقودُها أسدٌ بالأَيْنُقِ الذُلُلِ

ما لَذَّةُ العيْشِ إلا صَوْتُ مَعْمَعَةٍ يُنَالُ فيها المُنى بالبيضِ والأَسَلِ

يأيُّها الَملِكُ المنصورُ نُصْحَ فتىً[٣] لم يَلْوِهِ عَنْ وَفَاءٍ كَثْرَةُ العَذَلِ

اعْزِمْ ولا تتركْ الدنيا بلا مَلِكٍ وَجِدَّ ، فالملكُ محتاجٌ إلى رَجُلِ

وأبرُزْ إلى الموتِ[٤] يومَ الرَّوْعِ مُدَّرِعاً قلباً ، إذا زالتْ الأفلاكُ لم يَزُلِ

وَهِمَّ فى طَلَبِ العليــــاء مُرتقياً[٥] وأَرْسِلْ الجيْشَ أَبْدالاً من الرُسُلِ

واهْصُرْ عِدَاكَ كهَصْرِ الليْثِ طُعْمَتَه[٦] وَصُلْ إذا الليثُ فى الهيجاء لم يَصُلِ

ومنها :

يا أَوْحَدَ العصْرِ ، ياخير الملوكِ ، وَمَنْ فاق البريَّةَ مِنْ حافٍ ومُنْتَعِلِ

أَسْهَرْتَ عَيْنَيْكَ[٧] فى كَسْبِ العُلا وَلَكَمْ مَنْ بات يُسهرهاَ فى اللهــــو والجذَلِ

جاهدتَ فى الله طَوْعاً والملوكُ غَدَوْا يستهترون[٨] بذاتِ الحَلْى والحُلَلَ

---

(١) (ك) : « الأهل »

(٢) (ك) : « فأحبها »

(٣) (ك) : نق ، وفى (س) لياض

(٤) (ك) و (س) : « الحرب »

(٥) (ك) : « مرتقيا »

(٦) (ك) : « داهم عداك كهم الليث طعمته » ، و(س) : « وانهم عداك كنهم .. لخ »

(٧) الأصل و (ك) : « وعينيك » والتصحيح عن (س)

(٨) كذا فى الأصل و (ك) ، وفى (س) : « يستذهبون »

يَدَاكَ باطِنُها للجود مُذْ خُلِقَتْ فينا ... وظاهِرُها للثْمِ والقبَلِ

وأنتَ شَرَّفْتَ أيوباً على شَرَفٍ(١) ... فيه وَفُقْتَ كِرَامَ السادةِ الاوَلِ

أغْمَدْتَ بيضَ المواضى فى الرِّقابِ وقد(٢) ... حَلَّيْتَ عاطِلَها ضَرْباً من القُلَلِ

عَاجَلْتَهُمْ بالمنايا والحتوفِ فلا تَتْرُكْ ... لهم أَجَلاً يَبْقَى إلى أَجَلِ

(٤١ ب)

صَفِّدْهم عاجلاً(٣) واجعل حصونَهُمُ ... سجونَهم فهم فى غاية الفَشَلِ

ولما كَسَرَ الملكُ المنصورُ — صاحبُ حماة — الفرنج كتب إلى عمِّه السلطان الملك العادل — رحمهما الله — يعرِّفه ذلك .

فورد عليه كتابُ الملك العادل ثامن عشر شهر رمضان ، ومنه :

« وردتْ مكاتبةُ المجلس ، ووقف الخادمُ عليها ، وفهم ما أشار إليها من يُمْن حركته ، وسعادة وجهته ، وبركة نُصرته ، ودخوله إلى بلاد الكفار ، وما أثَّره(٤) فيها وفيهم من جميل الآثار ، فاستبشر بما دلَّتْ عليه من هذه النعم الراهنة ، والعوارف الظاهرة والباطنة ، والله تعالى يجازيه أحسن الجزاء ، (٥ويضاعف له من الحسنات أوفر الأجزاء٥) ، ويرحم سلفه الكريم ، ويحسن له فى الحديث والقديم ، ويؤيده فى كل حركة بأحزاب الملائكة » .

ووصل فى هذه المدة رسولٌ من الداوية [إلى الملك المنصور](٦) يخبر فيه

(١) النص فى (س) : «وأنت شرفت بنى أيوب فى شرف» .
(٢) (س) : « أغمضت » .
(٣) (س) : « عجلا » .
(٤) (ك) : « أثر » .
(٥) هذه الجملة ساقطة من (ك) .
(٦) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

بوصول الفرنج إلى عكا من داخل البحر فى نحو ستين[١] ألفا من فارس تركبلى[٢] وراجل ، وأنهم يقصدون جهة جَبَلَة واللاذقية .

وأن مقدِّم الاستبارية[٣] ، ومقدِّم الداوية ، والملك متوجهون إلى ابن لاون ملك الأرمن ، ليصالحوا بينه وبين الأبرنس — صاحب أنطاكية — ويأتون بابن لاون ليلقى الفرنج ، وتجتمع كلمةُ الكل على حرب المسلمين .

وأن [٤]المركيس وكُنْد[٥] قانط[٤] مقدمى العسكر الخارج إلى بلاد الشام وقع بينهم وبين ملك الهنكرية[٦] وقعة عظيمة ، وأخذوا مدينة كبيرة بالسيف ، وقتلوا منهم خلقا كبيراً[٧] .

وأن شينيا[٨] قدم من عندهم يُخبر بأنهم اصطلحوا ، وأنهم خارجون إلى الشام فى عيد الصليب .

وإنما قصدت الداوية بهذه الأخبار الإرهاب ، ليُصالح[٩] الملكُ المنصورُ بيتَ[١٠] الاستبار . فإن الداوية سألهم[١١] الاستبارُ التوسطَ بينه وبينهم .

---

(١) (ك) و (س) : « سبعين ألف فارس من تركبلى وراجل .. الخ » .

(٢) شرحنا هذا المصطلح شرحا مفصلا فيما سبق (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، هامش ١ ، ص ٣٩٥ ، هامش ١) والنص هنا يضيف جديدا ، فهو يشير إلى أن حملات الفرنجة الوافدين عبر البحار كان من بينهم فرق من التركبلى .

(٣) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٨ ، هامش ٢) .

(٤) (ك) : « وأن دكيد قليط » .

(٥) انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ص ٧٣ ، هامش ١) .

(٦) (ك) : « الا تنكرية » .

(٧) (ك) . « كثيرا » .

(٨) شرحنا هذا اللفظ شرحا مفصلا فى: (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص١٣ ، هامش١).

(٩) (ك) : « ليصلح »

(١٠) (ك) : « بين »

(١١) (ك) : سألوا »

فأجاب الملك المنصور : « بأنَّا لا نجزع بما تقول ولا نكترث ، ولو أنهم أضعاف ذلك لناجزتهم ، فقد تحققنا قَصْدهم لنا ، وعلمنا ذلك ولا سبيل إلى مُصالحة الاستبار بوجه » .

فضرع الرسول حينئذ . وسأله تقليد الداوية [١] المائة فى [١] صاحبهم واعتذر من قوله الأول .

فأجابه إلى ماتمسه .

فَسُرَّ الرسولُ بذلك (١٤٢) وقام وكشف رأسه ، وقبَّل يده .

وورد كتابُ الملك العادل يُخبره فيه بالفرنج الخارجين من البحر ، وتوجههم إلى جهة اللاذقية وغيرها من البلاد .

وفى هذه السنة وُلد الملكُ المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور ، وسمَّاه عُمَر ، وإنما سمى محمودا بعد ذلك .

وكانت ولادته بقلعة حماة ظهر يوم الثلاثاء رابع عشر شهر رمضان من هذه السنة .

وكان والدُه الملك المنصور بقلعة بعرين فى مرابطة الفرنج ، فلما بلغته ولادته قدم إلى حماة يوم الأحد منتصف شهر رمضان ، فهنأه أكابر الدولة ، ومدحه الشعراء وهنوه بذلك ، فممن مدحه وهناه سالمُ بن سعادة الحمصى وهو من الشعراء المجيدين [٢] ، بقصيدة مطلعها :

هذا الهناءُ الذى سَرَّتْ بشائرُه   بمَوْلِدِ الملك الميمون طائرُه
شِبْلٌ أتى من هِزَبْرٍ سُمر ذُبَّله   آجامُه ومواضيــــــه بواترُه

(١) هذان اللفظان غير موجودين فى (ك)

(٢) الأصل : « المحدثين » ، وما أثبتناه صيغة (ك) وهى أصح .

أنحى أماً أبيـــه شربه ، وله في الملك من جدّه جَدٌّ يؤازره
هنيته ولداً أطاعت كوكبه ويا له فَلَكٌ إلا مفـــاخره
سَمَّيْتَه عُمَراً لمـــا انطوى عُمَرٌ وذكر أحسابه[1] في الخلق ناشره
فجـــاء يشبهه بأساً ومَحْمَدَةً ونائلاً عمرا الآفاق عامره
خُضْرٌ معاينه حُمْرٌ ما يَـكُرُّ به من الظُّبَى والقنا بيضٌ مآثره
خالج مناصله ، عدد ســـوابغه أُسْدٌ جحافله ، فُتْحٌ ضـوامره
ثَرَّتْ[2] مواهبه ، كَرَّتْ كتائبه دَرَّتْ سحائبه ، مُرَّتْ عشائره

ذكر الوقعة

التي أوقعها الملك المنصور ببيت الاستبار

ولما كان الحادى والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة خرج جمع الاستبار من حصن الأكراد والمرقب ، ومَنْ وصل إليهم من الضُّرب ، وأغاروا على عمل[3] بعرين .

وعدتهم أربعمائة[4] فارس ، خارجاً عن التُرْكُبْلِيَّة[5] ، وألف ومائتا[6] راجل ومَنْ معهم من الجرْخية[7] ، ورماة الزنبورك[8] .

---

(١) ك : « إحسانه » .
(٢) س : « دوت » .
(٣) (س) : « بلدى » .
(٤) (س) : خمسمائة » .
(٥) انظر مافات من هذا الكتاب (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، هامش ١ ؛ ص ٣٩٥ ، هامش ؛ ج ٣ ص ، هامش) .
(٦) (س) : « وأربعماية » .
(٧) شرحنا هذا اللفظ شرحا الفصلا فيما فات (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، هامش ٣ ، ص ٢٤٢ ، هامش ٤) .
(٨) انظر شرحنا لهذا المصطلح فى (مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ هامش ١).

فرتّب الملكُ المنصور — صاحب حماة — عسكرَه ، وقصدهم والتقاهم ، فكسرهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وكان (٤٢ ب) من جملة القتلى مقدِّم التُرْكُبْلِيَّة ، وقومص من البحرية . وأسر منهم جماعةً من الأخوة ، منهم : « أفرميلو »(١) أخو(٢) « الجرد » . وانهزم الباقون لا يلوون على شيء ، وكانوا قد كمنوا لهم كميناً ، هم : مائة فارس ، وألف وخمسمائة راجل ، فلما علموا بالكسرة ولوا هاربين .

وحُملت الأسرى إلى حماة على خيولهم بعُدَدِهم ، و بأيديهم قنطارياتهم(٣) . ومدح سالمُ بن سعادة الملكَ المنصورَ(٤) مهنئاً له بهذه الواقعة(٤) بقصيدة مطلعها:

أَمِنَ اللواحظِ أن يُفَوِّقَ أسهمَا ... ريمٌ برامة مارُمى(٥) حتى رَمَى
بصوائبٍ تُخْطِى النبالَ ونبلُها يُردى ... الرَّمِيَّ ، ولا يُريق له دَمَا
فَتَّانَةٌ(٦) بالسحْرِ بل فَتَّاكَةٌ(٧) ما ... جار قاضيهنَّ حتى حُكِّمَا

ومخلصها:

أضحيت فيهـا مُغْرماً كمحمدٍ ... لما غـدا بالأَرْيَحِيَّةِ مغرما
وجرى بحَلْبَةِ مَجْدِهِ ، فتأخرتْ ... عنه الملوكُ الصيدُ حين تَقَدَّما

---

(١) (ك) : « أبشر ميلو » ، و س : « الروميلوا » .
(٢) الأصل : « أخ » والتصحيح عن (ك) .
(٣) انظر شرحنا لهذا المصطلح فى (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٣ ، هامش ٣)
(٤) هذه الفقرة غير موجودة فى (ك) .
(٥) (ك) و (س) : « مارنا » .
(٦) الأصل : « قنانة » ، التصحيح عن (ك) .
(٧) (س) : « بل قتالة » .

كم بَلْدَةٍ للمشركين بناؤها بِسُطَاكَ — في يوم المغار[١] — تهدّما
وشَنَنْتَ منتقما بساحل[٢] بَحْرِها جيشاً حكى البحرَ الخِضَمَّ عَرَمْرَما
أَسْدَلْتَ في الآفاقِ من هبواته[٣] ليلاً واطلعتَ الأسنّةَ أنْجُما
[٤]ودَحَيْتَ أرضَ طِلا الكُماة براحه بنى العجاج لنجم صارمها سما
وشَدَا لترقيصِ الجماجمِ صارمٌ باسانِهِ كم شقَّ من كَلِمٍ فَمَا
سيفٌ هو النهر الذى في سيفه تَضْحى نفوسُ بنى الأُصَيْفِرِ عُوَّما[٤]

ذكر انتزاع

ما كان أعطيه الملك الأفضل

من البلاد[٥] ما عدا سُمَيْساط[٦]

وبلغ الملكَ العادلَ أن ابن أخيه[٧] الملكَ الأفضلَ قد[٧] كاتب جماعة من الأمراء، وحالفهم عليه.

فكتب حين تحقق ذلك إلى ولده الملك الأشرف موسى لينتزع منه رأسَ عين وسَرُوج، وكتب إلى الملك الظاهر أن يتوجه إلى قلعة نجم وينتزعها منه، ففعل ذلك ولم يبقَ بيده من البلاد إلا سُمَيْساط.

(١) (س) (ج١، ص ١٥٠ ب): «في يوم المعارك».
(٢) (ك): «بساحة» وفي، (س) وتشتتت سفنها بساحل بحـرها جيشا على البحر الخضم عرمرما.
(٣) (س): «أسدلت الآفاق من هفواته».
(٤) هذه الأبيات الثلاثة لم ترد في نسخة (س)، وإنما جاء فيها: «وهي قصيدة طويلة اختصرنا منها هذا القدر خوفا من الإطالة، وفيه كفاية».
(٥) (ك): «خلا».
(٦) هذا العنوان غير موجود في (س).
(٧) هذه الكلمات ساقطة من (ك).

(١٤٣) فلما رأى الملكُ الأفضلُ ذلك أرسل والدته الى الملك المنصور — صاحب حماة — ، وسأل أن يشفع له إلى الملك العادل ، (١) وأن يرسل معها رسولا إليه .

فلما وصلت إلى حماة أرسل معها القاضى زين الدين بن هندى المعروف بقاضى حمص .

فمضت والدة الملك الأفضل إلى الملك العادل (١) ومعها القاضى زين الدين فلم تقع الإجابةُ إلى ما طلبتْ ، ورجعت خائبةً .

قال عز الدين بن الأثير :

« قد عوقب البيت الصلاحى بما فعله والدهم السلطان الملك الناصر ، فإنه لما نازل — رحمه الله — الموصلَ محاصراً لها ، خرج إليه الأتابكيات ، ومن جملتهن إبنة نور الدين — رحمه الله — يشفعن إليه فى أن يبقى الموصل على عز الدين مسعود ، فلم يجبهن إلى ذلك ، وردهنَّ خائبات ، ثم ندم — رحمه الله — على ردهن لما مرض غاية الندامة .

وقد تقدم ذكر ذلك ، فجرى للملك الأفضل من ردِّ أمه خائبة غير مقبولة الشفاعة مثل ذلك سواء » .

ورجع القاضى زين الدين — قاضى حمص — وعلى يده من الملك العادل كتاب منه .

« وكان ورود الكتاب الكريم على يد فلان [٢] ، وعرف ما ذكره

---

(١) هذه الفقرة ساقطة من (س) .

(٢) (س) : « على يد زين الدين » .

من أمر المجلس العالى الملكى الأفضلى ، وما أبداه بسببه وسمع الرسالة ووعاها ، وأصغى إلى إشارتها ومعناها ، وقد أعاد القاضى زين الدين بعد أن شافهه بما يعيده على المجلس من الأحوال ، ويورده لديه من الأقوال .

والمجلس يجرى على عادته الجميلة فى الإصغاء إليه ، والاعتماد عليه .

وكان مضمون المشافهة أن الملك الأفضل ظهرت منه أحوال ، وبرزت منه أفعال لا يجب[1] إهمالها ، فأوجب ذلك تغيرنا عليه .

ولما جرى ما ذكرناه أقام الملك الأفضل بِسُمَيْساط ، وقطع خطبة عمه الملك العادل ، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قِلِجْ أرسلان بن مسعود السلجوقى — صاحب بلاد الروم — ، وانتمى إليه .

ولما كسر الملكُ المنصورُ الاستبارَ كتب إلى الملك العادل يخبره بذلك ، ويخبره برغبة الاستبار فى الصلح ، ويستطلع أوامره بذلك .

فورد عليه كتاب الملك العادل ، ومنه :

« الذى يراه المجلس (٤٣ ب) من الصواب يعتمده ، والمصلحه إن شاء الله فيما [illegible] .

وأما الفرنج — خذلهم الله — فإن مادتهم قايلة ، ونجدتهم متأخرة ، وقد وصلت الكتب من كل جهة تخبر بضعفهم ، ولم يتجدد سوى مضيهم إلى أنطاكية للصلح بين الإبرنس وابن لاون .

والثغور — بحمد الله — قد تحصنت ، والأمراء والعساكر إليها قد جُردت ، وهى بهم قد ملئت وشحنت .

---

(١) (ك) و (س) : « توجب » .

والله تعالى يوزع شكر المجلس ، فقد بلغ الغاية فى الإحسان ، وأتى بما يزيد على الإمكان فى هذا الشأن .

ويوعز[١] المجلس[٢] بأن يقوى عليهم القول و يشدد عليهم الطول . »

وفى ثامن شوال من هذه السنة وصلت نجدة من حلب إلى الملك المنصور ، وهو نازل بقلعة بعرين .



(١) (ك) : « يؤكد » .
(٢) (س) : «المملوك» .

ودخلت سنة ستمائة :

والسلطان الملك العادل مقيمٌ بقلعة دمشق .

والملكُ الظاهرُ بحلب .

والملك المنصور بقلعة بعرين ، مرابط للفرنج المخذولين ، ومعه عسكره ، ومن ورد إليه من نُجَد الملوك .

ذكر وقوع الهدنة
بين الملك المنصور والفرنج (١)

وتكررت بينه و بين الفرنج المراسلات فى معنى الصلح .

وآخر الأمر أنه عقد معهم عَقْدَ الهدنة ، ورجع بعساكره إلى حماة ، وتفرقت النُجَد .

وفى سابع وعشرين ربيع الأول من هذه السنة نازل ابن لاون مَلِكُ الأرمن أنطاكيةَ ، وجَدَّ فى حصارها والتضييق عليها ، فخرج الملكُ الظاهرُ (٢) من حلب وخيمَّ على حارم .

واتصل ذلك بابن لاون ، فرحل عن أنطاكية ، فرجع الملك الظاهر (٢) إلى حلب .

وفى سابع عشر ربيع الآخر هجم ابن لاون أنطاكيــة : وذلك أنه راسله

(١) هذا العنوان غير موجود فى (س) .
(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك) .

أهلها ، وضمنوا له تمليكها ، فسار إليها بغتة ، فلم يشعر الابرنس إلا وابن لاون[1] على بابها ، فارتاع لذلك وقاتله ساعة .

ثم هجم ابن لاون [البلد][2] فالتجأ الابرنس إلى القلعة ، واعتصم بها ، ونادى بشعار الملك الظاهر .

ووصل الخبر بذلك إلى الملك الظاهر على جناح طائر ، فخرج من حلب بالعساكر ، وقصد أنطاكية .

وبلغ ذلك ابن لاون فكرَّ راجعاً إلى بلاده .

ونزل الملك الظاهر بحارم .

فلما رجع ابن لاون عاد الملك الظاهر إلى حلب .

ذكر إيقاع

الملك الأشرف "مظفر الدين"[3] موسى

ابن الملك العادل بعسكر الموصل

كان السبب فى هذه الحرب أن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى — صاحب سنجار — كان بينه وبين نور الدين أرسلان شاه ابن مسعود — صاحب الموصل — وحشة — كما تقدم ذكره — ثم اتفقا بعد ذلك .

(١) بالنص و (ك) مختلف عن الأصل ، وهو هناك : « وفى سابع وعشرين ربيع الأول هجم ابن لاون على بابها ، فارتاع لذلك ... أخ » ، أما النص فى (س) فمختلف أيضا ، وهو : « وكان ابن لاون قد هاجم أنطاكية قبل ذلك ، وذلك أنه راسلوه أهلها ، وضمنوا له تملكها ، فسار إليها بغتة ... إلخ » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٣) هذا اللفظ ساقط من (س) .

فلما كانت هذه السنة راسل الملكُ العادلُ قطبَ الدين واستماله ، فخطب قطبُ الدين للملك العادل ومال إليه ، فعظم ذلك على نور الدين . وسار إلى نصيبين فى سلخ شوال من هـذه السنة ، فنازلها وملك[1] المدينة ، ونازل القلعة عدة أيام .

وبينما هو محاصر لها إذ ورد عليه مظفر الدين كوكبورى ابن زين الدين كوَجك — صاحب إربل — قد قصد أعمال الموصل ، فنهب نينوى ، وأحرق غلاّتها .

فلما بلغه ذلك سار إلى الموصل على عزم قصد إربل ، ووصل إلى بَلَد ، وعاد مظفر الدين إلى بلاده .

وتحقق نور الدين أن الذى بلغه لم يكن على الصفة التى ذكرت له ، فقصد تليعْفُر — وهى لقطب الدين — فحصرها وأخذها ، ورتّب أمورها ، وأقام عليها سبعة عشر يوما [وعاد إلى بلده الموصل][2] .

واستنجد قطبُ الدين — صاحب سنجار — بالملك الأشرف فسار من حرّان نجدةً له ، ووافقه مظفرُ الدين[3] — صاحب إربل — ، وصاحب آمد ، وصاحب الجزيرة .

ووصل الملكُ الأشرف إلى نصيبين ، وجاءه أخوه الملك الأوحد نجم الدين — صاحب ميّا فارقين — ، [4]وصاحب الجزيرة[4] وصاحب دارا ، وساروا نحو البقعاء[5] .

---

(١) (ك) : « وطلب » .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .
(٣) (س) : « موفق الدين » .
(٤) هذان اللفظان ساقطان من (ك) و (س) .
(٥) (س) : « نحو الموصل » .

وتقدم إليهم نور الدين فى عساكره ، فالتقى الفريقان بقرية يقال لها بُوشَرَه ، فانهزم نور الدين — صاحب الموصل — هزيمة قبيحة ، وتفرّق عسكره "أيدى سبا"[١] .

وساق نور الدين إلى الموصل ، فدخلها فى أربعة أنفس ، وهو لا يصدق بالنجاة ، وتلاحق أصحابه به ، ونهبت أثقالهم ، وكل ما حواه عسكرهم[٢] .

ثم قصد الملك الأشرف فى عسكره جهةَ الموصل ، فنزلوا بكفر زمار ، ونهبوا البلاد نهباً عظيما .

وكانت هذه الواقعة أول ما عرف من سعادة الملك الأشرف ويُمْن نقيبته ، فإنه لم يلقَ بعد ذلك جيشا إلا فضَّه ، وعلا (٤٤ ب) بهذه الواقعة ذكرُه ، واشتهر صيتُه ، وهنته الشعراء بما حصل له من هذا الفتح العظيم .

ومن مدحه وهنَّأه منهم كمال الدين على بن النبيه المصرى ، فإنه مدحه بقصيدة مطلعها :

لمـا انْثَنَى الغُصْنُ فَوْقَ كُثْبَانه   جبرتُ قلبى بِكَسْرِ رُمَّانِهِ
وَنِلْتُ مِنْ رِيقِهِ وعَارِضِهِ   أَطْيَبَ مِنْ رَاحِهِ وَرَيْحَانِهِ

ومنها :

أَغَارُ فى حَلْبَةِ الطِّرادِ على   خُدوده من غُبارِ مَيْدانِه
تلقى أعادى موسى كما لَقِيَتْ   أُكْرَاتُه عِنْدَ ضَرْبِ جُوكَانِه
المَلِكُ الأَشْرَفُ الـكريمُ يداً   شاهَرْ مَنْ دَامَ عِزُّ سُلْطَانِه

---

(١) النص فى (ك) : « إلى أماكن شتى » .
(٢) النص فى (ك) : « وكلا فى عسكرهم » .

مَلِكٌ ، زمامُ الزمانِ فى يده   فاخْتَلَفَتْ كاختلافِ أَلْوَانِه[١]

بيضاء يَوْمَ انْطِلَاقِ أَنْعُمِهِ   حَمْرَاء يَوْمَ اعْتِقَالِ مُرَّانِه

يحكُمُ أعداؤه بنُصرته إذا   استباتْ نجومُ[٢] خرصانِه

عساكرُ الموصلِ التى انكسرتْ   تُخْبِرُ عن نَفْسِهِ وفُرْسَانِه

يوم أبو شرزةٍ[٣] وقد قَدَحَتْ   سنابكُ الخيل زَنْدَ نيرانِه

تَفَرْعَنُوا باجتماع كيدهم   فالتقفتهم آياتُ ثُعْبَانِه

أَغْرَقَهُمْ بَحْرُ جَيْشِهِ ، فهمُ   كآلِ فِرْعَوْنِ تَحْتَ طُوفَانِه

ومنها :

ما تاجُ كِسْرَى نظير همته   وليس إيوانُه كإيوانِه

يا آلَ شاذى ، زِدْتُمْ به شَرَفاً   كلُّ كتابٍ يُدْرَى بِعُنْوَانِه

وكان من جملة النجد التى مع الملك الأشرف نجدة ابن عمّه الملك الظاهر — صاحب حلب — مقدِّمُها الملكُ الزاهر مجير الدين[٤] داود ابن الملك الناصر — صاحب البيرة — .

ثم ترددت الرسل بين الملك الأشرف و [بين][٥] نور الدين — صاحب الموصل — فى الصلح .

(١) (ك) و (س) « أكوانه » .
(٢) (ك) : « بنجوم » .
(٣) (س) : « أنو شرزة » .
(٤) (٢) « نجم الدين » .
(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

فلم يجب الملك الأشرف إلا بشرط أن يعاد تليْعْفُر إلى قطب الدين — صاحب سنجار — .

فتوقف نور الدين فى ذلك ، ثم سلَّمها ، واصطلحوا فى أول سنة إحدى وستمائة .

(١٤٥) ذكر نزول

الملك العادل على الطور

لمحاربة الفرنج(١)

وفى هذه السنة خرج الملك العادل إلى الطور لحرب الفرنج ، وسبب ذلك أنه اجتمع بعكا منهم جمعٌ عظيم ، وجاءوا من كل فج ، وعزموا على قصد البيت المقدس واستنقاذه من أيدى المسلمين ، وأخذوا فى الإغارة ، ونهبوا كثيراً من البلاد وسبوا وقتلوا فى المسلمين .

فخرج الملكُ العادلُ من دمشق بعساكره ، وكتب إلى سائر البلاد يستدعى النجد ، فجاءته النجد من كل ناحية .

فنزل بالقرب من الطور ، وبينه وبين عكا مسافة يسيرة ، ليصدَّهم ويردهم من البلاد .

وخرج الفرنج بجموعهم ، فعسكروا بمرج عكا ، وأغاروا على كفر(٢) كنا وأخذوا كلَّ مَنْ بها .

واستمر الحال على ذلك إلى آخر السنة .

(١) هذا العنوان غير موجود فى (س) .
(٢) (س) : « كوكب » .

ذكر استيلاء
الفرنج على قسطنطينية

لم تزل مدينة قسطنطينية بيد الروم من قديم الزمان إلى هذه السنة.

فلما كانت هذه السنة خرجت الفرنج من بلادهم إليها فى جموع عظيمة، وأناخوا عليها، فملكوها، وأزالوا أيدى الروم عنها.

ثم لم تزل بأيدى الفرنج إلى سنة ستين وستمائة، فقصدتها الروم واستعادوها من الفرنج، وهى فى أيدى الروم إلى الآن.

وفى هذه السنة توفى السلطان ركن الدين سليمان بن قِلِج أرسلان[1] بن مسعود بن قِلِج أرسلان[1] بن سليمان بن قتلمش بن تبفو[2] أرسلان بن سلجوق سلطان بلاد الروم.

وكانت وفاته سادس ذى القعدة، وكان موته بالقولنج[3]، تمادى به سبعة أيام.

وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غدر بأخيه صاحب أنكورية[4] — وهى أنقرة —، وكان حَصَرَه بها عدة سنين حتى ضعف وقلَّتْ الأقوات عنده، فأذعن إلى التسليم على عوض يأخذه منه، فعوّضه قلعة فى أطراف بلده، وحلف له عليها.

(١) هذه الكلمات ساقطة من (ك).
(٢) (ك): «بن مسعود أرسلان بن سلجوق .. الخ».
(٣) انظر شرحنا لهذا المصطلح فيما فات هنا (مفرج الكروب، ٢، ص ١٠٦، هامش ٣).
(٤) (ك) و (س): «أنلورية».

فنزل عن أنقرة وسلمها إليه ، وسار ومعه ولدان له ، فوضع ركنُ الدين مَنْ أخذه ، وأخذ أولاده معه .

فرماه الله تعالى عقوبة له بعد خمسة أيام بالقولنج فمات منه .

ولما مات مَلَكَ ولدُه قِلِج أرسلان ، وكان صغيراً ، فلم يستتب أمره ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

(٤٥ ب) وفى هذه السنة خرج أسطول من الفرنج إلى الديار المصرية ، فدخلوا إلى النيل من جهة رشيد ، ووصلوا إلى فوّة ، وأقاموا خمسة أيام ينهبون ويَسْبُون ، وعساكر مصر تقاتاهم[١] ، وليس لهم وصول إليهم ، لأنه لم يكن هناك أسطول .

وفى هذه السنة كانت زلزلة عظيمة عمّتْ أكثر البلاد : مصر ، والشام ، والجزيرةو بلادالروم ، وصقلية ، وقبرص ، والموصل ، والعراق ، ويقال إنها بلغت سِبْتَة من أقصى المغرب .

وفى هذه السنة ولد الملكُ الناصرُ صلاحُ الدين قِلِج أرسلان بن الملك المنصور — صاحب حماة — شقيق الملك المظفر تقى الدين محمود ، وأمهما مَلَكَة خاتون ، ابنة الملك العادل .

(٢) (س) (ج ١ ، ص ١٥٣ ب) : « مقابلهم » .

ودخلت سنة إحدى وستمائة :

والفرنج نازلون فى جموعهم بمرج عكا ، والسلطان الملك العادل فى قبالتهم مرابطٌ لهم ، والرسل مترددة بينهم وبينه فى الصلح .

ذكرى الهدنة

مع الفرنج (1)

وآخر الأمر أنه تقررت بينهم وبينه الهدنة مدةً اتفق عليها ، وشرطوا أن تكون يافا لهم ، واستنزلوه عن مناصفات لِدّ والرملة .

فأجابهم على ذلك وعقد الهدنة بينهم وبينه .

ذكر رحيل

الملك العادل إلى الديار المصرية

ولما تقرر أمر الهدنة رحل الملك العادل إلى مصر بالعساكر المصرية ، وتفرقت النجد والعساكر الشامية إلى أماكنها .

وأقام بالقاهرة بدار الوزارة ، وأخذ فى ترتيب البلاد والنظر فى مصالحها .

ذكر إغارة

الفرنج على حماة

وفى هذه السنة أغارت الاستبارية على حماة ، لأن هدنتهم مع الملك المنصور كانت قد انقضت ، وانضم إليهم جَمْعٌ عظيم من الفرنج ، فنهبوا وقتلوا وسبوا

(1) هذا العنوان غير موجود فى (س).

وساقوا إلى ضيعة على باب حماة تعرف « بالرُّقَيْطَا » ، قريبة جداً من الباب الغربى .

وكان قد خرج من حماة من العامة خلق عظيم ، فلما وصل العدو إلى هذا المكان (٤٦ ا) (١)تفرقوا ، واختنق جماعة فى أبواب المدنية(١) ، ورمى خلقٌ أنفسَهم فى الخنادق .

ثم رجع الفرنج إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبى ، وأُسر من أكابر أهل حماة رجلٌ يقال له شهاب الدين بن البلاعى(٢) ، كان فقيهاً شجاعاً ، وكان أول أمره معمما ثم خلع العمامة وتزيى بزى الجند ، وتولّى البِرّ(٣) مرةً بحماة ، وتولّى مرة أخرى سلمية ، فقاتل ذلك اليوم [قتالا شديداً](٤) ورمى فارسا ووقعت به فرسه ، فأخذ أسيراً ، وحُمل إلى اطرابلس وغيرُه من الأسرى فهرب من اطرابلس ، ورمى بنفسه فى البحر ، ثم تعلق بجبال(٥) بعلبك ، وجاء [بعد شدائد](٦) إلى أهله سالماً .

ذكر الهدنة

بين الملك المنصور والفرنج

ولما جرى ما ذكرناه استدعى الملكُ المنصورُ النجدةَ من الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل [وهو بدمشق نائباً عن أبيه](٦) ، فسيَّر إليه عسكرا .

---

(١) النص فى (ك) و (س) : « هربوا واختبأوا جماعة فى أبواب المدينة » .
(٢) (س) : « شهاب الدين البلاعنى » .
(٣) انظر ما فات بهذا الجزء ، ص ، هامش .
(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .
(٥) كذا فى جميع النسخ ، ولعلها « بجبال » .
(٦) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

وترددت الرسل بين الملك المنصور والفرنج إلى أن استوثقتْ[١] الهدنةُ بينهم إلى مدةٍ معلومةٍ .

وفى هذه السنة توجَّه الملك المنصور إلى الديار المصرية ، وكان عنده استشعار من الملك العادل ، فلما وصل إلى القاهرة أحسن إليه الملك العادل إحساناً كثيراً ، وأقام فى خدمته شهوراً[٢] ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه وعاد إلى حماة مكرَّما .

وفى هذه السنة أغارت الفرنج على حِمْص ، وقتلوا وأسروا جماعة .

وفى هذه السنة جرَّد القاضى بهاء الدين بن شدَّاد — قاضى حلب — ونزع طيلسانه ، وامتنع من القضاء .

وكان السببُ فى ذلك أنه كان حضر[٣] إملاكا لفتح الدين بن جمال الدين فرخ[٤] على ابنة علاء الدين — صاحب نابلس[٥] — ، ولم يكن للزوجة ولىٌّ غير أخيها ، فوكَّل الأخُ القاضىَ بهاءَ الدين فى التزويج بعد الإشهاد عليها بالرضى .

فحضر القاضى وزوجَّها من الزوج المذكور ، وكان كمالُ الدين عمرُ ابن العجمى حاضرا ، فلما خرج مضى إلى دار علاء الدين ، وأوهمهم أن العقد لا[٦] يصح ، وأحضر أخا الزوجة والزوجَ ، وجدَّد العقد ، فغضب بهاء الدين ، ونزع طيلسانَه ، وامتنع من الحكم .

وعلم الملكُ الظاهرُ — [صاحب حلب][٧] — ذلك ، فعظم عليه ، وجلس

---

(١) (س) : « إلى أن استقرت بينهم » .
(٢) (س) : « شهرا » .
(٣) الأصل و (س) : « حصر » ، والتصحيح عن (ك) .
(٤) (ك) و (س) : « خرج » .
(٥) الأصل ك : نالس ، والتصحيح عن (س) .
(٦) (ك) و (س) : « لم » .
(٧) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

مجلساً عاماً ، (٤٦ ب) أحضر فيه الأكابر من أهل حلب والفقهاء وأرباب المناصب ، وأحضر كمالَ الدين ، ثم أخذ الملكُ الظاهرُ فى تعداد فضائل القاضى بهاء الدين ومناقبه ، وأطنب فى ذلك ، ثم أخذ فى ذكر معايب كمال الدين ابن العجمى ، والطعن فيه ، وبالغ فى تبكيته وتخجيله وتقريعه ، ثم أمر الحُجَّابَ فجرُّوه بأكمامه ، وأخرجوه من عنده على أقبح صورة ، وأمر بأن يمضوا به إلى الحبس .

ثم قال للأكابر الحاضرين : « كلكم تمضون الساعة مشاةً إلى دار القاضى بهاء الدين ، وتكشفون رؤوسكم له ، ولا تزالون به حتى يرضى » .

ففعلوا ذلك .

ورضى القاضى بهاء الدين ، وعاد إلى الحكم . ولم يعد إلى لبس الطيلسان .

ثم شفع الشيخ أبو الحسن الفاسى الزاهد فى كمال الدين عمر [بن العجمى](١) ، فأُخرج من الحبس ، وأمر أن يصير إلى دار القاضى بهاء الدين(١) وأمر أن يتضرع إليه حتى يرضى ، ففعل .

وفى هذه السنة بعث الظاهر عسكراً إلى المرقب(٢) ، وقدَّم عليهم مبارز الدين أقجا(٣) ، فسار إلى المرقب(٢) وحاصره ، وهدم البرج الذى له على [باب](٤) الميناء فأصاب المبارز من الحصن سهم فقتله ، وعاد العسكر بعد أن كادوا يفتحون الحصن ، [وأيديهم ملآنة من الغنائم](٤) .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .
(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك) .
(٣) (س) : « أقجبا » .
(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

وفى هذه السنة ملك السلطان غياث الدين كيخسرو بن قِلِج أرسلان بلادَ الروم .

وكان لما تغلب أخوه ركنُ الدين على البلاد ، قصد الملكَ الظاهرَ ، وأقام عنده مديدة ، ثم قصد صاحب قسطنطينية فأحسن إليه ، وأقام عنده .

فلما مات ركنُ الدين سليمان ، وولى ابنه عزُّ الدين قِلِج أرسلان ، قصد كيخسرو البلاد ، وانضم (١) إليه جمع كثير وملك البلاد ، واستتب أمره .

وفى حادى عشر شوال من هذه السنة وُلد الملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر صاحب حلب وأمُّه أمُّ ولد .

وكان قبل ذلك وُلد للملك الظاهر ولدٌ سمَّاه يوسف ، من ابنة عمِّه غازية ابنة السلطان الملك العادل ، ثم توفى يوسف صغيراً ، وتوفيت بعده أمه غازية خاتون ، وهذه هى التى تزوجها الملك الظاهر فى حياة أبيه الملك الناصر — [رحمهم الله تعالى] (٢) .

ذكر إغارة

الفرنج على جَبَلَة واللاذقية (٣)

(٤٧ ا) وفى ذى القعدة من هذه السنة أغارت فرنُج اطرابلس على جَبَلَة واللاذقية ، و كمنوا قطعة وافرة منهم ، وسرَّحوا جماعة تراءوا لأهل جَبَلَة .

و بلغ ذلك عسكر الملك الظاهر النازلين بجبلة ، فخرجوا إليهم فلم يشعروا

---

(١) (ك) : « واجتمع إليه » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٣) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

إلا بكمين الفرنج قد خرج إليهم ، وبذلوا فيهم السيف فقُتل من المسلمين جماعة كثيرة .

وعاد الفرنج — لعنهم الله — [إلى طرابلس][١] وقد ملأوا أيديهم بالسبى والغنائم .

ذكر واقعة غريبة[٢]

كان القاضى أبو محمد مختار بن أبى محمد بن مختار المعروف بابن قاضى دارا ، وزير الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ، وحاكماً فى دولته بالديار المصرية ، والملكُ الكاملُ إذ ذاك ينوب عن والده الملك العادل بها .

وكان الصاحبُ صفىُّ الدين بن شكر وزير الملك العادل يبغضه ويضاده .

فلما قدم الملكُ العادلُ مصر ، لم يزل ابن شكر يقدح فيه عند الملك العادل[٣] حتى نقم عليه فطلبه .

فخاف عليه الملك الكامل ، وأمره بالخروج من مصر ، فخرج منها ومعه ولداه : فخر الدين ، وشهاب الدين ، واستصحب شيئاً من المال يسيراً[٤] ، وورد إلى حلب ، فأكرمه الملك الظاهر وأنزله[٥] .

ثم ورد عليه أمر الملك الكامل يستدعيه إلى مصر ، وكان الملك الظاهر قد عرض عليه أن يخدمه ، فأبى ، وخرج فنزل بعين المباركة على باب حلب ، وأقام بها يتهيأ للسفر .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن . (س) .
(٢) (ك) و (س) « عجيبة » .
(٣) الأصل : « الكامل » ، والتصحيح عن (ك) .
(٤) (ك) : « واستصحب شىء يسير من المال » .
(٥) الأصل : « وامر له» بدون نقط ، والتصحيح عن (ك) و (س) .

فلما كان الرابع والعشرون من ذى القعدة من هذه السنة لم يشعر أصحابه إلا بخمسين فارساً قد أحاطوا بمضربه وقد مضى ربع الليل ، وقالوا : « نريد القاضى » .

فقالوا[١] : « إنه نائم » .

فقالوا : « يُنبِّه »[٢] .

فخرج إليهم فى ثياب النوم .

فترجّل منهم ثلاثة نفر فقتلوه ، ثم قالوا لغلمانه : « احفظوا أموالكم ، فما كان لنا غرض سواه » .

واتصل الخبر بالملك الظاهر[٣] ، فركب وشاهده ، وأعظم مصابه ، وفرّق الرجال فى الطرق ، فلم تقف لقتلته على خبر ، [فكان كما قيل : هرب من القتل إلى القتل ، فما ينجى حذر من قدر][٤]

وفى هذه السنة أغار الملكُ المجاهدُ أسدُ الدين — صاحب حمص — على الفرنج حتى وصلت غارته إلى حصن الأكراد ، وأخذ من الغنم[٥] والمواشى ما لا يحصى كثرة .

وفى هذه السنة (٤٧ ب) خلع الإمامُ الناصرُ لدين الله ولدَه عُدَّةَ[٦] الدين أبا نصر محمداً من ولاية عهده .

---

(١) (س) : « فقيل لهم » .

(٢) (س) : « فقالوا : نبهوه ، فأنبهوه » .

(٣) النص فى (ك) : « ولم يصل الخبر بالملك الظاهر ، فلما وصل خبره ركب وشاهده » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ج ١ ، ص١٥٥ ب) .

(٥) س : « الغنائم » .

(٦) س : « عمدة » .

وكنا قد ذكرنا أن الإمام الناصر قد ولاّه عهده ، فلما كانت هذه السنة انحرف عنه ، ومال إلى أخيه الأصغر أبى الحسن ، ولقّبه « الملك المعظم » ، فأظهر فى داروزير الخليفة — وهو يومئذ الشريف نصير الدين بن ناصر الدين بن مهدى — ورقة بخط ولى العهد أبى نصر إلى الخليفة تتضمن العجز عن القيام بولاية العهد ، و يطلب الإقالة ؛ وشهد عدلان[1] أن الورقة بخطه ، وعُمل بذلك محضرٌ ، شهد فيه الفقهاء والقضاة والفقهاء العدول فقُطعت الخطبة والسكة باسمه فى سائر الآفاق[2] .



---

(١) (س) : « وشهد شاهدين » .

(٢) النص فى ك : « فقطعت وخطب له فى سائر الآفاق » .

ودخلت سنة اثنتين وستمائة :

والسلطان الملك العادل بالديار المصرية ، والممالك بحالها .

وفى هذه السنة أغار ابن لاون — مالك الأرمن — على التركمان وهم نازلون بالنهر الأسود ، فأخذ منهم عالماً لا يحصى ، واستاق نعمهم ومواشيهم ، وسار إلى دربساك ، فحرق رَبَضَها ، وعاد إلى بلاده .

فبعثَ الملكُ الظاهرُ سيفَ الدين بن علم الدين بن جندر ، وفارسَ الدين ميمون القصرى إلى حارم ، وسار بعساكره حتى خيَّم على [مرج][1] دابق ، وجمع إليه خلقاً من التركمان .

فأرسل ابن لاون إلى الملك الظاهر فى أن يردَّ جميع ما أخذ ، وطلب رسولا يتحدث معه .

فأرسل الملكُ الظاهرُ سعدَ الدين بن فاخر ، فتحدث معه فى الصلح ، ورد الأخيذة ، فاطمأنت القلوب ، وأعطى الملكُ الظاهرُ التركمان الدستور بعد أن خلع عليهم .

ولما تحقق ابنُ لاون طمأنينة الناس سار إلى حارم ، وضرب على العسكر النازل حولها وقت الصباح ، فقتل جماعة ، واستاق مَنْ كان فى سوق العسكر ، والرجَّالة ، ومَنْ عجز عن الهرب ، ثم سار من يومه ودخل بلاده .

فسار الملك الظاهر إلى حارم ، فشاهد حالة قبيحة من كثرة القتلى ، فسار حتى خيَّم على جسر الحديد ، وطلب جماعةً من أنطاكية ، واتفق معهم على أن

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن س .

يستخدم من الفرنج عشرةَ آلاف راجل ، ويقصدون بلاد ابن لاون[١] من جهتهم ، ويقصد الملك الظاهر بلاده من جهة قورص ، ويجتمعون على إستئصال شأفته ، وقلع أثره .

واتصل ذلك بابن لاون ، فخضع ، وبذل أن يُعطى (١٤٨ ا) كل أسير [عنده][٢] فى بلده .

فأجاب الملكُ الظاهرُ إلى صلحه ، وأرسل سعدَ الدين فتسلَّم الأسرى [وكانوا خلقاً كثيراً][٢] ، وعاد الملك الظاهر إلى حلب .



(١) (س) : « بلاد الأرمن » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .

ودخلت سنة ثلاث وستمائة

والممالك[1] على ما كانت فى السنة التى قبلها .

ذكر مسير
الملك العادل إلى الشام[1]

ولما تواترت الأخبار إلى السلطان الملك العادل بتطرق الفرنج بلاد المسلمين ، وإغارة أهل حصن الأكراد وطرابلس على بلاد حمص خرج مبرزاً إلى العباسة ، وأغذّ السير إلى الشام ، ونازل فى طريقه عكّا ، فصالحه أهلُها على إطلاق جميع من[2] فى أيديهم من أسرى المسلمين .

ثم رحل عنهم ووصل إلى دمشق [فلما وصل إليها أقام فيها أياماً][3] ، ثم خرج منها مبرزاً إلى القصير على نيّة الجهاد .

ذكر وصول
الملك العادل إلى بحيرة قُدْسٍ
وما فعله بالساحل بعد ذلك[4]

ثم وصل الملك العادل إلى حمص ، فنزل على بحيرة قُدْس ، واستدعى الملوك من أهل بيته والعساكر ، فجاءوه من كل ناحية .

(١) هاتان الفقرتان غير موجودتين فى (س) .

(٢) (ك) و (س) « جميع من» .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٤) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

وورد إلى خدمته : الملكُ المنصورُ — صاحب حمــــاة — والملكُ المجاهدُ — صاحب حمص — ونجدةُ ابن أخيه الملك الظاهر ؛ ووصل إليه الملكُ الأمجدُ ، — صاحب بعلبك — وعسكرُ سنجار والموصل والجزيرة وآمد ، وولداه : الملك المعظم ، والملك الأشرف ، فاجتمع عنده نحو عشرة آلاف فارس[١] ، وعسكروا معه على البحيرة .

وأشاع قصد اطرابلس .

ولم يزل مقيماً بالبحيرة حتى صام شهر رمضان كله ، ثم سار متوجهاً إلى حصن الأكراد ، فنازله ، وقاتل أهله أشدَّ قتال ، وفتح برجاً قريباً منه ، يسمى أعنار ، وأخذ منه خمسمائة رجل وأموالاً وسلاحاً كثيراً .

ثم توجه إلى قلعة قريبة من أطرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، ولم يزل مصابراً لها إلى أن افتتحها ، وحصل على جميع ما كان فيها .

ثم رحل منها ونازل أطرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وضيَّق على أهلها أشد تضييق ، وعاثت العساكر[٢] فى قرى أطرابلس و بساتينها ، وقطعوا جميع ما عليها من الشجر ، وهدموا كل حائط على ظاهرها ، وقطعوا العين (٤٨ ب) الواصلة إليها ، وخرَّبوا طرقها ؛ ولم يزل الأمر[٣] كذلك إلى أيام من ذى الحجة ، فآنس الملكُ العادلُ من أصحابه فشلاً وضجراً ، فعاد إلى حمص ، فنزل على البحيرة.

فبعث إليه صاحب أطرابلس [٤]يخضع له ، وبعث له[٤] مالاً وهــدايا ، وثلاثمائة أسير ، ورغب فى الصلح ، فصالحه فى آخر ذى الحجة .

---

(١) س (ج ١ ، ص ١٥٦ ب) : « نحو خمسة عشر ألف فارس » .
(٢) (ك) : « وغارت العساكر على قرى . . الخ » .
(٣) الأصل : « الأمراء » ، والتصحيح عن (س).
(٤) هذه الجملة ساقطة من (ك) و (س) .

وفى هذه المدة[1] ترددت رسلٌ بين الملك الظاهر وعمه الملك العادل، ومكاتبات ومعاتبات استشعر منها الملك الظاهر .

وتحدث الناس بأن الملك العادل عازم على قصد حلب ، وكثرت الأراجيف .

فأخذ الملك الظاهر فى تحصين حلب ، وجمع الغلال والأحطاب وغير ذلك ، وبذل الأموال .

ثم راسله الملك العادل بما طيَّب قلبه ، وتجددت بينهما الأيمانُ والعهود .



(١) (س) : « وفى هذه السنة » .

ودخلت سنة أربع وستمائة :

والملك العادل نازل على بحيرة قُدْس ، وقد فتك فى الفرنج بالساحل فتكا عظيما ، وأخاف أهله .

ولما وقع الصلح بينه و بين صاحب اطرابلس رجع إلى دمشق فأقام بها .

وفى هذه السنة توفى زين الدين قراجا الصلاحى [رحمه الله ، وكان أميراً أديباً خيراً عادلا يحب العدل والإنصاف][1] .

ذكر استيلاء

الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل

على خلاط و بلادها

كانت خلاط قد صارت — كما ذكرنا — بعد موت صاحبها شاهرمن ابن سكمان لمملوكه سيف الدين بكتمر .

ثم قُتل بكتمر فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فملكها بعده ابنٌ لبكتمر ، ثم تغلَّب عليها سيفُ الدين بلبان أحد مماليك شاهرمن .

وكان الملك الأوحد قد ملكَّه أبوه الملك العادل ميَّا فارقين وما معها من الأعمال .

فقصد الملك الأوحد مدينة موش[2] ، فأخذ غيرها مما يجاورها ، وطمع فى ملك خلاط وقصدها .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) س : « موس » .

فخرج إليه سيفُ الدين بلبان ، وتصافا ، فانهزم الملك الأوحد ورجع إلى ميَّا فارقين ، وجمع وحشد ، واستنجد بأبيه الملك العادل ، فبعث إليه عسكراً ، فقصد خلاط ثانياً ، فخرج إليه بلبان ، وتصافا ، واقتتلا ، فانهزم بلبان .

وتمكَّن الملكُ الأوحد من البلاد ، وازداد طمعه فيها ؛ واعتصم بلبان بخلاط ، (١٤٩ ا) وبعث إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قِلِج أرسلان السلجوقى — صاحب أرزن الروم — يستغيث به ، ويستنجد به على الملك الأوحد .

فحضر بنفسه ومعه عسكره ، واجتمعا وصافا الملك الأوحد ، فانهزم الملك الأوحد .

وحصرا حصن موش حتى أشرف على أن يُملَك ، فغدر مغيثُ الدين ببلبان ، فقتله طمعاً فى بلاده ، وسار إلى خلاط ليملكها ، فمنعه أهلها ، فسار إلى ملاذكرد ، فردَّه أهلها أيضاً ، فعاد إلى بلده .

واستدعى أهلُ خلاط الملكَ الأوحد ليملكوه ، فحضر إليهم فملكوه إياها فى هذه السنة ، وملك بلادها إلا اليسير منها ، وكره المجاورون له ملكه [تلك البلاد][1] خوفاً من أبيه الملك العادل ، وكذلك أيضا خافه الكُرْج ، وكرهوه ، فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ، والملك الأوحد مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها .

واعتزل جماعةٌ من عسكر خلاط ، واستولوا على حصن « وان » وهو من أعظم الحصون ، وعصوا على الملك الأوحد ، واجتمع منهم جمع كثير ، واستولوا على مدينة أرجيش .

فكتب الملك الأوحد إلى أبيه الملك العادل يعلمه الحال ، فسيَّر إليه أخاه

---

(١) ماببن الحاصرتين زيادة عن (س) .

الملك الأشرف موسى فى عسكر كثيف ، وحصروا قلعة وان ، فسلموها صلحاً وخرجوا منها .

فرجع الملك الأشرف إلى بلاده .

وهذه خلاط كانت من أعظم الممالك ، وذكر أنها تقارب الديار المصرية فى المنزلة ، وأنها تشتمل على نحو سبعين بلداً ، ويُعرف إقليمها بأرمينية ، وإنما خُرِّبت هى وغيرها من البلاد لما ملكها التتر .

ذكر الفتنة بخلاط

ولما ملك الملكُ الأوحدُ خلاط سار عنها إلى ملاذكرد ليقرِّر قواعدها ، فلما فارق خلاط وثب أهلها على مَنْ بها من عسكر الملك الأوحد ، فأخرجوهم من عندهم ، وحصروا القلعة وبها أصحاب الأوحد ، ونادوا بشعار شاهرمن وإن كان قد مات قبل ذلك بزمان ، وإنما يعنون بذلك ردَّ المُلْك إلى مماليكه .

وبلغ الخبرُ الملكَ الأوحدَ ، فعاد إليها ، وقد وافاه عسكر من عند[1] أخيه الملك الأشرف ، (٤٩ ب) وحصر خلاط ، فملكها ، وبذل السيف فى أهلها ، فقتل منهم خلقا عظيما[2] ، وأسر جماعة من الأعيان[3] ، وسيَّرهم إلى ميافارقين ، وكان كلَّ يومٍ يرسل إليهم من يقتل منهم جماعة ، فلم يسلم من أهلها[4] إلا القليل .

وكان الملك الأوحد شهماً مقداما على القتال ، فذلَّ بهذا الفعل

(١) هذا اللفظ غير موجود فى (ك) و (س) .
(٢) (ك) : « كثيرا » .
(٣) (ك) : « من أكابر أهلها » .
(٤) (ك) : « منهم »

[أهل][١] خلاط ، وتفرقت كلمة الفتيان بها . وكان الحكم لهم يملّكون كلَّ يوم ملكاً ويقتلون آخر .

وفى هذه السنة عزل الخليفةُ الناصرُ لدين الله وزيرَه نصيرَ الدين ناصرَ ابن مهدى العلوى ، وكان متمكنا فى وزارته ، وأصله من الرىّ ، من بيت كبير .

وكان سببُ عزله أنه أساء السيرة مع أكابر مماليك الخليفة ، منهم : أمير الحاج مظفر الدين سنقر — المعروف بوجه السبع — ، هرب من يده إلى الشام ، واتصل بالملك العادل سنة ثلاث وستمائة ، وأرسل يعتذر ، ويقول : « هربت من يد الوزير » .

ثم تبعه فى الهرب قشتمر ، وهو أخصّ مماليك الخليفة ، هرب إلى دسقان ، وأرسل يقول : « إن الوزير يريد أن لا يبقى فى خدمة الخليفة أحدٌ من مماليكه ، ولا شك أنه يريد أن يدّعى الخلافة لنفسه » .

وأكثر الناسُ القولَ فيه .

وقال بعض الشعراء فيه أبياتا يعرِّض فيها بأن الوزير يروم الخلافة لنفسه ، لشرفه .

وهى :

ألا مبلغٌ عنى الخليفةَ أحمدا
تَوَقَّ — وُقيتَ السوءَ — ما أنت[٢] صانعُ
وزيرُك هذا بين أمرين فيهما
فعالُك — يا خيْرَ البريّة — ضائعُ

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .
(٢) (س) : « ما أنا صانع » .

فإن كان حقًّا من سُلَالةِ أحمدٍ فهذا وزيرٌ فى الخلافةِ طامعُ
وإن كان فيما يدّعى غيرَ صادقٍ فَأَضْيَعُ ما كانت لديه الصنائعُ

فعزله الخليفة .

وقيل : كان سببُ عزله غير ذلك ، والله أعلم .

ولما عُزل كتب إلى الخليفة :

« إنى قدمتُ إلى هاهنا وليس لى دينار ولا درهم ، [(١] وقد حصل لى [١)] من الأموال والأعلاق النفيسة وغير ذلك ما يزيد على خمسمائة ألف دينار » .

وسأل أن يؤخذ الجميع ، وأن يُفرج عنه ، ويسكن فى المشهد أسوة ببعض العلويين .

فخرج الجواب :

« ما أنعمنا عليك بشىء فنوينا استعادته منك ، (١٥٠) ولو كان ملءُ الأرض ذهباً ، وأنت فى أمان الله وأماننا ، ولم يبلغنا عنك ما تستوجب به ذلك ، غير أن الأعداء قد أكثروا فيك [القول][(٢)] ، وأختر لنفسك موضعاً تنتقل إليه موقراً محترماً » .

فأختار أن يكون تحت استظهارٍ من جانب الخليفة[(٣)] ، لئلا يتمكن منه عدو ، فتذهب نفسه ، ففعل به ذلك .

وكان حسن السيرة قريباً من الناس حسن اللقاء لهم .

---

(١) (ك) : « ووصل إلىّ » .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .
(٣) (س) : « تحت ظل الخليفة » .

ذكر التشريف

الوارد إلى الملك العادل

من الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين

كان الملك العادل قد سيَّر أستاذ داره ألدُكز العادلىّ ، والقاضى نجم الدين خليل بن المصمودى[1] الحنفى الحموى — قاضى العسكر — رسولين إلى الديوان العزيز ، يطلب التشريف والتقليد على مصر ، والشام ، والبلاد الجزرية ، وخلاط .

فأُكرما ، وأُحسن إليهما ، وأجيبا إلى مطلوبهما .

وأُرسل من الديوان[2] إلى الملك العادل الشيخُ الإمام قدوةُ العارفين ، شيخُ الطريقة والحقيقة شهاب الدين السهروردى — قدَّس اللهُ روحه — ومعه التشريف الإمامى .

ولما وصل إلى حلب خرج الملكُ الظاهر إلى لقائه فى جميع عساكره وأرباب دولته ، وأُنزل فى إيوان دار العدل، [فأقام يومين للراحة][3] .

وفى اليوم الثالث من مقدمه نُصب له كرسى الوعظ ، وكانت عادته جارية به ، وحضره الملكُ الظاهرُ وأربابُ المناصب فى الإيوان .

وتكلم الشيخُ شهابُ الدين ، وذكر من مواعظه ما خشعت له القلوب ، ودمعت له العيون ، وأخبر وهو على المنبر أنه أطلق فى بغداد وغيرها من المؤن والضرائب ما مبلغه [4] ثلاثة آلاف دينار ، فارتفعت الأدعية للخليفة .

---

(١) (ك) : « خليل الصمودى » .

(٢) (ك) : « من الديوان السعيد » ، و (س) : « الديوان العزيز » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٤) (ك) : « ثلاثين » و (س) : « ثلاثة آلاف ألف دينار »

ثم سار الشيخ شهاب الدين من حلب ، وأرسل معه الملكُ الظاهرُ القاضيَ بهاء الدين بن شدَّاد ، ومعه ثلاثة آلاف دينار ، لأجل النثار إذا لبس الملك العادل خلعة الخليفة .

و بعث الملكُ المنصورُ ، والملكُ المجاهدُ أيضاً ما ينثر .

ولما قارب الشيخ شهاب الدين دمشق تقدَّم الملك العادل إلى العساكر . (٥٠ ب) بلقائه ، فلقيه أولُ العسكر بالغسولة ، ولقيه من القصر(١) الملك العادل ، وولداه : الملك الأشرف ، والملك المعظم ، وغُلِّقت الأسواق ، وخرج الناس كلُّهم ، وكان يوما مشهوداً .

وجلس الملك العادل غد ذلك اليوم فى دار رضوان ، بقلعة دمشق ، ودخل القاضى بهاء الدين ، ورسولا صاحبىْ حماة وحمص ، وأفيضت على الملك العادل جبةُ أطلس أسود بطراز مذهب ، (٢وعمامة سوداء بطراز مذهب٢) ، وطُوِّق بطوق ذهب مجوهر ثقيل ، وقُلِّد بسيف محلىً جميعُ قرابه بذهب ، وركب حصاناً أشهب بمركب ذهب ، ونشر على رأسه علمٌ أسود مكتوب عليه بالبياض ألقاب الخليفة .

وعند لبسه الخلعة نثر القاضى [بهاء الدين](٣) ورسولا صاحبىْ حماة وحمص عليه الذهب ، وقدّم له القاضى بهاء الدين خمسين قطعةَ من أفخر القماش ، ونثر عليه رسلُ سائر الملوك الذهب .

ثم خلع رسولُ الخليفة على كلِّ واحدٍ من الملك الأشرف والملك المعظم ،

---

(١) الأصل : « المصر » ، والتصحيح عن (ك) و (س) .

(٢) هذه الجملة ساقطة من (ك) و (س) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

عمامةً سوداء ، وثوباً أسود واسع الكم ، وخُلع على الصاحبِ صفيِّ الدين ابن شُكْر كذلك .

وركب الملك العادل وولداه ووزيرُه بالتشريفات [إلى ظاهر البلد][1] ، ثم عادوا إلى القلعة [من باب النصر][1] .

وقرأ الصاحبُ صفيُّ الدين التقليدَ الإمامى على كرسيٍّ نُصب له ، وخوطب الملك العادل فيه : « بشاهان شاه ، ملك الملوك خليل أمير المؤمنين »[2] .

ثم توجّه الشيخُ شهاب الدين إلى الديار المصرية فخلع على الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل ، وجرى بمصر نظيرَ ما جرى بدمشق من الزينة وإعظام رسول الخليفة ، وركوب الملك الكامل بالتشريف الإمامى .

ثم عاد الشيخ [شهاب الدين][3] إلى الديوان [العزيز][3] مكرما معظما .

وفى هذه السنة أمر الملك العادل بعمارة قلعة دمشق ، وألزم كلَّ واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها من ماله .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) هذا مثال نادر لبيان الخلع التشريفية التى كان يخلعها الخليفة على صاحب مصر والشام من الأيوبيين وعلى رجال دولته ، وهذا أيضا وصف طريف لطريقة الاحتفال بالباس هذه الخلع .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

ودخلت سنة خمس وستمائة :

والملك العادل مقيمٌ بدمشق ، وعنده بها ولداه : الملك الأشرف والملك المعظم .

(١٥١) وفى هذه السنة سارت الكُرج بجموعها إلى مدينة[1] خلاط ، وقصدوا أرجيش ، وملكوها عنوة ، وأخذوا جميع ما فيها من الأموال والأمتعة ، وسبوا أهلها ، وأحرقوها وخرّبوها .

وكان الملك الأوحد بخلاط ، فلم يتقدم على الكُرْج لكثرتهم وخوفه من أهل خلاط ، لما كان أسداه إليهم من القتل والأذى ، فخاف إن خرج أن لا يمكّن من العوْد إليها .

ذكر قدوم
الملك الأشرف إلى حلب
ثم توجهه إلى الشرق

وفى هذه السنة توجه الملك الأشرف راجعاً إلى بلاده من دمشق .

ولما وصل إلى حلب تلقاه الملك الظاهر ، وأنزله بقلعة حلب ، وبالغ فى إكرامه وإتحافه .

فذُكر أنه كان — [مدة مقامه][2] — يقيم له ولجميع عسكره وأتباعهم بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلواء وعلوفات الدواب ، وكان

---

(١) (ك) و (س) : « ولاية » .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

يحمل إليه[١] كل يوم خلعةً كاملةً : غلالة ، وقباء ، وسراويل ، وكُمَّة[٢] ، وفروة،وسيف ، وحصان ، ومنطقة ، ومنديل ، وسكين ، وتاسكش[٣] ؛ وخمس[٤] خلع لأصحابه .

وأقام على ذلك خمسةً وعشرين يوما ، وقدَّم له تقدمةً اشتملت على مائة ألف درهم ، [وعند زواجه قدَّم له][٥] مائة بقجة مع مائة مملوك .

منها عشرٌ فى كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس ، وثوبان من الخطابى ، وعلى كل بقجة جلد قندسى كبير .

(ومنها : عَشْرٌ فى كل منها عشرة أثواب عَتَّابى[٦] خوارزمى ، وعليها عشرة جلود قندسى[٧] كبار .

ومنها عَشْرٌ ، فى كل منها : خمسةُ أثواب عَتَّابى بغدادى وموصلى ، وعليها عشرةُ جلود قندسى صغار .

---

(١) (س) : « إلى الملك الأشرف » .

(٢) الكمة (والجمع كمام) : فسرها (Dozy : Sup . Dict . arab) بأنها قلنسوة مستديرة ومرتفعة (bonnet, haut et rond) وقد تترجم الى (bavecon) أى الشكيمة من الحديد التى توضع فى فم الحصان ، والترجمة الأولى أقرب إلى الصحة .

(٣) هذا وصف تفصيلى هام لجميع أجزاء الخلعة التى كان يخلعها ملك على ملك فى العصر الأيوبى وعن التلكش أو التركش . انظر : (مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، هامش ٥) .

(٤) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

(٥) ما بين الحاصرتين زيادة عن س (ج ١ ، ص ١٦٠ ا) .

(٦) ذكر (ابن خلكان : الوفيات ، ج ٤ ، ص ٢٢–٢٣) و (ابن الأثير : اللباب فى تهذيب الأنساب) أن العتابى نسبة إلى « العتابيين » وهى إحدى محال بغداد فى الجانب الغربى منها ، وقد اشتهرت هذه المحلة بإنتاج نوع من النسيج المخطط ، ومن هنا عرف كل نسيج مخطط باسم العتابى مهما كان مكان صنعه .

(٧) القندس كلب الماء ، راجع (Dozy : Supp. Dict. Arab) .

ومنها عشرون ، فى كل منها : خمسة أثواب معتق ، وسوسى[١] ودبيقى .

(ومنها أربعون ، فى كل منها : خمسةُ أقبية ، وخمس كام[٢]

وحَمَل إليه خمس حصن عربية بعدتها ، وعشرين أكديشا[٣] [رومية][٤] وأربعة قطر بغال ، وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة [بالذهب][٤] وقطارَيْن جمال .

وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش

ومدح شرفُ الدين راجح الحِلِّى الملكَيْن ، وهنأهما باجتماعهما (٥١ ب) بقصيدة مطلعها :

ما ضَرَّ مَنْ أَلِفَ القطيعةَ لَوْ شَفَى ... صَبًّا يبيت من الغرامِ على شَفَا
يترى لحظٍ بين هدب جفونهِ ... سَهْمٌ أظل لِوَقْعه مُسْتَهْدِفا

ومنها :

تا للهِ لو أَسْعَفْتَنى بزيارةٍ ... ومآلُ أمْرِكَ أن تَرِقَّ وتُسْعِفَا
لجعلتُ أَلْزَمُ مِعْطَفًا لا يَنْثَنى ... يوماً إلى عَطْفٍ ، وألثُمُ مَرْشَفَا
وأرى دليلَ قبولِ صبرى أننى ... مِنْ فيك أَرْتَشِفُ الشَّمُول القَرْقَفَا
مِثْلَ ارتشافى الترب شكراً للذى ... أهدى إلى حاب المليكَ الأَشْرَفَا
مَلِكٌ أتاها فى اقتبالِ سعادةٍ ... أذنتْ لِطَرْفِ مُعَانِدٍ أَنْ يُطْرَفَا
ولأجله اكتستْ الأباطحُ والرُبى ... وَشْياً مِنَ الرَوْضِ الأريضِ مُزَخْرَفَا

---

(١) هذا اللفظ غير موجود فى (س) .

(٢) (ك) : « كم » ، انظر ما فات فى هذا الجزء ، ص

(٣) شرحنا هذا اللفظ بالتفصيل فى : (مفرج الكروب ، ٢ ، ص ٤٢٧ ، هامش ١)

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

وسرى النسيمُ إلى الغصونِ مُعَرِّضاً ... فيها لوُرْقِ حمامةٍ أَنْ تَهْتِفَا
وافتَرَّ ثغرُ البَرْقِ حتى خِلْتَه ... يَنْضُو على أعلامِ جَوْشَرَ مُرْهَفَا
فَكَأَنَّها كانتْ على بُعْدِ المَدَى ... تُبدى إليك تَشَوُّقاً وتَشَوُّفَا
آنَسْتَ يا موسى بها نارَ الهُدى ... فَأَتيْتَ مِنْ شَوْقٍ إليها مُوجِفَا
وَحَلَلْتَ بالوادى المقدّسِ قَابِساً ... نورَ التلاقى والدُنُوّ فلا انْطَفَا
وتباشرتْ حَلَبُ بِمَقْدِمِكَ الذى ... هو مَدَّ ظِلَّ سُرورِنا حتى ضَفَا
وغدا غياثُ الدين مبتهجاً بها ... بُشرى كأن الله أحيا يُوسُفَا

ومنها :

يا ابنَ الذى بجهادِه وجِلادِه ... أَضْحَتْ بلادُ الشِرْكِ قاعاً صَفْصَفَا
خَلَطَ الشجاعةَ بالندى حُسامُه ... لِمَنْ اعتدَى[1] وسماحُه لمن اعتفا
اليومَ كفَّ عن الجدالِ منقِّصا ... مَنْ كان طوَّلَ فى المقالِ وسوَّفا
والمُلْكُ قد قَرَّتْ قواعدُهُ بكم ... مُذْ عِزْتُمُ لشموسه أن تُكسَفا
فبقيتُمُ ترعى الرعيّةَ عَدْلَكُم ... ويَذُبُّ عن دين النبى المصطفى
ما غَرَّدَتْ أَيْكِيَّةٌ أو صَيَّدَتْ ... أيدى النسيم من الأراكةِ مَعْطِفَا

(١٥٢) ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده .

وفى هذه السنة : أمر الملك الظاهر بإجراء القناة[2] من جيلان إلى حلب ،

(١) النص فى ك : « خلط الشجاعة بالندى لمن اغتدى يرجو الجزاء ... إلخ » .

(٢) توجد مقابل هذا اللفظ فى هامش ص ٥٢٠ من نسخة (ك) وبخط مخالف الجملة الآتية: « وفى ساتوره (ولعلها باشورة) بقلعة حلب منقور فى الحجر بأن بناها الملك الظاهر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ». وتحت هذه الجملة بخط آخر يخالف خط المتن والهامش الأول يوجد تصويب نصه : « وصوابه ٥٠٩ » . والتصويب خطأ كما يتضح من السياق .

وغرم على ذلك أموالا كثيرة ، وتقسمت فى البـــلد فى القاعات والمدارس والخانقاهات والرُبَط ، و بقى البلد يجرى المـاء فيه مضاهياً لدمشق .

وفى هذه السنة : وصل غياثُ الدين كيخسرو بن قِلِج أرسلان السلجوقى — صاحب بلاد الروم — إلى مَرْعَش ، لقصد بلاد ابن لاون ملك الأرمن .

فأنفذ إليه الملكُ الظاهرُ جماعةً من عسكره ، يكونون فى خدمته مع سيف الدين ابن علم الدين بن جندر ، وعز الدين أيبك فطيس .

فدخل غياثُ الدين بلادَ ابن لاون ، وعاث فيها ونازل حصناً يعرف بغرقوس ، وافتتحه بالأمان ، وأبقاه وشيَّد عمارته .

وفتح قلاعاً أخرى وخرَّبها .

ثم رجع غياثُ الدين لمـا وقع الثلج[1] ، وقد فتح كثيراً من الحصون .

ذكر مقتل

معز الدين سنجر شاه — صاحب الجزيرة —

وفى هذه السنة : قُتل معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى [2]ابن مودود[2] بن زنـكى — صاحب جزيرة ابن عمر — .

وقد ذكرنا تملـكه لهـا بعـــد أبيه سيف الدين غازى — صاحب الموصل — ، وأخباره مع السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، وانتماءه إليه ، ثم هَرَبَه منه بمرج عكَّا ، وغَضَبَ السلطان عليه ، ثم عَوْدَه وَرِضَى السلطان عنه .

(١) الأصل : « البلج » ، وما هنا صيغة (ك) و (س) .

(٢) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

وكان ظالماً ، قبيح السيرة جداً ، سفَّاكاً للدماء لا يمتنع عن قبيح يفعله مع رعيته من القتل ، وقطع الألسنة ، والأنوف ، والآذان ، وحَلْق اللحى .

وتعدَّى ظلمه إلى أولاده [وجيرته][1] وحريمه ، فبعث ابنيْه محموداً ومودوداً إلى قلعة فرح ، فحبسهما فيها ، وحبس ابنه غازى فى دار فى المدينة ، ووكَّل به من يمنعه من الخروج منها ؛ وكانت الدار إلى جانب بستان لبعض الرعيَّة ، فكان يدخل إليه منها العقاربُ والحياتُ وغيرها من المؤذيات ، فاصطاد يوماً حيَّة ، وسيَّرها فى منديل إلى أبيه ، لعله يرقُّ له ، فلم يزده ذلك إلا قسوة .

فأعمل غازى الحيلةَ حتى تخلَّص من الدار التى كان محبوساً بها ، واختفى فى بعض آدُر البلد ، وقرَّر مع إنسان كان يخدمه (٥٢ ب) أنه يُسافر ، ويُظهر أنه غازى بن معز الدين ، وتمّ له فى قتله الحيلة .

فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل ، وأظهر أنه غازى .

ولما سمع نور الدين أرسلان شاه — صاحب الموصل — به ، سيَّر له نفقة وأثاثاً وخيلا ، وأمره بالعوْد إلى أبيه ؛ وقال له : « إن أباك يتجنى علينا الذنوبَ ، ويقبِّح عند الناس ذكرنا ، فإذا أتيتَ إلينا جعل ذلك ذريعة للشناعات والشفاعات ، ونقع معه فى صراع » .

فسيَّر ذلك الشخصَ إلى الشام ، وأظهر أنه غازى ابن صاحب الجزيرة فى كل مكان وصل إليه .

وتحقَّق أبوه[2] أن ابنه هرب ، واطمأن قلبه بخروجه عنه .

ثم إن غازى تسلَّق إلى دار أبيه ، واختفى عند بعض السرارى ، وعلم به

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(١) الأصل : « أميه » ، والتصحيح عن (ك) .

أكثرُ مَنْ فى الدار فسترن عليه بُغْضاً لأبيه ، وإيثاراً للراحة منه ، فبقى فى دار أبيه أياماً مختفياً .

واتفق أن أباه شرب يوماً ظاهر البلد ، ولم يزل يقترح على المغنين فى ذلك اليوم أن يغنوا له فى أبيات الفراق وهو يبكى ، فكأنه استشعر دنو أجله .

ثم دخل إلى داره ، ونزل عند بعض حظاياه وهو سكران ، وكان ابنُه عند تلك الحظية ، فقام معز الدين ليدخل بيت الخلاء ، فهجم عليه ولدُه غازى ، فضربه بالسكين أربع عشرةُ ضربة ، ثم ذبحه ، وتركه ملقى ودخل الحمام ، وقعد يلعب مع الجوارى ؛ فلو أحضر الجندَ[1] واستحلفهم لَمَلَكَ البلدَ ، لكنه سكن واطمأن ، فخرج بعض الخدم الصغار ، وأعلم أستاذ دار أبيه بالواقعة ، فأحضر أعيان الدولة وعرَّفهم ذلك .

ثم أغلق أبواب[2] الدار على غازى ، واستحلف الناس لأخيه معز الدين محمود بن سنجر شاه .

ولما حلف الناس فتحوا الباب وهجموا على غازى فقتلوه ، وألقوه على الباب فأكلت الكلاب بعض لحمه ، ثم دفنوه .

ووصل معزُّ الدين محمود ، واستقر ملكه بالجزيرة ، وقبض على جوارى أبيه فغرَّقهن فى دجلة .

فذكر أنه كان يأخذ الجارية ، فيجعل وجهها فى النار حتى يحترق ، ثم يلقى بها فى الماء[3] فتغرق ، ثم قتل بعد ذلك محمودُ أخاه مودوداً .

---

(١) (ك) : « أكابر الدولة » و (س) : « فلو أنه استحضر الأمراء وأرباب الدولة فى تلك الساعة ... الخ » .

(٢) (ك) : « باب الدار » .

(٣) (ك) : « فى انتيار » .

ودخلت سنة ست وستمائة :

والملك العادل مقيم بدمشق .

والممالك على ما كانت عليه فى السنة الماضية .

(١٥٣) ## ذكر مسير

الملك العادل إلى البلاد الشرقية

كنا قد ذكرنا قَصْدَ الكُرْج الأعمال الخلاطية[١] وما فعلوه بأرجيش .

وتكررت كُتُبُ الملك الأوحد إلى الملك[٢] العادل يستصرخه عليهم ، فسافر الملك العادل من دمشق ، وقصد الفرات فقطعها[٣] ، وكتب إلى البلاد يطلب العساكر ، وأظهر أنه يريد قَصْد الكُرْج .

فوصل إليه الملك المنصور — صاحب حماة — ، والملك[٤] المجاهد — صاحب حمص — ، والملك الأمجد — صاحب بعلبك — وعسكر من الملك الظاهر — صاحب حلب .

ونزل بحرّان[٤] ، ووصل إليه ولده الملكُ الأوحدُ — صاحب خلاط وميَّافارقين — ، والملك الأشرف ، والملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان

---

(١) (ك) : « الأخلاطية » .

(٢) (ك) : « لأبيه الملك العادل » .

(٣) (س) : « وقصد إلى كفر طاب فأقطعها » .

(٤) هذه الفقرة ساقطة من (ك) .

الارتقى — صاحب آمد وحصن كيفا — ، ووصل إليه صاحب السويداء ، وصاحب دارا .

فلما تكاملت العساكر عنده واجتمعت ، كاتب قُطْبَ الدين محمد بن عماد الدين زنكى — صاحب سنجار — ليسلم إليه سنجار ويعطيه عنها عوضاً ، فعزم قطبُ الدين على ذلك ، فمنعه منه أحمد بن برتقش — مملوك أبيه — ، وقام له بحفظ سنجار والذبِّ عنها .

وكان نور الدين أرسلان شاه — صاحب الموصل — قد راسله الملك العادل فى السنة الماضية ، يخطب منه ابنته لأحد أولاده ، فوقعت الإجابة إلى ذلك .

وحسَّن بعضُ أصحاب نور الدين له مراسلة الملك العادل والاتفاق معه على أن يقتسموا البلاد التى لقطب الدين — صاحب سنجار وجزيرة ابن عمر وأعمالها — وهى التى بيد محمود بن سنجر شاه على أن تكون بلاد قطب الدين للملك العادل ، والجزيرة لنور الدين .

فراسله فى ذلك ، فأجابه الملك العادل إليه مستبشراً به وتحالفا وتعاقدا على ذلك .

ولما دخل الملك العادل الشرق استشعر نور الدين وخاف ، وأحضر أصحاب الرأى من أصحابه ؛ واستشارهم فيما يفعله .

فأما الذين كانوا أشاروا إليه باستدعاء الملك العادل إلى البلاد فسكتوا ، وأما الذين لم يعلموا ذلك فأشاروا بالاستعداد والحصار ، وجمع الرجال ، وتحصيل الذخائر ، وما يحتاج إليه .

فقال نور الدين :

« نحن فعلنا ذلك وكاتبنا الملك العادل بأن يجىء إلى البلاد »

(٥٣ ب) فقالوا له :

« بأى رأى تكتب إلى عدوك حتى يأتى إليك ويصير قريباً منك ، ويزداد قوة إلى قوته ، ثم إن الذى استقر بينكما أنه يكون له ، وهو : سنجار وبلادها ، يملكها بغير تعب ولا مشقة ، والذى استقر أنه يكون لك ، وهو الجزيرة لا يمكنك أن تتوجه إليه وتحصره ، والملك العادل فى البلاد ؛ هذا إن وفى لك بما استقرت القاعدة عليه ، بل لو لم يكن الملك العادل فى البلاد لا يمكنك مفارقة الموصل ، لأنه صار بيد أولاده مُلْكُ خِلاط والبلاد الجزرية جميعها ، وبعض ديار بكر ، فمتى صرتَ عن الموصل حالوا بينك وبينها ، فما زدتَ على أن آذيتَ نفسك وابن عمِّك ، وقوَّيت عدوَّك ، ولكن فات الأمر وما بقى يجوز إلا أن تقف معه على ما استقرت إليه القاعدة بينكما ، لئلا يجعل ذلك حجَّة عليك ، ويبتدئ بك » .

ثم رحل الملك العادل من حرَّان ، وكان قد بلغه أن الكُرْج لما بلغتهم حركته خافوا منه وكرُّوا عائدين إلى بلادهم .

فتقدم الملك العادل إلى الملك المنصور والملك الأشرف بأن ينازلا نصيبين ويأخذاها ، وكانت لقطب الدين ، وذلك حين أيس من إجابة قطب الدين إلى ما طلبه من تسليم سنجار إليه ، وأخذ العِوَض عنها .

فسارا إلى نصيبين فتسلماها وتسلما الخابور .

ذكر منازلة الملك العادل

سنجار

وسار الملك العادل إلى سنجار ونازلها ، وأخذ فى حصارها ، فأخرج إليه صاحبُها قطبُ الدين نساءه وحرمه يضرعن إليه و يسألنه إبقاء المدينة عليهن .

فلما حصل النسوةُ عنده أمر باعتقالهن إلا بتسليم سنجار ، فاضطر قطب الدين إلى إلقاء المقاليد إليه ، وأجاب إلى تسليم البلد على أن يعوض عنها الرقة وسَروج وضياع من بلد حرّان .

وأطلق الملك العادل النسوة ؛ وأمر بادخال عَلَمه إلى البلد .

فلما حصلت النسوة بالبلد ودخل عَلَمُ الملك العادل ، أمر قطبُ الدين بكسر العَلَم ، وعُلِّق على الباب[١] ، واستعدَّ للحصار ، وأرسل إلى الملك العادل يقول له : « غدرة بغدرة والبادى أظلم » .

فجدَّ الملك العادل (١٥٤ ا) فى مضايقة البلد ومحاصرته ، واصطلى أهلُ سنجار الحرب بأنفسهم ، وصبروا أحسن صبر .

وأمر الملك العادل بقطع ما على البلد من البساتين والجواسق ، ونصب على البلد عدة مجانيق .

وأخذ قطبُ الدين فى مكاتبة الملوك[٢] والاستنجاد بالخليفة الناصر لدين الله[٢] .

وكان نور الدين — صاحب الموصل — قد عزم على تسيير عسكر نجدة

(١) (س) : « وغلق الباب » .

(٢) النص فى س (ج ا ، س ١٠٣ ا) : « والاستنجاد بهم ، وكتب أيضا إلى الإمام الناصر لدين الله يستنجد به » .

للملك العادل مع ولده الملك الظاهر عز الدين مسعود ، و إذا برسول مظفر الدين كوكبورى — صاحب إربل — قد جاء يبــذل له المساعدة والمعاضدة ، ومنع الملك العادل عن سنجار .

ولم يكن هذا فى حساب نور الدين ، فإن مظفر الدين كان مع الملك العادل .

وكان السبب فى الذى فعله مظفر الدين أن قطب الدين — صاحب سنجار — كان أرسل ولده إلى مظفر الدين يستشفع به إلى الملك العادل ليبقى عليه سنجار ، وكان مظفر الدين يظن أنه لو شفع فى نصف ملك [الملك][(1)] العادل لشفّعه فيه ، لما بينهما من المصاهرة، ولآثار جميلة تقدمت[(2)] من مظفر الدين فى حق الملك العادل .

فشفع مظفر الدين فى قطب الدين عند الملك العادل ، فلم يقبل شفاعته فيه ، ظنًّا منه أنه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين .

فلمـا ردَّ الملك العادل شفاعته غضب من ذلك ، وسيَّر وزيره إلى نور الدين ، فوصل إلى الموصل ليلا ، ووقف مقابل دار نور الدين وصاح ، فعبرت إليه سفينته ، فعبر[(3)] فيها ، واجتمع بنور الدين ليلا ، وأبلغه الرسالة .

فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة ، وحلف على ذلك ، وعاد وزير مظفر الدين من ليلته ، فأبلغ مظفر الدين الجواب .

فسار مظفر الدين من إربل ، واجتمع هو ونور الدين، وعسكرا بظاهر الموصل ، وراسلا الملك الظاهر — صاحب حلب — يدعوانه إلى الاتفاق على الملك العادل ،

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٢) (ك) و (س) : « والآثار الجميلة الذى تقدمت » .

(٣) (ك) : « يعبر » ، و س : « سفينة ليعبر فيها » .

وراسلا أيضاً السلطان غياث الدين — صاحب بلاد الروم — ، وأخاه مغيث الدين طُغْرل شاه — صاحب أرزن الروم —.

ولما وصلت رسالتهما إلى الملك الظاهر أجابهما ونقض ما كان بينه وبين الملك العادل ، وكانت للملك الظاهر فى عمل[1] ماردين ضيعة يقال لها القرادى ، أعطاه إياها صاحب ماردين (٥٤ ب) لما أصلح بينه وبين الملك العادل ، فصارت فى يد الملك الظاهر يستغلها .

فلما كانت هذه السنة ، والملك العادل على سنجار أقطعها الملك العادل للملك الصالح محمود الأُرتقى — صاحب آمد — ، فجعل الملك الظاهر ذلك حجة فى نقض ما بينه وبين الملك العادل ، وأحضر فقهاء حلب عنده ، وقال : « ما تقولون فى رجل حلف لرجل يميناً على أشياء ، فخان أحد الرجلين فى بعض تلك الأشياء ، أينحل عقد تلك اليمين بتلك الأشياء أم لا ؟ » .

فأجابوا « بأنه ينحل اليمين ويبطل حكمها » .

فأظهر لهم صورة الحال ، فأفتوه بأن اليمين قد بطلت ، ولا يلزمه إذا نقض ما بينه وبينه حنث .

فأجاب الملكُ الظاهرُ مظفرَ الدين ونورَ الدين إلى الاتفاق معهما ، وأجابهما سلطان الروم وأخوه إلى ذلك .

ثم أرسل مظفرُ الدين ونورُ الدين إلى الخليفة فى أن يرسل رسولا فى أمر الصلح ، وأن يرحل الملك العادل عن سنجار .

---

(١) (ك) : « أعمال » .

ذكر رحيل

الملك العادل عن سنجار ورجوعه إلى حرّان

بعد انتقاض ما بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر

وصاحب الموصل وصاحب إربل

ولما جرى ما ذكرناه من انتقاض الأمر[١] بين الملك العادل وابن أخيه الملك الظاهر وصاحب إربل وصاحب الموصل[١]، برز الملك الظاهر من حلب ونزل على جبل بانقوسا، وأرسل نظام الدين محمد بن الحسين، وأخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود إلى الملك العادل، وأنفذ معهما تحفاً كثيرة وهدايا سنية، وكان مضمون الرسالة الشفاعة فى صاحب سنجار.

وقال لهما: « إن لم يقبل الشفاعة فأعلماه أنى خارج إلى بلاده[٢] ».

ثم أمرهما إن لم يقبل الشفاعة أن يأمرا مَنْ عنده من عسكر حلب، وكانوا خمسمائة فارس، أن يفارقوه إلى الموصل أو إلى حلب.

وحمّلهما إلى الملك المنصور — صاحب حماة — والملك المجاهد — صاحب حمص — [رسالة أيضا فى ذلك[٣]].

واشتد الملك العادل فى حصار سنجار والتضييق عليها.

ولما وصل إليه نظام الدين وابن أخيه الملك المؤيد وأبلغاه الرسالة امتنع عن قبولها وأغلظ (١٥٥ ا) لهما فى القول.

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك).

(٢) النص فى (ك): « إن لم يقبل الشفاعة فأعلمانى وأعلماه أنى خارج إلى بلاده ».

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س).

فأمر الملكُ المؤيد ونظام الدين العسكر الحلبي بمفارقته ، ففارقوه[١] . ودسَّا في الباطن إلى أصحاب الملك العادل دسائس أوجبت فساد أحوال الملك العادل ، وأرسلا إلى مَنْ في البلد يأمرانهم بأن يكثروا[٢] الشفاعات على الملوك والأمراء الذين في عسكر الملك العادل ، ففعلوا .

وتقدم عسكر الموصل إلى قريب سنجار .

وبعث الخليفة أبا نصر هبة الله بن المبارك بن الضحاك — أستاذ الدار — والأمير آق تاش ، وهو من خواص مماليك الخليفة [رسلا إلى الملك العادل في رحيله عن سنجار][٣] ؛ فوصلا إلى صاحب الموصل ، ثم سارا إلى الملك العادل ، وهو منازل سنجار ، وأصحابه لا يناصحون في القتال ، لا سيما الملك المجاهد — صاحب حمص — ، فإنه كان يُدخل إلى سنجار الأغنام وغيرها والأقوات ، وكذلك غيره .

فلما وصلت رسل الخليفة إلى الملك العادل أجاب إلى الرحيل ، ثم امتنع من ذلك ، وطاول في الأمر ، لعله يبلغ منها غرضاً ، فلم يحصل له مقصود .

فأجاب إلى الصلح على أن يكون له نصيبين ، والخابور ، وكل ما ملكه من البلاد ، ويبقى لقطب الدين سنجار .

ورحل الملك العادل عن سنجار عائداً إلى حرّان .

وعاد مظفر الدين إلى إربل ، وكان مظفر الدين مدة مقامه بالموصل قد زوّج ابنتيه بولدى نور الدين ، وهما : عز الدين مسعود ، وعماد الدين زنكى ، وأمُّ البنتين ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل .

---

(١) هذا اللفظ غير موجود في (ك) .

(٢) (ك) : « يكرروا » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

ذكر وفاة

الملك المؤيد نجم الدين مسعود

ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين

ولما انفصل الملك المؤيد ونظام الدين بن عند الملك العادل ، سارا حتى نزلا رأس عيْن بظاهرها ، فخرج إلى خدمتهما الوالى بها ، وحمل إليهما طعاماً وفاكهة كثيرة ، فتناول من الرمان هو و بعض غلمانه ، ثم دخل بيتاً مُجصّصًا ، وكان يوماً شديد البرد ، فأشعل فيه النار ، وسدوا كوى البيت ، فاختنق الملك المؤيد ومن كان معه ، ولم يسلم إلا اثنان وجد فيهما حياة ضعيفة .

وتحدَّث الناس بأنه سُقى سُمًّا[1] فى الرمان .

ثم جُهِّز الملك المؤيد ووضع (٥٥ ب) فى تابوت وحُمل إلى حلب فوصل إليها فى الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة ، ودفن فى التربة الظاهرية بمقام إبراهيم عليه السلام .

وحزن عليه أخوه الملك الظاهر حزنًا شديداً ، وغلقت أسواق حلب سبعة أيام .

ورثاه شرف الدين الحِلِّى بقصيدة مطلعها :

تُرى مَنْ على نَفْسِ الهدى[2] جارَ واعتدى
وفَوَّق نحـــو المَلْك سَهْماً مُسَدَّدا ؟

---

(١) (س) : « شيئا »

(٢) (س) : « العلى » .

وَمَنْ هَدَّ رُكْنَ المجد بعد بنائه ؟ وَمَدَّ إلى تشتيتِ شَمْلِ الهدى يَدَا
وَمَنْ دَكْدَكَ الطَوْدَ الأشمَّ وَقَدْ رَسَا وطال إلى أن جاز نَسْراً وفَرْقَدا ؟
ومَنْ حَجَبَ البدرَ الذى كان مُشْرِقاً ومَنْ غَيَّض البحرَ الذى كان مُزْبِدا ؟
ومَنْ حَبَسَ الغَيْثَ الذى كان نَوْؤهُ إذا عمَّ جَدْبٌ لا يفت له ندا

ومنها :

فيا مانعَ الإسلام صبراً فإنما بِصَبْرِكَ فى كلِّ المواطنِ يُقْتَدَى
فلو كان غير الموتِ دافعتُ دونه بِطَعْنٍ يردُّ السمْهرِىَّ مُقَصَّدا
وغادرتَ جَفْنَ الأفقِ بالسُمْر أو طفاً وخَدَّ المواضى بالنجيع مورّدا
ولكنه دَهْرٌ إذا ما نعيمُه تحوَّلَ بؤساً هدَّ ما كان شُيِّدا
فَدُمْ يا غياثَ الدين سَيْبك للعُلى يشيد مبانيها وسيفُك للعِدَى
ولا زالتِ الدنيا تُبيحُكَ مُلْكَها ولا زلتَ مَهْدِيّاً لها وممهدا

ولما بلغ الملكَ العادلَ وفاةُ ابن أخيه الملك المؤيد جلس للعزاء ، واغتم لموته غمّاً كثيراً ، وخاف أن يظن الناس أنه سمّه .

و بعد مفارقة الملك العادل رأس عين متوجهاً إلى حرَّان ، جرت[١] بينه و بين وزيره صفى الدين منافرة أوجبتْ حرد صفى الدين ، وسافر فى البرية[٢] .

---

(١) (ك) : « جرى » .

(٢) (س) : « وسار فى البريد » وهى أقرب إلى الصحة .

فركب الملك المنصور — صاحب حماة — ، والأمير فخر الدين جهاركس — صاحب بانياس — [خافه][1] حتى لحقاه وأحضراه إلى الملك العادل وأدخلاه عليه ، وقبّل يده ، فرضى عنه الملك العادل ، وطاب قلب صفى الدين .

ووصل الملك العادل إلى حرّان وأقام بها .



(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

ودخلت سنة سبع وستمائة :

فخرج فى أولها الملك الظاهر وخيَّم (٥٦ ا) معاملا (كذا) لأنه بلغه أن عمه الملك العادل عازم على قصده ، وأخذ حلب منه ، فعزم على جمع العساكر وقصد الفرات[1] ليمنع الملك العادل من عبور الفرات ، وكاتب المواصلة وغيرهم فى الاستعداد وأخذ الأهبة ليشغلوا قلب الملك العادل ، و يمنعوه من قصد حلب ، فأجابوه إلى ذلك .

وحين تحقق الملك العادل ذلك أعرض عن قصد حلب ، وقصد دمشق ، فدخلها واستقر فيها ، وتفرقت العساكر والملوك الذين معه .

وفى هذه السنة قصدت الكُرْج خلاط وحصروها ، فاتفق أن « أوانى »[2] ملك الكُرج شرب الخمر ، فحسَّن له السُّكْرُ أن ركب وتقدم إلى جهة خلاط فى عشرين فارساً ، فتقنطر به فرسه ، فأخذه المسلمون أسيراً ، وأخذوا أصحابه معه ، وحملوهم إلى الملك الأوحد ، فبذل فى نفسه مائة ألف[3] دينار ، وخمسة آلاف أسير من المسلمين ، وأن يلتزم الصلح ثلاثين سنة ، وأن يزوِّج إبنته الملك الأوحد ، فوافقه على ذلك ، وردَّ على المسلمين عدة قلاع كانت أُخذت منهم ، وتقررت الأيمان بينهم على ذلك كله .

وفى هذه السنة تحركت الفرنج إلى جهة الساحل ، واجتمع منهم بعكَّا جمع كثير .

فخرج الملك العادل من دمشق ، وترددت بينهم الرسل ، حتى تقررت بينهم الهدنة مدة معلومة .

---

(١) النص فى (ك) : « بجمع العساكر وطلب قصد الفراه » .

(٢) (ك) : « أوانى » .

(٣) (ك) و (س) : « مائة ألف ألف » .

وأمر ولده الملك المعظم ببناء قلعة الطور ، وهو حصن عالٍ[1] قريب من عكا .

ذكر وفاة

نور الدين صاحب الموصل

وفى هذه السنة توفى نور الدين[2] أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى ابن آق سنقر — صاحب الموصل — فى آخر رجب .

وكان مرضه قد طال ، ومزاجه قد فسد ، وكانت مدة ملكه بالموصل سبع عشرة[3] سنة ، وأحد عشر شهراً .

ولما اشتد مرضه وأيس من نفسه ، أشير عليه بالانحدار إلى عين القيارة ليستحم بها ، فانحدر إليها ، واستحم بها ، ولم يجد راحة ، وازداد ضعفاً ، فأخذه الأمير بدر الدين لؤلؤ مملوكه ، وكان أستاذ داره والحاكم فى دولته ، وهو الذى صار إليه ملك الموصل فيما بعد على ما سنذكره — إن شاء الله تعالى — (٥٦ ب) . وأصعده فى شبَّارة[4] إلى الموصل ، فتوفى فى الطريق ليلاً ، ومعه الملاحون والأطباء ، بينه و بينهم ستر .

---

(١) جميع النسخ : « عالى » .

(٢) انظر ترجمته أيضاً عند : (ابن الأثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٢١) و (ابن الأثير : الباهر ، ٣٤٦ — ٣٦٥) و (سعيد الديوجي : الموصل فى العهد الأتابكى ، ص ٣٣) .

(٣) (س) : « سبع وعشرين سنة » وما بالمتن هو الصحيح .

(٤) سفينة حربية صغيرة أكثر ما تستعمل فى العراق ، وورد ذكرها كثيرا فى تاريخ الطبرى ، فمما قال : « كل من أفلت من الأتراك رمى بنفسه فى دجلة .. فأخذه أصحاب الشبارات وكانت الشبارات قد شحنت بالمقاتلة » وجاء فى (الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٨) : « قال ابن الأثير : وكنت حينئذ ببغداد عازما على الحج ، فعبر عضد الدين دجلة فى شبارة . . الخ » وجاء فى (وفيات الأعيان لابن خلكان) : « توفى أتابك الملقب الملك العادل نور الدين فى شبارة بالشط بظاهر الموصل ، والشبارة عندهم هى الحراقة بمصر » وقال (عبد اللطيف البغدادى عند وصفه لسفن مصر ، الرحلة ص ٥٤) : « وأما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال ، وأغرب ما رأيت فيها مركب يسمى العشيرى شكله شكل شبارة داخلة ، إلا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداما وشكلا .. » . وجاء فى رحلة ابن بطوطة : « رأيتهما بحراقة فى الدجلة وتسمى عندهم شبارة ، وهى شبه سلورة » .

وكان مع بدر الدين عند نور الدين مملوكان ، فلما توفى إلى رحمة الله ، قال بدر الدين لأحدهما[1] : « لا يسمع أحد بموته » ، وقال للأطباء والملاحين : « لا يتكلم أحد ، فقد نام السلطان » .

فسكتوا ووصلوا إلى الموصل فى الليل ، فأمر الأطباء والملاحين بمفارقة الشبارة لئلا يروه ميتا ، ففعلوا ، وحمله هو والمملوكان وأدخله الدار ، وتركه فى الموضع الذى كان فيه وفيه المملوكان . وترك على بابه مَنْ يثق إليه ، لا يمكِّن أحداً من الدخول والخروج ، وقعد يمضى الأمور التى يحتاج إليها .

فلما فرغ من كل ما يحتاج إليه أظهر موته وقت العصر ، ودفنه بالمدرسة التى أنشأها مقابل داره .

ذكر صفته

وسيرته — رحمه الله —

كان أسمر ، خفيف اللحية والعارضَيْن جداً ، مليح الوجه ، قد أسرع إليه الشيب ، وكان شهماً ، شجاعاً ، عادلا ، ذا سياسة للرعية ، شديداً على أصحابه يمنع بعضهم أن يتعدى على بعض ، وكانوا يخافونه خوفاً شديداً ، فلا يجسرون بسبب الخوف منه على الظلم والتعدى .

وكانت همته عالية ، أعاد ناموس البيت الأتابكى ووجاهته[2] وحرمته بعد أن كان قد ذهب ، وخافته الملوك ، وكان سريع الحركة فى طلب الملك ، إلا أنه لم يكن له صبر ، فلهذا لم يتسع ملكه .

---

(١) (ك) و(س) : « لهما » .

(٢) (س) : « وجاهه » .

ومن محاسن ما يُنقل عنه أنه لما توجه من الموصل فى نجدة صاحب ماردين حين[1] كان الملك الكامل قد ملك ربضها، وكاد يستولى على قلعتها ، وضرب المصاف مع الملك الكامل وكسره [كسرة قبيحة]،[2] وسافر الملك الكامل إلى حرّان ، ولم يبقَ من عسكره بالمكان أحد ، قال أصحاب نور الدين له : « اصعد بعسكرك إلى رَبَض ماردين ، فما دونه مانع ، واملكه ، واملك القلعة ، ويكون هذا موضع المثل السائر : « رب ساعٍ لقاعد » فقال : « حاش لله أن يتحدث الناس عنى أن ناسا[3] اعتضدوا بى واستنصروا بى أغدر بهم » .

ثم قال لمجد الدين بن الأثير — وكان [من][4] أكبر أصحابه — : « ما تقول يا مجد الدين ؟ » .

فقال : « الغادرون كثير ، وقد أودعت (١٥٧) غدراتهم الكتب ، وهى باقية إلى الآن ، ولم يؤرخ عن أحد أنه قدر على مثل ماردين وتركها وفاء وإنعاما وإحسانا » .

وقال لمجد الدين : « أرسل إلى صاحب ماردين ليرسل نوابه إلى ولاياته » ، وكان قد أقطعها للعساكر التى معه،وأمر بكفِّ أيديهم عنها ، وتسليمها إلى صاحبها.

فقال مجد الدين : « إن أصحابنا لم يأخذوا درهما واحداً لتأخر إدراك الغلات ، فلو بقى الإقطاع فى أيديهم إلى أن يأخذوا ما ينفقون عليهم فى بيكارهم[5] »

---

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك) و (س) .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .
(٣) (س) : « قوما » .
(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .
(٥) البيكار (ج : بياكير) لفظ فارسى معناه الحرب ، أنظر :
(Dozy : *Supp. Dict. Arab*).

فقال — رحمه الله — : « لا نكدر إنعامنا وإحساننا إليهم ، ونحن نكفى أصحابنا » .

قال مجد الدين : « فأرسلت إلى صاحب ماردين ليتسلم بلاده فتسلمها ، وأرسل إليها نوابه» .

قال مجدالدين : « ما قلت له عن شيء قط ، من عدل [1] وبذل مال [1] وغير ذلك من الصلاح ، فقال لا ؛ وكنتُ معه فى بعض أسفاره وله سرادارٌ قد سَرَقَ ولدُه من داره قماشاً ، وكانت مفاتيح الدار مع السرادار ، فأرسل إلىَّ ليلا فأمرنى أن أكتب كتاباً إلى الموصل بقطع يده ، فأعدتُ الجواب : أننى ما أكتب هذا الكتاب الليلة ، [2] وإذا اجتمعت به غدا عرفتُه ما فى هذا [2] .

فأعاد مرة ثانية وثالثة وأنا أمتنع .

فاستدعانى وقال لى : « لِمَ لَمْ تكتب الكتاب ؟ » .

فقلت له : « عادتى معكم [3] أننى لا أكتب إلا ما تجيزه الشريعة » .

فقال لى : « هذا سارقٌ ، توجب الشريعة المطهرة قطع يده » .

فقلت : « لا قطع عليه ، لأنه سرق من غير حرز ، لأن المفاتيح بيده » .

فعفا عنه .

---

(١) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

(٢) (س) : «وإذا اجتمعت بالسلطان أعلمته ما فى هذا» .

(٣) (ك) : « تعلم عادتى » .

ذكر استيلاء

الملك القاهر بن نور الدين

على الموصل(١)

ولما مات نور الدين أرسلان شاه بن مسعود — صاحب الموصل — استقر فى الملك بالموصل بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر — رحمه الله — ، وهو آخر ملوك البيت الأتابكى بالموصل .

وقام بتدبير ملكه بدر الدين لؤلؤ مملوك والده .

وملك عمادُ الدين زنكى بن نور الدين قلعتى عقر وشوس وهما بالقرب من الموصل . (٥٧ ب)

وفى هذه السنة : وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة(٢) ، ويلبسوا له سراويلها ويكون انتماؤهم إليه ، ورعية كل ملك يشربون لذلك الملك و يلبسون له .

---

(١) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

(٢) الفتوة نظام اجتماعي إسلامى قديم يعتمد على ما تعتمد عليه الفروسية من آداب وصفات أهمها الشباب والقوة والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الكذب والرحمة باليتيم ، وقرى الضيف ومساعدة الضعيف والإيثار .. إلخ ، ولها ذكر فى الأحاديث النبوية ، ثم نسبت إلى على بن أبى طالب وظل هذا النظام متبعا خلال العصور الإسلامية يتطور بتطورها ، يقوى حينا ، ويضعف أو يهجر حينا آخر ، إلى أن عمل على إحيائه الخليفة الناصر لدين الله العباسى كما هو وارد فى النص هنا ، وكان للفتوة ناموس وكانت لها طقوس خاصة ؛ فلا يقبل الفتى الجديد إلا إذا رشحه وزكاه فتيان آخرون ، ويحتفل بانضمامه احتفالا خاصا له رسوم معينة ، فيحزم بحزام وهو يعبر عنه « بشدة العقد » ويلى ذلك شرب كأس الفتوة ، ثم لبس سراويل الفتوة .. إلخ ، وكانت كأس الفتوة =

ففعلوا ما أُمروا به ، وأيضاً فانتسب الملوك إليه فى رمى البندق(١) ، وجعلوه قدوتهم فيه .

ذكر رحيل

الملك العادل إلى الديار المصرية(٢)

ثم سار الملك العادل إلى الديار المصرية ، . وجعل طريقه على الكرك ، فأقام به أياما ينظر فى مصالحه .

ثم رحل إلى مصر ، فأقام بدار الوزارة بالقاهرة .

تحتوى الماء والملح ؛ لاستيفاء الموضوع انظر أيضاً : (ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص ٨٩ — ٩١ ، ١٠٦ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٤٣) ، وانظر منشور الخليفة الناصر بشأن الفتوة فى : (ابن الساعي : الجامع المختصر ، ص ٢٣٣ — ٢٢٥) ، وقد نشرت أخيرا فى القاهرة رسالة قديمة فى هذا الموضوع تشرح أصول الفتوة وتاريخها وآدابها وطقوسها وأسرارها ، وهى (ابن عمار البغدادى : الفتوة ، نشر الدكتور فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٩) وانظر كذلك : (محمد فهمي عبد اللطيف ، الفتوة الإسلامية ، القاهرة ١٩٤٨)

(١) عرف (جورجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى : ج ٥ ، ص ١٥٩ — ١٦٠) البندق بقوله : « البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها ، وهى فارسية بلفظها واستعمالها ، ويسمونها أيضاً « الجلاهقات جمع جلاهق » ، فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الأقواس كما يرمون النبال ، واقتبس العرب هذه اللعبة فى أواخر أيام عثمان بن عفان ، وعدوا ظهورها فى المدينة منكرا ، ثم ألفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمى بها .. وكان رماه البندق فى العصر العباسى طائفة كبيرة يخرجون إلى ضواحي المدن يتسابقون فى رميه على الطير ونحوه ، ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ، ولهم زى خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة .. وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها ثم تفننوا فى رمى البندق بالمزاريق أو الأنابيب بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب مما يشبه أنابيب البنادق ، فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الأنابيب ، وسموا هذه الآلة بندقية نسبة إليه ، وقد عنى الخليفة الناصر العباسى (توفى ٦٢٢ هـ) عناية خاصة بالبندق حتى جعل رميه فناً لا يتعاطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها منه مباشرة أو من أحد رسله بالوكالة

(٢) هذا العنوان غير موجود فى (س)

ووصل إليه عز الدين أسامة — صاحب عجلون وكوكب — .

وتوفى فى هذه السنة فخر الدين جهاركس مقدم الصلاحية وكبيرهم .

ذكر وفاة

الملك الأوحد بن الملك العادل

واستيلاء أخيه الملك الأشرف على خلاط

واتفق مرض الملك الأوحد بخلاط ، ولما اشتد مرضه كتب إلى أخيه الملك الأشرف موسى يستدعيه ، فقدم عليه ، وأقام عنده مدة .

(١ وأبل من مرضه ففارقه ١) ، فلما توجه للعود عنه ، عاود الملك الأوحد المرض ، فمات .

وعاد الملك الأشرف فملك خلاط .

وقيل : إن الملك الأشرف لما تمت عافية أخيه الملك الأوحد ودع أخاه عازماً على العود .

فقال له منجم خلاطى : « لا تفارق خلاط ، فإن الأوحد يموت » .

فقال له الملك الأشرف : « إنه قد أكل اللحم ، ولعب بالكرة » .

فقال له المنجم : « ما يضرك المقام أسبوعا واحداً » .

ففعل ، فمات الأوحد فى ذلك الأسبوع .

ولما توفى استقل الملك الأشرف بملك خلاط مضافا إلى ما بيده من البلاد الشرقية ، وعظم شأنه ، ولقب « شاهرمن » .

وأضيفت ميافارقين إلى أخيه الملك المظفر شهاب الدين غازى .

---

(١) (ك) : « وأقام عنده مدة حتى أفاق من مرضه » .

ودخلت سنة ثمان وستمائة :

والممالك على ما كانت عليه فى السنة الماضية .

وفى هذه السنة وصل [السلطان][1] الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل إلى خدمة أبيه بالديار المصرية ، فاستشعر منه عز الدين (٥٨ ا) أسامة [لسبب نذكره إن شاء الله تعالى][1] ، فخرج مظهراً أنه يتصيد ، وهرب فى جماعة من مماليكه .

فخرج الملك المعظم خلفه جريدة .

وترك عز الدين [أسامة][1] مماليكه فى الرمل ، وانفرد بنفسه ، وأخذ دليلا من العرب ، وساق ليسبق إلى حصونه ويعتصم بها ، فنزل بأرض الداروم يستريح ، [ثم أراد الركوب][1] وعجز عن الركوب لوجع المفاصل الذى كان يعتريه [قبل ذلك][1] ، فعرفه شخص وأخبر الملك المعظم به ، وكان قد وصل إلى موضع قريب من المكان الذى نزل به أسامة .

فسار الملك المعظم إليه ، وقبض عليه ، و بعث معه جماعة أوصلوه إلى الكَرَك ، فاعتقلوه بها .

ثم حوصر حصناه : كوكب وعجلون ، فسلمهما غلمانه على عوض أخذوه .

وأمر الملك العادل بهدم كوكب وتعفية أثره ، وأبقى عجلون .

وانقضى أمر الصلاحية بانقضاء [زين الدين][1] قراجا ، [والأمير فخر الدين][1] وجهاركس ، وعز الدين أسامة ، وصفت حصونهم للملك العادل ، والملك المعظم بعده .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

وملك الملك المعظم بلاد جهاركس [(1)] لأخيه شقيقه الملك العزيز عماد الدين عثمان [(1)]، وأعطى صَرْخَد مملوكه عزَّ الدين أيبك أستاذ داره .

ولم يزل أسامة معتقلا فى الكرك إلى أن مات بها .

[(2)] وقد قيل إن جماعة من الأمراء كانوا أشاروا على أسامة بتسليم كوكب وعجلون إلى الملك المعظم ، ويأخذ عوضاً عنهما ، فما فعل ، ولو فعل لم يطرأ عليه ما طرأ من الاعتقال وأخذ أمواله ، وكانت جميع أمواله ودخائره بكوكب ، فاستصفيت جميعها [(2)] .

ذكر الفتنة بمكة

وفى هذه السنة كانت فتنة عظيمة بمكة ، وسببها أن باطنياً وثب على قريب للشريف أبى عزيز قتادة — صاحب مكة — فقتله .

وكانت أم ألكيا حسن — صاحب الألموت — قد قدمت حاجة مع الحاج العراقى ؛ فركب الشريف [(3)]، [(4)] أبو عزيز فى الأشراف والعربان ، وقصد الحاج العراقى فنهبهم نهباً ذريعاً ، ورموهم بالحجارة والنبل [(4)] .

---

(١) هذه الفقرة ساقطة من (س) .

(٢) مكان هذه الجملة فى س (ص ١٦٩ ا) فقرة أكثر ايفاءً وتفصيلا ، وهذا نصها : « وكان السبب فى قبض الملك المعظم على أسامة أنه طلب من أسامة أن يسلم كوكب وعجلون إليه ، فأبى ذلك ، فأشار جماعة من الأمراء على أسامة بذلك ، فلم يلتفت إليهم ، وأغلظ لهم فى القول ، فبلغ الملك المعظم ذلك ، فبقى فى قلبه منه ، وتم له مع أسامة ماتم ، ولو فعل أسامة لم يطرأ عليه شىء من ذلك ، وكان الملك المعظم قد بذل له عوضا عن هذه (كذا) الموضعين ، فلم يفعل لأمر يريده الله أن يكون ، ولما مات أسامة فى الاعتقال أخذ الملك المعظم جميع أقواله ، وكانت أمواله وذخائره كلها بكوكب فاستصفاها جميعها » .

(٣) (ك) : « السيد » .

(٤) النص فى (س) مضطرب غير مفهوم وهو : « فركب الشريف أبو عزيز بن قريب والأشراف والعربان ، وقصدوا الحاج العراقى لما قتل أبوه ، فنهبهم نهبا ، ورموهم بالحجارة والنبل لأن الباطنى الذى قتل صاحب مكة كان فى حاج العراقى » .

فانتقل الحاج العراقى إلى الحاج الشامى ، واستجاروا بهم ، وكان فى الحاج[١] الشامى ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل [زوجة مظفر الدين صاحب إربل][٢] ، فأجارت الحاج العراقى ، ومنعت أبا عزيز منهم ، ولولا إجارتها لهم لاستؤصلوا [عن آخرهم][٢] ، وذلك بعد أن نهب من الحاج العراقى من الأحمال والجمال ما لا يمكن وصفه .

ثم لما أرادوا دخول مكة مُنعوا منها ، (٥٨ ب) فما زالت ربيعة خاتون بأمير[٣] مكة حتى أذن لهم ، فدخلوا وقضوا حجهم .

وفى هذه السنة أظهر ألكيا جلال الدين حسن — إمام الباطنية صاحب الألموت — شعائرَ الإسلام ، وأمر رعيته بالصلوات والحج وصيام رمضان ، وإقامة وظائف الشريعة .

وكتب إلى الخليفة والملوك يعلمهم ذلك ، وبعث والدته إلى مكة لتحج ، فحجت كما ذكرنا ، وأكرمت ببغداد لما دخلتها إكراماً عظيماً ، وبعث جلال الدين حسن إلى الحصون التى لهم بالشام يلزمهم أن يفعلوا نظير ما فعله ببلاد العجم[٤] ، فأعلنوا بالأذان وإقامة الجمع وأظهروا أنهم قد التزموا بمذهب الشافعى — رحمه الله — .

(١) (ك) : « الركب » .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .
(٣) (س) : « بابن أمير مكة » .
(٤) (ك) : « فى العجم » .

ذكر عود

الملك العادل إلى الشام

وفى هذه السنة قدم الملك العادل إلى الشام .

وأعطى ولده الملك المظفر شهاب الدين غازى الرُّها .

ذكر الاتفاق

بين الملك الظاهر وعمه الملك العادل

وخطبة الملك الظاهر ابنة الملك العادل

وفى هذه السنة توجه القاضى بهاء الدين بن شداد من الملك الظاهر رسولا إلى عمه الملك العادل ، فوصل إليه وهو بالديار المصرية .

وكان مضمون الرسالة استعطافه واسترضاءه ، وأن يجدد له اليمين على بلاده ، وخطب ابنته ضَيْفَة[1] خاتون — شقيقة الملك الكامل — وكانت أعز بنات الملك العادل عليه ، وخطبها منه جماعة من الملوك ، فلم ينعم عليهم بتزويجها .

وكان الملك الظاهر قد طلبها من عمِّه قبل ذلك لما ماتت زوجته أختها غازية خاتون ، فلم يجب إلى ذلك .

فلما وصل القاضى بهاء الدين وخاطبه فى ذلك ، أجابه إليه ورضى عن الملك الظاهر ، وجدَّد اليمين له ، وسمح له بتزوج ابنته ضَيْفَة خاتون .

ورجع من عنده مكرماً .

---

(١) ولدت ضيفة خاتون بنت الملك العادل فى سنة ٥٨١ أو ٥٨٢ ه بقلعة حلب حين كان أبوها ملكا لحلب ، وكان عند أبيها ضيف فسماها ضيفة : انظر ترجمتها فى : (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٨٨ ب).

ودخلت سنة تسع وستمائة :

والسلطان الملك العادل بدمشق

(١١٥٩) ذكر[١] وصول

الصاحبة ضيفة خاتون ابنة الملك العادل إلى حلب

بعد عقد العقد بدمشق[١]

ولاحدى عشرة ليلة مضت من المحرم من هذه السنة . بعث الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد رسولا[٢] إلى عمه الملك العادل في تقرير أمر العقد ، ووكله في قبوله ، وأنفذ معه ثياباً كثيرة برسم الخلع على أرباب الدولة ، ومالا برسم النثار [وقت عقده النكاح][٣]

ولما ورد [القاضي بهاء الدين][٣] إلى دمشق عقد العقد ، وكان النائب عن الملك العادل في الإيجاب شمس الدين بن التنبي .

وقبل القاضي بهاء الدين العقد لموكله على صداق مبلغه خمسون ألف دينار ، ونثر النثار على الشهود والقراء .

وسرحت الخاتون في هذا الشهر إلى حلب ، فوصلت إليها في تجمل[٤]

---

(١) هذا العنون غير موجود في «ك» و «س» والكلام هناك متصل .

(٢) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٤) (ك) : « محمل » و (س) : « محفل » .

عظيم ، والتقاها الملك الظاهر فى أمراء حلب ومعمميها وأكابرها ، وكان دخولها القلعة يوماً مشهوداً ، وقدم معها من القماش والآلات وأنواع المصاغ مايحمله خمسون بغلا ومائة بختى وثلثمائة جمـــل ، ومن الجوارى والوصائف والإماء والحرائر (فى المحاير) والكجاوات ما يحملهن مائة جمل .

وذكر أنه كان فى خدمتها مائة جارية ، كلهن مطربات يلعبن بأنواع الملاهى ، ومائة جارية أخرى كلهن يعملن أنواع الصنائع البديعة .

وذكر أنها لما دخلت على الملك الظاهر مشى لها عدة خطوات ، واحترمها احتراماً عظيماً ، وقدَّم لها خمسة عقود[٢] جوهر قيمتها مائة ألف وخمسون ألف درهم[٣]، وعصابة بجوهرة ليس لها نظير ، وعشر قلائد من العنبر المذهب ، وخمسا غير مذهبة ، ومائة وسبعين قطعة من الذهب والفضة ، وعشرين تختاً من الثياب المختلفة [الألوان][٤]، وعشرين جارية ، وعشر خدم .

وقال شرف الدين راجح الحلى يهنئ الملك الظاهر بهذه الوصلة ، ويمدحه بقصيدة مطلعها :

نَعَمْ هى نُعْمى بِشرُها أَوْضَحَ البُشْرى فما عُذْرُ من لم يخترعْ مَدْحُه عُذْرا

سما قَدْرُ هذا اليوم عن موقفٍ به نصوغ حُلِيَّ النَظْمِ أو نَنْظُمُ النَثْرا[٥]

(١) هذان اللفظان ساقطان من (ك) و (س) .

(٢) (ك) : «خمسون عقد» و (س) : «خمس وخمسون» .

(٣) (س) ، «مائتين ألف وستون ألف درهم» .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س).

(٥) (ك) ، «الدرا» .

(٥٩ ب)

هى الآيةُ الـكُبْرى ، فياعِىَّ مَادِحٍ ولو نَظَمَ الشِّعْرَى لأمثالها شِعْرا
وَمُذْ نَشَرَ اليومُ لأَغَرِّ اردَاءَهُ نَشَرْنَا على أَعْطَافِهِ المِدَحَ الغُرَّا

ومنها :

فَقُمْ(١) دون مُلْكٍ عَادِلِىّ حميتَهُ مواقع كَيْد القوم ، واشدد به أَزْرَا
فبالأمس قـــد أوليتَه ما كفيتَه به الخطبَ إذْ أَصْلَيْتَ أفئدةً جَمْرا
ولا سيما أضفى ظِـــلالَ ولايةٍ وأَصْفَى كما أَصْفَيْتَه السرَّ والجهْرَا
وما زال يدعوه إلى الرشْدِ سَعْدُه إلى أن أَقَرَّ المُلْكَ وانْتَخَبَ الصِهْرا
فلو رُمْتَ مِصْرًا لاصْطَفَاكَ بمُلْـكها لأنك لمـا شِئْتَ أَخْلى لك القَصْرا

ذكر عمارة الطور

وفى هذه السنة أو التى قبلها عمرَّ السلطان الملك العادل قلعةً على جبل الطوْر ، وهو جبل عالٍ مطل على عكا بالقرب منها .

ولم يكن بناؤه مصلحة ، فإن الفرنج بعد ذلك قصدوه وكادوا يملـكونه ، ولو ملـكوه تعذر انتزاعه منهم ، وتمـكنوا به من بلاد الإسلام ، وقطعت غاراتهم الطريق عن الديار المصرية .

وكان على هذا الجبل قلعة من أيام الفرنج ، ومُلـكت فى الفتوح الصلاحية ، ثم خرَّبه المسلمون لمـا ملـكوا عكا وعفوا أثرها .

(١) (س) : « نعم » .

ثم ترجّح عند الملك العادل تخريب حصن كوكب وعمارة قلعة الطور ، فنزل بعساكره حولها ، وأحضر الصناع من كل بلد ، واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة .

وكان فيه خمسمائة أمان ماعدا الفعلة والنحاتين ، ولم يزل مقيما عليه حتى بناه .

ومدحه كمال الدين بن النبيه المصرى ، بقصيدة مطلعها .

تَنَقَّبَتْ بالنَّوْر والنُّورِ — واعْتَجَرَتْ لكنْ بِدَيْجُورِ
ساحرةَ الطَّرْفِ ، ولكنها — من فَتْرَةٍ فى زِىِّ مَسْحُورِ

ومنها :

يا ليلةَ الوَصْلِ استقرى ويا — سيرةَ سلطانِ الوَرَى سيرى
المَلِكُ العادلُ مَنْ أَمَّهُ — فقد رأى موسى على الطورِ
(١٦٠) إن كان قد دُكَّ قديماً فقد — عَمَّرتَه أَحْسَنَ تَعْمِيرِ
كأنَّه تاجٌ على مفرَقٍ — لما استدارتْ شُرَفُ السورِ
يزاحم النجمَ له منكبٌ — كالنجمِ فى الرِّفْعةِ والنورِ
كأنما أَوْقَفْتَهُ حارساً — يَحْرُسُ من عكّا إلى صُورِ
فكلما لاحَ به[1] بارقٌ — يَرْتَعِدُ الصَّخْرُ من الدورِ
بنى سليمانُ بِأَعْوَانِهِ — وأنت بالغُرِّ الجماهيرِ
تُصافح الأحجارَ أيدٍ لهم — لا ترتضى لَمْسَ الدنانيرِ

---

(١) (ك) : « له » .

ومنها :

كم لك في يافا وفي المرج[1] من وقائع غير مشاهير
عشرون ألفا[2] غير أتباعهم ما بين مقتولٍ[3] ومأسور
طهّرتَ بيتَ القدس من رِجْسِهم
وكان مأوىً للخنازير

ذكر قبض

السلطان كيكاوس على أخيه كيقُباذ

كنا قد ذكرنا استيلاء السلطان غياث الدين كيخسرو بن قِلِج أرسلان السلجوقى على بلاد الروم ، ثم هلك غياث الدين ، فقام بالملك بعده الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو .

وفى هذه السنة قصد عمُّه طُغْرُل شاه بن قِلِج أرسلان — صاحب أرزن الروم — ، وحاصره بسيواس ، وضيَّق عليه ، واستعان على حصاره بابن لاون .

فاستنجد عز الدين بالملك الأشرف بن الملك العادل ، فخاف صاحب أرزن الروم من الملك الأشرف ، ورحل عن سيواس إلى بلاده ، فأفرج عن عز الدين ضيق الخناق .

وسار أخوه علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو إلى أنكورية ، وهى لعز الدين ، فملكها .

---

(١) (س) : « الكرج » .
(٢) الأصل : « ألف » ، والتصحيح عن (ك) .
(٣) (س) : « مقود » .

و بلغ ذلك عز الدين ، فسار فى جيوشه حتى خيَّم على أنــكورية ، وجدَّ فى حصارها ، فاستشفع علاء الدين بالملك الظاهر إلى أخيه فى الصلح بينهما .

فبعث الملك الظاهر الشيخَ تقىَّ الدين على بن أبى بكر الهروى ، فى المعنى ، فلم يتم الصلح ، ولم يزل عز الدين محاصراً لأنــكورية حتى فتحها وقبض على أخيه علاء الدين ، واعتقله ببعض القلاع (٦٠ ب) وحلق لحى الأمراء الذين كانوا معه ورءوسهم ، وأركب كل واحد منهم فرساً ، وأركب قدامه وخلفه خاطيتين ، مع كل واحدة منهما معلاقاً تصفعه به ، و بين يدى كل واحد منهم منادٍ[1] ينادى : « هذا جزاء من خان سلطانه » .



(١) (ك) و (س) : « مناديا » .

ودخلت سنة عشر وستمائة :

والممالك بحالها

وفى هذه السنة ظفر عز الدين كيكاوس — صاحب بلاد الروم — بعمه ، وأخذ بلاده وقتله ، وذبح أكثر الأمراء .

وأراد قتل أخيه علاء الدين فشفع فيه مجد الدين ، فعلم عز الدين فعفا عنه ، وتركه محبوساً .

وهذه رذيلة كانت فى البيت الساجوقى طهّر الله البيت الأيوبى منها ، فإن البيت السلجوقى كان إذا ظفر واحد منهم بأخيه أو ابن عمه أعدمه ، وأحسن أحواله أن يعتقله [حتى يموت].(١)

وكان بنو أيوب يتحاربون ، وتجرى بينهم العداوة الشديدة ، ثم يجتمع بعضهم ببعض ، وربما صعد بعضهم إلى قلاع بعض ، ثم يفارقه بعد المقام عنده على حال جميلة ، (٢ والعداوة والمنافرة باقية بحالها٢) :

وفى هذه السنة وثب بعض الباطنية على ابن الابرنس — صاحب أنطاكية — فقتله ، وكان عمره ثمانى عشرة سنة ، فحزن عليه أبوه حزناً شديداً ، وأعظمت الفرنج ذلك وخافوا واحترزوا لأنفسهم .

وفى هذه السنة حصل عند الملك الظاهر استشعار من عمه الملك العادل لشىء بلغه عنه ، وأخذ فى الاستخدام والاستعداد ، ثم بعث القاضى نجم الدين بن الحجاج

---

(١) مابين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) هذه الجملة غير موجودة فى (س) .

نائب القاضى بهاء الدين بحلب إلى الملك العادل لإصلاح الحال ، فانصلحت الحال .

وورد من جهة الملك العادل ما طاب به قلب الملك الظاهر وزال استشعاره ، فبعث الملك الظاهر إلى عمه هدية سنية من جملتها خمسون رأساً من الخيل .

وفى رمضان من هذه السنة توفى فارس الدين ميمون القصرى ، وهو آخر من بقى من كبار الأمراء الصلاحية ، وكانت وفاته بحلب ، وعتق فى الليلة التى مات فيها ثمانين مملوكا ، وزوّجهم [بثمانين جارية أيضاً][1] وخلّف أموالا كثيرة .

ذكر ولادة

الملك العزيز بن الملك الظاهر

(١٦١ ا) وفى يوم الخميس خامس ذى الحجة من هذه السنة ولد للملك الظاهر من ابنة عمه ضيفة خاتون بنت الملك العادل الملك العزيز غياث الدين محمد .

وزُينت حلب ، واحتفل الملك الظاهر لمولده[2] احتفالا عظيما ، من ذلك أنه أمر بإحضار شىء كثير من الفضة والذهب ، وأمر الصوّاغ أن لا يتركوا شكلا ولا صورة من سائر الصور إلا ويصوغون مثلها ، فصاغوا من ذلك ما وزن بالقناطير ، وصاغوا عشرة مهود من الذهب والفضة سوى ما عمل من الأبنوس والعود والصندل وغير ذلك .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن(س).
(٢) الأصل : « لولده » ، والتصحيح عن(ك).

ونسج للمولود ثلاث فَرَجِيَّات[١] من اللؤلؤ ، فى كل واحدة منهـا أربعون حبة من الياقوت والبَلَخْش[٢] والزمرد ، [٣]ودرعان وخوذتان و بَرْكُ أصْطُوان[٤] من اللؤلؤ ، وثلاث سروج مجوهرة ، فى كل واحد منها عدة من الياقوت والزمرد[٣] وثلاث سيوف غلفها وقبضاتها ذهب مرصع بأنواع الجوهر[٥] ورماح ذهب أسنتها جوهر منظوم .

وفى هذه الأيام خَتَنَ الملك الظاهر ولده [٦]الملك الصالح[٦] صلاح الدين أحمد ، وعمره يومئذ تسع سنين .

وفى ولادة الملك العزيز وختان أخيه الملك الصالح يقول شرفُ الدين راجح الحِلِّى قصيدة مطلعها :

نَعَمْ جادتْ الدنيا بمـا أنت آملُه   فَحَسْبُكَ مِنْ آمالهـا ما تُقابِلُه
إذا ما هَناء قال قومٌ : قد انقضت   أواخره كرَّت[٧] عليـه أوائله

---

(١) فرجية (ج : فرجيات) عرفها (Dozy : *Dict. Detaillé des Noms des Vétements* P. 327 - 334 ; *Supp. Dict .Arab*) بأنها نوع من القباء المترسل ، ويصنع غالبا اليوم من الجوخ ، وله أكمام واسعة طويلة تتعدى أطراف الأصابع ، وهى غير مفتوحة أو مشقوقة .

(٢) جوهر أحمر شفاف يضاهى فائق الياقوت فى اللون والرونق ، سمى هـكذا نسبة إلى مواطنه « بلخشان » حيث يكثر وجوده ، وأهل إيران يسمونه « بذخشان » ، وهو إقليم يقع فى أقصى شرق أفغانستان . أنظر : (ابن الأكفانى : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، ص ٦٣) .

(٣) هذه الجملة غير موجودة فى (س)

(٤) برك اسطوان ، أوبركستوان غاشية الحصان أو الفيل المزركشة . انظر تعليقات الدكتور زيادة على كتاب (السلوك ، ج ١ ص ١٧٧ هامش ٥) .

(٥) (ك) : « الجواهر » .

(٦) هذان اللفظان ساقطان من (ك) و (س) .

(٧) (س) : «دهفت» .

فيا حبذا دهرٌ بملكك أشرقتْ . على أهـــله أسحاره وأصائله
فلسنا نرى إلا نعياً يُديمـــه صنيعك فينا ، أو سرور يواصله

ومنها :

فلله مولودٌ أنار به الهــــدى وَأَسْفَرَ وَجْهُ الْمُلْكِ واشتد كاهلُه
تباشرت الدنيـا بغُرّةِ وَجْهِهِ فبُورك مِنْ نَجْلٍ و بورك ناجلُه
أتى ومُحيًّا الدهر أَزْهَرُ مشرقٌ لطلعته ، والزَّهْرُ تزهو خمائلُه
فَبُشْرى لأبكارِ البلاد ، فإنها على ثقةٍ عمـــا قليلٍ تواصله
كأنى به والجيشُ خَلْفَ لوائه وقد حَجَبَتْ شمسَ النهارِ قساطلُه
(٦١ب)سيملؤها قِسْطًا وعَدْلاً كفاحه وتــكلؤها أرماحُه ومَنَاصِلُه
وتُحْمَدُ منه سيرةٌ ظاهريةٌ بها تشملُ الآفاقَ طُرًّا شمائلُه
عليه خلالٌ مِنْ أبيه وجدِّه تدلُّ على أن البلادَ مَعَاقِلُه

ومنها فى طهور الملك الصالح :

ورثتَ خليلَ اللهِ منصبَه الذى سما ، والنجومُ الزاهراتُ تطاولُه
فأحييتَ بالتَطَهير سُنَّةً ، وكم تَبِعْتَ نبيًّا فى الذى هو فاعلُه
فَدُمْ يا غياثَ الدين للخلقِ رحمةً تَعُمُّهم كالغَيْثِ طبَّق وابلُه

ودخلت سنة إحدى عشرة[1] وستمائة :

والممالك على ما كانت عليه

وفى صفر منها وصل إلى حلب الملك المنصور محمد بن الملك العزيز عثمان ؛ وهو الذى كان له الملك بعد أبيه بالديار المصرية ، وكان عمُّه الملك الأفضل أتابكه ، ثم صار الملك العادل — لما كسر الملك الأفضل أتابكه .

وقد ذكرنا أن الملك العادل خلعه من الملك واستقل بالمملكة ، وأنه سيَّره إلى الشرق مع أخوته ، فوصلوا فى هذه السنة إلى حلب ، فأقاموا عند عمهم الملك الظاهر مكرمين بها .

وفى هذه السنة اجتمعت الفرنج من جزيرة قبرص واطرابلس وعكا وأنطاكية ، وانضم إليهم عسكر ابن لاون — ملك الأرمن — ، وكان تزوَّج ابنة صاحب عكا ، ونزلوا[2] ببقعة حصن الأكراد ، فخافهم الملك المنصور — صاحب حماة — والملك المجاهد — صاحب حمص — فراسل الملكُ المنصورُ الملكَ الظاهرَ فى ذلك ، فأرسل الملكُ الظاهرُ إلى الفرنج فى أن لا يتعرضوا لحماة ، فلما وصلت رسالته إليهم بذلك أجابوا إليه ، ورضوا من الملك المنصور بسَبْيٍ[3] حمله إليهم واصطلحوا معه .

(١) الأصل : « عشر » .
(٢) هذه الكلمة ساقطة من (س) .
(٣) (س) : « بشىء » .

ذكر منازلة

الفرنج الخـــوابى ثم رحيلهم عنها

وقصدت الفرنج فى هذه السنة بلاد الباطنية ، ونازلوا من قلاعهم الخوابى ، وحاصروها حصاراً شديداً ، وكانوا حانقين عليهم بسبب قتلهم ابن الإبرنس (١٦٢) — صاحب أنطاكية — .

ولما بلغ الملك الظاهر ذلك خرج من حلب فى عساكره متوجهاً إلى بلاد الإسماعيلية ليدفع عنهم الفرنج .

ولما بلغ ذلك الفرنج رحلوا عن الخوابى فتنفس خناق من كان فيه .

ونزل الملك الظاهر بصَلدىّ ، وبعث نجدة إلى الخوابى ، فصعدت إليه ، وأنفذ إلى الحصن إقامة كثيرة وميرة ، و بعث إلى الفرنج يعلمهم أنه لا يمكنهم من الإسماعيلية ، فرحلوا إلى أنطاكية .

وفى هـذه السنة توفى الأمير بدر الدين دلدرم بن ياروق — صاحب تل باشر — وعُمل عزاؤه بحلب ، وولى تل باشر بعده ولده فتح الدين .

وفى رمضان من هذه السنة توفى الشيخ تقى الدين على بن أبى بكر الهَرَوى ، وكان أثيرا عند الملك الظاهر ، وأقام عند الملك المنصور — صاحب حماة — مدة وله التربة المعروفة شمالى حلب[1] .

---

(١) بعد هذا اللفظ فى نسخة س (ص ١٧٣ أ) جملة)وأبيات من الشعر آثرنا إثباتها هنا إتماما للفائدة : « ولما أراد أن يموت (كذا) أمر فكتب على حائط التربة هذه الأبيات يقول.

قل لمن يغتر بالدنيــا لقد طال عناه
هــذه تربة من شيد هذا وبناه
طالما أتعبه الحرص وقد هد قــواه
طلب الراحة فى الدنيا فما نال مناه »

وكان عارفاً بأنواع الحيل والشعبذة ، وله أسفار[١] كثيرة ، وتغرَّب فى البلاد ، وكان قصد بغداد ، وصنَّف خطباً يخطب بها فى الجمع والأعياد ، وقدَّمها للخليفة الناصر لدين الله ، فتقدَّم الخليفة بتوقيع له بالحسبة فى سائر بلاد الإسلام[٢] ، وإحياء ما شاء من الموات ، والخطابة بجامع حلب .

وكان هذا التوقيع بيده[٣] ليتشرف به ، ولم يباشر شيئاً من ذلك .

وفى هـذه السنة ظفر عز الدين كيكاوس — صاحب بلاد الروم — بملك الروم المعروف باللَّشكرى[٤] ، وهو قاتل أبيه غياث الدين كيخسرو .

وذلك أن اللشكرى خرج إلى الصيد ، وانفرد عن أصحابه فعارضه قوم من التركمان وهم لا يعرفونه ، وأرادوا أخذ سلاحه وفرسه و إطلاقه ، فخاف القتل وعرَّفهم بنفسه ، وضمن لهم مالا ، فاختطفوه[٥] ، وحملوه إلى السلطان عز الدين ، فأعطى التركمان مالاً جزيلاً ، وعزم على قتله ، فضمن له أموالاً جزيلة ، وتسليم قلاع و بلاد ، فتسلَّم منه بلاداً لم يملكها المسلمون قبل ذلك قط .

---

(١) الأصل : « أشعارى » ، والتصحيح عن (ك) و(س) .

(٢) (س) : « الشام » .

(٣) (ك) : بيد الإمام الناصر » .

(٤) كذا فى الأصل ، وفى (ك) : « بالأشكرى » . وفى (س) : « بالشكرى » وهو لقب أطلقه المؤرخون العرب أول الأمر على « *Theodore Lascaris I* » امبراطور الدولة البيزنطية فى نيقية بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية ، ثم غلب اسم الأشكرى بعد ذلك على كل أباطرة بيزنطة . انظر الحاشية الطويلة التى كتبها عن هذا الموضوع الدكتور زيادة فى تعليقاته على كتاب (السلوك ، ج ١ ، ص ١٧٩ ، هامش ٢ .

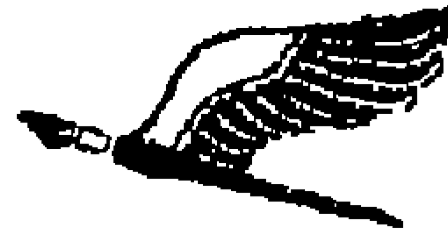
(٥) الأصل : « فاحتفظوه » ، والتصحيح عن (س) .

ذكر رحيل

الملك العادل إلى الديار المصرية

ورحل الملك العادل فى هذه السنة إلى الديار المصرية ، بعد أن رتَّب أمر الشام والشرق .

ووصل إلى مصر ، واستقر بدار الوزارة (٦٢ ب) .



ودخلت سنة اثنتى عشر[1] وستمائة :

والممالك على ما كانت [عليه][2] فى السنة الماضية .

ذكر استيلاء

الملك المسعود بن الملك الكامل على اليمن

قد ذكرنا استيلاء سليمان شـــاه بن سعد الدين بن تقى الدين على اليمن ، وما أحدثه فيها من الجور والظلم ، وأنه أطّرح زوجته التى ملـكّته البلاد .

فلما كانت هذه السنة بعث الملكُ الـكاملُ ولَده الملكَ المسعودَ صلاح الدين يوسف المعروف بالأَقْسِيس[3] ، و بعث معه جيشاً كثيفاً .

فمضى إلى اليمن ، واستولى على معاقله ، وظفر بسليمان شاه و بعثه تحت الحوطة إلى مصر ، فأجرى له الملك الـكامل ما يقوم به .

ولم يزل مقيما بالقـاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائة ، فخرج إلى المنصورة غازياً ، فقتل شهيداً — رحمه الله — [وأما زوجته ملك فإنها مكانها مكرمة عند الملك الـكامل فى غاية الاكرام والحرمة الوافرة][4] .

---

(١) (ك) : « اثنى عشر » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك).

(٣) صحةهذا الاسم « أطسيس » ؛ وقد شرحه (ابن خلـكان : الوفيات ؛ ج٤ ص١٧٠) بقوله : « هي كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم ؛ ويقال : إنمـا سمي بذلك لأن الملك الـكامل ما كان يعيش له ولد ؛ فلما ولد له المسعود قال بعض الحاضرين فى مجلسه من الأتراك : فى بلادنا إذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه أطسيس ، فسماه أطسيس ؛ والناس يقولون أقسيس بالقاف وصوابه بالطاء » .

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

وفى هذه السنة وصل رسول الخليفة الناصر لدين الله إلى الشام ومصر ، وفى يده كتابٌ ألفه الخليفة ، وسمَّاه : « روح العارفين » ، يشتمل على أحاديث نبوية يرويها الخليفة بأسانيد عالية ، وأمر أن يُسمع بالسند عن الخليفة ، فسمع فى البلاد كلها .

ولما وصل هذا الرسول إلى حلب قعد فى شرقية الجامع ، وأحضرت آلات الذهب والفضة التى تصلح للبخور والطيب ، وحضر القاضى بهاء الدين بن شداد والأكابر ، وحضر الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر ، وقرئ الكتاب ، فسمعه الجماعة ، وكتبت أسماؤهم ، [وقرئ أيضاً على الملك الظاهر بجامع قلعة حلب][1] .

قلت[2] : سمعتُ أنا هذا الكتاب من رجلٍ من أهل شيزر[3] ، قدم علينا من العراق ، وذكر أن له به إجازة من الخليفة ، فرويتُه عنه فى سنة ثمان عشرة وستمائة وعمرى إذ ذاك أربع عشرة سنة ، فإن مولدى ثانى شوال سنة أربع وستمائة[4] .

وفى هـذه السنة قتل الملك الظاهر محمود بن الشكرى خنقاً ، وهو الذى وجد عنده مملوك الملك الظاهر لما كان هو وأخوه الملك الأفضل محاصرين دمشق ،

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) مكان هذا اللفظ فى (س) : « قال القاضى جمال الدين بن واصل قاضى قضاة حماة وأعمالها صاحب هذا التاريخ » .

(٣) (س) : « من أهل شيراز » .

(٤) هذا نص هام يحدد فيه ابن واصل مؤلف هذا الكتاب تاريخ مولده تحديدا واضحا لا لبس فيه ولا إبهام ، فهو يذكر اليوم والشهر والسنة ، وهو هنا يذكر كذلك أنه روى كتاب « روح العارفين » الذى ألفه الخليفة الناصر ، عن رجل من شيزر له بالكتاب إجازة من الخليفة ، وكان عمر ابن واصل حين روى هذا الكتاب أربع عشرة سنة .

وكان (١٠٦٣) هذا أحد أسباب الفساد بين الأخوين حتى رحلا عن دمشق .

وفى هـذه السنة قتلت الباطنية أخاً للملـكة صاحبة عكا ، وكان قد خرج من البحر فى عالمٍ [عظيم][1] لا يُحصى من الفرنج لنصرة صاحب أنطاكية ، ونازلت الفرنج الخوابى ، وجدُّوا فى حصاره وقتال أهله ، وقاتلتهم رجَّالة الحلبيين الذين بعثهم الملك الظاهر نجدة لأهل الخوابى .

ذكر وفاة

أبى الحسن على

ولد الخليفة الناصر لدين الله

وفى العشرين من ذى القعدة من هذه السنة توفى الأمير أبو الحسن علىّ بن الخليفة الناصر لدين الله .

وكان الخليفة يحبه حباً شديداً ، وقد رشحه لولاية العهد من بعده ، وخلع لذلك أخاه عدة[2] الدين أبا نصر محمداً ، وهو أكبر من علىّ هذا .

وكان — رحمه الله — كثير الصدقة ، كريماً ، كثير المعروف ، حسن السيرة، محبوباً عند الخواص والعوام ، وكان مرضه الإسهال ؛ فحزن عليه الخليفة حزناً لم يسمع بمثله .

ولما توفى أخرج نهاراً ، ومشى جميع الناس بين يدى تابوته إلى تربة جدته [الخيزران][3] ، وهى عند قبر معروف الكرخى[4] — رحمه الله — فدُفن

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .

(٢) (ك) : « علا الدين » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٤) هذا تحديد هام لموضع قبر الخيزران .

هناك ، ولما دخل التابوت[1] أغلقت الأبواب وسمع الناس الصراخ العظيم من داخل التربة ، فيقال إن ذلك كان صوت الخليفة .

ودامت عليه المناحات فى أقطار بغـداد ليلا ونهاراً أياماً ، فلم يبق فى بغداد محلة إلا وفيها النوح ، ولم تبق امرأة إلا وأظهرت الحزن [الشديد][2] ولم يُسمع ببغداد مثل ذلك فى قديم الزمان ولا حديثه .

ولما سمعت الملوك بموته جلسوا فى العزاء له لابسين شعار الحزن خدمة للخليفة ، ورثته الشعراء فأكثروا ؛ فمن رثاه شرف الدين بن راجح بن اسماعيل الحلّى عند ما عمل الملك الظاهر غازى ـ صاحب حلب ـ عزاءه بقصيدة مطلعها :

أَ كَذَا يَهُدُّ الدهرُ أطوادَ الهُدى ... و يردُّ بالنـكباتِ شاردةَ الرَّدَى ؟ !

(٦٣ ب)

أَ كَذَا تغيبُ النيّراتُ وَينطَفِى ... ما كان من أنوارها مُتوَقِّدَا ؟ !

ياللرجال لِنـكْبـةٍ نَبَوِيةٍ ... طَوَتْ العلى قلباً عليها مُـكْمَدَا

ولخطـةٍ شنعاءَ لاحظها الهُدَى ... دامى الجفونِ فَغَضَّ جَفْناً أَرْمَدَا

لو كنتَ بالشهباءِ يومَ تواترتْ ... أنباؤها لرَأَيْتَ يوماً أسـودا

يوماً تزاحمت الملائـكةُ العُـلَى ... فيه فَعزَّتْ عن عليٍّ أحْمَدَا

قصـدتْ أميرَ المؤمنين رزيّةٌ ... عاداتُ وَقْعِ سِهامِها أن تقصدا

هى ضَعْضَتْ شُمَّ الجبالِ وأخضعتْ ... مَنْ لم يكُن لِمَذَلَّةٍ متعوِّدا

شَنَّتْ على حَرَمِ الخليفةِ[3] غارةً ... شعواءَ غادرت الفخار مطرَّدا

فسقى أبا حَسَنٍ ثراكَ صَنَائعٌ ... لك ليس تَبْرَحُ غادياتٍ عُوَّدَا

---

(١) (س) : « ولما أدخل التابوت إلى التربة » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .

(٣) (ك) : « الخلافة » .

ومنها :

ما للإمامةِ أصبحتْ مفجوعةً بأعزِّها حَسَباً وأزكى مَحْتِدَا
دَرَتِ[1] الخلافة عِلْمَ يَوْمِ مُصَابِهِ فلأجله اتخذوا الشعارَ الأسودا
صَلَّتْ ملائكةُ السماءِ عليه من آفاقها فِرَقًا ، وظَلَّتْ سُجَّدا
جُلِيَتْ له حُورُ الجِنَانِ وجُلِّيَتْ قَبْلَ التلاقى لؤلؤاً وزَبَرْجَدَا

ومنها :

صَبْرًا أميرَ المؤمنين ، فلم تزل فى كل حادثةٍ بصبرك يُقْتَدى
وامنح غِيَاثَ الدين صَبْرًا منك لو أرشدته يوماً إليه لاهتدى
فهو الضعيفُ إذا تُلِمّ ملمةٌ بكمُ وما زال القوىَّ تَجَلُّدَا[2]
واسلم ، فلا سعتْ الليالى بعدها أبدًا ، إليك بما يُسِرّ به العدى

ورثاه القاضى كمال الدين بن النبيه المصرى لما عمل الملك الأشرف ابن الملك العادل عزاءه بقصيدة مطلعها :

النـاسُ للموْتِ كَخَيْلِ الطِرَاد فالسابقُ السابقُ منهـا الجواد
واللهُ لا يدعـو إلى دارِه إلا مَنْ استَصْلَحَ من ذَا العباد
والمـوتُ نَقَّادٌ على كَفِّهِ جواهرٌ يختَارُ منهـا الجياد
(١٦٤ ا)
والمـرءُ كالظِّلِ ، ولابدَّ أن يزولَ ذاكَ الظلُّ بعد امتداد
لا تَصْـلُحُ الأرواحُ إلا إذا سرى إلى الأجسادِ هذا الفسـاد

(١) (س) : « ثوب » .
(٢) (ك) : « مخلدا » و (س) : « مجلدا » .

أرغمتَ ياموت أُنوفَ القَنَا ودُسْتَ أعناقَ السيوفِ الحداد
كيــــف تَخَرَّمْتَ عليًّا وما أنجده كلُّ طويلِ النِجَــــاد
نَجْلُ أمـــيرِ المؤمنينِ الذى مِنْ خَوْفِهِ يَرعَــدُ قلبُ الجماد
مصيبةٌ أذكتْ قــلوبَ الورى كأنها فى كل قَلْبٍ زناد
نازلةٌ حلَّتْ ، فمِن أجلها سَنَّ بنو العباس لُبْسَ الحِداد

ومنها :

خليفةَ اللهِ اصْطَبِرْ واحْتَسِب فمـا وهَى البيتُ وأنت العماد
بالحـلْمِ والعــلْمِ بكم يُقْتَدَى إذا دجا الخطْبُ وضَلَّ الرَّشَاد
أنت سمـــاءٌ طلعتْ زُهْرُهــا لا ينقصُ الآفلُ منها عــداد
وأنت لُجُّ البحــرِ ، مَاضَرَّهُ أن سال مِنْ بَعْضِ نواحيه واد
يا نوحُ رِثْ أعمارَنا ، واحتكم ملَّكَكَ اللهُ رقابَ العبــاد

وفى هــذه السنة صالح الفرنج أهل الخوابى ، ورحلوا عنهم بعد أن حاربوهم حرباً شديداً ، وكان المتوسط فى الصلح بينهم الملك الظاهر .

وفى رمضان من هذه السنة وصل إلى حلب الشيخُ شهاب الدين السهروردى — رحمه الله — رسولاً من الخليفة الناصر لدين الله إلى الملك الظاهر ، ومعه تشريفٌ جليلٌ : فرجية فرو سمور مغشاة بثوب [أطلس][1] أسود ، وسيف محلى ، وأسمع [عن][2] الخليفةُ كتاب « روح العارفين » المشتمل على الأحاديث

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .
(٢) أضفنا ما بين الحاصرتين ليستقيم المعنى .

النبوية الذى تقدم ذكره ، وجلس الملك الظاهر وأكابر دولته . بين يدى الشيخ شهاب الدين ، وكان كلما جرى ذكر الخليفة قام الملك الظاهر على رجليه .

وبعد سماع الأحاديث [(1)] التى هى تخريج الخليفة [(1)] ، نصب لشهاب الدين كرسى الوعظ ، وأذن للعامة فى الدخول لسماع وعظه .

وفى هـذه السنة ملك الفرنج أنطاكية من بلاد السلطان عز الدين كيكاوس — صاحب بلاد الروم — وقتلوا مَنْ بها من المسلمين ، ثم استعادها (٦٤ ب) منهم عز الدين فى هذه السنة .

وفى شـوال من هذه السنة ملك ابن لاون — ملك الأرمن — أنطاكية ، وأحسن إلى أهلها ، وأظهر فيها العدل ، وكان الابرنس صاحبها ظالماً ، فحسن موقع ابن لاون من [(2)] أهل أنطاكية ، وأطلق جماعة من أسرى المسلمين بها ، وحملهم [إلى حلب] [(3)] ، ووقع الصلح بينه وبين الملك الظاهر .

وفى هـذه السنة فتح عز الدين صاحب الروم قلعةً من بلاد الأرمن منيعة تسمى لؤلؤة .

فسلَّم ابن لاون بغراس إلى الداوية ، واستناب ابن أخته بأنطاكية ، وعاد إلى بلاده ، خوفاً من عز الدين كيكاوس .

ووصلت إلى الملك الظاهر هديةُ عز الدين ، والبشارةُ بعودة أنطاكية إلى المسلمين .

---

(١) هذه الفقرة غير موجودة فى (س) .

(٢) (س) : « عند » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

ودخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة :

والسلطان الملك العادل [مقيم][1] بالديار المصرية والممالك على حالها .

وفى المحرم من هذه السنة وردت رسالة عز الدين كيكاوس إلى الملك الظاهر يطلب منه الاجتماع معه على مرعش بجيشه ليتفقا على قصد ابن لاون — ملك الأرمن — ويستخلصا أنطاكية منه .

فأجاب الملك الظاهر إلى حرب ابن لاون ، على أن يدخل عز الدين إلى بلاد ابن لاون من جهة مرعش ، ويدخل الملك الظاهر من جهة دربساك[2] ويقصد الابرنس أنطاكية ، ومعه عسكر دمشق وحماة وحمص ، ليضيِّق المسالك على ابن لاون .

وأخذ الملك الظاهر فى جمع الرجال وبذل الأموال ، وبعث إلى عز الدين فى جواب الرسالة إليه عبد الرحمن المنجى ، فأدّى الرسالة ، وحرّف فيها ، وزاد فيها شروطاً تضر الملك الظاهر ، وتوافق[3] عز الدين لعدم كفايته .

فسيَّر الملك الظاهر إلى الملك العادل يستشيره فى ذلك فهجَّن عليه الملكُ العادلُ رأيه ، وأشار إليه بأن لا يجتمع إليه أصلا ، وعرّفه ما فى ذلك من المفاسد .

فوقع الملك الظاهر فى حيرة عظيمة ، بين أن يغدر بما وعد به عز الدين ، وبين أن يخالف عمَّه الملك العادل .

وترددت الرسلُ من عز الدين مستحثة على سرعة الحركة .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .
(٢) الأصل : « دربسال » ، والتصحيح عن (ك) و (س) .
(٣) (ك) و (س) : « فوافق » .

ووصل رسول ابن لاون إلى الملك الظاهر برسالة مضمونها :

إنى مملوك السلطان ، (١٦٥) وغرس دولته[(١)] ، وقد دخلتُ عليه دخول العرب ، وأطلب منه إنقاذى من هذه الورطة ، وأكون مملوكه ما عشتُ ، وقد حفظت بلادَ السلطان غير مرة ، وخدمته ، منها : « أن السلطان لما حاصر دمشق المرة الأولى و بقيت البلاد شاغرة من العساكر ، ما شغلتُ قلبه ولا آذيتُ بلده ، بل ساعدته وعاونته بمالى ورجالى[(٢)] ، وكذلك لما حاصر دمشق المرة الثانية ، وقد بُذلتْ لى الأموال كلها لأشغل قلبه و يفتر عن الحصار فلم أفعل .

وإن كان الإبرنس قد خدم السلطان ، فخدمتى أكثر من خدمته ، [(٣)]وسوف يبصر السلطان خدمتى ، وملازمتى بابه الشريف ، وقد أوصيتُ ابن أختى الذى نصبتهُ بأنطاكية بملازمة خدمته »[(٣)] .

و بعث ابن لاون مع هذه الرسالة هديةً عظيمةً فاخرة ، فمال الملك الظاهر إلى قوله ،و بقى متردداً .

ثم ورد قاضى أقصرا ، وهو قاضى عسكر عز الدين ، رسولا منه إلى الملك الظاهر يحثُّه على الحركة ، و بينما هو عنده إذ ورد على الملك الظاهر مَنْ أخبره أن عسكر عز الدين بمرعش أغاروا على البلاط من بلد حلب ، وقتلوا جماعة من الأرمن الذين به ، وأسروا جماعة .

فعظم ذلك على الملك الظاهر ، وقوى عنده الرأى الذى أشار به عمُّه الملك

---

(١) (ك) و (س) : « نعمته » .

(٢) (ك) : « وحالى » .

(٣) هذه الجملة غير موجودة فى (س) .

العادل ، وقال للرسول : « أول الدية دُرْدى »[1] ؟! العجب أنكم تطالبون منا المعاونة وتخربون بلادنا » .

فاعتذر الرسول بأنه وُجد بالبلاط قِسِيّ مما غنمه ابن لاون من بلاد الروم لما أغار عليها ، فعلم بذلك أن أهل البلاط[2] كانوا معاونين لابن لاون على نهب بلاد المسلمين ، والذى كشف هذه الحال قومٌ من التركمان ، فلذلك أمر السلطانُ عزُّ الدين نُصْرَةَ الدين — صاحب مرعش — أن ينهب البلاد مجازاة لهم .

فأعرض الملك الظاهر عن الحركة لنصرة عز الدين ورجع عن عزمه الأول .

ذكر توجه

القاضى بهاء الدين [بن شداد][3] إلى مصر

لتقرير قواعد الملك الظاهر

وفى هذه السنة سيَّر الملكُ الظاهرُ القاضى بهاءَ الدين بن شداد — رحمه الله — (٦٥ ب) إلى السلطان الملك العادل ، وكان قبل ذلك قد أرسل[4] القاضى نجم الدين بن الحجاج — نائب القاضى بهاء الدين فى الحكم بحلب — ، فوجد من الملك العادل قبولا عظيما ، وطيّب قلبَ الملك الظاهر ، و بسط أمله .

فأنفذ الملك الظاهر القاضى بهاء الدين شاكراً لإنعامه وطلب منه أموراً ثلاثة :

---

(١) الدردى (ج : دراديّ) هوالـم ، انظر (Dozy : *Sup. Dict. Arab.*)

(٢) (س) : « فعلم بذلك بمر أهل البلاط وأنهم معاونون لابن لاون .. الخ

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .

(٤) (ك) : « سيَّـد » .

أحدها : أن يكون الملك العزيز محمد ولدُه وليّ عهد أبيه وقائماً بمُلْك حلب وبلادها بعده .

وثانيها : أن يزوّج الملك العزيز إبنة الملك الكامل .

وثالثها : أن يكون صُلْح الملك الظاهر وصُلْح الملك العادل مع الفرنج واحداً ، وفكسهما(١) معهم واحداً .

قال القاضي بهاء الدين — رحمه الله — :

« فتوجهت إلى الديار المصرية ، فأنهيت إلى السلطان الملك العادل هذه الفصول ، فأجاب إلى تولية الملك العزيز عهد أبيه ، وإلى الموافقة فى الصلح والفكس مع الفرنج ، وأما فصل التزويج فقال : هذا لا يتعلق بى ، فاجتمع بالملك الكامل وتحدث معه فيه » .

قال : « فاجتمعت بالسلطان الملك الكامل ، وخاطبته فيه فأجابنى إليه ، وأخذت يده على ذلك » .

ذكر وفاة

الملك الظاهر — صاحب حلب رحمه الله —

ولما كانت صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة ابتدأت بالملك الظاهر حمى حادّة ، فتجلّد فى ذلك اليوم ، وركب ، ثم نزل ، ولم يعد إلى الركوب .

---

(١) كذا فى الأصل وفى (ك) ، وفى (س) : « مسكهما » ، هذا ولم يجد الناشر تفسيرا لهذا اللفظ فى المعاجم العربية المعروفة ، ولعل معناها « نسكثهما » .

وفى الغد جلس ، ودخل إليه أخوه الملك المحسن ، وجماعة من الأكابر لعيادته ، وفرحوا بمشاهدته .

وفى التاسع والعشرين من هذا الشهر ، وهو خامس يوم من مرضه اشتدت به الحمى ، وحُقن وخيف عليه .

وفى اليوم السابع عشر من مرضه أحضر القاضى نجم الدين — نائب القاضى بهاء الدين — ، وكان القاضى بهاء الدين كما ذكرنا قد توجه من الرسالة إلى مصر ؛ فكُتبت نسختا يمين[1] مضمونهما :

أن المُلْك يكون بعد الملك الظاهر لولده الملك العزيز محمد ، وبعده للملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن الملك العزيز عثمان .

وأن الأمير شهاب الدين طُغْريل الخادم يكون مرتباً بالقلعة ؛ والأمير سيف الدين على (١٦٦ ا) بن عَلَم الدين سليمان بن حيدر يكون أتابك العسكر .

وحلف الأمراء وأكابر الحلبيين بمقتضى النسختين .

[[2]وأن يبعث نسخة للملك العادل ، وتبقى الأخرى بيد أتابك شهاب الدين طغريل الخادم][2] .

وفى هذا اليوم أمر الملك الظاهر أن يزوج ابنته من ابن أخيه الملك المنصور ابن الملك العزيز ، وعُقد النكاح بحضوره .

وأحضر الرئيسَ جمالَ الدين علىّ بن صفىّ الدين أبى القسم بن الطريرة ، وخلع عليه ، وقُلِّد الرياسة بحلب ، وكانت لأبيه قبله .

(١) (ك)و(س) : «نسختين» ، وفى الأصل : « نسخة » ، وقد صححت لتتفق وسياق الكلام.

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) ، وهى زيادة لها أهميتها .

وأحضر شهابَ الدين طُغْريل ، وسلَّم إليه مفاتيح الخزائن ، وجعل له الحكم فى جميع القلاع ، وغدق به جميع أمور الدولة ، وسلَّم إليه (١مدرجاً بخطه فيه١) جميعُ ما يعتمده .

وبعث الملكُ الظاهرُ فى هذا اليوم لكل واحد من إخوته خمسة آلاف دينار(٢) ، وأعتق جماعةً من مماليكه .

وخرج أمر الأتابك فى هذا اليوم بنفى القينات وأهل الفساد .

وحُمل إلى الملك المنصور بن العزيز عشرون ألف درهم .

واستحلف العامة بالجامع .

ثم أعتق الملكُ الظاهرُ مائةَ مملوكٍ ، ومائة جاريةٍ [وزوَّج بعضهم لبعض](٣) وأسقط كثيراً من المكوس .

ثم أنزل المماليك [والجوارى](٣) الذين أُعتقوا (٤إلى البلد ، وجمعوا بدار العدل ، وأقيم عليهم الحَفَظَةُ والحرّاسُ ، فخرجوا إلى ظاهر باب العراق ، ونهبوا مَنْ عارضهم من العامة٤) ، فوقع الإرجاف ، وغُلِّقَتْ الأسواق .

واجتمعت العامة تحت القلعة ، وأشير على الرئيس جمال الدين بالنزول إلى الجامع وتسكين الناس ، وأن يجعل مبيته فى الجامع خوفاً من طريان فتنة ، وأصعد جماعةً من المفاردة(٥) إلى القلعة ليبيتوا بها .

وفى الثالث عشر من جمادى الآخرة أُقطع الملك الظافر خِضْر المعروف

(١) هذه الفقرة ساقطة من (ك) و (س) .
(٢) الأصل و س : « درهم » ، وما هنا عن (ك) ، وهو أقرب إلى المعقول .
(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .
(٤) (س) : « الى دور أخليت لهم فى المدينة ، وأقيم عليهم الجراية والجامكية » .
(٥) انظر ما فات بهذا الجزء . ص ٩٣ ، هامش ٥

بالمُشَمَّر كفر سوذ ، وحُمل إليه ثلاثون ألف درهم ؛ وأخرج من ليلته من حلب بالتوكيل .

وأُخرج علم الدين قيصر — مملوك الملك الظاهر — إلى حارم ، وأعطى علماً وكوساً .

وفى الخامس عشر من جمادى الآخرة ، اشتد مرض الملك الظاهر ، ومُنع الناس من الوصول إليه ، واضطرب البلد اضطراباً كثيراً[1] .

ولما أُخرج[2] الملك الظافر من حلب سار إلى كفر سوذ ، فبلغه أن أخاه الملك الزاهر مجير الدين داود — صاحب البيرة — وهو شقيق الملك الظاهر ، قد استولى على حروص ، وكفر سوذ ومرزبان ، ونهرجور ، وأخرج جميع العمال بها .

فسار الملك الظافر إلى منبج ، نخاف الأتابك (٦٦ب) شهاب الدين طُغْريل أن يبدو من الملك الظافر ضرر ، فسيرَّ إليه عسكراً فرحَّلوه عن منبج ، فسار إلى الملك الأفضل صاحب سميساط — وهو شقيقه ، فكان عنده .

وفى السادس عشر من جمادى الآخرة أُرجف بموت الملك الظاهر ، وغُلِّقَتْ الأسواق ، نخرج الأمر بتسكين العامة ، ولَّجت الأمراء فى طلب النظر إلى الملك الظاهر ، واقترح إخوته ذلك ، فأدخلوا إليه بعض الأمراء فرأوْه ، وكان آخر العهد به .

واشتد مرضه جداً ، فذُكر أنه كان يفيق فى بعض الأوقات ، ويتشهد ، ويقرأ قوله تعالى : « مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ » ، [1] ثم يقول : « اللهم بك أستجير ، وبرحمتك أثق »[1] .

---

(١) (ك) : « عظيما » .

(٢) (ك) : « خرج » .

(١) هذه الجملة ساقطة من (س) .

وفى اليوم الثامن عشر[1] من جُمادى الآخرة حجب عنه الرجال ، وتولاه الأتابك شهاب الدين طُغْريل ، وزوجته ضيفة خاتون ، بنت الملك العادل .

ثم كانت وفاته ليلة الثلاثاء العشرين[2] من جمادى الآخرة .

وكتم موته ، ولم يعلمه غير الأتابك والخاتون ، فشرع فى تجهيزه وغسله وتكفينه ، وأحضر أمان ، وحفر له قبراً فى حجرة الذهب ، ودُفن بها إلى أن نُقل بعد ذلك إلى مدرسته[3] التى بنيت له بحلب .

وكان المتولى لغسله شهاب الدين بن حرب[4] ، خطيب قلعة حلب ، وصلى عليه هو والأتابك والفقيه ابن الدل[5] ، والحاج بهاء الدين عمر بن أياز .

ووقعت فى البلد ضجة يوم الثلاثاء العشرين[6] من جمادى الآخرة صبيحة الليلة التى مات فيها ضجةٌ عظيمة ، وكادت الفتنة تقوم ، ثم سكن الناس ، ولم يزل خبر موته مكتوماً إلى آخر النهار ، فأنفذ الأتابك لما رأى سكون الناس ، فأعلم بموته بعضَ الناس ، وأمرهم بمباكرة باب القلعة ، فباكروها صبيحة يوم الأربعاء الحادى والعشرين من جمادى الآخرة[7] ، وأكثرُ الناس حضر على العادة غير عالمين بالواقعة ، فلم يشعروا إلا وقد فتح الباب ، وخرج الملك العزيز وأخوه

(١) (س) : « الثامن والعشرين » .

(٢) (س) : « التاسع والعشرين » .

(٣) ذكرها (ابن الشحنة : الدر المنتخب ، ص١١٣) ضمن المدارس الشافعية التى بظاهر حلب ، قال : « المدرسة الظاهرية أنشأها السلطان الملك الظاهر غياث الدين غازى بن يوسف بن أيوب — صاحب حلب — وانتهت عمارتها فى سنة ٦١٦ ، وأنشأ إلى جانبها تربة أرصدها ليدفن بها من يموت من الملوك والأمراء » .

(٤) (ك) و (س) : « شهاب الدين حرب » .

(٥) (ك) و (س) « ابن الذكر » .

(٦) (س) : « التاسع والعشرين » .

(٧) (س) : « الأربعاء سلخ جمادى الآخرة » .

الملك الصالح ، وعليهما السواد ، فوقع الأمراء عن خيولهم ، وكشفوا رءوسهم ، وقطعوا شعورهم ، وضجوا ضجة واحدة .

وفعل كذلك مماليكه وأهل القلعة .

وكان منظراً فظيعاً .

وكان الملك العزيز وأخوه الملك الصالح راكبيْن ، وبين يدى (٦٧ ا) الملك العزيز سيفُ الدين على بن علم الدين يحمل الغاشية .

وأقبل الأمراء وأولاد الملك الناصر صلاح الدين إلى الملك العزيز وأخيه الملك الصالح يقبلون أيديهما[1] ، ثم رجعا إلى القلعة .

وأقبل الناس على النوح والبكاء .

وكان مولد الملك الظاهر بمصر فى منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين[2] وخمسمائة ، فكان عمره أربعا وأربعين سنة وشهورا .

وكانت مدة ملكه بحلب من حين وهبها له والده السلطان الملك الناصر — رحمه الله — ثانى مرة إحدى وثلاثين سنة ، لأن ملكه لها كان فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة .

فإنا كنا ذكرنا أنه كان ملكّه لها أولا ، ثم انتزعها منه ، وملكّها لأخيه الملك العادل ، ثم انتزعها من الملك العادل وملكّه لها فى التاريخ المذكور .

---

(١) وجد بعد هذا اللفظ فى نسخة (س) جملة نصها : « والملك المنصور بن الملك العزيز راكب قدامهما » .

(٢) (س) : « وسبعين » .

ذكر سيرته

— رحمه الله —

كان [الملك الظاهر] فى أول أمره عنده بطش شديد ، وإقدام على سفك الدماء ، ثم إنه قصر عن ذلك فى آخر أيامه .

وكان حازماً ، عادلاً ، حسن السياسة ، محبوباً عند رعيته ، شهماً ، متيقظاً ، ضمَّ شمل البيت الصلاحى لما استولى عمُّه على الممالك ، وأحسن إليهم ، ولولاه كان تفرّق الشمل .

وكان محسناً إلى رعيته وأمرائه وأكابر دولته ، أيُّهُمْ مات أقام وَلَدَه — ولو كان صغيراً — مقامه ، وسلك فى ذلك مسلك والده — رحمهما الله — وسلك مثل ذلك ولدُه الملكُ العزيزُ بعده ، والملكُ الناصرُ بن الملك العزيز رحمهم الله أجمعين[1] وقدّس أرواحهم .

وكان ذكياً ، فطناً ، حسن النادرة ؛ ومما يروى فى ذلك : أن شرف الدين راجح [الحِلِّى][2] بن إسماعيل الشاعر كان عنده ليلة ينادمه ، فأخذ الملكُ الظاهرُ فى مماجنته والعبث به .

وكان الحِلِّى قد سكر ، فحرد من عبث الملك الظاهر به ، فقال متهدداً له بالهجو : « أنظمُ ؟ » .

---

(١) النص فى (س) مختلف اختلافا كبيرا ، وهو هناك : « وأنهم لما مات أقاموا ولده الملك العزيز مقامه ، وكان صغيرا ، فلما كبر سلك مسلك والده — رحمه الله — وكان الملك الظاهر قد سلك مسلك أبيه الملك الناصر صلاح الدين رحمهم الله أجمعين » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) » .

فأشار الملك الظاهر بيده إلى السيف ، وقال فى الحال : « إن نظمتَ ياحلّى ، فأنا أنثر » .

وحُكى أن الحِلِّى رأى على الملك الظاهر ليلةً فروةً أعجبته ، فقال لبعض الحاضرين : « ما تقولون فيمن يأخذها منه ؟ » .

ثم أصبح ودخل عليه ، وأنشده :

يا مَلِكَ الأرْض الذى ذِكْرُه   له مَذَاقٌ فى فمى يَعْذُبُ (٦٧ب)
ومَنْ إذا كَرّرتْ أوصافُهُ   صَحَّتْ لى السّكْرةُ والمطْرَبُ
لله هــذا السؤددُ المُعْتَلى   والحَسَبُ الوَضَّاحُ والمنصبُ
والُخلُقُ العَذْبُ الشَهِىُّ الذى   يكادُ مِنْ رِقَّتِهِ يُشْرَبُ
فِدَاكَ أملاكٌ مــواعيدهُم   بوارقٌ أَصْدَقُهــا خُلَّبُ
إنْ وعدوا مانُوا ، أو استُؤمنوا   خانوا ، وإن هُمْ سُئلوا قَطّبوا
فَدُونَهُمُ فى بُخْلِهِم ما دِرُ   ودونَ مَنْ يرجوهمُ أَشْعَبُ
رأيتُ فى بَارِحَتى بعد ما   مَضَيْتُ والصهباء بى تَلْعَبُ
والليلُ قــد أَبْهَج جلبابُه   والشُّهْبُ قد غُصَّ بها المغربُ
والنومُ مُسْتَولِ على مُقْلَتِى   مَرْآكَ من تهويمها أطيَبُ
أَنَّكَ قــد ألبستنى فَرْوَةً   ذاتَ غِشَاء رُدْنُهُ مُذْهَبُ
فقمتُ فى وقتى فصادفتها   مشرِّفاً منى بهــا المَنْكِبُ
فقلتُ : سبحان الذى خَصَّه   بمَكْرُماتٍ أصْلُها مُنْجِبُ
حتى إلى النُّوّامِ يَسْرى الندى   منه تعالى جَدُّه الأَغْلَبُ
فهــذه الرُّؤيا وتأويلُها   له بيــانٌ عنك ما يُحْجَبُ

فقال له الملك الظاهر : « أضغاثُ أحلام يا حِلِّى » .

فأجابه فى الوقت :

واللهِ ما حَدّثنى خاطرى   إلا بِظَنٍّ فيك ما يَكْذِبُ

فرمى بالفروة إليه ، وأمر له[1] بثلاثمائة درهم ثمن بقيار[2] .

وحكى أن مهذب الدين أبا المحاسن ماجد بن محمد بن القيسرانى كتب إلى الملك الظاهر أبياتاً أولها :

أما وضجيج[3] قهقهةِ القنانى   وأصوات المثالث والمثانى
لقد أضحى الشآمُ يتيهُ عُجْباً   بملْكٍ ماله فى الأرضِ ثانى

فلما وقف الملك الظاهر عليها كتب فى جوابها :

طلبنا الدُرَّ من بَحْرِ المعانى   وعَذْبَ اللفظِ من عَضْبِ اللسانِ
وهل تُجْنى ثمارُ الفَضْلِ إلا   فروع أصلُها حلوُ الجانى

(١٦٨ ا)

ولا عُجْب أن استسقيت غَيْثاً   أو[4] استسقيت منطلق العنانِ
وأنت السابق الغايات فَضْلا   إذا ما قصَّرَتْ خَيْلُ الرِّهَانِ

---

(١) (ك) : « وأعطاه ثلاثمائة درهم » .

(٢) الأصل : « مقبار » ، وقد صححت بعد مراجعة (Dozy : *Supp. Dict. Arab*) حيث عرفها بأنها نوع من العمامة الكبيرة التى كان يلبسها الوزراء والقضاة والكتاب ؛ وذكر الدكتور محمد مصطفى زيادة فى تعليقات على (السلوك ج ١ ، ص ٥٥) أنها كلمة فارسية ؛ ومن معانيها : سجاد سوداء مصنوعة من وبر الجمل ، وليس هذا المعنى هو المقصود هنا بل أصح منه منه المعنى الأول .

(٣) الأصل : « وصحيح » ، والتصحيح عن (ك) .

(٤) (ك) : « لو »

فأهـلًا ، ثم أهلًا ، ثم أهلًا بما أرسلتَ من سِحْرِ البيانِ

ولما مات الملك الظاهر عُمل العزاء له ثلاثة أيام .

وفى اليوم الثالث قام شرف الدين الحلِّى وأنشد مرثيةً فى الملك الظاهر ، مطلعها :

سَلْ الخطْبَ إنْ أَصْغَى إلى مَنْ يعاتبُه[1] بِمَنْ عَلِقَتْ أنيـابُه ومخالبُه
نشدتُك عاتبـه على نائبـاته وإن كان نابى السمْعِ عمّن يُعاتبِه

ومنها :

أرى اليومَ دَسْتَ المُلْكِ أصبحَ خاليا أما فيكُمُ من مُخْبرٍ أين صاحبُه ؟

ومنها :

فإنْ يَكُ نورٌ من شهابِكَ قد خفا فيا طالما جَلَّى دُجَى الليل ثاقبُه
وقد لاحَ بالملك العزيزِ محمـدٍ صـباحُ هُدًى كُنَّا قديماً نُراقبُه
فَتًى لم يَفُتْهُ من أبيـه وجَدِّه أبٌ ثم جَـدٌّ غالبٌ مَنْ يُغالبُه

ومنها ما يخاطب به الملك العزيز وأخاه الملك الصالح .

أيمكثُ بالشهباء عبدُ أبيكما ومادحُه أم تستقـل ركائبُه

فذكر أن الأتابك شهاب الدين لما سمع هذا البيت ، قال : قولوا له : « يرحل فلا حاجة لنا إليه ، فإنا لا نعطى الشعراء شيئاً » .

فقال الحِلِّى قصيدة مطلعها :

منع التأسّف قلبى المَتبـولا أن يستطيع إلى السُّلُو سـبيلا

---

(١) (ك) و (س) : « يخاطبه » .

ومنها :

يادَهْرُ قد أسرفتَ فيما ساءنى   عَمْدًا ، فَخَفِّفْ مِنْ أَذَاكَ قليلا
ألبستَنى ثَوْبَ الأسى ، وسلبتنى   عزًّا عدمتُ له العـزاء ذليلا
وضعفتُ من نـكباتِ صَرْفِكَ بعد ما
قد كنتُ جَـلْدًا للخطوبِ حَمُولا

(٦٨ ب)

غازى بنُ يوسفَ: لاوَحقِّكِ ما خَبَتْ   نارى ولا نَقَعَ البـكاء غليلا
أبقيتَ لى من بعد فَقْدِكِ أَنَّةً   تَفرى الضـلوعَ ورَنّةً وعويلا
يا للرجالِ لنائبـاتٍ غادرتْ   [بالغَدْر](١) سَيْفَ تصبُّرِى مَفْلولا
مالى أرى الإيوانَ أصبح بابُه   قَفْراً ، وكان جنـابُه مأهولا
فإن اكْتَسَى ذُلًّا ، فـكم قد ذُلِّلَتْ   للسـائلين قطوفُه تَذْليـلا

ومنها :

يا تاركى صِفْرَ اليديْن مكابداً   للدَّيْن ، مهجورَ الفناء ضئيلا
مَنذا أُؤَمِّلُ فى الورى لمطالبى ؟   هيهاتَ بَعْدَكَ أرتجى مَأْمُولا !
أَأَظَلُّ أنتجعُ الملوكَ مُرجِّيـاً   منهمْ كريماً تارةً وبخيـلا
حسبى حِمَى الملك العزيز ، فإننى   لا أبتغى ما عِشْتُ عنه بديلا
ملكٌ يلوح على أسِرَّةِ(٢) وَجْهِهِ   بِشْرٌ يبشِّرُ أن أَنالَ السُّولا
والصَّالحُ الملكُ المُؤَمَّلُ كافلٌ   لى خِصْبَ رَبْعى ، إن شكوتُ مُحُولا
لا خاب لى فى أحمـدٍ ومحمدٍ   أملٌ رجا أنْ يُنعما ويُنيلا

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) و (س) .
(٢) الأصل : « الأسرة » ؛ والتصحيح عن (س) .

مع أنَّ آمالى المُصرَّد شِرْبُها ... أمَّتْ فُراتاً للنـــوال ونِيلا
أمَّتْ شهابَ الدين يُنْبوعَ الجدَى ... مُرْوِى العدى، محيى الندى طُغْريلا

فلم يؤثر ذلك شيئاً عند الأتابك شهاب الدين ، وأمر بقطع ما كان للحلِّى وفارق حلب ، وسار إلى الملك الأشرف بن الملك العادل ، فحظى عنده .

ذكر تمليك(1)

الملك العزيز بن الملك الظاهر حلب

ولما رجع الملك العزيز وأخوه الملك الصالح [وابن عمهما الملك المنصور](2) إلى القلعة ، خرج أولاد الملك الناصر صلاح الدين ، وأكابر الدولة ، رجّالة إلى دار العدل ، ووصل فى ذلك الوقت القاضى بهاء الدين بن شداد — رحمه الله — فحضر مع الجماعة ، وأخذوا فى قراءة القرآن .

فقال القاضى بهاء الدين : « نحن إلى الاشتغال بغير العزاء أحوج » فصرف الناس ، وأقبلوا على المشورة (١٦٩) وترتيب الأمور .

قال القاضى بهاء الدين — رحمه الله — :

« لما انصرفتُ من مصر راجعاً إلى حلب مررت فى طريقى بنابلس وبها الملك المعظم ، واجتمعتُ به ، وذكرتُ له الفصول التى أنهيتها إلى أبيه ، وإجابته إليها ، ففرح الملك المعظم بذلك وسُرَّ به .

ثم فارقته متوجهاً إلى حلب ، فلما وصلت إلى حماة خرج إلىّ صاحبُها الملكُ

---

(١) (ك) : « تملك » .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

المنصور ، فعرّفتُه ما جرى ، فحكى إلى المنصور اشتداد مرض الملك الظاهر — رحمه الله — .

فلما وصلت إلى حلب وجدته قد مات ، فصعدتُ إلى القلعة ، وحضرت تربته[1] ، وترحمت عليه وأنشدت :

أين الوجوه أحبها   وأود لو أنى فداها ؟

ثم اجتمعت بالجماعة ، ووقع الاتفاق معهم على ترتيب الملك العزيز غياث الدين محمد فى الملك موضع والده »[2] .

وكان الوزير ابن أبى يَعْلى — وزير الملك الظاهر — مستولياً على الأمور كلها فى الأيام الظاهرية ، إلى أن وصل القاضى بهاء الدين ، فاجتمع القاضى بهاء الدين بالأتابك شهاب الدين ، وقرّر معه صَرْف الوزير عن النظر فى الأمور ، واتفق معه أن الجماعة يجتمعون ، ويتشاورون فيما يقررونه من قواعد المملكة ، وأن الأمر كله يكون معذوقاً بشهاب الدين ، فاجتمعوا بدار العدل ، واتفقت آراؤهم كلهم على أن يكون الملك المنصور بن الملك العزيز أتابك العسكر ، وأمر الإقطاع إليه ، وحلفوا على ذلك .

وركب الملك المنصور ، والأمراء كلهم فى خدمته .

ونزل الملك العزيز ، وأخوه الملك الصالح ، وجلسا فى دار العدل ،

---

(١) س : « وحضرت العزاء ».

(٢) هذا قول مروى عن المؤرخ بهاء الدين بن شداد ، والمعروف أن ابن شداد كتب كتابا واحدا فى التاريخ هو « السيرة اليوسفية » أى سيرة صلاح الدين . ولم يعرف أنه أرخ للفترة التالية لعصر صلاح الدين . وأرجح أن هذا القول رواه أحد المؤرخين الذين أرخوا لهذه الفترة ثم نقله عنه ابن واصل .

و [جلس][1] الملك العزيز فى منصب أبيه ، و إلى جانبه الملك الصالح ، وابن عمهما الملك المنصور إلى جانبهما .

ثم اضطربت الأمور ، ولم يرض أولاد الملك الناصر صلاح الدين بولاية ابن أخيهم الملك المنصور .

ووصل رسول من جهة السلطان عز الدين كيكاوس — صاحب بلاد الروم — وكان معسكراً — كما قدمنا ذكره — بالقرب من البلاد ، منتظراً وصول الملك الظاهر إليه ، فجاءهم[2] رسوله معزياً به ، ومشيراً عليهم بالاتفاق معه ، وأن يرتب الملك الأفضل بن الملك الناصر — صاحب سُمَيْساط — أتابك العسكر ، فإنه أكبر أولاد صلاح الدين ، وعم الملك العزيز ، وأولى الناس بتربيته ، وحفظ ملكه ؛ (٦٩ ب) فمال إلى هذا الرأى الأمراء المصريون ، مثل مبارز الدين يوسف بن خُطْلُخ ، ومبارز الدين سُنْقُر الحلبى ، و [جمال الدين أحمد][3] ابن أبى ذكرى ، وغيرهم ؛ وقالوا :

« هذا هو الرأى ، والملك الأفضل رجل كبير [القدر][3] ، ولا ينتظم حفظ المملكة إلا به ، و إذا رجع إليه التدبير بحلب قدر على أخذ ثأره من عمه الملك العادل ، وأخذ دمشق والديار المصرية منه » .

وأنكر القاضى بهاء الدين ، وعلم الدين بن سيف الدين ، وسيف الدين بن قلج هذا الرأى ، وقالوا :

« إن فى هذا من الخطر ما لا يخفى على عاقل ، لأن الملك العادل ملك عظيم ،

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(٢) (ك) : « فجهز » .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

صاحب الديار المصرية والشرق ، ومعظم الشام [واليمن][1] ، فإن كانت الغلبة له انتزع الملك من أيدينا ، وإن كانت الغلبة للملك الأفضل لم نأمن أن يتغلب على ابن أخيه الملك العزيز ، وينتزع الملك منه ، ويستقل به كما فعل الملك العادل بالملك المنصور بن الملك العزيز ؛ والملك العادل فقد حلف للملك الظاهر ، ولابنه الملك العزيز من بعده ، وهو ابن بنته ، وابنته بقلعة حلب ، ونحن نطالبه بالوفاء بالعهد ، وهو يذبُّ عن حلب كما يذبُّ عن غيرها من ممالكه ، وأمور الخزائن بالقلعة راجعة إلى شهاب الدين طُغْريل ، وقد رتَّبه الملك الظاهر بالقلعة ، وجعل أمرها إليه ، والرأى أن تكون الأمور جميعها مفوضة إليه » .

فاتفق رأيهم كلهم على هذا .

وعُملت نسخة يمين حلف عليها جماعة الأمراء والمقدمين بالبلد ، مضمونها :

« أن الملك يكون للملك العزيز ، وبعده لأخيه الملك الصالح [صلاح الدين][2] ، وأن القائم بتدبير المملكة الأتابك شهاب الدين طُغريل » .

ثم أبعد الوزير ابن أبى يَعْلى ، وعُزل عن الوزارة .

وكان تمام استقرار هذا الأمر فى أواخر شعبان من هذه السنة .

وفى رمضان سافر ابن أبى يَعْلى عن حلب [إلى دمشق ، وأقام بها إلى أن مات][2] ، واستقل الأتابك شهاب الدين فى جميع الأمور ، وانتظمت به أحسن انتظام ، وقام بترتيب البلاد والقلاع ، وتفريق الأموال والإقطاع ، ولا يخرج فى ذلك كله عن رأى القاضى بهاء الدين ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قِلِج .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

(١ثم أقطع علم الدين قيصر درسال ، وابن أمير التركمان اللاذقية١) .

وكان (١٧٠ ا) قد سيَّر علم الدين قيصر إلى الملك الزاهر ، ليعاتبه على استيلائه على البلاد ، فاعتقل [الملك الزاهر] علم الدين ، وقال : « أنا أحق بذلك ، فإنى كنت ولى عهد أخى الملك الظاهر ، وقد حلف لى الناس » .

ثم إنه انقاد إلى الطاعة ، وأطلق علم الدين ، وأجاب إلى الخطبة ، وشرط أن تبقى فى يده البلاد التى استولى عليها ، فوقعت الإجابة إلى ذلك .

ذكر وقوع

الخلف بين أمراء الدولة بحلب

ثم زوال الخلف ووقوع الاتفاق[٢]

ولما استقر شهاب الدين طُغْريل بالأتابكية كره ذلك جماعة من مماليك الملك الظاهر ، فاستضاف عزُّ الدين أيبك الجمدار الظاهرى جماعةً من المماليك والأجناد ، وكاتب الأسد اقطفان[٣] — والى حارم — واتفق معه أن يأتى إليه إلى حارم بالجماعة الذين وافقهم ، ويفتح القلعة ، فإذا حصلوا بها انضم إليهم جماعة غيرهم .

وكان العسكر المقيم بحارم قد أُصعد[٤] إلى القلعة ، ورُتِّب بها وفيهم المبارز أيوب بن المبارز أقجا ، فأحسُّوا[٥] باختلال أمر الأسد الوالى[٦] ، وأنكروا عليه

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (ك) و (س) .

(٢) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

(٣) (ك) : « أقطوان » و (س) : « أقطعان » .

(٤) (ك) : « صعدوا » و (س) : « صعد » .

(٥) (ك) : «خبوا حسابهم ، وأحسوا .. الخ » .

(٦) (س) : « باحتلال الأمير أسد الدين الوالى » .

أشياء ، فاستيقظوا لأنفسهم ، واتفقوا على حفظ القلعة ، والاحتياط عليها .

وسار أيبك الجدار إلى حارم ، ووقف تحت القلعة ، ورام الصعود إليها ، فمنعه الأمراء والأجناد الذين فى القلعة من ذلك ، واحتاطوا على الوالى .

فسار أيبك إلى دربساك ، وطمع أن يتم له فيها حيلة ، فلم يتم له ذلك فتوجه إلى السلطان عز الدين — صاحب بلاد الروم — وصار معه .

وعصى ألطنبغا بقلعة بهسنى ، وانضاف إلى عز الدين — سلطان الروم — .

ثم انتظم الأمر ، ووقع الاتفاق ، وسكنت الفتنة فى آخر شوال من السنة[١] .

وكان عمر الملك العزيز لما ولى الملك بحلب سنتين وأشهراً ، وعمر أخيه الملك الصالح — ولى عهده — نحو اثنتى عشرة سنة .



(١) توجد بعد هذا اللفظ فى نسخة (س) جملة هذا نصها : « وسيروا الأمراء الذين بحارم الأسد والى حارم إلى حلب ، فأقام بها معزولة (كذا) إلى أن مات » .

ودخلت سنة أربع عشرة وستمائة :

والسلطان الملك العادل بالديار المصرية ، والممالك بحالها .

(٧٠ ب)

ذكر خروج

الفرنج من البحر(١) لاستعادة البيت المقدس

وفى هذه السنة تتابعت أمداد الفرنج من رومية الكبرى ، التى هى مقر طاغيتهم الأكبر ، المعروف بالبابا — لعنه الله — ، وغيرها من البلاد ، وتواصلوا فى البحر يتلو بعضهم بعضاً ، ومعهم جماعة من الملوك الأكابر ، واجتمعوا كلهم بعكا ، عازمين على قصد القدس الشريف ، وانتزاعه من أيدى المسلمين ، واسترداد كل ما أخذ لهم من البلاد الساحلية .

وصاروا فى جمع عظيم ، لم يجتمع لهم بعكا بعد موت السلطان الملك الناصر صلاح الدين مثله .

ذكر وصول

الملك العادل إلى الشام

وغارة الفرنج على المسلمين(٢)

ولما بلغ السلطان الملك العادل اجتماعُ الفرنج بعكا ، خاف على البلاد الإسلامية ، فخرج من مصر بالعساكر المصرية ، ووصل إلى الرملة ، ثم منها إلى لدّ .

---

(١) (س) : « من رومية » .

(٢) هذا العنوان غير موجود فى (س) .

و بلغ الفرنج وصوله فبرزوا من عكا فى جموعهم العظيمة .

ووصل الملك العادل إلى نابلس ، ثم إلى بيسان فقصدته الفرنج .

نخاف الملك العادل إن لقيهم ولم يتكامل عنده العساكر الإسلامية أن يكسروه ، فلا يقوم للإسلام بعد ذلك قائمة ، فاندفع بين أيديهم صاعداً إلى عقبة فَيْق ، لينزل بالقرب من دمشق ، ويطلب العساكر لتجتمع عنده ، ثم يلقاهم .

وكان الملك العادل — رحمه الله — كثير الحزم ، نظَّاراً فى العواقب .

وكان أهل بيسان وسائر الأعمال التى حولها قد اطمأنوا بالملك العادل لما رأوه نازلا عندهم ، فلم يهربوا[1] ، فقصدتهم الفرنج لما رحل الملك العادل ، و بذلوا فيهم السيف ، ونهبوا البلاد والرساتيق[2] ، وأخذوا جميع غلاتها وحواصلها ، وغنموا من المسلمين مالا يحصى كثرةً ، ونهبوا ما بين بيسان و بانياس ، و بثُّوا السرايا فى القرى ، ووصلت غاراتهم إلى خسفين وقرى[3] من بلاد السواد .

ثم نازلوا الفرنج بانياس ، وأقاموا عليها ثلاثة أيام ، ثم عادوا إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والسبي ما لا يحصى ، سوى ما قتلوا وأحرقوا (٧١ ا) وأهلكوا .

واستراحوا بالمرج أياماً ، ثم أغاروا ثانياً ، ونزلوا بمكان بينه و بين بانياس فرسخان ، ونهبوا صَيْدا والشقيف[4] ، ثم عادوا إلى المرج .

---

(١) (ك) : « فلم ينهزموا » و (س) : « فلم يجفلوا إلى مكان » .

(٢) الرستاق — والرسداق — (ج . رساتيق) عرفها (الجواليقى : المعرب ، ص ١٥٨) بأنها أرض السواد . والقرى . واللفظ معرب عن الفارسية . انظر أيضاً : (الخفاجي : شفاء الغليل . ص ١٠٧) .

(٣) الأصل : « ولوى » . والتصحيح عن (ك) .

(٤) الأصل : « السقيف » . والتصحيح عن (ك) .

وكل هذا ما بين منتصف شهر رمضان من هذه السنة وعيد الفطر .

وأما الملك العادل فإنه توجه إلى مرج الصفر ونزل به ، وذُكر أنه رأى في طريقه رجلا يحمل شيئاً ، وهو تارة يقعد يستريح وتارة يمشى[1] ، فعدل إليه الملك العادل وحده ، وقال له : « ياشيخ لا تعجل ، وارفق بنفسك » .

فعرفه الرجل ، وقال : « ياسلطان المسلمين ، أنت لا تعجل وأنا ، إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل ؟ » ، [فدمعت عين الملك العادل وأخذه معه ، وأعطاه ثلاثمائة دينار وحمله إلى دمشق][2]

ولما استقل الملك العادل بمرج الصفر سيَّر ولده الملك المعظم إلى نابلس ، ومعه قطعة من العسكر ليمنع الفرنج عن البيت المقدس .

وسيَّر الملك العادل في هذه السنة بعد نزوله إلى الشام رسولا إلى الأتابك شهاب الدين طُغْريل ، وسيَّر خلعة للملك العزيز بن الملك الظاهر ، وسنجقا ، وحلف له يميناً أوجبت السكون والثقة .

(١) الأصل : « تارة يقعد وتارة يستريح » والتصحيح عن (س) .
(٢) ما بين الحاصرتين زيادة عن (س) .

ذكر نزول

الفرنج على الطور

ومحاصرتهم له ، ثم رحيلهم عنه

ثم قصدت الفرنج الطور ، فتقدموا إلى قلعته التى كنا ذكرنا بناء الملك العادل لها ، وحصروها ، وزحفوا إليها ، وصعدوا إلى جبلها ، حتى وصلوا إلى سور القلعة ، وكادوا يملكونها ، فاتفق أن بعض ملوكهم قُتل ، فعادوا عن القلعة وتركوها .

وأقامت جموع الفرنج بعكا إلى أن خرجت هذه السنة .

وفى هذه السنة عاد الشيخ صدر الدين بن حمويه من بغداد ، وكان قد توجه إليها رسولا من الملك العادل إلى الخليفة الناصر لدين الله .

وكان صدر الدين هذا جليلا معظما عند الملك العادل ، وكان أبوه الشيخ عماد الدين قدم إلى الشام فى الأيام النورية ، ففوّض إليه الشهيد نور الدين — رحمه الله — مشيخة الصوفية بالشام ، وجعل إليه نظر الخانكاهات[1] بها ، ولما مات صار ذلك بعده لولده[2] صدر الدين .

ووُلد لصدر الدين أولاد نجباء من ابنة شهاب الدين بن شرف الدين (٧١ ب) ابن أبى عصرون ، وهم : فخر الدين ، وعماد الدين ، وكمال الدين ، ومعين الدين ؛ تقدموا فى الأيام الكاملية [3]غاية التقدم[3] ، وسيأتى إن شاء الله شيء من أخبارهم .

---

(١) (ك) : « الخانقهات » .

(٢) عند هذا اللفظ تنتهى ص ١٨٣ ب فى نسخة (س) ، ثم ينقطع النص هناك ويبدأ الحديث عن موضوع آخر وبذلك تنتهى المقابلة بين نص الأصل هنا ونص نسخة (س) .

(٣) هذان اللفظان ساقطان من (ك) .

ودخلت سنة خمس عشرة وستمائة :

والسلطان الملك العادل مقيم بمرج الصُّفَّر ، وعنده العساكر الإسلامية .

وجموع الفرنج بمرج عكا على عزم قصد البلاد وتملكها .

ذكر توجه

الفرنج إلى الديار المصرية

ومنازلتهم ثغر دمياط

ولما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشورة فى ماذا يبدءون بقصده ؛ فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا ، وقالوا : « إن الملك الناصر صلاح الدين[1] إنما استولى على الممالك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر ، وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها ، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد » .

فصمموا عزمهم على ذلك ، وركبوا البحر ، وقصدوا بجموعهم الديار المصرية ، فوصلوها فى شهر صفر من هذه السنة ؛ ونزلوا على بر الجيزة[2] ، وبينهم وبين ثغر دمياط بحر النيل .

وكان على النيل برجٌ منيع ، وفيه سلاسل[3] من حديد غلاظ ، تُمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح إلى الديار المصرية .

---

(١) (ك) : « إن السلطان صلاح الدين » .

(٢) المقصود بها جيزة دمياط ، والجيزة فى اللغة الناحية ، وجيزة دمياط هي برها الغربى ، ولعلها سميت كذلك لأنه يجاز إليها من دمياط . انظر (الشيال : مجمل تاريخ دمياط ، ص ٢٠) .

(٣) عن البرج والسلاسل انظر : (الشيال : المرجع السابق ، ص ٢٢) و (ميخائيل عواد : كتاب المآصر) .

وبحر النيل إذا انفصل من مصر انقسم شطرين :

أحدهما يذهب شمالاً إلى قرية تسمى رشيد ، ويصب منها فى البحر المالح .

والشطر الآخر يذهب شمالاً .

وافتراق الشطرين من قرية تدعى شطنوف[١] .

ثم إن هذا الشطر الثانى يفترق عند قرية تسمى جوجر[٢] شطرين : أحدهما يذهب إلى دمياط من غربيها ويصب عندها فى البحر المالح ، ويفصل ما بين دمياط وجيزتها ؛ والشطر الآخر[٣] يذهب إلى أشمون طناح ، ثم يصب فى بحيرة هناك ، وهى بحيرة تنيس ودمياط ، وبرها محيط به هذان الشطران مع البحيرة المذكورة والبحر المالح .

فكانت منزلة الفرنج فى جيزة دمياط غربيها ، وبينهم وبين بر[٤] دمياط بحر النيل ، ومراكبهم لا يمكنها (١٧٢ ا) الدخول فى بحر النيل بسبب[٥] السلسلة الممتدة من برج[٦] السلسلة إلى دمياط ، فبنوا عليهم خندقاً وسوراً ، وهذه عادتهم أبداً إذا نزلوا محاربين فى منزلة ، وشرعوا فى قتال أهل دمياط ، وعملوا آلات

(١) عرفها (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ، ١ ، ص ١٣٢) بقوله : « هي قرية من مديرية المنوفية بمركز منوف ، موضوعة على رياح المنوفية بمسافة خمسمائة متر ، وهي أول نواحي مركز أشمون جريس من جهة الجنوب ، وهي من البلاد القديمة الموجودة من قبل الإسلام . الخ » .

(٢) عرفها (على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٧٠) بقوله : « هي قرية من مديرية الغربية بمركز سمنود على شاطيء فرع دمياط الغربى ، كانت فى السالف بلدة كبيرة ذات شهرة ، وهي الآن قريتان صغيرتان لا يبلغان عشر أصلهما ، يفصلهما تل قديم ، وفيهما جملة من مقامات الأولياء ... وفى مقابلة هذه البلدة فى بر المنصورة منية بدر خميس ، وفى قبلها على البحر الأعظم منية الغرقى ... الخ » .

(٣) (ك) : « الثانى » .

(٤) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

(٥) (ك) : « من السلسلة » .

(٦) (ك) . « وبرج السلسلة » .

ومرمات[1] وأبراجاً يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة، ليملكوه ويتمكنوا بملكهم إياه من دخول بحر النيل ؛ وكان هذا البرج مشحوناً بالرجال .

ولما نزل الفرنج بر الجيزة نزل الملك الكامل بعساكره ، ونزل منزلة فى بر دمياط تسمى « العادلية »[2] ، واتصلت العساكر من عنده إلى دمياط ، ليمنع العدو من العبور إلى برها .

---

(١) المرمة (ج : مرمات) نوع من السفن الحربية الكبيرة فى العصور الوسطى ، قال (الأستاذ حبيب زيات : معجم المراكب والسفن فى الإسلام ، ص ٣٦٠) : يظهر أنها من أصل أيطالى Maremma وهى اسم ناحية فى أيطالية ؛ وقد تردد ذكر المرمة فى مراجع التاريخ الإسلامى المختلفة التى أرخت للحروب الصليبية ، وقال (ابن الأثير : الكامل ، أخبار سنة ٦١٥ هـ) : « فعملوا (أى الفرنج) آلات ومرمات وأبراجا يزحفون بها فى المراكب » ، وقال أيضاً (ج ١٢ ، ص ١٥١) : « وصل مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى « مرمة » ، وحوله عدة حراقات تحميه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون إليه ، فوقع عليها شوانى المسلمين وقاتلوهم ، فظفروا بالمرمة وبما معها من الحراقات وأخذوها » ، وقال (المقريزى : السلوك ج ١ ، ص ١٨٩ ؛ والخطط ، ج ١ ص ٢١٦) فى حوادث سنة ٦١٥ هـ : « أخذ الفرنج فى محاربة أهل دمياط ، وعملوا آلات ومرمات وأبراجا يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، فأرسل الله سبحانه ريحا قطعت مراسى مرمة كانت للفرنج من عجائب الدنيا ، فمرت تلك المرمة إلى البر الذى فيه المسلمون فملكوها ، فاذا هي مصفحة بالحديد لا تعمل فيها النار ، ومساحتها خمسمائة ذراع ، وفيها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا » ، وقال أيضاً فى (السلوك ، ج ١ ، ص ٣٤٨) : « وفى سنة ٦٤٧ هـ احترقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر » ، هذا وتجد وصفا لبناء المرمة فى كتاب (سير بطاركة الاسكندرية :
(Histoire des Patriaches d'Aleyaudrie. trad *: Blochot, Revue de L'Orieut Latin 1907,P.243)* انظر أيضاً . (الشيال : مجمل تاريخ دمياط) و(الشيال معجم السفن العربية ، مخطوطه لم تطبع بعد) و*(*Kindermann : *Schibtim arabischen. P. 97 - 98)* .

(٢) عرفها (محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، ق ٢ ، ج ١ ، ص ٢٤٢) بقوله : « هي من القرى القديمة ، أسسها الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى سنه ٦١٤ هـ ، عندما تتابع ورود امداد غزاة الفرنج إلى الشرق فى زمن الحروب الصليبية وتهديدهم مدينة دمياط وردت فى التحفة السنية من نواحي ثغر دمياط ،انظر أيضاً (ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص ٦٢)

وأدام الفرنج الحرب ، وقاتلوه(١) فلم يظفروا بشيء وكُسرت مرماتهم وآلاتهم ، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر .

ولما بلغ السلطان الملك العادل قَصْدُ الفرنج الديار المصرية تقدم إلى من عنده من العساكر بالتوجه إلى مصر ؛ فتوجهوا إليها أولا فأولا ، حتى لم يبق عنده من العسكر إلا القليل ، واجتمعت العساكر عند الملك الكامل ، وأخذوا فى مقاتلة الفرنج ومدافعتهم عن دمياط ، وعظم عند الملك العادل قصد الفرنج لمصر ، وخاف عليها خوفاً شديداً .

ذكر وفاة

الملك القاهر(٢) عز الدين — صاحب الموصل —

وفى هذه السنة توفى الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الموصل — .

وكانت وفاته لثلاث بقيْن من شهر ربيع الأول .

وكانت مدة ملكه سبع سنين وتسعة أشهر .

وكان سبب موته أنه حُمَّ ، ثم فارقته الحمى [من](٣) الغد ، وبقى موعوكا ، ثم عاودته مع قىء كثير وكرب شديد ، ثم برد بدنه وعرق ، وبقى كذلك إلى وسط الليل ؛ ثم توفى [إلى رحمة الله تعالى](٣) ، وانقرض بانقراضه ملك(٤) البيت الأتابكى .

---

(١) (ك) : « ودام الفرنج يقاتلوه فلم يظفروا » ...

(٢) (ك) : « الظاهر » وهو خطأ واضح ، انظر ترجمة الملك القاهر عز الدين مسعود فى : (ابن الأثير : الكامل ، وفيات سنة ٦١٥) و (سعيد الديوه‌جي : الموصل فى العهد الأتابكى ، ص٤ — ٣٥٣) .

(٣) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك)

(٤) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان كريماً ، جليلاً ، حليماً ، قليل الطمع فى أموال الرعية ، كافًّا عن أذاهم ، مقبلا على لذاته ، كأنما ينهبها نهباً ، ويبادر الموت ، وكانت عنده رقة شديدة .

وكان يكثر ذكر الموت ، فحكى بعض من كان يلازمه ، قال :

« كنا عنده قبل وفاته بنصف شهر ، (٧٢ ب) فقال لى : قد وجدتُ ضجراً من القعود ، فقم بنا نتمشى إلى الباب العمادى ، فقمنا نخرج من بابه نحو الباب العمادى ، فوصل إلى التربة التى عملها لنفسه عند داره ، فوقف عندها مفكراً لا يتكلم ، وقال لى : والله ما نحن فى شئ ، أليس مصيرنا إلى ها هنا وندفن نحن تحت هذه الأرض ؟ وأطال الحديث فى هذا ونحوه ، ثم عاد إلى الدار فقلت له : ألا نمشى إلى الباب العمادى ؟ فقال لى : ما بقى عندى نشاط إلى هذا ولا إلى غيره ، ودخل داره ، وتوفى بعد أيام — رحمه الله — » .

ذكر قيام
بدر الدين لؤلؤ بتدبير مملكة الموصل
أتابكا لنور الدين بن الملك القاهر

لما حضرت الملك القاهر الوفاة كان له ولدان ، أكبرهما نور الدين أرسلان شاه ، وكان عمره يومئذ [نحو](1) عشر سنين ، فأوصى بالملك له ، وأن يقوم بتدبير مملكة بدر الدين لؤلؤ .

فلما مات الملك القاهر نصّب بدرُ الدين لؤلؤ نورَ الدين فى مملكة والده ،

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

وأقام له الخطبة والسكّة باسمه ، وأرسل إلى الخليفة الناصر لدين الله يطلب التقليد له ، وكاتب ملوك الأطراف يطلب منهم تجديد العهود لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم و بين أبيه .

ولم تنقض الليلة التى مات فيها الملك القاهر حتى فرغ من كل ما يحتاج إليه ، وجلس للعزاء ، وحلفّ الأمراء والجند ، وقام بتدبير المملكة أحسن قيام ، وأحسن إلى الأجناد والأمراء ، وخلع عليهم الخلع الفاخرة ، وأحسن السيرة ، وكشف الظلامات .

ووصل بعد أيام التقليدُ من الخليفة لنور الدين أرسلان شاه بالمملكة ، ولبدر الدين بالنظر فى أمور الدولة والتشريفات .

وأتت رسل الملوك بالتعزية ، وبَذْل ما طلب منهم من العهود .

ذكر قصد

عز الدين — سلطان الروم — حلب

لما مات الملك الظاهر ، وصار الملك بعده لابنه الملك العزيز غياث الدين محمد ، وهو طفل ، وقع الطمع فى بلاده ، فحسَّن بعض الناس للملك الغالب عز الدين (١٧٣ ا) كيكاوس بن كيخسرو — سلطان الروم — قصد بلاد حلب وتملكها ، وقالوا : « إن المصلحة أن تستعين فى ذلك بالملك الأفضل نور الدين بن الملك الناصر — صاحب سُمَيْساط — فإنه فى طاعتك ويخطب لك ، والناس مائلون إليه ، فتكتب إليه تستدعيه » .

فكتب إليه يستدعيه[1] من سُمَيْساط ، فقدم عليه ، فأكرمه إكراماً

(١) هذا اللفظ ساقط من (ك) .

عظيماً ، وحمل إليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك ، وتقرر بينهما أن الملك الأفضل يجيء فى صحبة السلطان عز الدين ، ويقصدون البلاد ، وأن ما يفتحون من حلب وأعمالها يكون للملك الأفضل ، ويكون فى طاعة عز الدين ، ويقيم الخطبة والسكة باسمه ، ثم يقصدون بلاد الشرق التى بيد الملك الأشرف ، مثل : حرّان ، والرُّها ، وغيرها ، ويكون ذلك لعز الدين ، وجرت الأيمان بينهما على ذلك .

وجمعوا العساكر ، وساروا فملكوا قلعة رعبان ، فتسلمها الملك الأفضل ، ومال الناس حينئذ إلى عز الدين ، لميله إلى الملك الأفضل .

ثم ساروا إلى تل باشر ، وبها فتح الدين بن بدر الدين دلدرم ، وكان ملكها بعد أبيه بدر الدين — كما ذكرنا — فحصروه بها ، وضيقوا عليه ، وملكوها ، فتسلمها عز الدين لنفسه ، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل ، فنفرت نفس الملك الأفضل من ذلك ، وفترت همته ، وقال : « هذا أول الغدر » ، وخاف أنه إن تسلم عز الدين حلب أن يأخذها لنفسه ؛ ولا يحصل إلا على قلع الملك من أولاد أخيه ، ونقله إلى الأجانب .

ونفر أيضاً من هذا الفعل أهل البلاد ، فإنهم كانوا فرحين بمملكة الملك الأفضل ، فلما رأوا ضد ذلك خافوا .

وخاف الأتابك شهاب الدين طُغْريل أن يسلم أهل حلب البلد إلى الملك الأفضل لميلهم إليه ، فكتب إلى الملك الأشرف بن الملك العادل يستدعيه لإنجاد ابن أخته الملك العزيز .

ذكر قدوم
الملك الأشرف إلى حلب
لنجدة الملك العزيز

ولما سارت الفرنج إلى الديار المصرية ، ونازلوا ثغر دمياط — كما ذكرنا — (٧٣ ب) تقدم الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف أن يدخل إلى بلاد الفرنج ، ويغار إليها .

فرحل فى عساكره إلى حمص ، ودخل إلى بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط ، فدخل إلى صافيثا ، فخرّب رَبَضَها ، ونهب رستاقها ، وهدم ما حولها من الحصون ، ودخل إلى رَبَض حصن الأكراد ، ونهبه ، وحاصر القلعة حتى أشرفت على الأخذ ، ثم نزل على بحيرة قدس فى مقابلة الفرنج .

ولما وصله رسول الأتابك يدعوه إلى النجدة سارع إلى ذلك ، وسار فى عسكره الذين كانوا معه فى الغارة ، وبعث يستدعى باقى عساكره وحضر عنده عرب طيّ . وغيرهم ، ووصل إلى حلب فنزل ظاهرها .

وحكى الصاحب كمال الدين بن العديم : أن عز الدين لما قصد البلاد أطمع الملك الأفضل أنه يملكه حلب طمعاً أن يميل الأمراء بحلب إليه ، لميلهم إلى الملك الأفضل ، وكاتب جماعة من أمراء حلب ، وكتب لهم التواقيع ، ومن جملة من كاتبه عَلَم الدين قيصر ، وكتب له توقيعاً بأبلستان .

واغتنم عز الدين والأفضل شغل قلب الملك العادل بالفرنج ، ووافقهما الملك الصالح الأرتقى — صاحب آمد — .

وكان قصد عز الدين الملك لنفسه ، وإنما جعل الملك الأفضل ذريعة لتحصيل غرضه ، وكاتب عزّ الدين الأمراء الحلبيون الذين كانوا يؤثرون الملك الأفضل ، فجمع وحشد ، وقصد البلاد فى شهر ربيع الأول من هذه السنة ، فنازل رعبان وفتحها ..

فسيَّر الأتابك القاضى زين الدين بن الأستاذ إلى الملك العادل يستصرخه على عز الدين والملك الأفضل .

فكتب الملك العادل إلى ولده الملك الأشرف [1] يأمره أن يرحل إلى حلب بالعساكر ، وسيَّر إليه خزانةً ، وجعل الملك المجاهد أسد الدين — صاحب حمص — فى مقابلة الفرنج.

فسار الملك الأشرف [1] حتى نزل حلب ، وخيَّم بالميدان الأخضر ، وخرج الأمراء إلى خدمته ، واستحلفهم ، وخلع عليهم ، ووصل إليه الأمير مانع بن حديثه — أمير العرب — فى جمع عظيم من العرب ، وعاثت العرب فى بلد حلب ، والملك الأشرف يداريهم لحاجته إليهم .

وسار عَلَمُ الدين قيصر الظاهرى (١٧٤) إلى السلطان عز الدين من دربساك وجاهر بالعصيان ، ونزل إليه أيضاً ألطنبغا من بهسنا ، وكان قد عصى بها .

وتسلم عزُّ الدين المرزبان ، ثم نازل تل باشر ففتحها ، ولم يسلمها إلى الملك الأفضل ، فعلم حينئذ الأفضل فساد نيته .

ثم سار عز الدين إلى منبج ، فسلَّمها أهلُها إليه ، وشرع فى ترميم سورها وإصلاحه .

---

(١) هذه الجملة كلها ساقطة من (ك) .

ذكر انهزام

عز الدين — سلطان الروم —

من الملك الأشرف

وكان الملك الأفضل يشير على عز الدين قبل أخذه تل باشر بمعاجلة حلب ، وأخذها قبل اجتماع العساكر بها ، فلما أخذ عزُّ الدين تل باشر ولم يسلمها إليه تحقق سوء باطنه ، فصار بعد ذلك يشير عليه بأن يقصد باقى البلاد ويأخذها أولا ، ثم بعد ذلك يقصد حلب ، ففتح منبج — كما ذكرنا — .

وإنما قصد الملك الأفضل التمادى ومرور الزمان فى غير فائدة ، لئلا يتحصل لعز الدين مقصود .

ولما استحلف الملكُ الأشرفُ الأمراءَ بحلب ، واستوثق منهم رحل من حلب فى عساكره وعسكر حلب ، وفى صحبته جماعة من الأمراء المخامرين ، فنزل وادى بُزاعة .

ولما سمع عز الدين بتقدم الملك الأشرف إليه سيَّر ألف فارس هم خيار عسكره وأبطالهم ، وقدَّم عليهم سوباش سيواس ، فنزلوا تل قباسين ، فوقعت عليهم عرب الملك الأشرف ، وقاتلوهم ، ومعهم جماعة من العسكر ، فانهزمت مقدمة عسكر عز الدين ، وقد استبيحت أموالهم ، وقُتل منهم جماعة ، وأسرت جماعة .

ووصل إليهم الملك الأشرف وقد فرغت العرب منهم ، وسُيِّرت الأسرى إلى حلب ، ودخلوا بهم والبشائر تُضرب بين أيديهم ، وأودعوا السجن .

ولما بلغ عز الدين ذلك [وهو بمنبج][1] ولّى منهزماً ، وقد ملأ الرعب قلبه .

ورحل الملك الأشرف متبعاً له ، يتخطف أطراف عسكره ، حتى وصل إلى تل باشر ، فحاصرها وافتتحها ، وكان بها جماعة من عسكر عز الدين ، فمنَّ عليهم (٧٤ ب) الملكُ الأشرفُ ، وأطلقهم .

ثم سلَّم الملك الأشرف تل باشر إلى نواب الملك العزيز ، وقال :

« هذه كانت أولا للملك الظاهر ، وكان يؤثر ارتجاعها إليه ، وأنا أردها إلى ولده » .

وكان افتتاحها فى جمادى الأولى من هذه السنة .

ثم ملكها الأتابك شهاب الدين فى سنة ثمان عشرة وستمائة بجميع قراها .

ثم سار الملك الأشرف إلى رعبان وتل خالد ، فافتتحهما ، وافتتح برج الرصاص ، وأعطى الجميع لابن أخته الملك العزيز .

وأما عز الدين فإنه طوى المراحل هارباً لا يلوى على شيء بل مرَّ على وجهه خائفاً يترقب ، ولما وصل إلى أطراف بلاده أقام بها .

ولما وصل إليه العسكر الذين كانوا بتل باشر جعلهم فى دار ، وأمر بأن تحرق عليهم ، فاحترقوا عن آخرهم ، فلم يمهله الله تعالى ، وعجَّل عقوبته ، وأهلكه لسوء فعلته .

وصار[2] المُلْكُ بعده إلى أخيه الذى كان فى حبسه ، وهو علاء الدين كَيْقُبَاذ بن كيخسرو .

---

(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

(٢) (ك) : « وانتقل » .

وتوجه الملك الأفضل إلى سميساط ، ولم يتحرك بعد ذلك حركة فى طلب ملك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة — على ما سنذكره — .

وعاد الملك الأشرف إلى حلب وقد بلغه وفاة والده السلطان الملك العادل — رحمه الله — وقد كان عازماً على قصد عز الدين ، وأتباعه إلى بلاده ، فلما وردت عليه وفاة والده لم يمكنه ذلك ، مع علمه بحلول الفرنج بالديار المصرية ، وشدة طمعهم فيها سيما وقد مات سلطان البلاد .

ونزل الملك الأشرف بباناقوسا ، وجلس فى خيمته للعزاء ، وخرج أكابر البلد والأمراء إلى خدمته ، وأنشده الشعراء مراثى الملك العادل ، ووعظ الوعاظ .

ولما انفصل أمر العزاء سيرّ الأتابك شهاب الدين إليه فى أن يكون هو السلطان موضع أبيه الملك العادل ، ويُخطب له فى البلاد ، وتضرب السكة باسمه ، وتكون العساكر الحلبية فى خدمته .

فقال الملك الأشرف :

« لا والله ، لا أغيّر قاعدةً قررها أبى ، بل يكون السلطان أخى الملك الكامل ، ويكون قائماً مقام أبى » .

ثم تقررت الحال بين الأتابك شهاب الدين وبينه برأى (١٧٥) القاضى بهاء الدين بن شداد ، وسيف الدين بن علم الدين ، وسيف الدين بن قلج على الخطبة بحلب وأعمالها للسلطان الملك الكامل ناصر الدين أبى المعالى محمد ابن الملك العادل ، وبعده للملك الأشرف ، وبعدها للملك العزيز .

وضُرب اسم الملك الكامل والملك العزيز على السكة ، وجُعل أمر الأجناد والأقطاع فى عسكر حلب إلى الملك الأشرف ، وأخليت له دار الملك الظاهر

خِضْر بن الملك الناصر بالياروقية ، فنزل بها ، ورتب له برسم المعونة[1] من أعمال حلب سَرْمين و بُزاعة والجبول ، ووصلت إليه رسل البلاد من جميع الجهات ، وصاروا أتباعاً ، وأمر ونهى ببلد حلب ، فى الأجناد والإقطاع لا غير ، وتردد إليه أكابر الحلبيين ، وخلع عليهم ، وأقام بحلب إلى آخر هذه السنة .

ذكر وفاة

السلطان الملك العادل

سيف الدين أبى بكر بن أيوب — رحمه الله —

قد ذكرنا أن السلطان الملك العادل لما بلغه نزول الفرنج بديار مصر ، ومحاصرتهم ثغر دمياط ، خاف على مصر خوفاً شديداً ، وأرسل العساكر أولا فأولا إلى مصر ، وكان نازلا بمرج الصُّفَّر ، ثم رحل منها إلى عالقين ، فنزل بها ، ومرض واشتد مرضه ، ثم توفى إلى رحمة الله تعالى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة خمس عشرة وستمائة .

وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة .

فكان عمره خمسا وسبعين سنة .

وكان ملكه لدمشق سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة[2] ، فكانت مدة ملكه لها ثلاثا وعشرين سنة .

وملك مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، فكانت مدة ملكه لها نحو تسع عشرة سنة .

---

(١) (ك) : « المؤنة » .

(٢) (ك) : « سنة أربعين وخمسمائة » وهو خطأ واضح .

قال عز الدين بن الأثير :

ومن الاتفاقات العجيبة أن الملك الأفضل بن الملك الناصر لم يملك مملكة إلا أخذها عمُّه الملك العادل :

فأول ذلك أن الملك الناصر أقطع ابنه الملك الأفضل حرّان والرُّها وميّافارقين بعد وفاة الملك المظفر تقى الدين ، فسار إليها الملك الأفضل ، فلما وصل إلى حلب أرسل إليه أبوه السلطان الملك العادل فردّه عن حلب ليأخذ البلاد منه .

ثم (٧٥ ب) ملك الأفضل بعد أبيه دمشق ، فأخذها الملك العادل منه .

ثم ملك مصر ، فأخذها أيضاً منه .

ثم ملك صرخد ، فأخذها منه .

قلتُ : « وأعطاه قلعة نجم ، وسروج بعد ذلك ، وعاد استرجعها منه » .

ذكر سيرته — رحمه الله —

كان الملك العادل — رحمه الله — حازما ، متيقظاً ، غزير العقل ، سديد الأراء ، ذا مكر شديد وخديعة ، صبوراً ، حليما ، ذا أناة وتؤدة ، يسمع ما يكره ويُغضى عنه كأنه لم يسمعه ، كثير البذل والخرج عند الحاجة لا يقف فى شيء ، وأما فى غير وقت الحاجة فلا ، عظمتْ هيبته فى القلوب ، واتسع ملكه ، وواتته السعادة ، وكثر أولاده ، ورأى فيهم ما يحب من اتساع الممالك[1] والظفر بالأعداء

(١) (ك) : « الملك » .

ولم يبلغنا عن أحد من الملوك الماضيين أنه رأى فى أولاده ما رأى ، فإنه اجتمع فى كل واحد منهم من النجابة والكفاية والشهامة والفضيلة ما لا مزيد عليه .

فهم كما قال الشاعر :

مَنْ تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلُ النجومِ التى يَسْرى بها السَّارى

ولقد أجاد فى وصفهم شرف الدين بن عنين حيث يقول من قصيدة يمدح بها أباهم الملك العادل ، مطلعها :

ماذا على طَيْفِ الأَحِبَّةِ لو سَرَى ... وعليهمُ لو سامحونى بالكَرَى

ومنها فى مدح الملك العادل :

العادلُ الملكُ الذى أسماؤه ... فى كلِّ ناحيةٍ تُشَرِّفُ[1] مِنْبَرا

وَبِكُلِّ أَرْضٍ جَنَّةٌ مِنْ عَدْلِهِ الـ ... ـضافِى أفاضَ[2] نَدَاهُ فيها كوثَرا

عَدْلٌ يبيتُ الذئبُ منه على الطوى ... غَرْثانَ وهو يرى الغزالَ الأَعْفَرا

ما فى أبى بكرٍ لمعتقدِ الهدُى ... شَكٌّ يريبُ بأنه خَيْرُ الورى

بين الملوكِ الغابرينَ وبينه ... فى الفضل ما بين الثُرَيّا والثرَى

نسختْ خلائقُهُ الحميدةُ[3] ما أتى ... فى الكُتْبِ عن كِسرى الملوكِ وقَيْصَرا

(١٧٦)

لا تسمعنَّ حديثَ مَلْكٍ غيره ... يُرْوى ، فكلُّ الصَّيْدِ فى جَوْفِ الفَرَا

---

(١) الأصل : « يشرف » ، والتصحيح عن الديوان .

(٢) الديوان : « أسال » .

(٣) الديوان : « الكريمة » .

ومنها فى مدح أولاد الملك العادل ووصفهم — رحمهم الله أجمعين —

وله الملوكُ[1] بكلِّ أرضٍ منهمُ مَلِكٌ يَجرُّ[2] إلى الأعادى عَسْكَرَا
من كُلِّ وَضَّاحِ الجبينِ تَخَالُهُ بدراً ، فإنْ شَهِدَ الوَغى فغَضَنْفَرَا
يسمو[3] إلى نارِ الوغى شَغفاً بها ويَجلُّ أن يسمو[3] إلى نارِ القِرَى
متقدمٌ حتى إذا النَّقْعُ انْجَلَى بالبيدِ[4] عن سَبْىِ الحريمِ تأخَّرا
وتعافُ خيلُهُم الورودَ بمَنْهَلٍ ما لم يكن بدمِ الأعادى مُسَجَّرَا[5]

ذكر أولاد[6] الملك العادل

كان للملك العادل فيما أعلم ستة عشر ولداً ذكراً ، سوى البنات :

الملك الأوحد نجم الدين أيوب — صاحب خلاط — ، وتوفى فى حياة والده ، وقد تقدم ذكره ، وكان قصيراً جداً ، شهماً ، مقداماً ، سفاكاً للدماء .

والملك المغيث عمر ، وتوفى أيضاً فى حياة أبيه .

وخلَّف المغيث ولداً صغيراً ، وهو الملك المغيث شهاب الدين محمود ، ورثاه عمُّه الملك — صاحب دمشق — ، وكان جميل الصورة جداً ، ومات فى سنة ثلاثين وستمائة .

(١) الديوان : « البنون » .
(٢) الديوان : « يقود »
(٣) الديوان : « يمشو » .
(٤) الديوان : « بالبيض » .
(٥) الديوان : « بدم الوقائع أحمرا » .
(٦) انظر تراجم مفصلة لأولاد العادل جميعا فى : (الحنبلى : شفاء القلوب ، ص ٧٣ أ — ٨٨ ب) .

والملك الجواد شمس الدين مودود ، وتوفى أيضاً فى حياة أبيه ، وخلَّف ولده الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ، وكان فى خدمة عمه الملك الكامل ، وسنذكر أخباره وتملكه لدمشق وغيرها ، وكان جواداً إلى الغاية ، شجاعاً .

والملك الكامل ناصر الدين محمد — صاحب الديار المصرية — وصاحب الخطبة والسكة فى جميع الممالك الأيوبية .

والملك المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى — صاحب دمشق و بلادها إلى عريش مصر — .

وشقيقاه :

الملك العزيز عماد عثمان — صاحب بانياس وعدة مواضع كانت بيد فخر الدين جهاركس — ، وكان جواداً شهماً .

والملك الأمجد مجد الدين حسن (٧٦ ب) ، وتوفى فى حياة والده ، ودُفن بالقدس الشريف ، فى مدرسةٍ بُنيت له ، ثم نُقل بعد ذلك إلى الكَرَك ، فدفُن جوار الشهداء بمُوتَة .

والملكُ الأشرف مظفر الدين موسى ، صاحب البلاد الشرقية وخلاط بعد أخيه الملك الأوحد .

الملك المظفر شهاب الدين غازى — صاحب ميافارقين — .

وشقيقاه :

والملك المعز مجير الدين يعقوب .

وتاج الملوك[1] إسحاق .

(١) (ك) : « تاج الدين » .

والملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، وكانت له من أبيه بُصْرى ، وملك بعد ذلك دمشق و بعلبك ، على ما سنذكره — إن شاء الله تعالى — .

والملك المفضل قطب الدين ، وتوفى بمصر فى أيام الملك الكامل .

والملك الفائز إبراهيم ، وسنذكر إن شاء الله خبره .

والملك الأمجد تقى الدين عباس ، وهو أصغرهم ، مولده سنة ثلاث وستمائة ، وهو آخرهم موتاً ، توفى بدمشق فى سنة تسع وستين وستمائة .

والملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه .

ذكر ما استقر

عليه الحال بعد وفاة[1] الملك العادل

ولما توفى الملك العادل — رحمه الله — بعالقين[2] لم يكن عنده أحد من أولاده حاضراً ، وكان الملك المعظم بناباس ، ولم يطلع على موته إلا كريم الدين الخلاطى ، وكان أخصَّ أصحابه ، فكتم موته ، وأمر الأطباء بملازمة الدهليز ، ليظنَّ الناسُ حياته .

و بعث سَوَّاقاً إلى المعظم يحثُّه على سرعة الحركة ، فقدم سريعاً ، واجتمع بكريم الدين ، واتفقا على كتمان هذا الأمر ، وأظهرا أن السلطان قد عزم على الرحيل إلى دمشق ، فرحلوا من عالقين[3] .

وأودع الملك العادل المحفّة ، وجُعل فيها عنده خادم ، والأطباء حول المحفة

---

(١) (ك) « موت » .

(٢) هذا اللفظ غير موجود فى (ك) .

(٣) (ك) : « عاكفين » .

يشيرون بما يُسقى من الأشربة ، ويُناول الخادم فى بعض الأوقات قدح الشراب ، فيشرب به الخادم ، ويظن الناس أن الملك العادل حىٌّ ، وأنه [هو][1] الذى شرب القدح .

ولما وصلوا بالمحفّة إلى دمشق غُسِّل وكُفِّن ، ودُفن فى القلعة سراً .

واستحضر الملكُ المعظمُ وكريمُ الدين الخلاطى أكابرَ الدولة والأمراءَ ، فحلفوا للملك العادل ، وبعده للملك المعظم ، فلما تمَّ للملك المعظم ما أراد من ذلك أظهر موته ، وجلس فى العزاء ، وكتب إلى سائر الملوك يخبرهم بموته .

واحتوى الملك المعظم على جميع ما كان مع الملك العادل من الأموال والجواهر النفيسة ، والذخائر ، والعُدَد ، والأثقال ، والخيول ، وغير ذلك .

وقد ذُكر أنه كان فى خزانته سبعمائة ألف دينار مصرية عيناً .

وكان للملك العادل بالكَرَك مال عظيم ، فاحتوى أيضاً عليه الملك المعظم .

واحتوى أخوه الملك الحافظ أرسلان شاه بن الملك العادل على ما فى قلعة جعبر من المال .



(١) ما بين الحاصرتين زيادة عن (ك) .

الملاحق

خطاب بقلم القاضي الفاضل ، مرسل من السلطان صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء بنور الله ببغداد ، يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة ، والنُّصْرة عليها .

عن : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٠٦ — ٥١١)

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونْ) : (سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ) : (فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ) . وصلاة يتبعها تسليم ، وكأس يمزجها تسنيم . وذكر من الله سبحانه في الملأ الأعلى ورحمة الله وبركاته معلومة من النشأة الأولى على مولانا الإمام «المستضيء بالله» المستضاء بأنواره ، المستضاف بداره ، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، الراعي للخلق كما يرعى النسيم النسيم ، العامّ فضله ، التامّ عدله ، المطروقِ مورد فِنائه ، المصدوقِ في مورد ثنائه ؛ المحقوقِ من كل ولي بولائه ، ابن السادة الغرّ ، والقادة الزهر . والذادة الحمس ، والشادةِ للحق على الأسّ ، سقاةِ الكوثر وزمزم والسحاب ، وولاة الموسم والموقف والكتاب ، والموصول الأنساب [يوم] إذا نفخ في الصور فلا أنساب ، والصابرون على حساب أنفسهم فهم الذين يؤتون أجرهم بغير حساب .

مملوك العتبات الشريفة وعبدها ؛ ومن اشتمل على خاطره ولاؤها وودها ، وكانت المشاهدة لأنواره العلية التي يودّها ، ومن يقرن بفرض الله سبحانه فرضها ، ويسابق بطاعته إلى جنة وصفها الله تعالى بقوله (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا) : يلثم وجه ترابها ، ويرى على بعد دارها الأنوار التي ترى بها ، ويقف لديها وقوف الخاضع ، ويضع

أثقال الآثام عن ظهره منها بأشرف المواضع للواضع ، ويخبت إليها إخبات الطائح الطائع، ويرجو فضلها رجاء الطامح الطامع. ولولا أن الكتاب حجاب بينه وبين المهابة التي تحول بين المرء وقلبه ، والجلالة التي هو فى تعظيمها على نور من ربه ، لكان خاطره فى قبضة الهلع أسيراً ، ولانقلب إليه البصر خاسئاً حسيراً ، ولكن قلمه قد تشاجع ، أن كان لسانه عن الإبانه قد راجع . فيقول :

إن الله قد رفع ملة الإسلام على الملل، وكفل نصرها وكفى ما كفل ، وحمى مُلْكها وحمل ، وجعل لها الأرض فى أيدى المخالفين ودائع ، ومكّن يده من أعناقهم فهى إما تعَقد الأغلال أو تصوغ الصنائع ، والحق بها قائم العمود ، والسيف للكفاية لازم الغُمود ؛ والبشائر تمسك الصباح وتخلق الدجى ، والخيل على طول ما تشتمل الوحا تنتعل الوجى ، والأيام زاهرة ، والآيات باهرة ، وعزة أوليائها قاهرة ، وذلة أعدائها ظاهرة ، وعنايات الله لديها متوالية متظاهرة . إذا تغرب اسمها يوماً عن منبر أعيد إلى وطنه غدا ، وإذا أوقدت نار فتنة فى معصيتها أوقدت فى طاعتها نار هدى .

وقد كان النيل قِدْما فرّت عن الفرات أبناؤه ، وتحصنت غلل المؤمنين عنه فلم يتغلغل إليها ماؤه ، وكادت السماء لا تعينه بمطرها ، والأرض لا توشّيه بزهرها والأعناق قد تقاصر دون الراجين بدو مبعصها[1] ، والقلوب قد لاذت بأستار الجدار مبعصنها[1] ، والأوثان منصوبة ، والآيات مغصوبة ، والتيجان بغير أكفائها من الهامات معصوبة ، والدين أديانا ، والمذكّرون بالآيات يخرون عليها صمًّا وعميانًا ؛ والعادلون بالله قد وطّنوا ألسنة وصرحوا عقائد ، والمعتدون قد أضلُّوا فعالا وضلوا مقاصد ، وكراسىُّ خلافة الله قد ألقى عليها أجسادٌ كانت تُقْعد منها مقاعد ، ومنابرُ كلماتِ الله قد كاد كيدهم يأتى بنيانها من القواعد ، وجرت على بُنُوّة النُّبوة أشدُّ نَبوة ،

(١) كذا فى الأصول بهذا الرسم .

وقصُرت الأيدى فلاحدُّ سوط ولا حد سطوة ، ثم قست قلوب (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) وغرّت الأيام وما وعدت ، وأوردت الهم وما أصدرت ، وطغى طوفان الطغيان ولا عاصم ، وسما بناء البهتان ولا هادم ، وضاقت الصدور ، ورحلت بغليلها إلى القبور ، وظن أن طيَّ دولتهم معدُوقٌ بالنشور ؛ حتى إذا جلاَّها الله لوقتها ، وأنجز جموع الضلال إلى ميعاد شتها ، وأراهم آية مَعْدلته (وَمَا نُرِيهِم مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) ، (وَجَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونْ) ، (وَحَبِطَ مَاصَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونْ) .

كانت نعمةً من الله يمنها على المملوك أن انتجبه من بين أهل أرضه ، وانتخبه لإقامة ما أمات الباطل من فرضه، ويسره لما يسره من نصرة الحق وأهله، وبشره بما بشره من لواء النصر ، ومدّ من ظله ، وألهمه الهمة التى افترع منها بكرا ، ومنحه النصرة فما يستطيع العدو صرفا ولا نصرا . مكنه من صياصيهم فحاّها ، ومن دمائهم فطلّها ، ومن سيوفهم ففلَّها ، ومن أقدامهم فاستزلها ، ومن منابر دعاتهم فعجل تداعيها ، ومن أنفس أعدائهم فأكثر تناعيها ، وأبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، ويسر الذين كتب لهم العفو إلى منافعهم ، ونثر خرزات الملك من تيجانها ، وفضح على يده وبلسانه مازورته من أنسابها ، وحسابها فأظهر زَيْفَ حسابها ، ونقلها من ظهور أسرتها إلى بطون ترابها ، وعمد إلى أهل دعوتها الذين بسقوا بسوق النخل فأعلاهم على جذوعها ، وحملت قلوبهم فُوفَ الحقد فأخرجها من أكمام طلوعها ، فهل ترى لهم من باقية ، أو تسمع لهم من لاغية ، أو تجد إليهم من صاخية ، فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم أو مساكينهم ، وحصدوا حصد الحشيش ثم لاتُخَاف سيوفهم ولا سكاكينهم ، واستنزلوا من عُقاب اللُّوح وسجنوا فى الهمّ من طول مداومة عِقاب الروح ؛ ثم تداركوا إلى الدرك ، واشتركوا فى الشرك ، وأقفرت منهم عراص ،

وزهدت فيهم خواص ، وعلم أن ليس لله غالب ، وأن ليس يفوته طالب ، وأن الملك لله وحده ، وأن الويل لمن تجاوز أمره وحده .

وكان المملوك ممن عطل من أوثانهم ، وأبطل من أديانهم ، فائزا بحسنة ينظر إلى حسنات خليل الله صلى الله عليه وسلم فى كيده الأصنام وتكسيرها ، وتضليله عابديها وتكفيرها . وعمد المملوك إلى المحاضر فجمعها ، وإلى المنابر فرفعها ، والجمعة فأطاع من شرعها ، وأسماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوصلها باسمه وما قطعها ، وعمومتها رضوان الله عليهم فتلاها له وآتبعها ، وأشاد باسم أمير المؤمنين لتكون الصلاة جامعة ، والذكرى شاملة والإمامة للجماعة شارعة ، والهداية للضلالة صارعة ، فعادت للملة أعياد ، وأخضرت للمنبر أعواد ، وأنجز للأمة ميعاد .

و بعد ذلك تحاشدت أولياء الذاهبين وتنادت ، وتساعت نحو مستقر المملوك وتعادت (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ) وكانوا حمية حامية من بنى حام كالجراد أرجلا ، إلا أن الله أصلاها بنيرانه ، وكالماء مدا إلا أن الله أغرقها بطوفانه ، وكالنمل لوناً وطرقاً إلا أن الله حطمها بسليمانه ، مع من انضم إليهم من ألفاف وأطراف ، وأوشاب وأوباش : من جندى كسبه سيفه ذُلَّه ، وطرده عن مواقف الكرام وبمحالِّ الخزى أحله ، ومن أرمنىٍّ كانوا يفزعون إلى نصرة نصرانيته ، ويعتمدون منه على ابن معموديته ، ومن عامى أجابهم لفرط عماه وتفريط عاميته ، فملأ العيون سوادهم الأعظم ، ووراءهم بأس الله الذى لا يرد عمن أجرم ، فأمطرتهم السيوف مطراً كانوا غثاء لسيوله الجوارف ، وعصفت بهم الأعنة عصفاً كانوا هباء لِهُوجِه العواصف (فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُم لَهَا خَاضِعِين) وعوتبت الأنفس والأرؤس (فَقَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِين) .

وظلت قحاف بنى حام تحت غربان الفلا غربانا ، وشوهدت ظلمات بعضها

فوق بعض أفعالا وألوانا ، وصفت موارد السلطان من القذى ، وطفىء ذلك الفحم فلا يجد النفاق بعده ما تتعلق به الجُذَى ، و بلغت الغايات فى كشف كل أذى ، لا بضرب موعد يقال فيه إذا .

وكاتب الملوكُ ، واسمُ أمير المؤمنين قد كتب سطره على جبين النقدين ، وسمع لفظه من فم المنبرين بالبلدين ، ومد كل منبر يدا بل يدين ، فحين سمع الناس قالوا حقاً ما قاله ذو اليدين ، وصارت تلك الأسماء دَبْر الآذان ووراء الظهور ، وحصلت المحبة العباسية سراً من أسرار القلوب إذا حُصِّل مافى الصدور ، والخلائق مبايعة متابعة وافية بعهده متوافية ، داخلون فى الحق أفواجاً ، سالكون منه شرعة ومنهاجاً .

والحمد لله الذى جعل أمير المؤمنين إماماً لخلقه ، ووارثاً لأرضه ولم يذر فوق الأرض منازعاً لحقه ، ولا مناهباً لأرضه ، وارتجع له الحق الذى كان نادًّا ، ورد عليه الأمر الذى لم يكن له غير الله رادا ، و بلغ كل مؤمن من إعلاء كلمة الإيمان به ما كان له وادّا ، وأخذ بيد انتقامه من كان عن سبيله صادًّا ، والإسلام قد استنار كنشأته ، والزمان قد استدار كهيئته ، والحق قد قرّ فى نصابه ، والأمر قد فر عن صوابه . فقد وفى الله القرار له بضمانه ، وأخذ بيده ما روى عن ابن عمه صلى الله عليه وسلم وأصفى من لسانه .

فالحمد لله الذى صدقه وعده ، وأورثه الأرض وحده ، وجدد علاه وأعلى جده ، وأسعد نجمه وأنجم سعده ، ووعده نجحه وأنجح وعده ، وأورده وصفه وأصفى ورده .

المملوك ينتظر الأمثلة ليتمثلها ، والأمانة ليتحملها ، والتقاليدات المطاعة ليتلوها ، والتشريفات الشريفة ليجلوها ، والسواد ليجلى الحلك عن ضمائر المبطلين والسيف الحالى لحكمه فى رقاب المعطلين ، وللآراء الشريفة فصل برهانها ، وفضل سلطانها ، وأمرها الذى لا يخرج حين يخرج عن عز الملة وتوطيد بنيانها ، وعزمها الذى يرفع حين يرفع ظلمة أدخانها . إن شاء الله تعالى .



خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين
إلى الخليفة ببغداد ، يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة لذلك ،
وانهزام ملكها بعساكره .

عن : (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥١٢ — ٥١٥)

صلواتُ الله التى أعدها لأوليائه وذَخَرها ، وتحياتُه التى قذف بشُهبها شياطين أعدائه ودَحَرَها ، وبركاتُه التى دعا بها كل موحد فأجاب ، وانقشع بها غمامُ الغمّ وظلامُ الظُّلْم فانجاب عن أنجاب ، وزكاته التى هى للمؤمنين سكن ، وسلامه الذى لا يعترى الموقنين فى ترديده حَصَرٌ ولا لَكَن . على مولانا عاقدِ ألوية الإيمان ، وصاحب دَوْر الزمان ، وساحب ذيل الإحسان ، وغالب حزب الشيطان ، الذى زلزلت إمامته قدم الباطل ، وحات خلافته ترائب الدهر العاطل ، واقتضَتْ سيوفه ديون الدِّين من كل غريم ماطل ، وأمضت غرب كل عزم للحق مفلول ، وأطلعت غارب نجم كل هدًى آفل ، وشفعت يقظاتُ استغفاره إلى غافر ذنب كلّ غافل ؛ وعلى آبائه الغاية والمفزع ، والملاذ فى وقت الفزع ، والقائمين بحقوق الله إذ قعد الناس ، والحاكمين بعدل الله إذ عُدِم القسطاس ، والمستضيئين بأنوار الإلهام الموروثة من الوحي إذا عجز الاقتباس ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ؛ خزَّان الحِكَم ، وحُفَّاظها ، ومعانى النِّعم ، وألفاظها ، وأعلام العلوم المنشورة إلى يوم القيامة ، وكالئى السروح المنتشرة من كلا[1] سديد الإمامة ؛ ومن لا ينفذ سهم

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه ، وفى الضوء « المنتشرة بين الإمامة » .

عمل إلا إذا شحذ بموالاتهم ، ولا يتألق صبح هداية إلا إذا استصبح السارى بدلالاتهم .

المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ، ومرابع المجد ومعاقله ؛ ومجالس الجود ، ومحال السجود ؛ ومختلف أنباء الرحمة المنزلة ، ومرسى أطواد البسيطة المتزلزله ؛ ومفتر مباسم الإمامة ، ومجر مساحب الكرامة ؛ ومكان جنوح أجنحة الملائك ، ومشتجر مناسك المناسك ، حيث يدخلون من كل باب مسلمين ، و يتبعهم ملوك الأرض مستسلمين ؛ ومشاهد الإسلام ليوم أنزل فيه اليوم «أكملت لكم دينكم » . و ينعقد على الولاية فأما غيره فله قوله : « قاتلوا الذين يلونكم » . و يناجيها بلسان جلى الإخلاص الصادق عقيدته ، وأنشط الولاء السابق عقيلته ، وأرهف الإيمان الناصع مضاربه ، وفسح المعتقد الناصح مذاهبه ، فأعرب عن خاطر لم يخطر فيه لغير الولاء خطره ، وقاب أعانه على ورود الولاء [أن] صفاء المصافاة فيه خطره ، و يخبر أنه ما وهن عما أوجبته آلاؤه ولا وهى ، ولا اثنى عزمه عن أن يقف حيث أظلت سدرة المنتهى ، ووضحت الآيات لأولى النهى .

والله سبحانه يزيل عنه فى شرف المثول عوائق القدر وموانعه ، و يكشف له عن قناع الأنوار التى ليست همته بما دون نظارها قانعة — وكان توجه منصوراً بجيش دعائه قبل جيش لوائه ، و بعسكر إقباله ، قبل عسكر قتاله ، و بنصال سلطانه ، قبل نصال أجفانه ، لا جرم أن كتائب الرعب سارت أمام الكتائب ، وقواضب الحذر غمضت فى جفونها عيون القواضب — وسار أولياء أمير المؤمنين الذين تجمعوا من كل أمة ، وتداعوا بلسان النعمة ، متواخية نياتهم فى الإقدام ، متألفة طوياتهم فى طاعة الإمام ، كالبنيان المرصوص انتظاماً ، وكالغاب المشجر أعلاماً ، وكالنهار السانع حديداً وهاجاً ، وكالليل الشامل عجاجاً عجاجاً ، وكالنهر

المتدافع أصحاباً ، وكالمشط المطرد اصطحاباً ، والأرض ترجل برجلهم لما ترفعه الحوافر من غيومها ، والسماء تنزل نزولهم لما تضمه الذوابل من نجومها ، فما انتشرت رياضها المزهرة ، وغياضها المشجرة ، إلا دلت على أن السحاب الذى سقاهم كريم ، والإنعام الذى غمرهم عظيم ، والدنيا التى وسعتهم من عزمتهم تظعن وتقيم .

ولما علم العدو أن الخطب المظنون قد صرح خطابه ، والأمل المخدوع قد صفر وطابه ، راسل ورأى سل السيوف يغمده ، وماكر وما كّر لعلمه أن الحتف يعمده ، واندفع هارباً هائباً ، وخضع كائباً كاذباً ، فمضى المملوك قدما ، وحمّله ظلمه وقد خاب من حمل ظلماً ، وأجابه بأنه وطئ البساط برجله وإلا وطئه برأسه ، وإن قدم على المملوك بأمله وإلا أقدمه بيأسه ، وإن لم يظهر أثر التوبة وإلا أقام عليه الحد بسكرة الموت من كأسه ، فلم يخرج من مراوغة تحتها مغاوره ، ومكاسرة وراءها مكاشرة .

فاستخار الله فى طلبه ، وانتهز فيه فرصة شغل قلبه بريبة ، ولم يغره ما أملى له فى البلاد من تقلّبه ، وسار ولم يزل مقتحماً ، وتقدم أول العسكر محتدماً ، وإذا الدار قد ترحل أهلها منها فبانوا وظعنوا عن ساحتها فكأنهم ما كانوا ، ولم يبق إلا مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها ، وأثافى دهم أعجلت المهابة ما رد سغبهم عن طعامها ، وغربان بيْن كأنها فى الديار ما قطع من رءوس بنى حامها ، وعوافى طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامها ، وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم وأداء أخبارهم ، ذاكرة أنهم لبسوا الليل حداداً على النعمة التى خلعت ، وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت ، وأنهم طلعوا الأوعار أوعالا والعقاب عقباناً ، وكانوا لمهابط الأودية سيولا ، ولأعالى الشجر قضباناً — فرأى المملوك أن الكتاب فيهم قد بلغ أجله ، والحزم منهم قد نال أمله ، والفتك بهم قد أعمل منصله ، وأن سيوف عساكر أمير المؤمنين منزهة أن تريق الإدماء

أكفائها من الأبطال ، وأن تلقى إلا وجوه أنظارها من الرجال ، وأن المذكورين نمل حطمه سليمان عليه السلام وجنوده ، ورحل أطاره العاصف الذى يسحفه ويقوده — وأصدر هذه الخدمة والبلاد من معرتهم عارية ، والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ، ويدا الله على أعدائه عادية ، وأنفس المخاذيل فى وثاق مهابته العالية عانية — فرأى المملوك أن يرتب بعده الأمير فلاناً ليبذل الأمانات ، لسوقة أهل البلاد ومزارعيها ، ويفصل المحاكمات ، بين متابعى السلطنة ومطاوعيها ، ويفسح مجال الإحسان لمعاودى المواطن ومراجعيها ، فيعمر من البلاد ما قد شغر ، ويشعر بالأمنة من لاشعر ، فإن مقام المملوك ومن معه من عساكر تمنع الشمس من مطلعها ، وترد جرية البحر عن موقعها ، مما يضر بالغلال وينسفها ، ويجحف بالرعايا ويعسفها .

فالحمد لله الذى جعل النصر لائذاً بأعطاف اعتزامه ، وأنامل الرعب السائر إلى الأعداء محركة عذبات أعلامه ، والعساكر المناضلة بسلاح ولائه ، تغنى بأسمائها عن مرهفاتها ، والكتائب المقاتلة بشعار علائه تقرأ كتب النصر من حماتها .



تذكرة أنشأها القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأرسلها صحبة الأمير شمس الدين الخطيب — أحد أمراء الدولة الصلاحية — إلى أبواب الخلافة ببغداد ، فى خلافة الناصر لدين الله .

وفى هذه التذكرة يعدد صلاح الدين فتوحه وانتصاراته فى مصر واليمن والمغرب ، ويسأل الخليفة أن يرسل إليه التقاليد بتوليته على هذه البلاد وعلى ماقد يفتحه فى المستقبل من بلاد أخرى[1] .

(عن : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٨١ — ٩٠)

تذكرة مباركة ولم تزل الذكرى للمؤمنين نافعة ولعوارضِ الشكّ دافعة ؛ ضُمِّنت أغراضاً يُقَيِّدها الكتاب ، إلى أن يطلقها الخطاب ، على أن السائر سَيَّار البيان ، والرسولَ يَمْضى على رِسْلِ التبيان ؛ والله سبحانه يُسدّده قائلا وفاعلا ، ويحفظه بادئًا وعائداً ، ومقيما وراحلا .

الأميرُ الفقيهُ شمسُ الدين خطيبُ الخطباء — أدام الله نعمتَه وكتب سلامتَه ،

(١) كنا نشرنا نص هذه التذكرة فى ملاحق الجزء الثانى من طبعتنا هذه لمفرج الكروب نقلا عن الروضتين ، غير أنا وجدنا بعد هذا أن صاحب صبح الأعشى قد أثبت نص هذه التذكرة كاملا ، فى حين أنه فى الروضتين ينقص المقدمة والخاتمة ، ولهذا آثرنا نشر النص الكامل هنا مرة أخرى .

وأحسن صحابته — يتوجه بعد الاستخارة ، ويقصد دار السلام ، والخِطّةَ التي هي عُشّ بيضةِ الإسلام ؛ ومجتمع رجاء الرجال ، ومتسع رحاب الرِّحال ؛ فإذا نظر تلك الدارَ الدارَّ سحابُها ، وشافه بالنظر معالمَ ذلك الحرم المحرّم خِطابُها ؛ ووقف أمامَ تلك المواقف التي تحشُد الأرجلَ عليها الرءوس ، وقام بتلك المنازل التي تُنافِس الأجسامَ فيها النفوس ، فلو استطاعت لزارت الأرواحُ محرمةً من أجسادها ، وطافت بكعبتها متجردةً من أغمادها ، فليمطر الأرضَ هناك عَنّا قُبلا تُحَصِّلها ، بأعداد لا نُحَصِّلها ؛ وليسلِّم عليها سلاما نَعْتَدُّه من شعائر الدين اللازمة ، وسُنَن الإسلام القائمة ، وليورد عنا تحيَّةً يستنزلها من عند الله تحية مباركةً طيِّبة ، وصلاةً تخترق أنوارُها الأستارَ المحجَّبة ، وليصافح عنّا بوجهه صَفْحة الثَّرى ، وليستَشْرِفْ عنا بنظرِه فقد ظَفِر بصباح السُّرى ، وليستلم الأركانَ الشريفة ، فإن الدِّين إليها مستَنِد ، وليستدم الملاحظات اللطيفة ، فإن النورَ منها مستَمَدّ ، وإذا قضى التسليمَ وحقَّ اللقاء ، واستدعى الإخلاصُ جَهْد الدعاء ، فليَعُدْ وليُعِدْ حوادثَ ما كانت حديثاً يُفترى ، وجَوارِيَ أمور إن قال منها كثيراً فأكثرُ منه ماجرى ، وليشرحْ صدراً منها لعله يشرحُ منا صدرا ، وليوضِّح الأحوالَ المستسرة فإنَّ اللهَ لا يُعْبَدُ سِرّا :

وَمِنَ الغرائبِ أن تَسِيرَ غرائبٌ في الأرضِ لم يَعْلَمْ بها المأمولُ
كالعِيس أقتَلُ ما يكون لها الظَّما والماءُ فَوْقَ ظهورِها محمولُ

فإنا كنا نقتبسُ النارَ بأيدينا ، وغيرنا يستنير ، ونستنبطُ الماءَ بأيْدِنا ، وغيرُنا يستمير ، ونَلْقَى السِّهامَ بنحورنا ، وغيرُنا يغيِّرُ التصوير ، ونصافحُ الصِّفاح بصدورنا ، وغيرُنا يدَّعى التصدير ، ولابدَّ أنْ نستَرِدَّ بضاعتنا ، بموقف العدل الذى تُرَدّ به الغصوب ، ونظهر طاعتنا ، فنأخذ بحظِّ الألسنة كما أخذنا بحَظِّ القلوب ، وما كان العائقُ إلا أنَّا كنا ننظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة ،

يضاهى ابتداءنا بالخِدْمة ، و إيجاباً للحق ، يشا كل إيجابنا للسبق ، إلى أن يكون سحابُها بغيرِ يدٍ مستَنْزَلا ، وروضُها بغير غرس مُطْفِلا .

كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام نفتح الفتوحاتِ مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفَّارَ متقدمين لعساكره نحن ووالدُنا وعمُّنا ، فأىُّ مدينة فُتحت ، أو مَعْقِلٍ مُلِكَ ، أو عسكر للعدو كُسِر ، أو مَصَافٍّ للإســـلام معه ضرب ، فما يجهل أحد ، ولا يجحدُ عدو ، أنَّا نصطلى الجمره ، ونَملِكُ الكَسْرَه ، ونتقدمُ الجماعة ونرتِّب المقاتلة ، وندبِّر التعبئة ، إلى أن ظهرتْ فى الشام الآثارُ التى لنا أجرُها ، ولا يضرُّنا أن يكون لغيرنا ذكرُها .

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوالُ عليه فيها من سوء التدبير ، وبما دولتُها عليه من غلبة صغيرٍ على كبير ، وأن النظام قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل قائم بها وقعد ، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ، وأن كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة ، فإنها مقموعة ، وأحكامَ الشريعة وإن كانت مسمَّاة ، فإنها مُتحَاماة ، وتلك البدع بها على ما يُعْلَم ، وتلك الضلالات فيها على ما يُفْتَى منها بفراق الإسلام ويُحْكَم ، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصابُ قد نُصبت آلهةً تُتَّخذ من دون الله تُعظَّم وتُفَخَّم ، فتعالى الله عن شَبَه العباد ، ووَيْلٌ لمن غرَّه تقلُّب الذين كفروا فى البلاد .

فَسَمَتْ هِمَمُنا دون هِمَمِ ملوك الأرض إلى أن نستفتح مُقْفَلها ، ونسترجع للإسلامِ شاردَها ، ونعيد على الدين ضالَّته منها ، فَسِرْنَا إليها بعساكر ضَخْمة ، وجموعٍ جمَّة ، و بأموال انتهكت الموجود ، و بلغت منا المجهود ، وأنفقناها من خالص ذممنا وكسب أيدينا ، ومن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا ، فعرضت عوارضُ منعت ، وتوجَّهت

المصريين حِيَل باستنجاد الفرنج تمّت : (ولكلِّ أجلٍ كتاب) . ولكلِّ أملٍ باب .

وكان فى تقدير الله سبحانه أنا نملكها على الوجه الأحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرةً فى هدنة عَظُمَ خطبُها وخبطُها ، وعُلِم أنّ استئصال كلمة الإسلام محطُّها ، وكاتبنا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون من الشام فى هذا الأوان ، بأنا إن لم ندرك الأمر وإلا خرج من اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم يمهل إلى الغد ، فسرنا بالعساكر الموجودة والأمراء الأهل المعروفة إلى بلادٍ قد تمهّد لنا بها أمران ، وتقرر لنا فيها فى القلوب وُدّان : الأول لما علموه من إيثارنا المذهبَ الأقوم ، وإحياء الحقّ الأقدم ، والآخر لما يرجونه من فكِّ إسارهم ، وإقالة عِثارهم ، ففعل اللهُ ما هو أهلُه ، وجاء الخبرُ إلى العدو فانقطع حبلُه ، وضاقت به سُبُلُه ، وأُفْرِجَ عن الديارِ بعد أن كانتْ ضِياعُها ورساتيقُها وبلادُها وإقليمها قد نَفَذَتْ فيها أوامرُه ، وخفقتْ عليها صلبانُه ، وأَمِنَ من أن يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلا ، وأن يُستنقذ ما صار فى ملكهم داخلا ، ووصلنا البلادَ وبها أجنادٌ ، عددُهم كثير ، وسوادُهم كبير ، وأموالُهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام أقدرُ منهم على حرب الكفر ، والحيلةُ فى السر منهم أنفذ من العزيمة فى الجَهْر . وبها راجلٌ من السودان يزيد على مائة ألف رجل ، كلهم أغتامٌ أعجام ، إن هُمْ إلا كالأنعام ، لايعرفون ربًّا إلا ساكنَ قصْره ، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه ، وبها عسكرٌ من الأرمن باقون على النصرانية ، موضوعةٌ عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشِكّة ، وحمية وحمة ، ولهم حواشٍ لقصرهم من بين داعٍ تلطف فى الضلالِ مداخلُه ، وتصيبُ العقولَ مخاتلُه ، ومن بين كتّابٍ ، أقلامُهم تفعل أفعال الأَسَل ، وخُدّامٍ يجمعون إلى سوادِ الوجوه سوادَ النِّحَل ، ودولةٍ

قد كبر عليها الصغير ، ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع خطراتِ الضمير ، فكيف لحظات التدبير .

هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدولٍ إلى غير مراد الله فى التنزيل ، وكُفرٍ سُمى بغير اسمه ، وشرعٍ يتستر به ، ويُحْكَمُ بغير حُكْمِه .

فمازلنا نسحتهم سَحْتَ المبارد للشفار ، ونتحيفهم تحيّف الليل والنهار للأعمار ، بعجائب تدبير ، لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقرير لا تحملها الأساطير ، ولطف توصلٍ ما كان فى حيلة البشر ولا قدرتهم إلا إعانة المقادير ، وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج دفعة إلى بلبيس ، ودفعة إلى دمياط ، وفى كل منهما وصلوا بالعدو الجمهر والحشد الأوفر ، وخصوصاً فى نَوْبةِ دمياط فإنهم نازلوها بحراً فى ألف مركب مقاتل وحامل ، وبراً فى مائتى ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصابحونها ، القتال الذى يصليه الصليب ، والقراع الذى ينادى به من مكان قريب ، ونحن نقاتل العدوين : الباطنَ والظاهر ، ونصابر الضدين : المنافقَ والكافر ، حتى أتى اللهُ بأمره ، وأيّدنا بنصره ، وخابت المطامعُ من المصريين ومن الفرنج ، ومن ملك الروم ومن الجنَوِيين وأجناس الروم ، لأن أنفارهم تنافرت ، ونصاراهم تناصرت ، وأناجيل طواغيتهم رُفعت ، وصُلُب صلبوتهم أُخرجت ، وشرعنا فى تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن فأخرجناهم من القاهرة تارة بالأوامر المرهقة لهم ، وبالذنوب الفاضحة منهم ، وبالسيوف المجردة وبالنار المحرقة ، حتى بقى القصرُ ومَنْ به من خدمه قد تفرقتْ شيعُه ، وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوتُه ، وخفيت ضلالتُه .

فهنالك تمتْ لنا إقامةُ الكلمة والجهر بالخطبة ، والرفع للواء السواد الأعظم ،

والجمع لكلمة السواد الأعظم ، وعاجل اللهُ الطاغيةَ الأكبر بفنائه ، وبرأنا من عهدة يمين كان حنثها أيسر من إثم إبقائه ، إلا أنه عوجل لفرط روعته ووافق هلاكُ شخصه هلاكَ دولته .

ولما خلا ذرعنا ، ورحبُ وسعنا ، نظرنا فى الغزوات إلى بلاد الكفار ، فلم تخرج سنةٌ إلا عن سُنَّةٍ أقيمت فيها براً وبحراً ، ومركباً وظهراً ، إلى أن أوسعناهم قتلا وأسراً ، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقلَ ما خطر أهلُ الإسلام فيها منذ أخذت من أيديهم ، وما أوجفت فيها خيلُهم ولا ركابهم مُذْ ملكها أعاديهم ، فمنها ما حكمت فيه يدُ الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها فى بحر الهند ، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا ، وخرق الكفر فى هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يستوى على أصلها ، ومساجدُ الله أن يسكنها غيرُ أهلها ، ومقامُ الخليل صلوات الله عليه أن يقوم به مَنْ ناره غيرُ برد وسلام ، ومضجعُ الرسول شرّفه الله أن يتطرقه مَنْ لا يدين بما جاء به من الإسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شُرح ما تم بها للمسلمين من الأثر الجليل ، وما استدّ من خلاتهم ، وأحرق من زروع المشركين ورعى من غلاتهم ، إلى أن ضعفت ثغورُهم ، واختلت أمورُهم ، لاحتيج فيه إلى زمن يشغل عن المهمات الشريفة لسماع مورده ، وإيضاح مقصده .

وكان باليمن ما عُلم من ابن مهدى الضال وله آثار فى الإسلام ، وثأر طالبُه النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل ما لا تقر عليه نفس ، وكان ببدعه دعا إلى قبر أبيه وسماه كعبه ، وأخذ أموالَ الرعايا المصونة وأجاحها ، وأحلّ الفروج المحرّمة وأباحها ، فأنهضنا

إليه أخانا بعسكرنا بعدأن تكلفنا له نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه ولله الحمد ، وأنجح اللهُ فيه القصد ، ووردتنا كتبُ عساكرنا وأمرائنا بما نفذ فى ابن مهدى و بلاده المفتتحة ومعاقله المستضافة ، والكلمةُ هنالك بمشيئة الله إلى الهند سارية ، و إلى ما لم يفتض الإسلام عُذْرَتَهُ منذ أقام الله كلمته متمادية .

وانما فى المغرب ، أثر أغرب ، وفى أعماله أعمال دون مطالبها كما يكون المهلك دون المطلب ، وذلك أن بنى عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر ، وملكهم قد عمر ، وجيوشهم لانطاق ، وأوامرهم لا تشاق ، ونحن والحمد لله قد ملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيرّنا عسكراً بعد عسكر رجع بنصر بعد نصر ، ومن البلاد المشاهير ، والأقاليم الجماهير : ــ لك ، برقة ، قفصة ، قسطيلية ، توزر .

كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضىء بالله — سلام الله عليه — ولا عهد للإسلام بإقامتها ، وتنفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها .

وفى هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار ، مقداره سبعون راكباً كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً ، و يرجو منا وعداً و يخاف وعيداً .

وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها ، وألقيت إلينا مقاليدها ، وسيرّنا الخلع والألوية ، والمناشير بما فيها من الأوامر والأقضية .

وأما الأعداء الذين يحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلونها بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم : صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر ، والجبار الأكفر ، وصاحب المملكة التى أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية التى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، وجرت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرية وسرية ، وكانت له فى البلاد مطامعُ ، منها أن يجبى خراجا ،

ومنها أن يملك منها فجاجا ، وكانت غصةً لا يسيغها الماء ، وداهية لا ترجى لها الأرض بل السماء ، فأخذنا ولله الحمد بكظمه ، وأقمناه على قدمه ، ولم نخرج من مصر ، إلى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة فى نوبتيْن بكتابيْن ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ، و إلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة ، إلى مهاداة ، ومن منافحة إلى مناصحة ، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى يرد ذكرها ، وعساكره التى لم يخف أمرها .

ومن هؤلاء الكفار صاحبُ صقلية هذا ، كان حين علم أن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط ، فغُلبا وهُزما وكُسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة بمفردها ، وعزمته القائمة بمجردها ، فعمَّر أسطولا استوعب فيه ماله وزمانه : فإنه إلى الآن منذ خمس سنين يُكثِّر عدته ، وينتخب عدته ، ويجتاب مقاتلاته إلى أن وصل منها فى السنة الخالية إلى اسكندرية أمر رائع ، وخَطْبٌ هائل ، وما أثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ، ما هو إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش مااحتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله ؟ ولو ذهبنا نصف ما ذهب ، فيه من ذهب ، وما أخذ منه من سلاح وخيل وعدد ومجانيق ، ومَنْ أسر منه من خيالة كبار ومقدمين ذوى أقدار وملوك يقاطعون بالجمال التى لها مقدار ، وكيف أخذه وهو فى العدد الأكثر بالعدد الأقل من رجالنا ، وكيف نصر الله عليه مع الأصعب من قتاله بالأسهل من قتالنا ، لَعُلِمَ أن عناية الله بالإسلام تغنيه عن السلاح ، وكفاية الله لهذا الدين تكفيه مُؤنة الكفاح .

ومن هؤلاء الجنويين الذين يسربون الجيوش : البنادقة — البياشنة — الجنوية ، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سُفَّاراً ، يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقتصر عنهم يد الأحكام

المرهوبة ؛ وما منهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلةَ قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة ، وانتظمت معه المسالمة ؛ على ما نريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون .

ولما قضى الله بالوفاة النورية ، وكنا فى تلك السنة على نية الغزو ، والعساكر قد ظهرت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج بانياس وأشرفوا على احتيازها ، ورأوها فرصة مدوا إليها يد انتهازها ، استصرخ بنا صاحبُها للمانعة ، واستنهضنا لتفريج الكرب الواقعة ؛ فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ولا قبل كثيرُها ولا قليلُها ؛ ثم عدنا إلى البلاد فتوافت إلينا الأخبار بما الدولة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ؛ وأنَّ كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا بلاداً يتحيَّفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة قد سجن أكابرهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الذين للمتوفى أغرار خلقوا للأطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للجلوس فى المحفل المحضور ، وقد مدُّوا الأعين والأيدى والسيوف ، وساءت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وكلٌّ واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً ويرفع عنهم ذخيرةً كانت للإسلام ، ويفرج لهم عن أسير من أكابر الكفار كان مقامُه مما يدفع شراً ، ولا يزيد نار الكفر جمراً ، وإطلاقه يجلب قطيعة تقوى إسلاماً وتضعف كفراً ، فكثرتْ إلينا مكاتبات أهل الآراء الصائبة ، ونظرنا للاسلام ولنا ولبلاد الإسلام فى العاقبة .

وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه . وأمر الكفر إن لم يجرد العزم فى قلعه ، وإلا ثبتت عروقُه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ؛

وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة ، وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة والخيل مستريحة . والعساكر كثيرة . والجموع متيسرة . والأوقات مساعدة . وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة. وأمور مختلة . وآراء فاسدة، وأمراء متحاسدة ؛ وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ؛ وحفظنا الولد القائم بعد أبيه . وكفلناه كفالة من يقضى الحقّ ويوفيه ، فإنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء بخدمه وهم عاملون بظلمه ؛ والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ؛ ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الزلفة ، ويفتح بقية البلاد . ويطبق بالاسم العباسى كل ما تخطئه العهاد —ونحن نقترح على الأحكام المعهودة ، وننتظر أن يأتى الإنعام على الغايات المزيدة ؛ وهو : تقليدٌ جامع لمصر والمغرب واليمن والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولايةُ النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيوفنا وسيوف عساكرنا . ولمن نقيمه من أخ وولد من بعدنا ، تقليدا يضمن للنعمة تخليداً . وللدعوة تجديداً ؛ مع ما ينعم به من السمات التى يقتضيها الملك ، فإن الإمارة اليوم بحسن نيتنا فى الخدمة تصرّفُ بأقلامنا . وتستفاد من تحت أعلامنا . ويتبين أن أمراء الدولة النورية يحتاج إليهم فى فتح البلاد القدسية ضرورة : لأنها منازل العساكر ، ومجمع الأنفار والعشائر ، فمتى لم يكن عليهم يد حاكمة ، وفيهم كلمة نافذة ، منعهم ولاة البلاد و بغاة العناد .

وبالجملة فالشام لا ينتظم أمرهُ بمن فيه ، وفتح بيت المقدس ليس له قِرْنٌ يقوم به ويكفيه ؛ والفرنج ، فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرناً لا يزال يحرم السيف حتى يحلوا ؛ حتى إنا لما جاورناهم فى هذا الأمد القريب ، وعلموا أن المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب ؛ استشعروا بفراق بلاهم . وتهادوا

التعازى لأرواحهم بأجسادهم ، و إذا سدّد رأينا حسنُ الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده ، و بلغنا المنى بمشيئة الله و يد كل مسلم تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذى أسرى الله إليه بعبده .

هذا ما لاح طلبه على قدر الزمان . والأنفسُ تطلب على مقدار الإحسان ؛ فإن فى استنهاض نيات الخدام بالإنعام ما يعود على الدولة منافعه ، وتنكأ الأعداء مواقعه ؛ وتبعث العزائم من موت منامها ، وتنفضُ البصائر غبار ظلامها ، والله تعالى ينجد إرادتنا فى الخدمة بمضاعفة الاقتدار ، ومساعدة الأقدار إن شاء الله تعالى.



صورة العهد الصادر عن ديوان الإنشـــاء ببغداد بتولية صلاح الدين ملك مصر وأعمالها ، والصعيد الأعلى ، والاسكندرية وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل ، و بلاد اليمن وما افتتحه منها ، و يستخلصه بعدُ من ولايتها .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ١٤٥ — ١٥٢)

« إنَّ أَوْلىٰ من جادَتْ رِباعَه سُحُبُ الاصْطِناع ، وخُصَّ من الاصْطفاء والاجْتباء بالصَّفَايا والمِرْباع ، مَنْ تَوَسَّم انتهاجَ الجَدَد القويم ، والطريق الواضِح المستَقيم ، واعتاقَ من الوَلاَء بأوثَقِ عِصَمِه وحِبالِه ، والفناء الذى يَهْتَدِى بأنواره فى مُتَصَّرفاته وأعمالِه ، والتَحلِّى بجميلِ الذِّكرِ فى سيرته ، وخُلُوص الاعتناء بأُمور رعِيَّته ، وكان راغباً فى اقْتِناء حَميدِ الخِلاَل ، مجتهدًا فى طاعةِ الله بما يُرْضِيه من العدْل الممتدِّ الظِّلاَل ، عاملاً فيما يُناطُ به بما يتَضوَّعُ نَشْرُ خَبَرِه ، ويُجْتَنىٰ بحُسْنِ صُنْعِه يانِعُ ثمره ، باذلاً وُسْعَه فى الصلاح ، مُؤْذِنةً مَساعِيه بفَوْز القِدَاح .

ولمّا كان الملكُ الأجلُّ ، السيدُ ، صلاحُ الدين ، ناصرُ الإسلام ، عمادُ الدولة جَمالُ المُلْك ، فَخْرُ المِلّة ، صَفِىّ الخلافة ، تاجُ الملوك والسلاطين ، قامعُ الكَفَرة والمشركين ، قاهِرُ الخوارجِ والمتَمرِّدِين ، عِزُّ المجاهدين ، أَلْب غازى بِكْ بن يُوسف بن أيُّوب — أدام الله عُلوَّه — على هذه السَّجايا مُقْبِلا ، و بِصفاتِها الكاملة مشتَمِلا ، مُؤْثِراً تضاعُفَ المأْثُرات ، مثابراً على ما تزْكُو به الأعمالُ

الصالحات ، متحليًا بالمحامد الرائعة ، مستبدًا بالمناقب التى هى لجميل أفعاله موافقة مطابقة ، محصلا من رضا الله تعالى ما يؤثره و يرومه ، [و] من طاعة الدار العزيزة — لا زالت مشيدة البناء ، سابغة النعماء ، دائمة الاستبشار ، عزيزة الأنصار — [و] من استمرار الظفر ما يستديمه — اقتضت الآراء الشريفة — لازال التوفيق قرينها ، والتأييد مظافرها ومعينها — إمضاء تصرفه وإنفاذ حكمه فى بلاد مصر وأعمالها ، والصعيد الأعلى ، والإسكندرية ، وما يفتحه من بلاد الغرب والساحل ، و بلاد اليمن وما افتتحه منها و يستخلصه بعد من ولايتها ؛ والتعويل فى هذه الولايات عليه ، واستنقاذ ما استولى عليه الكفار من البلاد ، وإعزاز كل من أذلوه واضطهدوه من العباد ، لتعود الثغور بيمن نقيبته ضاحكة المباسم ، و بإصابة رأيه قائمة المواسم .

أمره بادئًا بتقوى الله التى هى الجنة الواقية . والذخيرة الباقية . والعصمة الكافية . والزاد إذا أنفض وفد الآخرة وأرملوا ، والعتاد النافع إذا وجدوا شاهداً لهم وعليهم ما عملوا : فإنها العلم المنصوب للرشد ، قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) .

وأمره أن يتخذ كتاب الله — سبحانه — العلم الذى به يقتدى . و بأنواره إلى حدود الصواب يهتدى ، ويستمع لزواجره ومواعظه ، و يعتبر بتخويفه وملاحظه ، ويصغى إليه بسمعه وقلبه ، وجوارحه ولبه ، و يعمل بأوامره المحكمة و يقف عند نواهيه المبرمة ، و يتدبر ما حوته آياته من الوعد والوعيد ، والزجر والتهديد ، وقال الله عز وجل : (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

وأمره أن يكون على صلاته محافظًا ، ولنفسه عن الإخلال والتقصير فى أداء

فَرْضها واعِظاً ؛ فيغْتَنِم الاستعدادَ أمام أوقاتها للأَدَاء، ويحترز من فَوَاتها والحاجة إلى القَضاء ، مُوَفِّيا حقَّها من الرُّكُوع والسُّجود ، على الوصْف الواجبِ المحدُود ، مُخْلِصاً سرَّه عند الدُّخول فيها ، وناهياً نَفْسَه عمَّا يَصُدُّها بالأفكار ويُلْهِيها ، مجتهداً فى نَفْى الفِكْر والوِسْواس مِنْ قَلْبه ، منتصباً فى إخلاصِ العبادةِ لرَبِّه : ليغْدُوَ بِوصْف الأبرارِ منْعُوتاً ، قال الله تعالى : (إِنَّ الصَّلاَةَ كانَتْ على المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً) .

وأمَرَه بقَصْد المساجِد الجامعةِ فى أيَّام الجُمَع ، امتثالاً لأَمْرِ الله المتَّبَع ، بعزيمةٍ فى الخير صادقة ، ونيَّة للعبادة مُوافِقة ، وفى الأعياد إلى المُصَلَّيات المُصْحِرة المجمَّلة بالمنابر الحالية ، التى هى عن الأدناس مطَّهرةٌ نائية ، فإنَّها من مَواضِع العبادة ومَواطِنِها ومَظَانِّ تلاوة القرآن المأمور بحفظ آدابِها وسُنَنِها ، فقدْ وصف اللهُ تعالى مَنْ وفَّقه لتحميل مُؤنَه بالعِمارة ، بما أوضح فيـه الإشارَة ، وشَرَّفَه بوضْع سِمَةِ الإيمان عليه بالإكرامِ الفاخِر ، فقال : (إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليوْمِ الْآخِرِ) فيقِيمُ الدعوةَ الهادِيَة على المَنَابر على عادةِ مَنْ تقدَّمه ومُنْتَهِيا فيها إلى أحَسنِ ماعهِدَه وعَلِمَه .

وأمره بلُزُوم نَزَاهة الحُرُمات ، واجتنابِ المُحَرَّمات ، والتَحلِّى من العَفَاف والوَرَع بأجمل القَلائد الرائِقة ، والتقمصُّ بمَلاَبس التقوى التى هى بأمثالِه لائقة ؛ وسلوكِ مَنَاهِج الصَّلاح الذى يَجْمُلُ به فِعلُه ؛ ويصْفو له عَلُّه ونَهَلُه ؛ وأن يمنَعَ نَفْسه من الغَضَب ؛ ويَرُدَّها عمَّا تأمُرُ به من سوءِ المُكْتَسْبَ ؛ ويأخذها بآدابِ الله سبحانه فى نَهْيِها عن الهَوى ؛ وحملها على التقوى ؛ وردعها عن التورط فى المهاوى والشُّبَه وكلِّ أمرٍ يلتبس فيه الحقُّ ويشتبه ؛ ويُلزِمَها الأَخْذَ بالعفو والصَّفْح . والتأمل لمكان الأعمال فيه واللَّمْح ؛ قال الله تعالى : (خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ) .

وأمَرَه بإحسانِ السِّيرة فى الرعايا بتلكَ البِلاد ، واختصاصِهم بالصَّوْنِ الرائح الغاد ، ونَشْر جناح الرِّعايةِ على البعيدمنهم والقَرِيب ، و إحلالِ كلٍّ منهم مَحلّه على القاعدةِ والترتيب ؛ و إشاعةِ المَعْدَلَةِ فيهم ، و إسهامِ دانيهم من وافر مُلاَحَظَتِه وقاصِيهم ، وأنْ يحمى سَرْحَهم من كل داعِر ، ويذُوَد عنهم كل مُوارِبٍ بالفساد ومُظَاهِر ، حتّى تصفُوَ لهم من الأمن الشرائع ، وتَضْفُوَ عليهم من بَركة ولايته المدارِع ، وتستنير بضوءِ العدلِ منهم المطالع ، ويحترم أكابرهم ، ويحنُوَ على أصاغِرِهم ، ويشملهم بكَنفِه ودِرعه ، وينتهىَ فى مصالحهم إلى غاية وُسْعِه ، ولا يألوهم فى النُصح جُهدا ، ولا يُخلف لهم فى الخير وَعْدا ، ويشاورهم فى أمره فإنَّ المشُورة داعيةٌ إلى الفَلاَح ، ومفتاحُ باب الصلاح ، قال الله تعالى : (فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِر لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فى الأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتوَكَّلْ عَلَى الله إنَّ اللهُ يُحِبُّ المُتوَكِّلِين) .

وأمره بإظهار العدل فى الرَّعية التى تضمها جميعُ الأكناف والأطراف ، والتحلِّى من النَّصفَةِ بأكمل الأوصاف ، وحَمْلِ كافّتهم على أقْوَمِ جَدَد ، وعصيانِ الهوى فى تقويم كلِّ أَوَد ، والمساواةِ بينالفاضِل والمفْضُول فى الحقِّ إذا ظهر صِدْقُ دليله ، والاشتمالِ عليهم بالأمن الذى يَعْذُب لهم بَرْدُ مَقِيله ، وكَشْفِ ظُلامة من انبسطتْ إلى تَحيُّفه الأيدى والأطماع ، وأعجزته النُصْرَةُ لنفسه والدِّفاع ، وتَصفُّحِ أحوالهم بعينٍ لا ترنُو إلى هَوًى يميلُ بها عن الواجب ، وسَمْعٍ لا يصغى إلى مَقَالةِ مائن ولا كاذب ، ولا يَغفُل عن مصْلحةٍ تعُود إليهم ،ويرجِع نَفْعُها عليهم ، ولا عن كشف ظُلاماتِ بعضِهم عن بعضٍ ، وردِّهم إلى الحقِّ فى كلِّ رَفْعٍ من أحوالهم وخَفْض ، فلا يُرى إلا بالحقِّ عاملا ، وللأُمُور على سَنَن الشريعة حامِلاً ، مجتنباً إغفالَ مصالحهم و إهمَالَهَا ، وحارساً نظامهاعلى تتابع الأيام واتصالها ،

ليكون ذلك إلى وُفور الأجْر داعياً ، وبحسن الأُحدوثة قاضياً ، مقتدياً بما نطق به القرآن . (إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعدل والإحسان) .

وأمَرَه أن يأمر بالمعروف ويقيم مَنارَه ، وينهى عن المنكر ويمحُوَ آثارَه ، فلا يتْرُكُ ممكناً من إظهار الحقِّ وإعلانه وقَمْع الباطل وإخماد نيرانه ، ويعتمدَ مساعدة كل مُرشد إلى الطريق الأقصد ، وناهٍ عن التظاهر بالمحظور فى كل مشهد ، وكل من تَضْحى معونته مشاركة فى إحراز المثوبة ومساهمة ، ومساومةً فى اقتناء الأجر ومقاسمه ، وأن يوعِزَ بإزالة مظان الريْب والفساد فى الدانى من الأعمال والقاصى ، فإنها مواطنُ الشيطان وأماكن المعاصى ، وأن يشدَّ على أيدى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، ويعينهم على ذلك بما يطيبُ ذكره فى كل مشهد ومحضر ، ويجتهد فى إزالة كل محظور ومنكر ، مقدمٍ فى الباطل ومؤخر ، قال الله تعالى : (وأْمُرْ بالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنْ المُنْكَر) .

وأمره أن يُقدِّم الاحتياطَ فى حِفْظِ الثغور ومجاوريها من الكفّار ، ويستعمل غايةَ التيقظ فى ذلك والاستظهار ، ليأمنَ عليها غوائل المكايد ، ويفوز من التوفيق لذلك بأنواع المحامد ، ويتجرّد لجهاد أعداء الدين والانتقام من الكفرة المارقين أخْذاً بقول رب العالمين : (انفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعلَمُونَ) .

وأن يعمل فيما يحصل من الغنائم عند فَلِّ جموعهم ، وافتتاح بلادهم وربوعهم ، بقول الله وما أمر به فى قسمتها ، وإيفاءِ كلِّ صاحب حصته منها ؛ سالكا سُبُلَ مَنْ غدا لآثارِ الصلاح مقتفيا ، وللفرض فى ذلك مؤديا ، وبهُدى ذوى الرُّشْد مهتديا ، قال الله تعالى فى محكم التنزيل : (واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابْنِ السَّبِيل) .

وأمره أن يجيبَ إلى الأمان مَنْ طلبه منه ، ويكون وفاؤه مقترنا بما تضمَّنه ، غير مُضمِرٍ خلافَ ما يُعطى به صفقةَ أمانِه ، ويجتنبَ الغَدْرَ وما فيه من العار ، وإسخاط الملك الجبَّار ، قال الله عز وجل : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ، وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ، وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) .

وأمره بأن يأمر أصحابَ المعاون بمساعدة القضاة والحكَّام ، ومعونتهم بما يقضى [بِلَمِّ] شملِ الصلاح فى تنفيذ القضايا والانتظام ، وأخذ الخصوم بإجابة الداعى إذا استحضر [وإلى] أبوابهم للإنصاف ، والمسارعة إلى الحقِّ الواجب عليهم من غير خلاف ، قال الله تعالى : (وَأَكْثَرُهُمْ لِلحَقِّ كَارِهُونَ) .

وأمره بالتعويل فى المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة على مَنْ يأوى إلى عفافٍ ودين ، وعِلْمٍ بأحكام الشريعة وصحةِ يقين ، لا يَخْفى عليه ما حرَّمه اللهُ تعالى وأحلَّه ، ولا يلتبس على علمه ما أوضح إلى الحقِّ الواضحِ سُبَلَه ؛ وإلى من يتولى المظالم بإيصال الخصوم إليه ، وإنصافهم كما أوجب الله تعالى عليه ؛ واستماع ظلاماتهم ، وإحسان النظر فى مشاجراتهم ، فإن أسفر للحقِّ ضياءٌ تبعه ، أو اشتبه الأمرُ ردَّه إلى الحكام ورفعه . و[إلى] الناظر فى أسواق الرقيق بالاحتراز والإستظهار ، وتعرية الأحوال من الشبه فى امتزاج العبيد بالأحرار . لتضحى الأنسابُ مصونةً مرعية ، والأموالُ عن الثَّلم محروسةً محمية ، وإلى من ينظر فى الحسبة بتصفح أحوال العامة فى متاجرهم وأموالهم ، وتتبع آثار صحتهم فى المعاملة واعتلالهم . واعتبار الموازين والمكاييل ، وإلزام أربابها الصحةَ والتعديل ؛ قال الله سبحانه وتعالى : (وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ المُسْتَقِيمِ) .

وأن يُعْمِل الجفنَ فى تطهير البلاد ، من كلِّ مدخول الاعتقاد ، معروف

بالشبه فى دينه والإلحاد ، ومَنْ يسعى منهم فى الفساد ، ويأمر المرتبين فى المراكز والأطراف باقتناصهم ، وكَفّ فسادهم وإجلائهم عن عِراصهم ، وأن يُجرى عليهم فى السياسة ما يجب على أمثالهم من الزنادقة والذين توبتُهم لا تُقبل ؛ وأمرُهم على حكم المخاطبين لا يُحمل ، قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) .

وأمره أن يتلقى النعمةَ التي أُفرغتْ عليه ، وانساقت إليه ؛ بشكْرٍ ينطقُ به لسانه ، ويترجمُ عنه بيانُه : ليستديم بذلك الإكرام ؛ ويقترن الإحسان عنده بالالتئام ؛ وأن يوفيها حقَّها من دوام الحمد، والقصد إلى شكرها والعمد ؛ قال الله تعالى : (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) .

وليعلم أن أميرَ المؤمنين قد بيَّن له من الصلاح ما اتضحتْ أعلامُه ؛ وأُثبتت فى المرامى سهامُه ؛ وأرشد إلى ما أودع هذا المنشورَ من جَدَدِ الفوْزِ بمرضاة الله تعالى وشكر عباده ؛ عاملا فى ذلك بمقتضى جِدِّه واجتهاده : ليحرز السبق فى دنياه وعقباه ؛ ويتوفر عنده ما مُنح به مما أرهف عزمَه وحباه ؛ وغدا بمكانه رافلا فى ملابسِ الفخر والبهاء ؛ نائلا مُنَى ما طال به منا كبَ القُرناء ؛ واختصَّ بما أعلى درجتَه ، فتقاعست عنه آمالُ حاسديه وتفرَّدَ بالمكانة عن مقام مَنْ يباريه ويناويه ؛ وأُولِىَ من الإنعام ما أمَّن به سِرْبَ النعمةِ عنده ؛ وأصفى من مناهل الإحسان وِرْدَه ؛ وأهدى إليه من المواعظ ما يجب أن يودعه واعيةَ الأسماع ؛ ويأخذ بالعمل به كلَّ راع ؛ فينهج — أدام الله علوَّه — محاجَّ الولاء ؛ الذى عهده من أمثاله من الأولياء ؛ متنزهاً عن تقصيرٍ منه فى عامة الأوقات ؛ ومراعياً أفعاله فى جميع التصرفات ؛ ويعلم أنه مسئولٌ عن كل ما تلفَّظ به لسانه ناطقاً ؛ ونظر طرفُه إليه رامقاً ؛ قبل أن يجانب هواه ؛ ويبقى رهيناً بما اكتسبت يداه ؛

ولا يغترَّ من الدنيا وزخرفها بغرار ليس الوفاء من طباعه ؛ ومُعير ما أقصر مدة ارتجاعه ! وسبيلُ كافّة القضاة والأعيان ومقدِّمى العساكر والأجناد ؛ ورؤساء البلاد ؛ متابعته وموافقته ؛ وطلب مصالحهم من جنابه ؛ والتصرفُ على استصوابه ؛ وقد أُكِّدَتْ وصاتُه فى الرفق بهم والاشتمال عليهم ؛ والإحسان إليهم ، وإجمال السِّيرة فيهم ؛ وكلّما أُشكل عليه أمرٌ من المتجددات يُطالع به الديوانَ العزيز — مجَّده اللهُ تعالى — ليُنْهِجَ له السبيل إلى فتح رِتاجِه ؛ وسلوكَ منهاجه ؛ واللهُ ولىُّ التوفيق والهداية ، وجمعِ الكلمة فى كل إعادة وبداية ؛ والمعونةِ على العصمة من الزلل ؛ والتأييد فى القول والعمل ؛ إن شاء الله تعالى ؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل » .



كان صلاح الدين قد أناب عنه فى سنة ٥٨٢ ابنه العزيز فى حكم مصر ، وأقطع أخاه العادل مديرية الشرقية ، فغضب ابن أخيه تقى الدين عمر ، وأخذ يعد العدة للسير بجيشه لفتح المغرب ، يلتمس لنفسه ملكا هناك ، وهذه قطعة من خطاب بقلم القاضى الفاضل أرسله صلاح الدين إلى ابن أخيه تقى الدين عمر فى هذا المعنى .

عن (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٠)

سببُ هذه الخدمة ما اتصل بالملوك من تردّد رسائلِ مولانا فى التماس السَّفَرِ إلى الغرب ، والدستور إليه .

(يكفى الزمانُ فما لنا نستعجل) .

يامولانا : ما هذا الواقعُ الذى وقع ، وما هذا الغريمُ من الهمِّ الذى ما اندفع ، بالأمس ما كان لكم من الدنيا إلا البُلْغَة ، واليوم قد وهب الله هذه النعمة ، وقد كان الشملُ مجموعا ، والهمُّ مقطوعاممنوعا ، أفتصبحُ الآن الدنيا ضيقةً علينا وقد وسعت ؟ والأسباب بنا مقطوعة ، ولا والله ، ما انقطعت ؟ .

يامولانا : إلى أين ؟ وما الغاية ؟ وهل نحن فى ضائقةٍ من عَيْشٍ ، أو فى قلةٍ من عددٍ ، أو فى عدمٍ من بلادٍ ، أو فى شكوى من عَدَمٍ ؟ .

كيف نختارُ على الله وقد اختار لنا ؟ وكيف ندبر لأنفسنا وهو قد دبَّر لنا ؟

وكيف نَنْتَجِعُ الجدْبَ ونحن فى دار الخصب ؟ وكيف نعدل إلى حرب الإسلامِ المَنْهِيِّ عنها ونحن فى المدعو إليها من حرب أهل الحرب؟ .

معاشر الُخدَّام والجيش وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد ؟ !

تَعَقَّبْ الرَّأْىَ ، وَانْظُرْ فِى أَوَاخِرِهِ   فَطَالَمَا التهمت قُدْمًا أوائلُه

لازال مولانا يُمْضى الآراء صائبةً ، ويلحظها باديةً وعاقبة ، ولا خَلَتْ منه دارٌ — إنْ خَلَتْ — فهيهات أن تُعْمَر ، ولا عدمتْه أيامٌ إن لم تطلع فيها شمسُ وَجْهِهِ دخلت فى عداد الليالى فلم تُذْكَر .



خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد يعتذر له عن تأخر الكتب ، و يذكر له خبر صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية من ملوك النصرانية من الروم والفرنج .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥١٥ — ٥١٦)

سلامُ اللهِ الأطيب، و بركاتُه التي يستدرّها الخُضّرُ والغُيَّبُ ؛ وزكواتُه التي ترفعُ أولياءه إلى الدَّرَج ، ونِعَمُه التى لم تجعلْ على أهلِ طاعته فى الدين من حرج — على مولانا سيد الخلق ، وسَادِّ الخرْق ، ومُسَدِّدِ أهل الحق ، ولابسِ الشعارِ لأطْهَرِ سواداً ، ومُسْتَحقِّ الطاعةِ التى أَسْعَدَ اللهُ مَنْ خَصَّهُ بها بَدْءا ومَعَادا ، ومولى الأمةِ الذى تشابه يومُ نداه و بأسِه إن ركضَ جُودًا أو جوادا ؛ وواحدِ الدهرِ الذى لا يُثَنّى و إليه القلوب تُثْنى ، ولا يقبلُ اللهُ جمعاً لا يكون لولائه جَمْعَ سلامةٍ لاجَمْعَ تكسير ، ولا استقبالَ قِبْلَةٍ ممن لا تكون محبتُه فى قلبه تقيم واسمه فى عمله إلى الله يسير ، مولانا أمير المؤمنين ، وعلى آبائه المالئى الأرضَ عدلا ، المِلَاء أهلا وفضلا ، والضاربين فيصلا والقائلين فصلا ، ومَنْ تقولُ الجنةُ لأهلها بهم أهلا ، المخصوصين بالعناية الإلهية ، الحاكمين فكلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورة وعن معصيتهم منهية ، والمشرفى الأساريرِ على أسرَّةِ الشرف فكم ملأتْ البهوَ مناظرُهم البهية .

المملوك يخدم الحرمَ الشريف باحترامه ، والفناء الكريمَ بإعظامه ؛

والبساطَ المُقَبَّلَ بطول استلامه ، والسِتْر الذى أسبله اللهُ على العباد بتحيته وسلامه ؛ وينهى أنه آخرُ الخَدَمِ عن أن ينتظم الأوقات المتجددة ، ويقتضب الحالاتِ المتجردة ، والرسل عن أن تتوارد دراكا ، وتتوالى وِشَاكا ؛ والإنهاءاتِ عن أن تثبت بالمقامات الشريفة النبوية ، ومجالس العرض العليّة ؛ ما انتهت إليه الأقدار ، وما أفضى إليه من كثير المناجح وقليل الأعذار ؛ فإن أدب الأمالى عن المطالعة كالصوم لا يُفَضُّ ختامُه ، ولا يُحَلُّ نظامُه إلا بعُيَيْد يطلعُ هلالُه مبشراً ، ويُبَثُّ خبرهُ فى الآفاق مُعَطِّرا ، فلو أن متكلفاً أفطر قبل موعده ، وورد الماء قبل مورده ، لكان مفسداً لعقده ، ناكثاً لعهده .

كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبار بجانبه مشتبهة ، والحقائقُ لديه غير متوجّهة ، فإن طاغيتى الكفر بقسطنطينية وصِقلية كانا قد أوقدا للحرب ناراً ، ورفعا لها أوزارا ، واتخذا لها أسطولا جاريا وعسكرا جرارا ، وتباريا ولم يزد اللهُ الظالمين إلا تَبارا ؛ وكتباً إلى الفرنج بعد انهزامهم بالنجدة والنُصْرة ، وتضمنا لهم الخروج والكره ، ويصفَان ما استعدا به بما لا يُعبر عنه إلا بالكثرة ، واستطارت الشناعة وتداولتها الألسن ، وخرجت من الأفواه حتى لقد كادت تدخل فيما رأته الأعين ، وورد إلى المملوك رسولٌ من طاغية القسطنطينية ، وهو أقدم ملوك النصرانية قدما وأكثرهم مالا منتمى ، فعرض عليه موادعةً يكون بها عسكره مودعا ، ويكون له بها مفزعا ، له ولصاحب صقلية الذى زعم أنه أصل للشر يكون الشر منه مُفَرَّعا ؛ فلم . . . ولم يجب إلى السلم ، ولم يَزَعْهُ أن عسكره — خذله الله — مُبَارٌ فى البَرِّ وفى اليمّ ، إن شاء الله تعالى .

رسالة بقلم القاضى الفاضل مرسلة من السلطان الملك الناصر صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بشأن انتصار الأسطول المصرى بقيادة أميره حسام الدين لؤلؤ على أسطول الصليبيين الذى جرؤ فعبر مياه البحر الأحمر قاصداً مهاجمة مدينتى مكة والمدينة وذلك فى شوال سنة ٥٧٨ .

(عن : أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦)

« وصل كتابُه المؤرخ بخامس ذى القعدة المُسْفِر عن المُسْفَر من الأخبار ، المتبسّم عن المتبسم من الآثار ، وهى نعمة تضمنت نعماً ، ونصرة جعلت الحرم حَرَمًا ، وكفايةٌ ما كان اللهُ ليؤخِّر معجزةَ نبيِّه — صلى الله عليه وسلم — بتأخيرها ، وعجيبةٌ من عجائب البحر التى يُحَدَّثُ عن تسييرها وتسخيرها ، وما كان الحاجبُ لؤلؤ فيها إلا سهماً أصاب،وحُمِدَ مُسَدِّدُه ، وسيفاً قَطَعَ،وشُكِرَ مُجَرِّدُه ، ورسولا عليه البلاغ وإن لم يجهل ماأثرته يدُه ، وقد غبطناه بأجرِ جهادِه ، ونُجْحِ اجتهادِه ، ركب السبيلَيْن : براً وبحراً ، وامتطى السابقَيْن : مركباً وظهراً ، وخطا فأوسع الخطوَ ، وغزا فأنجح الغزوَ ، وحبذا العنانُ الذى فى هذه الغزوةِ أُطلق ، والمالُ الذى فى هذه الـكَرَّةِ أُنفق .

وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عَوْرَةِ الإسلام وكشفوها ، وتَطَرَّقوا بلادَ القِبْلَةِ وتَطَوَّفوها ، ولو جرى فى ذلك سببٌ — والعياذ بالله — لضاقت الأعذار

إلى الله والخلق ، وانطلقت الألسن بالمذَّمة فى الغرب والشرق ، ولابد من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء من أنفاسهم ، بحيث لايعود منهم مُخْبِرٌ يدلُّ الكُفَّارَ على عورات المسلمين ، و إن هذا العدد القليل ، قد نال ذلك المنال الجليل، وهذا مقام إن روعى فيه حراسة الظاهر ، والوفاء للكافر ، حدث الفَتْقُ الذى لايمكن فى كل الأوقات سَدُّه وَرَتْقُهُ ، ولدغ المؤمن مرتيْن ، والأولى تكفى لمن له فى النظر تَفَقُّه » .



قطعة من خطاب ثانٍ بقلم القاضى الفاضل ، مرسل من صلاح الدين ـ وكان فى الشام ـ إلى أخيه العادل ـ فى مصر ـ بشأن الانتصار سالف الذكر ، وفيه يأمره بالإسراع بقتل أسرى الفرنج حتى لا يبقى منهم أحد يخبر بطريق ذلك البحر (الأحمر) .

عن : (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦)

« ونحن نهنئ المجلسَ السامى بظفره ولم لايُكَمِّلُه وَيَنْصُرُه ؟ وَلِمَ لايُعَجِّلُه وَيَشْكُرُه ؟ وليس فى قتل هؤلاء الكفَّارِ مراجعة ، ولا للشرع فى إبقائهم فُسْحَة ، ولا فى استبقاءِ واحدٍ منهم مصلحة ، ولا فى التغاضى عنهم عند الله عُذْرٌ مقبول ، ولا حُكْمُ اللهِ فى أمثالهم عند أهل العلم بِمُشْكِلٍ ولا مجهول ، فليُمْض العَزْمَ فى قَتْلهم ، ليتناهى أمثالُهم عن فِعْلِهِمْ ، وقد كانت عظيمة ما طُرِقَ الإسلامُ بمثلها ، وقد أتى اللهُ بعدها بلطيفةٍ أجراها على يد من رآه من أهلها » .

— ٩ —

قطعة من خطاب ثالث بقلم الفاضل مرسل من صلاح الدين إلى العادل فى مصر يكرر فيه ضرورة القضاء على أسرى الفرنج فى الموقعة السابقة الذين جرءوا على اجتياز بحر الحجاز .

عن : (أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٦ — ٣٧)

« قد تــكرَّر القولُ فى معنى أسارى بحر الحجاز ، فلا تَذَرْ على الأرضِ من الــكافرين ديَّارا ، ولا توردهم بعد ماءِ البحرِ إلا ناراً ، فأَقَلُّهم إذا بقى جنى الأمْرَ الأَصْعبَ ، ومتى لم تُعْجِل الراحةَ منهم وعدْتَ العاقبة بالأشقِّ الأتعب » .



قطعة من خطاب آخر مرسل من صلاح الدين إلى الخليفة
فى بغداد بشأن الغزوة الفرنجية سالفة الذكر فى البحر الأحمر .

عن : (أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧)

« وسارت المراكب الإسلامية طالبة شَوْكَةَ المراكبِ الحربية المتعرضة للمراكب الحجازية واليمنية ، وكانت مراكب العدو قد أوغلت فى البحرِ ، ودلَّها على عورات الساحلَيْن من العرب مَنْ أَشْبَهَ رُكَّابَها فى الكُفْر ، فوصلت إلى عَيْذَاب فلم ينل منها مرادًا ، غير أن ما وجدتْهُ فى طريقها أو فى فُرْضَةِ عَيْذاب نالت منه وشَعَّثَتْ ، وأفسدت فيه وَعَثَتْ ، وتمادتْ فى الساحل الحجازى إلى رابغ إلى سواحل الحوراء ، وهناك وقع عليها أصحابُنا وأوقعوا بها أشد إيقاع ، وأخذوا المراكبَ الفرنجيةَ على حكم البدارِ والإسراع ، فَفَرَّ فرنجُها إلى الساحل ، فركب أصحابُنا وراءهم خيولَ العربان التى وجدوها ، وأخذوا الكُفَّارَ من شِعَابٍ وجبالٍ اعتصموا بها وقصدوها ، وكُفِى المسلمون أشدَّ فساد فى أرضهم ، وأقطعَ قاطعٍ لفُرَضِهم ، وانبسطت آمالُهم بقبضهم ، وعميت على الكُفَّارِ هذه الطريق التى لو كشف لهم غطاؤها قدما ، ولو أحاطوا بها علماً ، لاشتطت نكايتُهم ، واشتدت جنايتهم ، وعَزَّ على قدماء ملوك مصر أن يصرعوا هذه الأقران ، و يطفئوا هذه النيران و يركبوا غواربَ اللجج ، و يُرخصوا غوالى المُهَج ، و يقتنصوا هذا هذا الطائر من جوِّه الذى لايدرك لوحُه ، ويدركوا هذا العدوَّ الذى لايُدركُ إلا أن تُستنجد عليه ملائكةُ اللهِ وروحُه » .

قطعة من خطاب آخر مرسل من صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد بشأن غزوة الفرنج سالفة الذكر فى البحر الأحمر ، وبهذا الخطاب تفصيلات جديدة هامة .

عن (أبوشامة : الروضتين ؛ ج ٢ ، ص ٣٧)

« كان الفرنجُ قد ركبوا من الأمرِ نُكْراً ، وافتضُّوا من البحرِ بِكْراً ، وعمَّروا مراكبَ حربيةً شحنوها بالمقاتلةِ والأسلحةِ والأزواد ، وضربوا بهاسواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا فى البلاد ، واشتدت مخافةُ أهلِ تلك الجوانب ، بل أهلِ القِبْلَةِ لما أومض إليهم من خَلَلِ العواقب ، وماظنَّ المسلمون إلا أنها الساعةُ وقد نُشِرَ مَطْوِيُّ أشراطِها ، والدنياوقد طُوِيَ مَنْشُورُ بساطها ، وانتظر غضبُ اللهِ لفناء بيته المحرَّمِ ، ومقام خليله الأكرم ، وتراثِ أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيِّه الأعظم — صلى الله عليه وسلم — ورجوا أن تُشْحذ البصائرُ آيةً كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى اللهِ الأمرَ ، وكان حسبهم ونعم الوكيل .

وكان للفرنج مقصدان : أحدهُما قلعة أَيْلة ، التى هى على فُوَّهَةِ بحر الحجاز ومداخله ، والآخرُ الخَوْضُ فى هذا البحر الذى تجاوره بلادُهم من ساحله ، وانقسموا فريقيْن ، وسلكوا طريقيْن : فأما الفريق الذى قصد قلعةَ أَيْلَةَ فإنَّه قَدَّر أن يمنع أهلَها من مَوْرِدِ الماء الذى به قوامُ الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه ؛ وأما الفريقُ القاصدُ سواحلَ الحجاز واليمن ، فقدَّر أن يمنع طريقَ الحاج عن حَجِّه ، ويحول بينه و بين فَجِّه ، ويأخذ تُجَّارَ اليمن وأكارمَ

عدن ، ويُلِمَّ بسواحلِ الحجاز ، فيستبيح — والعياذ بالله — المحارمَ ، ويهيجَ جزيرةَ العرب بعظيمةٍ دونها العظائم .

وكان الأخُ سيفُ الدين بمصر قد عمَّر مراكبَ وفرَّقها على الفرقتيْن، وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتيْن : فأما السائرةُ إلى قلعة أَيلَةَ فإنها انقضَّت على مرابطى الماء انقضاض الجوارح على بنات الماء ، وقذفتها قَذْفَ شُهُبِ السماء ، مسترقى سمع الظلماء ، فأخذتْ مراكبَ العدوِّ برُمَّتها ، وقتلتْ أكثرَ مقاتلتها إلا من تعلّق بهضْبَةٍ وما كاد ، أو دخل فى شِعْبٍ وما عاد ، فإنَّ العربان اقتصُّوا آثارهم ، والتزموا إحضارَهم ، فلم ينجُ منهم إلا من ينهى عن المعاودة ، ومن قد عَلِمَ أنَّ أَمْرَ الساعةِ واحدة ؛ وأما السائرةُ إلى بحرِ الحجاز فتمادت فى الساحل الحجازى إلى رابغ وسواحل الحوراء ، فأخذتْ تُجَّارًا ، وأخافت رفاقًا ، ودلَّها على غوارب البلاد من الأعراب مَنْ هو أشدُّ كفراً ونفاقاً ، وهناك وقع عليها أصحابُنا ، وأُخذت المراكبُ بأسرها ، وفرَّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا فى الجبال مهاوى المهالكِ ومعاطن المعاطب ، وركب أصحابُنا وراءهم خَيْلَ العربِ يشلونهم شلا ، ويقتنصونهم أسراً وقتلا ، وما زالوا يتبعونهم خمسةَ أيامٍ خيلا ورَجْلا ، نهاراً وليلا ، حتى لم يتركوا عنهم خبرا ، ولم يُبقوا لهم أثرا ، (وَسِيقَ الذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا) وقيد منهم مائة وسبعون أسيرا » .

— ١٢ —

قطعة من خطاب مرسل من صلاح الدين ـ وكان بالشام ـ إلى الخليفة فى بغداد ينقل إليه أخبار بعض انتصارات أسطوله على الفرنج فى البحر المتوسط، وبعض انتصارات عسكره فى المغرب .

عن : (أبوشامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧)

« ومن جملةِ البشائرِ الواصلةِ من مصر عَوْدُ الأسطولِ مرةً ثانيةً كاسراً كاسباً ، غانماً غالباً ، بعد نكايته فى أهل الجزائر ، وإخرابِ ما وجده فيها من الأعمالِ والعمائر ، ومن جملة ما ظفر به فى طريقة : بطشةٌ من مراكب الفرنج تحمل أخشابا منجورة إلى عكا ، ومعها نجارون ليبنوا منها شوانى ، فأُسِرَ النجارون ومَنْ معهم ، وهم نَيِّفٌ وسبعون ، وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون ، وكُفِى شرَّها المؤمنون ، وللخادم فى المغربِ عسكرٌ قد بلغت أقصى إفريقيةَ فُتُوحُه ، وعاود به شخص الدين فى تلك البلاد روحه » .

خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين
إلى « بردويل » أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ مستولٍ على
بيت المقدس وما معه ، معزِّياً له فى أبيه ، ومهنئاً له بجلوسه
فى الملك بعده .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١١٥ — ١١٦)

أما بعد — خصَّ الله الملكَ المعظَّم حافظَ بيت المقدس بالجَدِّ الصاعد ، والسَّعد الساعد ، والحظِّ الزائد . والتوفيق الوارد ، وهنَّأه من ملك قومه ما وُرِّثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوبَ الأصادق ، والنَّعْيِ الذى وَدِدْنا أن قائله غيرُ صادق ؛ بالمَلِك العادل الأعزِّ الذى لقَّاه الله خَيْرَ ما لَقِّي مثله ، وبَلَّغ الأرضَ سعادته كما بأنْعُمه محلَّه ؛ مُعَزٍّ بما يجب فيه العَزاء ، ومتأسِّفٌ لفقْده الذى عظُمت به الأرْزاء ؛ إلا أنَّ الله سبحانه قد هوَّنَ الحادث ، بأن جعل ولَدَهُ الوارث ، وأنْسَى المُصاب ، بأن حفِظَ به النِّصاب ، ووهَبَه النعمتين : المُلكَ والشَّباب ، فهنيئاً له ما حاز ، وَسَقْياً لقبر والده الذى حَقَّ له الفداء لو جاز ؛ ورسولُنا الرئيسُ العميدُ مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العَزَاء من لسانه ، ووَصْفِ ما نالنا من الوَحْشة لِفراق ذلك الصديق وخُلُوِّ مكانِه ، وكيف لا يستَوْحِش ربُّ الدار لفُرْقة جِيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، وَوُدِّنا الذى هو ميراثُهُ عن والده

من وِدَادنا ، فليَلْقَ التحيَّةَ بمثلها ولْيأتِ الحسنة ليكون من أهلها ، وليَعْلَمْ أنَّا له كما كنا لأبيه : مودّةٌ صافية ، وعَقِيدةٌ وافية ، ومحبّةٌ ثبت عَقْدُها فى الحياة والوفاة ، وسريرةٌ حَكمتْ فى الدنيا بالموافاة ، مع ما فى الدِّين من المخالَفَات . فليسترْسِلْ إلينا استرسالَ الواثِق الذى لايَخْجَلْ ، ولْيعتمِدْ علينا اعتمادَ الولد الذى لايحمِلُ عن والده ماتَحَمَّل ، والله يُدِيم تعميره ، ويحرُسُ تأميره ، ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويُلْهِمُهُ تصديقَ ظنِّ الصديق .



قطعة من خطاب مرسل من القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين فى نفس السنة ٥٨٢ بشأن موقف أخيه العادل وابن أخيه المظفر تقى الدين عمر منه وطمعهما فى ملك يطمئنان إليه .

(عن : أبو شامة الروضتين ، ج ٢ ؛ ص ٧١)

« الملكُ العادلُ والملكُ المظفرُ المذكوران ما هما أخٌ وابن أخٍ ، بل هما ولدان لا يعرفان إلا المولى والداً ومنعماً ، وكل واحد منهما له عُشٌّ كثيرُ الفراخ ، و بيتٌ كرقعةِ الشطرنج فيه صغارٌ وكبار كالبيادق والرخاخ ، فلا يُقْنِعُ كلَّ واحدٍ منهما إلا طرفٌ يملكه وأقليمٌ يتفرّد به ، فيُدَبِّرُ مولانا فى ذلك بما يقتضيهِ صدرُه الواسعُ وجودُه الذى ما نَظَرَ مثلَه الناظرُ ولا سمع السامع ، ولا ينسى قولَ عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — :

« مروا القرابةَ أن يتزاوروا ولا يتجاوروا » .

وما على مولانا عجلةٌ فى تدبيرٍ يدبِّره ولا فى أمرٍ يبيِّته ، (وستبدى لك الأيامُ ما كنتَ عارفاً) .

وفى غدٍ ما ليس فى اليوم ، ولله أقدارٌ ، ولها أمد ، وقد رزق الله مولانا ذريةً تودُّ لو قدمتْ أنفسها بين يديه ، ولو اكتحلتْ أجفانُها بغبارِ قدميْه ،

ما فيها مَنْ يُشْكَى منه إلا التزيدُ فى الطَّلَب ، وهو من بابِ الثقةِ بكرم المُنْعِم ، ولهم أولادٌ ، والمولى مَدَّ الآمالَ لهم ، كما قال مولى الأمة :

« تناكحوا ، تناسلوا ، فإنى مكاثرٌ بكم الأمم » .

طالما قال لهم المولى : « لِدُوا ، وعَلَىَّ تجهيزُ الإناث . وغنى الذكور ، وسواء على أفق هذا البيت طلوعُ الشمس والبدور » .



خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين
فى جواب كتاب ورد عليه مخبراً فيه بالحركة للقاء العدو .

عن : (القلقشندى : صبح الاعشى . ج ٧ . ص١١١ — ١١٢)

ورَدَ علَى المملوك — أدام اللهُ أيامَ المجلس العالى المَلَكِىّ الناصرىّ ، ونصره على أعدائه ، وملّكه أرضَه بعَدْل حكم سمائه ، ولا أخلَى من نعمتَىْ خيره ونَظَره قلوبَ وعيونَ أوليائه ، وأعزَّ الإسلامَ ورَفَعَ عن أهله البَلْوَى بلِوائه . الكتُبُ القديمةالتى تَسُرُّ الناظرين من شعارها الأصفر ، وتبَشِّر الأولياءَ إن كانوا غائبين مع الغُيَّب بأن حظَّهم حاضر مع الحُضَّر ؛ وقد كانت الفَتْرة قد طالتْ أيامُها ، واستطالتْ آلامُها ، والطُّرُقَات قد سبق إلى الأنفُس إبهامُها .

فالحمدُ لله الذى أذهبَ عنَّا الحزن وأوْلى من النعمة ما اشترى الحمدَ بلا ثمَن ؛ ذلك من فَضْلِ اللهِ علينا وعلى الناس ، ووَعْدُ الله سبحانه منتَظَر ، إذ يقول فى كتابه : (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ،ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدَ خَوْفِهِمْ أَمْناً) وصَدَق صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إنَّ اخْتِيارَ اللهِ للمؤمِنِ خيْرٌ من اختيارِه ، وإنَّ مواضِعَ الأمَل للعَبْد خَيْرٌ منها مواقعُ أقضيةِ الله وأقدارِه » . فقد كانتْ حركةً احتاجت إليها البلاد التى انفصل عنها ، والبلادُ التى قَدِم عليها . أما المصرية منها فبكونها على عِدَةٍ

من نَجْدته آجلا ، وأما الشامية فبكونها على ثقة من نصره عاجِلا ؛ فقد تماسكَتْ من المسلمين الأرماق ، وقد انقطعت من المشركين الأعناق :

تُهابُ بك البِلادُ تَحُلّ فيها ولَوْلا اللَّيْثُ ما هِيبَ العَرِينُ

وعرض المملوكُ ما وصل إليه من مكاتبات المولَى على العِلْم العادلىّ وأدركها تحصيلاً ، وأحاط بها جملةً وتفصيلاً ؛ والمَوْلَى — خَلَّد الله ملكَه — فكلُّ ما أشار إليه من عزيمة أبداها ، ونيةٍ أمضاها ، فهو الصوابُ الذى أوضح الله له مالِكَه ، والتوفيقُ الذى قرَّب الله عليه مَدارِكَه ؛ ومَنْ أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شىء ؛ ومن استخاره بَيَّن له الرُّشْدَ من الغىّ ؛ والله تعالَى يجعلُ له من كلِّ حادثةٍ نَخْوة ، ويكتبُ أجْرَه فى كلِّ حركةٍ ونَفَس وخَطْوه . إن شاء الله تعالى .



قطعة من خطاب أرسله السلطان صلاح الدين إلى بعض إخوانه وهو يجمع الجموع و يحشد الحشود فى سنة ٥٨٢هـ استعداداً لموقعة حطين .

(عن : أبو شامة : الروضتين : ج ٢ : ص ٧٥)

« كُتبتْ هذه المكاتبةُ من جسرِ الخشبِ ظاهرَ دمشق ، وقد ورد السلطانُ أعزَّ اللهُ أنصارَه للغزاة إلى بلادِ الكفر ، فى عسكر فيه عساكر ، وفى جَمْعٍ البادى فيه كأنه حاضر ، وفى حَشْدٍ يتجاوز أن يحصلّه الناظر إلى أن لا يحصله الخاطر ، وقد نهضتْ به هِمَّة لا يُرْجَى غيرُ الله لإنهاضِها ، وحجبت به عَزْمَةُ الله المسئول فى حَسْمِ عوارضِ اعتراضها ، وباعَ اللهَ نفساً يستمتع أَهْلُ الإسلام بصفقتها ، ويُذْهبُ اللهُ الشِّرْكَ بهيبتها ، وأرجو أن يَتَمَخَّضَ عن زبدة ، وتستريح الأيدى بعدها عن المخض ، وأن يكون اللهُ قد بعث سِنْتِجَةَ نُصْرَةِ الإسلامِ وسلطانُه قد نَهَضَ للقَبْض » .

خطاب مرسل من عبد الله بن أحمد المقدسى — وكان مقيماً بعسقلان — إلى بغداد فى وصف موقعة حطين .

(أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ — ٨٢ ، عن ابن القادسى المؤرخ البغدادى)

« كتبتُ هذا الكتابَ من عسقلان يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وفيه » :

ولو حمدنا الله عزّ وجلّ طول أعمارنا ما وفينا بعُشْرِ مِعْشَارِ نعمته التى أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم : فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين ، وتلاحقَ الأجنادُ حتى جاء الناس من : الموصل ، وديار بكر ، وإربل ، فجمع صلاحُ الدين الأمراء ، وقال : « هذا اليوم الذى كنت أنتظره ، وقد جمع الله لنا العساكر ، وأنا رجل قد كبرت ، وما أدرى متى أَجَلَى ، فاغتنموا هذا اليوم ، وقاتلوا لله تعالى لا من أجلى » ، فاختلفوا فى الجواب ، وكان رأىُ أكثرهم لقاءَ الكفّارِ ، فعرض جُنْدَه ورتّبهم ، وجعل تقىّ الدين فى الميمنة ، ومظفّر الدين فى الميسرة ، وكان هو فى القلب ، وجعل بقيّةَ العسكر فى الجناحين .

ثم ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الأقحوانة ، فتركوا بها أثقالهم ، وساروا حتى نزلوا بكفرسبت ، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبْرُزَ لهم الكفّارُ ، وكان عسكرُ الكفار على صفورية ، فلم يبرزوا ، فعاد صلاحُ الدين حتى نزل على طبرية ، فتقدّم

فرسانُه وحماتُه ورماتُه والنقابون فدخلوا تحت الحصن ، فلما تمكن النقبُ منه انهال من غَيْرِ وَقُودٍ نَا ، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس .

وأصبحوا يوم الجمعة فشرعوا فى نقب القلعة ، فلما كان وقت الصلاة جاء الخبرُ أن الكُفَّار قد توجهوا إلينا ، فارتحل صلاح الدين على صفوفه ، فلقيهم ، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم ، وصار قالبُ المسلمين خلفهم ، فتراموا ساعة ، وبات كل فريق على مصافهم .

ثم أصبحوا ، فسار الكُفَّارُ يقصدون طبرية ، والمسلمون حولهم يلحون عليهم بالرمى ، فاقتلع المسلمون منهم فوارس ، وقتلوا خيَّالةً ورجَّالةً ، فانحاز المشركون إلى تلِّ حطين ، فنزلوا عنده ، ونصبوا الخيام ، وأقام الناسُ حولهم إلى أن انتصف النهارُ ، وهبت الرياح ، فهجم المسلمون عليهم ، فانهزموا لا يلوون على شىء ، ولم يُفْلت منهم إلا نحو من مائتين ، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً ، وقيل ثلاثة وعشرين ألفاً . لم يتركوا فى بلادهم مَنْ يقدر على القتال إلا قليلا .

وكان الذى أَسَرَ الملكَ هو دِرْباسُ الكردى ، وغلام الأمير إبراهيم المهرانى أسر الإبرنس ، وقتل صلاحُ الدين الإبرنسَ بيده لأنه كان قد غدر وأخذ قافلة من طريق مصر .

ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فأخذ قلعتها بالأمان ، ثم ضرب أعناق الأسارى الذين كانوا فى العسكر ، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم » .

لم يكن القاضى الفاضل حاضراً موقعة حطين ، بل كان فى دمشق ، ومنها أرسل هذا الخطاب إلى صلاح الدين يهنئه بالنصر العظيم .

(عن : أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ — ٨٣)

« لِيَهْنَ المولى أنَّ اللهَ قد أقام به الدينَ القيِّم ؛ وأنه كما قيل: أصبحت مولاى ومولى كل مسلم ، وأنَّه قد أسبغ عليه النعمتَيْن الباطنة والظـاهرة ، وأورثه المُلْـكَيْن : مُلْكَ الدنيا ومُلْكَ الآخرة .

كتب المملوك هذه الخدمةَ والرءوس إلى الآن لم تُرْفَع من سجودها ، والدموع لم تُمْسَح من خدودها ، وكلما فـكَّر الخادمُ أن البِّيَعَ تعودُ وهى مساجد ، والمـكان الذى كان يُقال فيه : إن الله ثالثُ ثلاثة يقال اليوم فيه إنَّه الواحد ، جدَّد لله شـكراً : تارة يفيضُ من لسانه ، وتارةً يفيضُ من جَفْنِهِ ؛ وجزاء يُوسُفَ خيراً عن إخراجِه من سجنه ؛ والمماليكُ ينتظرون أَمْرَ المولى ؛ فـكلٌّ من أراد أن يدْخُلَ الحَمَّامَ بدمشق قد عوَّلَ على دخول حَمَّامِ طبرية ، تلك المـكارمُ لاقعبان من لبن ، وذلك الفتح لا عمان واليمن ؛ وذلك السيفُ لا سيف ابن ذى يزن ، وللألسنة بَعْدُ فى هذا الفتح شرحٌ طويلٌ ، وقولٌ جليلٌ » .

خطاب من السلطان صلاح الدين إلى بغداد فى وصف وقعة حطين ، والخطاب بقلم القاضى الفاضل كتبه من عكا بعد أن فتحها صلاح الدين بعيد انتصاره فى حطين .

(عن : أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧)

« صَبَّحَ الخادمُ طبرية فافْتَضَّ عذرتَها بالسيفِ ، وهجم عليها هجومَ الطيف ، وتفرّق أهلُها بين الأسْرِ والقتل ، وعاجلهم الأمر فلم يقدروا على الخداع والخَتْل ، وجاء المَلِكُ ومَنْ معه من كفارِه ، ولم يشعر أن ليلَ الكفْر قد آن وقت إسفاره ، فأَضْرَمَ الخادمُ عليهم ناراً ذات شِرَار ، أذكرتْ بما أعدَّ اللهُ لهم فى دارِ القرار ، فترجَّل هو وَمَنْ معه عن صَهَوَاتِ الجياد ، وتسنَّموا هضْبةَ رجاء أن تنجيهم من حَرِّ السيوفِ الحداد ، ونصبوا للملكِ خيمةً حمراءَ وضعوا على الشِّرْكِ عمادَها ، وتولَّتْ الرجالُ حِفْظَ أطنابِها فكانوا أوتادَها ، فَأُخِذَ الملكُ أسيراً ، وكان يوماً على الكافرين عسيرا ، وأُسِرَ الإبرنسُ — لعنه الله — فَحَصدَ بَذْره ، وقتله الخادمُ بيده ، ووفَّى بذلك نذرَه .

وأُسر جماعةٌ من مقدمى دولته ، وكبراء ضلالته ، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفاً ، ولم يبقَ أحد من الديوية ، فلله هو من يومٍ تَصاحب فيه الذئب أو النسرْ ، وتداول فيه القتلُ والأسر .

أصدر الخادم هذه الخدمةَ من ثغر عكّا ، والإسلام قد اتسع مجاله ، وتصرّف أنصاره ورجاله ، والكفر قد ثبتت أوجالُه ودنت آجالُه » .

قطعة من خطاب آخر مرسل من صلاح الدين وهو فى عكا للبشرى بانتصاره فى وقعة حطين

(أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ص ٨٧ ، عن العماد الأصفهانى)

« ولما أُحيط بالقومِ أوى ملكُهم إلى جبلٍ يعصمه من العَوْم ، فأسمعَهُ السيفُ : لا عاصم اليوْم ، واستولى الخذلانُ عليهم بأسْرِهم ، وبردتْ أيدى المؤمنين بِحَرِّ قتلهم وأسرهم ، ولم يبقَ لهم باقيه ، وغُصَّتْ بقتلاهم فى الدنيا والآخرة أرضُ الله الواسعة ونارُ اللهِ الحامية ، فما يَطَأُ مَنْ يصلُ إلى مخيِّمهم إلى على رِمَمِهِم البالية ، وأُسِرَ الملكُ وأخوه ، وبارونيته ومقدِّموه ، ولم يُفْلتْ منهم إلا القُمُّص وهو مسلوب ، ولابد أن ندركه فهو مطلوب .

وقد كنَّا نظرنا ضَرْبَ رقبةِ الابرنس صاحب الكَرَك الغدَّار ، كافر الكُفَّار ، ونشيدةِ النار ، فلما رأيناه ضربنا عنقَه سريعاً ، وسرنا إلى عكَّا وهى بيضةُ مُلكهم ، وواسطةُ سلكهم ، ومركزُ دائرةِ كُفْرهم ، ومجمعُ جَمْعِ بَرِّهم وبحرهم ، فتسلمناها بالآمان .

والصخرةُ المقدَّسة الآن بنا تصرخ وتستغيث ، وعبادُ الله الصالحون قد وصلتْ إليهم بوعد الله الصادق المواريث ، والبشارة بفتح القدس لا تتأخر ، والهمم بعد هذا الفتح السَنِي على ذلك تتوفر ، والحمد لله الذى تتمُّ الصالحاتُ بحمده ، مايَفْتَحُ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لها ، وما يُمْسِكُ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ »(١)

(١) الآية ٢ (ك) سورة فاطر .

خطاب بقلم العماد الأصفهانى مرسل من صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد يصف فيه انتصاراته فى حطين وعكا ، واستيلاءه على معظم مدن الساحل وهو يتهيأ لاستعادة بيت المقدس

(أبو شامة : الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٩ ، عن العماد)

« ولقد كتبنا فى الزَّبورِ من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

الحمدُ للهِ على ما أنجز مِنْ هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل بعد عُسْرٍ يُسْرا ، وقد أحدثَ اللهُ بعد ذلك أمراً ، وهوّن الأمْرَ الذى ما كان الإســـلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب الدينُ بقوله : « ولقد مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى » ، فالأولى فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — والصحابة ، والأخرى هذه التى عُتِقَ فيها من رِقِّ الــكآبَةِ فهو قد أصبح حُراً ، رَبَّان الــكَبِدِ الحرّى ، والزمانُ كهيئته استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والــكُفْرُ قد رَدَّ ما كان عنده من المتاع المستعار .

فالحمد لله الذى أعاد الإسلامَ جديداً ثوبُه ، بعد أن كان جَذِيذاً حَبْلُهُ ، مُبْيَضًّا نَصْرُه ، مُخْضَرًّا نَصْلُه ، متسعاً فضلُه ، مجتمعاً شَمْلُه .

والخادمُ يشرح منَ نَبأ هذا الفتح العظيم والنصر الــكريم ما يشرحُ صدورَ المؤمنين ، وليمنحُ الحبورَ لــكافَّةِ المسلمين ، ويُوردُ البُشْرى بمــا أنعم اللهُ به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخة ،

وتلك سبعُ ليال وثمانيةُ أيام حُسُوما ، سَخَّرها اللهُ على الـكفار ، فترى القومَ فيها صَرْعَى كأنهم أعجاز نَخْلٍ خاوية ، وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيتَ البلادَ على عروشها خالية ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة كما كانت من الـكفر باكية .

فيومُ الخميس الأول فُتحتْ طبرية .

ويومُ الجمعة والسبت نوزل الفرنجُ فـكسروا الـكسرة التى ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ اللهُ أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القُرى وهى ظالمة .

وفى يوم الخميس منسلخ الشهر فُتحت عكا بالأمان ، ورُفعت بها أعلام الإيمـان ، وهى أمُّ البلاد ، وأختُ إرَمَ ذاتِ العماد .

وقد أصدر هذه المطالعةَ وصليبُ الصلبوت مأسورٌ ، وقلبُ ملكِ الـكُفْرِ الأسيرِ بجيشه المـكسورِ مكسور ، والحديدُ الـكافر الذى كان فى يد الـكفر يضربُ وَجْهَ الإسلام قد صار حديدا مسلما يعوق خطوات الـكفر عن الإقدام ، وأنصارُ الصليبِ وكِبَارُه وكلُّ مَنْ المعموديةُ عُمَدتُه والديرداره قد أحاطت به يدُ القبضة وغلَّق رهنه فلا تقبل فيه القناطيرُ المقنطرةُ من الذهب والفضة .

وطبريةُ قد رُفعت أعلامُ الإسلامِ عليها ، ونُـكصت من عكا مِلَّةُ الـكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها ، وقد صارت البِيَعُ مساجدَ يَعْمُرُها مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخر ، وصارت المذابح مواقفَ لخطباءِ المنابر ، واهتزتْ أرضُها لموقفِ المسلم فيها وطالمـا ارتجت لموقف الـكافر ، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أُمْضِىَ حكمُ الله فيهم ، وقُطع بهم سوقُ نار الجحيم ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم ، وقُتل الابرنسُ كافرُ الـكفَّار ، ونشيدةُ النار ، مَنْ يدُه فى الإسلام كما كانت يدُ الـكليم .

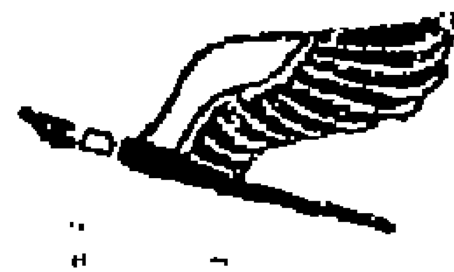
والبلادُ والمعاقلُ التى فُتحت هى :

طبرية .	قيسارية .	الفـــوله .
عكا .	نابلس .	الطـــور .
الناصرة .	حيفا .	الشقيف .
صفورية .	معليا .	وقلاع بين هذه كبيرة .

والملك المظفر تقىّ الدين ـ ظَفَّره اللهُ ـ مضايقٌ لصور وحص تبنين .

والأخ العادلُ سيفُ الدين ـ نصره اللهُ ـ قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل فى طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهّز مراكب الأسطول المنصورة إلى عكا .

وما يتأخر النهوضُ إلى القدسِ ، فهذا هو أوانُ فتحه ، ولقد دام عليه ليلُ الضلال وقد آن يسفر فيه الهدى عن صُبْحِه » .



خطاب أرسله السلطان صلاح الدين إلى بعض أهله يشير فيه
إلى فتح معظم مدن الساحل وتهيئه للمسير لفتح بيت المقدس .

(أبو شامة الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩١ ، عن ابن القادسي)

« انتقلنا إلى الجانب الذى فيه القدسُ وعسقلان ، ففتحنا قلاعَه كلَّها ، وحصونه جميعَها ، ومعاقله بجملتها ، ومدنَه بأَسْرها ، وهى :

حيفا .	والرملة	والدير .
وقيسارية .	ولِدّ .	والخليل .
وأرسوف .	وتل الصافية .	
ويافا .	وبيت جبريل .	

ونازلنا عسقلان ، وهى المعقلُ المنيع ، والحصنُ الحصين ، والتلُّ الرفيعُ ، وفيهم من القوة والعدة والعدد ما تتقاصر الآمالُ عن نَيْل مثله ، فافتتحناها سلماً لتمام أربعة عشر يوماً من يوم نزولنا عليها ، ونُصبت أعلامُ التوحيد على أبراجها وأسوارها ، وعمرتْ بالمسلمين ، وخلت من مشركيها وكفارها ، وكبَّر المؤذنون فى أقطارها .

ولم يَبْقَ فى الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس وصور ، والعزمُ مصمم على قَصْد القدس ، فالله يُسَهِّله ويعجِّله ، فإذا يَسَّر اللهُ تعالى فَتْحَ القدس مِلْنا إلى صور ، والسلام » .

خطاب بقلم القاضى الفاضل أرسله السلطان صلاح الدين إلى الديوان العزيز — أيام الخليفة الناصر لدين الله — ينبئه بفتح القدس الشريف واستنقاذه من أيدى الصليبيين .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٨ ص ٢٨٢ — ٢٨٩ ، ج ٦ ص ٤٩٦ — ٥٠٤

أدام اللهُ أيامَ الديوان العزيز النبوى الناصرى ، ولا زال مظَفَّر الجدِّ بكُلِّ جاحِد ، غَنِيَّ التوفيق عن رأى كل رَائِد ، موقوفَ المساعى على اقتناء مُطْلَقَاتِ المحامد ؛ مستيقظَ النصرِ والسيفُ فى جفنه راقِد ، وَارِدَ الجودِ والسَّحابُ على الأرض غيرُ وارد ؛ متعدِّدَ مساعى الفَضْل و إن كان لا يُلْقِى إلا بشُكْرِ واحد ، مَاضِيَ [حُكْم القول] بعزم لا يمضى إلا بنَسْل غَوِيّ وَرَيْشِ رَشِد ، ولا زالت غيوثُ فضله [إلى الأولياء] أَنْدَاءً إلى المَرَابع وأنواراً إلى المساجد ، و بُعُدَتُ رُعْبِه إلى الأعداء خَيْلاً إلى المَرَاقِب وخَيالاً إلى المراقد .

كتب الخادمُ هذه الخدمةَ تِلْوَما صدر عنه مِمّا كان يجرى مجرى التباشير لصُبْح هذه الخدمة ، والعُنْوانِ لـكتابِ وَصْفِ هذه النعمة ، فإنها بَحْرٌ للأقلام فيه سَبْحٌ طويل ، ولُطْف تحمُّل الشكر فيه عِبْءٌ ثقيل ؛ وبُشْرى للخواطر فى شَرْحها مآرِب ، ويُسْرى للأسرار فى إظهارها مَسَارِب ؛ ولله فى إعادة شكره رِضًا ، وللنعمة الرَّاهنة به دوامٌ لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت أمورُ الإسلام إلى أحْسَن مصايرها ، واستتبَّتْ عقائدُ أهله على أَبْيَن بصائرِها ،

وتقلّص ظِلُّ رجاءِ الكافرِ المبسوط ، وصَدَقَ اللهُ أهلَ دينه ، فلمّا وقع الشرطُ حصلَ المشروط ؛ وكان الدِّينُ غريباً فهو الآن فى وطنه ، والفوزُ معروضاً فقد بُذلتْ الأنفس فى ثمنِه ، وأَمِرَ أَمْرُ الحقِّ وكان مستضعفا ، وأُهِلَ رَبْعُهُ وكان قد عِيفَ حين عَفَا ؛ وجاء أمرُ اللهِ وأنوفُ أهلِ الشِّرْكِ راغمه ، فأَدْلَجَتْ السيوفُ إلى الآجال وهى نائمة ، وصَدَقَ وعدُ اللهِ فى إظهارِ دينه على كل دين ، واستطارت له أنوارٌ أبانتْ أنَّ الصبحَ عندها حِيَانُ الحين ؛ واستردَّ المسلمون تراثاً كان عنهم آبِقَا ، وظفروا يَقْظَةً بما لم يصدِّقوا أنهم يظفرون به طَيْفاً على النَّأْيِ طَارِقَا ؛ واستقرّتْ على الأعلى أقدامُهم ، وخفقت على الأقصى أعلامُهم ؛ وتلاقتْ على الصخرةِ قبلُهم ، وشفيتْ بها وإن كانت صخرة [قُلُوبُهم] كما تُشْفى بالماء غُلَلُهُم .

ولمّا قَدِمَ الدِّين عليها عَرَفَ منها سُوَيْدَاءَ قَلْبِه ، وهَنَّأَ كُفُؤُها الحجرُ الأسودُ بِبَتِّ عِصْمَتِها من الكافرِ بحربِهِ ، وكان الخادمُ لا يسعى سَعْيَهُ إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسى تلك البُؤْسَى إلا رَجَاءَ هـذه النُّعْمَى ، ولا يناجزُ مَنْ يَسْتَمْطِلُه فى حَرْبِه ، ولا يعاتبُ بأطراف القَنَامَنْ يتمادى فى عَتْبِهِ ، إلا لتكون الكلمةُ مجموعه ، والدعوةُ إلى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمةُ اللهِ هى العليا ، وليفوز بجُوهرِ الآخرة لا بالعَرَضِ الأدنى من الدنيا ؛ وكانت الألسنةُ ربما سَلَقَتْهُ فأَنْضَج قلوبَها بالاحتقار ، وكانت الخواطرُ ربما غَلَتْ عليه مراجلُها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ؛ ومَنْ طَلَبَ خطيراً خَاطَر ، ومَنْ رَامَ صَفْقَةً رابحةً تَجَاسَر ، ومَنْ سَمَا لِأَنْ يُجَلِّى غَمْرَةً غَامَر ؛ وإلا فإنَّ القعودَ يُلِينُ تحت نُيُوبِ الأعداء المعاجِمَ فَتَعَضُّها ، ويُضْعِفُ بأيديها مَهزَ القوائمِ فتَقُضُّها ؛ هذا إلى كَوْنِ القعود لا يقضى فَرْضَ اللهِ فى الجهاد ، ولا يُرْعى به حقُّ اللهِ فى العباد ، ولا يُوفى به واجبُ التقليدِ الذى تَطَوَّقَهُ الخادمُ من أئمةٍ قضوْا بالحقِّ وبه كانوا

يَعْدِلُون ، وخلفاءُ اللهِ كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ؛ لا جَرَمَ أنَّهم أورثوا سِرَّهم وسَرِيرَهم خَلَفَهُمْ الأطهر ، ونَجْلَهم الأكبر ، و بقيَّتهم الشريفة ، وطَلْعَتَهم المُنيفة ، وعنوانَ صحيفة فضلهم لا عَدِمَ سوادَ العَلَمِ و بَيَاضَ الصحيفه ، فما غابوا لمَّا حضر ، ولا غَضُّوا لما نظر ، بل وصلهم الأجرُ لِمَا كان به موصولا ، وشاطروه العملَ لِمَا كان عنه منقولا ومنه مقبولا ؛ وخَلَص إليهم إلى المضاجع ما اطمأنَّتْ به جنوبُها ، و إلى الصحائفِ ما عَبِقَتْ به جيوبُها ، وفاز منها بذكْرٍ لا يزال الليلُ به سميرا ، والنهار به بصيرا ، والشَّرْقُ يهتدى بأنوارِهِ ، بل إنْ أَبْدَى نوراً من ذَاتِه هتف به الغَرْبُ بِأَنْ وَارِه ؛ فإنه نورٌ لا تُسكِنُه أَغْسَاقُ السُّدَف ، وذِكْرٌ لا تُوارِيه أوراق الصُّحُف .

وكتابُ الخادمِ هذا ، وقد أَظْفَرَ اللهُ بالعدُوّ الذى تَشَظَّتْ قَنَاتُه شَفَقا ، وطارتْ فِرَقُه فَرَقا ، وفُلَّ سَيْفُه فصار عَصًا ، وصُدِعَتْ حَصَاتُه وكان الأَكْثَرَ عَدَداً وحَصًا ؛ وكَلَّتْ حَمَلاتُه وكانت قدرة الله تُصَرِّفُ فيه العِيانَ بالعِنَان ، عُقُوبَةً من اللهِ ليس لصاحب يَدٍ بها يدان ؛ وعَثَرَتْ قَدَمُه وكانت الأرضُ لها حَلِيفَه ، وغُضتْ عينهُ وكانت [عيونُ] السيوف دونها كَسِيفَه ؛ ونام جَفْنُ سَيْفه وكانت يَقَظَتُه تريقُ نُطَفَ السكَرى من الجُفُون ، وجُدِعَتْ أنوفُ رِمَاحِه وطالما كانت شَامِخَةً بالمُنى أو رَاعِفَةً بالمَنُون ؛ وأَضْحَتْ الأرضُ المقدَّسَةَ الطاهرةَ وكانت الطَّامِث ، والرَّبُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالث ، فبيوتُ الشِّرْك مهدومه ، [ونُيُوبُ الكُفْر مَهْتُومه] وطوائفه المُحَامِيَه مُجْتَمِعَةٌ على تسليم البلاد الحاميه ، وشُجْعَانُه المتوافية مُذْعِنَةٌ لبَذْل المطامع الوافية ؛ لا يَرَوْنَ فى ماء الحديد لهم عُصْرَه ، ولا فى فِنَاء الأفنية لهم نُصْرَه ؛ وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ والمَسْكَنَه ، وبَدَّلَ اللهُ مكانَ السَّيِّئةِ الحَسَنَه ؛ ونَقَلَ بَيْتَ عبادته من أَيْدى أصحاب المَشْأَمَة إلى أيدى أصحاب المَيْمَنَة

وقد كان الخادمُ لقيَهم اللقاةَ الأولى ، فأمدَّه اللهُ بمُدارَكتِهِ ، وأنجده بملائكته ؛ فكسرهم كسرةً ما بعدها جَبْر ، وصرعهم صَرْعَةً لا ينتعش بعدها بمشيئةِ اللهِ كُفْر ، وأَسَر منهم مَنْ أُسرتْ به السلاسل ، وقَتَل منهم من فتكتْ به المناصل ؛ وأجلتْ المعركةُ عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار ، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضاً بثار] فكَمْ أَهِلَّةِ سيوفٍ تعَارَضَ الضِّرابُ بها حتى صارت كالعراجين ؛ وكم أَنْجُمِ أَسِنَّةٍ تبادلتْ الطِّعانَ حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسيةٍ ركض عليها فارسُها الشهمُ إلى أَجَلٍ فاختلسه ، وفغرتْ تلك القوسُ فاها فإذا فوها قد نَهَشَ القِرْنَ على بُعْدِ المسافةِ فافترسه .

وكان اليومُ مشهوداً ، وكانت الملائكةُ شهوداً ؛ وكان الكفرُ مفقوداً ، والإسلامُ مولوداً ، وجعل اللهُ ضلوعَ الكفار لنارِ جهنَّمَ وقوداً ؛ وأُسر الملكُ و بيده أوثقُ وثائقه ، وآكد وَصْلِهِ بالدين وعلائقِه ، وهو صليبُ الصابوت ، وقائدُ أهْلِ الجبروت ؛ وما دُهموا قطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهمائِهم يبسط لهم باعَه ، ويحرِّضُهم ، وكان مدُّ اليديْن فى هذه الدفعة وداعه ؛ لا جَرَمَ أنهم يتهافت على ناره فراشُهم ، ويجتمعُ فى ظل ظلامِه خَشَاشُهم ، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصابَ قتالٍ وأصدقَه ، ويرونه ميثاقاً يبنون عليه أشدَّ عَقْدٍ وأوثقَه ، ويعدونه سوراً تحفر حوافرُ الخيلِ خندقَه .

وفى هذا اليوم أُسرت سَرَاتُهم ، وذهبتْ دُهاتُهم [ولم يُفلتْ منهم معروفٌ إلا القومص ، وكان لعنه الله مليًّا يوم الظَّفَرِ بالقتال ، ومليًّا يوم الخذلان] بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفاً من أن يلحقه مِنْسَرُ الرمحِ أو جناحُ السيف ؛ ثم أخذه الله تعالى بعد أيامٍ بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذالك ، وانتقل من مَلَكِ الموتِ إلى مالك .

و بعد الكسرةِ مَرَّ الخادمُ على البلاد فطواها بما نَشَرَ عليها من الرايةِ العباسية السوداءِ صِبْغاً ، البيضاءِ صُنْعاً ، الخافقةِ هى وقلوبُ أعدائها ، الغالبةِ هى [وعزائم أوليائها] ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينَها البِشْرُ ، وأشارت بأنامل العَذَبَاتِ إلى وجه النصر ، فافتتح بلد كذا وكذا ، وهذه [كلها] أمصارٌ ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهى مزارع وفُدُن ؛ وكلٌّ هذه ذواتُ معاقل ومعاقر ، ومجارٍ وجزائر ، وجوامع ومنائر ، وجموعٍ وعساكر ، يتجاوزها الخادمُ بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصد منها كفراً ويزرع إيماناً ، ويحط من منابر جوامعها صلباناً ، ويرفع أذاناً ، ويبدل المذابح منابر ، والكنائس مساجد ، ويبوئ بعد أهل الصلبان أهلَ القرءان للذبِّ عن دين الله مقاعد . ويُقِرُّ عينه وعيونَ أهل الإسلام أن تَعَلَّقَ النصرُ منه ومن عسكره بجار ومجرور ، وأَنْ ظفر بكل سور ، ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ فى الصور .

ولمّا لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كلُّ شريدٍ منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كلُّ قريب منهم و بعيد ؛ وظنوا أنَّها من الله مانعتُهم ، وأنَّ كنيستَها إلى الله شافعتُهم ؛ فلما نازلها الخادمُ رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ؛ وعزائمَ قد تألبتْ وتألفتْ على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مَوْرِدُ السيف وأن تموت بغُصَّته، فزاول البلد من جانبٍ فإذا أوديةٌ عميقة ولُجَجٌ وَعْرَةٌ غريقة، وسورٌ قد انعطف عَطْفَ السِّوار ، وأبرجةٌ قد نزلت مكان الواسطة من عِقْد الدار ؛ فعَدَلَ إلى جهةٍ أخرى كان للمطامع عليها مُعَرَّج ، وللخيل فيها مُتَوَلَّج ، فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ؛ وضرب خيمته بحيث يناله السلاحُ بأطرافه ويزاحمه السورُ بأكتافه ؛ وقابلها ثُمَّ قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها ضمةً ارتقب بعدها الفتح ، وصدع أهلَها فإذا هم لا يصبرون — على عبودية الحد — عن عِتْقِ الصفْح ، فراسلوه ببذل

قطيعةٍ إلى مُدَّة ، وقصدوا نظرةَ من شدة وانتظاراً لنَجْدة ؛ فعرفهم الخادمُ في لحن القول ، وأجابهم بلسان الطَوْل ، وقدَّم المنجنيقات التي تتولى عقوباتِ الحصونِ عِصِيُّها وحِبالُها ، وأوتر لهم قِسِيَّها التي تضربُ فلا تفارقها سهامُها ، ولايفارقُ سهامَها نصالُها ؛ فصافحتْ السورَ بأكنافه ، فإذا سهمها في ثنايا شُرُفاتِها سِوَاك ، وقدَّم النصرُ نَسْراً من المنجنيق يُخْلِدُ إخْلادَه إلى الأرض ويعلو علُوَّه إلى السماك، فَشَجَّ مَرَادِعَ أبراجها ، وأسمع صوتُ عجيجها [صُمَّ أعْلاجِها] وَرَفَع مُثَارَ عجاجِها ، فَأَخْلَى السورَ من السيَّارة ، والحربَ من النظارة ؛ فأمكن النقَّاب ، أن يُسْفِرَ للحربِ النِّقَابَ ، وأن يُعيد الحجرَ إلى سيرته [الأولى] من التراب ؛ فتقدم إلى الصخر فَمَضَغَ سَرْدَهُ بأنيابِ مِعْوَلِهِ ، وَحلَّ عَقْدَهُ بضربه الأَخْرَقِ الدالِّ على لطافة أنْمُلِهِ ، وأسْمع الصخرةَ الشريفةَ حنينَه واستغاثتَه إلى أن كادتْ ترقُّ لِمُقَبَّلِهِ ، وتبرَّأَ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخرابُ عليها موثقاً فلن تَبْرَحَ الأرْض ، وفتَحَ في السور باباً سَدَّ من نجاتِهم أبواباً ، وأخذ يُنَقِّبُ في حجره فقال عنده الكافر : (يا ليتني كنت تراباً) ، فحينئذ يئسَ الكفَّارُ من أصحاب الدور ، كما يئس الكفارُ من أصحاب القبور ، وجاء أمرُ الله وغَرَّهم بالله الغرور .

وفي الحال خرج طاغيةُ كُفْرهم ، وزِمَامُ أمرهم ، ابن بارزان سائلا أنْ يؤخذ البلدُ بالسلام لا بالعَنْوه ، وبالأمان لا بالسَّطوه ، وألقى بيده إلى التهلكه ، وعلاه ذلُّ المَلْكَةِ بعد عِزِّ المملكة ، وَطَرَحَ جبينه في التراب ، وكان جبيناً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعةِ لا يطمحُ إليه طَرْفُ آملٍ طامح ، وقال : هاهنا أُسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاقد الفرنجُ على أنهم إن هجمت عليهم الدار ، وحمَّلتْ الحربُ على ظهورهم الأوزار ، بُدِئَ بهم فعُجِّلوا وثُنِّيَ بنساء الفرنج وأطفالهم فقُتِّلوا ؛ ثم استقتلوا بعد ذلك فلم يُقْتل خَصْمٌ إلا بعد أن ينتصف ، ولم يُسَلَّ سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطع أو ينقصف ، وأشار الأمراء

بالأخذ بالميسور ، من البلد المأسور ، فإنه إن أُخذ حَرْباً فلا بد أن تقتحم الرجالُ الأنجاد ، وتبذلَ أنفسَها فى آخر أمر قد نيل من أوله المراد ؛ وكانت الجراحُ فى العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتــكاتِ ، واعتاق الحركات ، فقُبل منهم المبذول عن يدٍ وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرةٍ وهم ظاهرون ؛ وملك الإسلامُ خطةً كان عهده بها دِمْنَةَ سُكّان ، نخدمها الــكفرُ إلى أن صارت روضةَ جنان ؛ لا جَرَم أن اللهَ أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهلَ الحقِّ وأسخطهم ، فإنهم — خذلهم الله — حموها بالأَسَلِ والصِّفَاح [و بنوْها بالعَمَدِ والصُّفَاح] ، أودعوا الــكنائس بها و بيوت الديوية والأستبارية منها كل غريبة من الرُخام الذى يَطّرِدُ ماؤه ، ولا يُطْرَدُ لألاؤه ، وقد لطُفَ الحديدُ فى تجزيعه ، وتفنّن فى توشيعه ، إلى صار الحديد ، الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عتيد ، فما ترى إلا مقاعَد كالرياضِ ، لها من بياض الترخيم رَقْرَاق [وعَمَداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق] .

وأوعز الخادمُ بردِّ الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه وِرْدَهُ المورود .

وأُقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فــكادت السمواتُ يتفطرن للسجومِ لا للوجوم ، والــكواكبُ [منها] ينتثرْنَ للطرب لا للوجوم ، ورُفعت إلى اللهِ كلمةُ التوحيد ، وكانت طرائقُها مسدودة ، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ؛ وأقيمت الخمسُ وكان التثليثُ يُقْعدها [وجهرت الألسن باللهِ أكبر وكان سحرُ الــكفر يعقدِها] ، وجُهِرَ باسم أمير المؤمنين فى وطنه الأشرف من المِنْبَر ، فرُحِّبَ به ترحيبَ مَنْ بُرَّ بِمَنْ بَرَّ ، وخَفَقَ علماه فى حِفَافَيْه ، فلو طار به سرورًا لطار بجناحيْه .

وكتابُ الخادم وهو مُجِدٌّ فى استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ماضاق بتمادى الحرب من الصدور ، فإنَّ قوى العساكرِ قد استنفدت مواردُها ، [وأيامَ الشتاء قد مَرَدَتْ مواردُها] ، والبلادُ المأخوذةُ المشارُ إليها قد جاستْ العساكرُ خلالَهَا ، ونهبتْ ذخائرهَا وأكلت غلالَهَا ؛ فهْى بلادٌ تُرفَدْ ولا تُسْتَرْفَد ، وتُجَمُّ ولا تُستنفد ، ويُنفقُ عليها ولا يُنفقُ منها ؛ وتُجَهَّزُ الأساطيلُ لبحرها ، وتقام المرابط لبرِّها ، ويُدأب فى عمارةِ أسوارها ، ومَرَمَّاتِ معاقلها ، وكلٌّ مشقةٍ فهى بالإضافةِ إلى نعمةِ الفتح محتملة ، وأطماع الفرنج فيما بعد ذلك مذاهبها غير مُرْجِئَةٍ ولا مُعْتَزِلة ، فلن يدعوا دَعْوَةً يرجو الخادمُ من الله أنها لاتُسْمع ، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تُقْطع .

وهذه البشائرُ لها تفاصيلُ لا تكاد من غير الألسنةِ تتشخص ، ولا بما سوى المشافهة تتلخص ، فلذلكَ نفَّذنا لساناً شارحا ، ومُبَشّراً صالحًا ؛ ينشرُ الخبرَ على سياقته ، ويعرض جيشَ المسرَّة مِن طليعته إلى ساقته » .



خطاب بقلم العماد الأصفهانى صادر عن صلاح الدين
إلى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ينبئه بفتح القدس .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥١٧ — ٥٢٠)

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) .

الحمدُ للهِ على ما أنجز مِنْ هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدينِ الحنيفِ من قبل ومن بعد ؛ وعلى أَنْ أجرى هذه الحسـنةَ التى ما اشتمل على شبهها كرامُ الصحائف ، ولم يُجادَل عن مثلها فى المواقف ؛ فى الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غرراً وأوضاحاً ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غدواً ورواحاً ؛ ومكّن سيوفَها فى كل مازق ، من كل كافرٍ ومارق ، ولا أخلاها من سيرةٍ سرية تجمع بين مصلحة مخلوقٍ وطاعة خالق ، وأطال أيدى أوليائها لتحمى بالحقيقة حِمَى الحقائق ، وأنجزها الحقَّ وقذف به على الباطلِ الزاهق ، وملـكها هوادَى المغارب ومرامى المشارق ؛ ولا زالت أراؤها فى الظلماتِ مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، وأطرافُ أسنتها لدماء الأعداء نوازح .

والحمد لله الذى نصر سلطان الديوان العزيز وأيَّده ، وأظفر جندَه الغالب وأنجده ، وَجَلاَ بِهِ جلابيبَ الظلماء وجدَّد جُدُدَه ؛ وجعل بعد عُسْرٍ يُسْرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً ، وهوّن الأمر الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدينُ بقوله : (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) .

فالأولى فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — والصحابة ، والأخرى هذه التى عتق فيها من رقّ الكآبة ، فهو قد أصبح حراً فالزمان كهيئته استدار ، والحق بهجته قد استنار ؛ والكفرُ قد ردَّ ما كان عنده من المستعار ، وغُسِل ثوبُ الليل بما فجَّر الفجرُ من أنهار النهار ؛ وأتى الله بُنْيَانَ الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ؛ عزت سيما الإسلام بسومها ، وترادف نصرهُ بردفها ، وأخذت القرى وهى ظالمةٌ فترى مترفيها كأن لم تُؤْوَ فيها ؛ فكم أقدم بها حيزوم ، وركض فاتبعه سحابُ ثجّاجٍ مركوم ، وضرب فإذا ضَرْبُه كتابُ جراحٍ مرقوم .

وإلا فإن الحروب إنما عقدت سجالا ، وإنما جمعت رجالا وإنما دعت خفافا وثقالا ؛ فإما سيوف تقاتلُ سيوفا ، أو زحوفٌ تقاتل زحوفا ؛ فيكون حَدُّ الحديدِ بيدٍ مذكراً وبيدٍ مؤنثاً ، ويكون السيفُ فى اليد الموحدة يُغنى بالضربة الموحدة ، ومن اليد المثلثة لايغنى بالضرب مثلثاً ، وذلك أنه فى فئتين التقتا ، وعدوتين لغير مودة اعتنقتا ، وإن هذه النصرة إن زويت عن ملائكة الله جُحدت كراماتهم ، وإن زويت عن البشر فقد عرفت قبلها مقامتهم ، فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ ، ولا كان ضربٌ يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيخ ، فكم ضربةٍ كأنها هجرة الموت وبها التاريخ ، وكم طعنةٍ تحزُّ لها هضاب الحديد ولها شماريخ .

والحمد لله الذى أعاد الإسلام جديداً ثوبُه ، بعد أن كان جديداً حَبْلُه ، مبيضًّا نصرُه ، مخضَّرا نصلُه ، متسعاً فضلُه ، مجتمعاً شملُه .

والخادم يشرح من نبإ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ؛ ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ؛ ويكرر البشرى بما أنعم الله به

— من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه — وتلك سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أيامٍ حسوما سَخَّرَها اللهُ على الكفار (فَتَرَى القَوْمَ فيها صَرْعَى كَأَنَّهُم أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة) ورايتُها إلى الإسلام ضاحكةٌ كما كانت من الكفر باكية .

فيوم الخميس الأول فُتحتْ طبرية ، وفاض رِيُّ النصرِ من بحيرتها ، وقضتْ على جسرها الفرنجُ فقضت نَحْبَها بحيرتِها .

وفى يوم الجمعة والسبت كُسِرَ الفرنجُ الكسرةَ التى مالهم بعدها قائمة ، وأخذ اللهُ أعداءه بأيدى أوليائه أَخْذَ القرى وهى ظالمة .

وفى يوم الخميس منسلخ الشهر فُتحت عكا بالأمان ، ورُفعت بها أعلامُ الإيمان ؛ وهى أمُّ البلاد ، وأختُ إرَمَ ذات العماد ؛ وقد أصبحت كأن لم تَغْنَ بالكفر وكأن لم تفتقر من الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعةَ وصليبُ الصابوت مأسور ، وقلبُ ملكِ الكفرِ الأسيرِ جيشُه المكسورُ مكسور ؛ والحديدُ الكافرُ الذى كان فى الكُفْرِ يضربُ وجهَ الإسلامِ ، وقد صار حديداً مسلما يُفَرِّقُ خطواتِ الكُفْرِ عن الأقدام ؛ وأنصارُ الصليبِ وكبارُه ، وكلُّ مَنْ المعموديةُ عُمْدَتُه والدَّيْرُ دارهُ ؛ وقد أحاطتْ به يدُ القَبْضَه ، وأُخذ رَهْناً فلا تقبلُ فيه القناطيرُ المقنطرة من الذهبِ والفضة ؛ وطبريةُ قد رُفعتْ أعلامُ الإسلام عليها ، ونَكَصَتْ من عَكَّا مِلَّةُ الكُفْر على عقبيْها ، وعَمَّرتْ إلى أن شهدتْ يومَ الإسلام، وهو خيرُ يوميها ؛ بل ليس من أيامِ الكفر يومٌ فيه خير ، وقد غُسل عن بلاد الإسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضَيْر ؛ وقد صارت البِيَعُ مساجدهم ، بها مَنْ آمن باللهِ واليوم الآخر ، وصارت المذابحُ مواقفَ لخطباء المنابر ، واهتزتْ

أرضُها لوقوفِ المسلمين فيها وطالما ارتجّتْ لمواقف الكافر ، والبأسُ الإمامى الناصرى قد أمضى مشكاتَه على يدِ الخادمِ حتى بالدَّنِيِّ فى الكنائس ، وإنَّ عِزَّ أولِ الإسلام بحطِّ تاجِ فارس ، فكم حَطَّتْ سيوفُه فى هذا اليوم من تاج فارس .

فأما القتلى والأُسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فرسان الديوية والاسبتارية فقد أمضى اللهُ حكمَهَ فيهم وقطع بهم سيوفَ نار الجحيم ، ووصَّل الراحلَ منهم إلى الشقاء المقيم ؛ وفتك بافرنس كافرِ الكفّار ، ومشيِّد النار ، مَنْ يدُه فى الإسلام كما كانت يد الكليم ؛ وانتزَّتْ النُصْرةُ عن ثغر عكاً بحمد الله الذى يَسَّر فَتْحَهَا ، وتسلمتها المِلَّةُ الإسلاميةُ بالأمان وعرفتْ فى هذه الصفقةِ ربحَهَا .

وأما طبرِّيةُ فافترتها يدُ الحرب فأنهرت الحربُ جرحها .

فالحمدُ لله حمداً لا تُضرب عليه الحدود ، ولا تُزَكِّى بأزكى منه العقود ؛ وكأنه بالبيت المقدس وقدنا الأقصى من أقصاه ، وبلَّغ اللهُ فيه الأمل الذى علم أن يحصيه وأحاط بأَجَلِّه وأقصاه ؛ لكل أجل كتاب ، وأجل العدو هذه الكتائب الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثوابُ مَنْ هُدِى لطاعته جناتُ نعيمه الواسعه ؛ واللهُ المشكورُ على ما وهب ، والمسئولُ فى إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهب .

وقد توجَّه من جانبه الأمير رشيد الدين دام تأييده فى إهداء هذه البشرى نيابة عن الخادم ، ووصف ما يسَّره اللهُ لأوليائه من العزائم ، والبلاد والمعاقل التى فتحت هى : « طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفوريّة ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، مَعْلَيا ، القرله ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة » .

والولد المظفر تقى الدين بصور وحصن تبنين .

والأخ العادلُ سيفُ الدين — نصرهُ الله — قد أوفت بالوصول من عنده من العساكر فينزل فى طريقه على غزة وعسقلان ، ويجهز مراكب الأسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير بها إلى ثغر عكا المحروس ويشحنها بالرجال ، ويوفر سلاحَها وعددَها ؛ والنهوضُ إلى القدس فهـذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الإحسان ، إن شاء الله تعالى .



خطاب مرسل من السلطان صـــلاح الدين إلى أخيه سيف الإسلام — صاحب اليمن — يستقدمه إليه ، معاوناً له على قتال الفرنج ، ويخبره بما وقع له من الفتوحات فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤٠ — ٣٤٤ .
ج ٧ ص ٢٣ — ٢٧)

أصدَرْنا هذه المـكاتبةَ إلى المجلس ، ومما تجدّد بحضرتنا فُتُوح « كَوْكَب » وهى كرسىُّ الإستبارِيّة ودارُ كُفرهم ، ومستقَرُّ صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذُخْرهم ، وكان بمَجْمَع الطُّرُق قاعداً ، ولملْتقَى السُّبُل راصداً ؛ فتعلَّقت بفتحه بلادُ الفتْح واستُوطِنَت ، وسُلِـكت الطرقُ فيها وأُمِّنت ، وعُمِّرتْ بلادُها وسُـكِنت ؛ ولم يبقَ فى هذا الجانب إلا « صُور » ، ولولا أنَّ البحر يُنْجِدها والمراكب تَرِدها ، لـكان قيادُها قد أمْـكَن ، وجِمَاحُها قد أذْعَن ؛ وما همْ بحمد الله فى حِصْن يحميهم ، بل فى سِجْن يَحْوِيهم ، بل هم أُسَارَى وإن كانوا طُلقَاء ، وأمواتٌ وإنْ كانُوا أحْياء ؛ قال الله عز وجلَّ : (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدّ لَهُمْ عَدّا) ولـكل امْرئٍ أجلٌ لابدّ أن يَصْدُقَه غائبُه ، وأملٌ لابدّ أن يَـكْذبه خائبُه .

وكان نزولُنا عَلَى « كوكب » بعد أن فتحْنا « صَفَدَ » بلدَ الدّيوِيّة ومَعْقِلَهم ، ومُشْتَغَلَهم وعملَهم ، ومحَاهِّم الأحْصَنَ ومنزِلهم ؛ وبعد أن فَتَحْنا

« الكَرَك » وحصُونَه ، والمجلسُ السيفى — أسماه الله — أعلَمُ بما كان على الإسلام من مَئونَتِه المُثقِله ، وقضيَّته المُشكلة وعِلَّتِه المُعضِله ؛ وأن الفرَنْج — لعنهم الله — كانوا يقعُدون منه مقاعِد للسَّمْع ، ويتبوءُون منه مواضع للنَّفْع ؛ ويحولُون بين قات وراكِبها ، فيُذَلِّلون الأرضَ بما كان منه ثِقلاً على مَناكبها . والآنَ ما أمْنُ بلادِ الهرَمين ، بأشدَّ من بلاد الحرَمين ؛ فكُلُّها كان مشْتَرِكا فى نُصْرَة المسلمين بهذه القلعة التى كان ترَامِى ولا ترَام ، وتُسَامِى ولا تسام ؛ وطالمَا استفرَغْنا عليها بيوتَ الأموال ، وأنفقنا فيها أعمارَ الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن ضَجَّت النِّصال ؛ والله المشكورُ على ما انْطوَى من كلة الكُفْر وانْتَشَر من كلة الإسلام . وإن بلاد الشام اليومَ لا تسمَعُ فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلاماً سلاماً فادخُلُوها بسلام .

وكان نزولُنا عَلَى « كَوْكَب » والشتاء فى كوكبه ، وقد طَلع بيُمْن الأنْواء فى مَوْكبه ، والثلوج تَنْشُر عَلَى البلاد مُلاءها الفَضِيض ، وتكْسُو الجبالَ عمائمَها البِيض ؛ والأودِيَةُ قد عَجَّت بمائها ، وفاضَتْ عِنْد امتلائها ؛ وشَمَخَتْ أُنُوفها سُيُولا ، فخَرَقَتِ الأرضَ وبلَغتِ الجِبالَ طُولا ؛ والأوْحالُ قداعْتَقلَت الطُّرُقات ، ومشى المطْاقُ فيها مِشْيَةَ الأسيرِ فى الحلَقَات ؛ فتجَشَّمنا العَناءَ نحن ورجالُ العساكر ، وكاثَرْنا العدوَّ والزَّمَانَ وقد يُحْرِز الحظَّ المُكاثِر ؛ وعلِم اللهُ النيَّةَ فأنْجَدَنا بفَضْلها ، وضميرَ الأمانةِ فأعانَ عَلَى حَمْلها ؛ ونزلنا من رُءوس الجبالِ بمنازلَ كان الاستِقْرارُ عليها أصعَبَ من نَقْلها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلها (وأمَّا بنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

والحمد لله الذى ألهَمَنا بنعمَته الحديث ، ونَصَر بسَيْفِ الإسلام الذى هو سيْفُه وسيفِ الإسلام الذى هو أخُونا الطَّيبَ علىَ الخَبيث ، فمَدْحُ السيف ينقَسِم على حَدَّيه ، ومدْحُ الكريم يتعدّى إلىَ يدَيْه ؛ والآن فالمجلسُ

ـــ أسماه الله ـــ يعلمُ أنّ الفرَنج لايَسْلُون عما فَتَحْنَا ، ولايَصْبِرُون عَلَى ماجَرَحْنا ؛ فإنّهم ـــ خَذَلهم اللهُ ـــ أممٌ لاتُحْصَى ، وجيوشٌ لا تُسْتَقْصَى ؛ ووَرَاءهم من مُلوك البحْرِ من يأخُذ كلَّ سفينةٍ غَصْبا ، ويطْمَعُ فى كلِّ مدينةٍ كَسْبا ، ويَدُ الله فَوْقَ أَيْديهم ، واللهُ محيطٌ بأقرَبِيهم وأبعَدِيهم ؛ و (سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرا) . (لاتَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرَا) .

وماهُمْ إلا كِلابٌ قد تعَاوَتْ ، وشياطِينُ قد تَعَاوَتْ ، وإن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانِبٍ دُحُورا ، ويُتْبَعُوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحُورا ؛ استأسَدُوا واستَكلَبُوا ، وتألَّبُوا وجَلَّبُوا وأجْلَبُوا ، وحاربُوا ، وخَرَّبُوا ؛ وكانُوا لباطلهم الدّاحِض ، أنصَرَ مِنَّا لحقّنا الناهض ؛ وفى ضَلاَلهم الفاضِح ، أبصَرَ مِنَّا لهُدَانا الواضِح ؛ ولله درّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ يَنْصُر الكَرَمَ ابنُها وابنُ اللئيمةِ للِّئام نَصُورُ

فالبِدارَ إلى النجدةِ البِدَار ، والمسارعة إلى الجَنَّة فإنها لن تُنال إلا بإيقاد نار الحربِ عَلَى أهل النار ، والهمّةَ الهمّة فإن البحارَ لاتُلقى إلا بالبحار ، والملوكَ الكبارَ لايقفُ فىوجوهها إلا الملوكُ الكبار .

وما هى إلا نهضةٌ تورثُ العُلا ليومك ما حنّتْ روازمُ نِيبُ

ونحن فى هذه السنة ـــ إن شاء اللهُ تعالَى ـــ ننزل على أَنْطاكِيَةَ ، وينْزِل ولدُنا الملكُ المظفَّر ـــ أظفره الله ـــ على طرابُلُس ؛ ويستقرُّ الرِّكابُ العادلىّ ـــ أعلاه الله ـــ بمصر فإنها مذكورة عند العدُوّ ـــ خذله الله ـــ بأنها تُطْرَق ، وأنَّ الطلَب عَلَى الشام ومصْرَ تفرَّق ؛ ولا غنًى عن أن يكونَ المجلسُ السيفى ـــ أسماه الله ـــ بحراً فى بلاد الساحل يَزْخَرُ سِلاَحا ، ويجرِّدُ سيفاً يكونُ عَلَى مافتحناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا ؛ فإنه ليس لأحدٍ ما للأخِ

من سُمْعَةٍ لها فى كل مَسْمَع سَمْعه ، وفى كلِّ رُوعٍ رَوْعه ، وفى كل مَحْضَر مَحْضَر ، وفى كل مسجدٍ مِنْبر ، وفى كل مَشْهَد مَخْبَر ؛ فما يُدْعَى العظيمُ إلا للعظيم ، ولا يُرْجَى لمَوْقِف الصبرِ الكريم إلا الكريم ؛ والأقدارُ ماضيه ، وبمشيئةِ الله جاريه ؛ فإنْ يشإ الله يَنْصُرْ عَلَى العدوّ المضَعَّف ، بالعدد الأضْعَف ؛ ويُوَصِّلْ إلى الجوهرِ الأعلَى ، بالعَرَضِ الأدْنَى ؛ فإنَّا لا نرتابُ بأنَّ الله مافتَح علينا هذه الفُتوحَ ليُغْلِقها ، ولا جمعَ علينا هذه الأمةَ ليُفرِّقها ؛ وأنَّ العدوَّ إنْ خرج من داره بَطَرا ، ودخل إلى دارنا كان فيها جزَرا ، وما بَقِيَ إن شاء اللهُ تعالى إلاأموالٌ تُساقُ إلى ناهبها ، ورقابٌ تُقاد إلى ضاربِها ، وأسلحةٌ تُحْمَلُ إلى كاسبها ، وإنما نُؤْثِر أن لاتنطوِيَ صحائفُ الحمد خاليةً من اسمه ، ومواقفُ الرُّشْد خاوية من عَزْمه ؛ ونُؤْثِر أنْ يُساهِم آلُ أيوبَ فى ميراثِهم منه مواقِعَ الصبر ، ومطالِعَ النصر ؛ فوالله إنَّا عَلَى أن نُعطِيَه عطايا الأخرةِ الفاخره ، أشدُّ منَّا حِرْصا عَلَى أنْ نُعْطِيَه عطاياَ الدنيا القاصره ، وإنَّا لايسرنَّا أن ينقضِيَ عُمُره فى قتال غيرِ الكافر ، ونِزَالِ غيرِ الكُفْء المُناظر ؛ ولا شكَّ أنَّ سيفه لو اتَّصلَ بلِسانٍ ناطقٍ وفَم ، لقال مادمْتُ هناكَ فلستُ ثَمّ ؛ وما هو محمولٌ عَلَى خُطَّةٍ يخافُها ، ولامتكلِّفٌ قضيةً يحكُمُنا يعَافُها ؛ والذى بيده لا نَسْتكْثِره ، بل نَستقْصِره عن حقِّه ونستَصْغِره ؛ وما ناولْنَاه لفتْح أرضِه السِّلاح ، ولا أعرناه لمِلْكِ مركزِه النَّجاح ؛ إلا عَلَى سَخَاءِ من النفس به وبأمثالِه ، على علمٍ منَّا أنه لايقعُدُ عنا إذا قامتْ الحرب بنفسه ومالِه ، ولا نَسكُنْ به ظنًّا أحسنَ منه فعلا ، ولا نرضى وقد جعَلَنا الله أهلاً أنْ لا نَراه لنَصْرِنا أهْلا ، ولْيستَبْشِرْ أهلَ الرشاد فإنهم لايألُونه حقًّا واستِنْهاضاً ، وليُغْصِ أهلَ الغَوَاية فإنهم إنما يتغالون به لمَصَالحهم أغْراضا ؛ ومن بيتِه يظْعَنْ وإلى بيتِه يقْفُل ، وهو يجيبُنا جوابَ مثله لمثلنا ، وينوى فى هذه الزيارة جمعَ شملِ الإسلامِ قبل نِيَّة جمع شمْلِنا ؛ ولا تقعُدُ به فى الله نهضةُ قائم ، ولا تخذلهُ

عزمةُ عازم ؛ ولا يستفتِ فيها فَوْتَ طالبٍ ، ولا تأخذُه في الله لومةُ لائم ؛ فإنما هي سَفْرةٌ قاصدة ، وزَجْرة واحدة ؛ فإذا هو قد بيَّض الصحيفةَ والوجْهَ والذِّكْر والسُّمْعة ، ودانَ الله أحسنَ دَيْن ، ولا حرَجَ عليه إنْ فاء إلىَ أرضه بالرَّجْعة ، وليتدبَّرْ ما كتبناه ، وليتفهَّمْ ما أردْناه ؛ وليُقَدِّم الاستخارة ، فإنها سِراجُ الاستنارة ، وليْغضبْ لله ولرسولِه ولدينِه ولأخيه ، فإنها مكان الاستغْضاب والاستثارة ، ولْيحضُرْ حتى يشاهد أولادَ أخيه ، يستشْعِرون لفرقته غَمًّا ، وقد عاشُوا ما عاشُوا لا يعرفُون أنَّ لهم مع عمِّهم عَمًّا ، والله سبحانه يُلْهمه توفيقا ، ويسْلُك به إليه طريقاً ، ويُنْجِدُنا به سيفاً لرقبة الكفرِ ممزقا ، ودَمِه مُرِيقا ، ويجعله في مِضْمار الطاعات سابقاً لا مسبوقاً . إن شاء الله تعالى .



خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسَل من صلاح الدين
إلى ديوان الخلافة ببغداد .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٥٠٤ ــ ٥٠٦)

أسعد اللهُ عظماءَ الأملاكِ بالانتساب إلى الخدمة الشريفة النبوية ، وأوزعهم ما أمرهم به من طاعتها ، وخلَّد مُلْكَ الديوان العزيز النبوى ما دامت الأفلاكُ قائمة ، والنجوم ناجمة ، ونقع بغمائمها غُلَلَ الآمال الحائمة ، وفسَّر بمكارمها حُلُمَ الأمانى الحالمة ، ورتق بتدبيراتها المعصومة فتوقَ النُّوَبِ المتعاظمة ، وأظهر على أيدى أوليائها معجزات نصرها ، وصرَّف الأيامَ والليالى بين المرضيَّيْن لله نهيها وأمرها ، وأودع بركاتِ السماء والأرض بمودعها ومستقرَّها .

المملوك — وإن كان قد يسَّر اللهُ له مُذْ أُطلقت عذبةُ لسانه ، خدمةَ الدولة العباسية ، فتفسَّح فى وسيع مآثرها ، وتخيَّر من بديع جواهرها ، وامتاح من نمير زواخرها ، فإنه لا يعتذر عن الحصْر الذى اعتراه فى وصف المنعَمِ عليه به من الخطاب الشريف ، الذى لولا أنَّ عصمة الموالاة تثبِّتُ فؤاده الخافق ، وتُسدِّد لسانَه الناطق ، لما تعاطى وصف ما أعطاه من كتابه المرقوم ، وسبق إليه من سحابه المركوم ، فإنه مما يشفُّ عنه الأملُ ناكصا وهو كسير ، وينقلبُ دونه البصرُ خاسئا وهو حسير ، إلا أن الإنعامَ الشريف يبدأ الأولياء بما لو وكلهم إلى أمانيهم لتهيَّبتْ أن تتعاطى حظيَّته ، ولو فوَّضه إلى راحتهم ، لنكلتْ عن أن تترقى

نصيَّته ، ولا غرو للسحاب أن يصافحَ قَطْرُه الثرى ، والفجرِ أن يشرقَ نورُه على عين الكرى والسرى .

فالحمدُ لله الذى قرَّب على المملوك منالَ الآمال ، وثبَّت حصاة فؤاده لما لا تستقل بحمله صُمُّ الجبال ، ويستنيبُ عن جَهْر الشكر بِسِرِّ الأدعية ، ويقتصر على ما يفضى به إلى المحاريب وإن لم يُقَصِّر عمَّا يَقُصُّه فى الأندية ؛ ويطالِع بأن مملوك الخدمه وابنُ مملوكها أخذ الكتابَ بقوة ، وشمَّر لخدمة أشرف خلافةٍ لأشرف نبوة ، وتلقَّاه تلقى أبيه الأولِ الكلمات ؛ ورأى إطلاعَ اللهِ لأمير المؤمنين على ما فى ضميره من طاعته ، إحدى المعجزات والكرامات ، وسمع المشافهة خاشعاً متصدعاً ، واشتمل عليها بفهمه ساميا طرفُه متطلعا .

ولقد أشبه هذا الكتابُ الكريم بيعةً أُخذت عليه ، مَدَّ إليها يده آخذاً بكلتا يديه ، والمملوكُ يرجو ، بل يتحقق ، أن هذا العبدَ المشارَ إليه ، سيوفى على سابقه من عبيد الدولة العباسية فى الزمان ، ويكون بمشيئة الله أسبقَ منهم بالإحسان ؛ وقد صدرت خدمتان من جهته ، وبعدهما تصدر الخدم ، ولا يألو جهداً فى الخدمتيْن مباشرا بيده السيف ، ومستنيباً عنها العَلَم ، وله نُصْرَةٌ باقيةٌ فى الولاء وهو غنى بها عن التصير ، وسريرةٌ باديةٌ فى الطاعة هو إليها أسكنُ منها إلى كل مشير .

يعود المملوك إلى ما لا يزال يفتتح به الصلوات المفروضة ، ويختتم به الختماتِ المعروضه ؛ من الدعاء الصالح الذى [وإن] أغنى اللهُ وليَّه عنه فقد أحوج ذوى العقائد السليمة إليه ؛ لأنه مُزَكٍّ لأعمالهم ؛ بل متمم لإسلامهم ، وكيف لا يدعون لمن يُدعْون به يوم يُدعى كلُّ أناس بإمامهم ، فيقول : جمعَ اللهُ لأمير المؤمنين طاعةَ خلقه ! وأذلَّ رقابَ الباطل سيف حقه ! ، وجعل الله ما هو

قبضته فى الأخرى قبضة أمير المؤمنين فى الأولى ! من الأرض التى هى موطوءة كالسموات العلى ، وأدام نعِمَه على هذه الأمة بإمامته ، وأظهر كرامةَ نبيِّه عليه السلام بما يظاهره من كرامته ؛ وعَجَّل لمن لا يقوم بغرض ولايته إقامةَ قيامته ، وردَّ بسيوفه التى لا تُردُّ ما الإسلام ممطولٌ به من ظلامته ، وأقام به مناهجَ الدين لأهله ، وأظهره بمظاهرته على الدين كلِّه ، حتى يلقى اللهَ وما خلَّف فى الدنيا كافراً ولا ضميراً إلا بالتوحيد عامراً ، ولا بلداً إلا وقد بات الإسلام به آهلا ، وقد أصبح منه الكفر دائرا ، إن شاء الله تعالى .



خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين
إلى الخليفة الناصر لدين الله بخبر ملك الألمان والقتال معه ،
فى جواب كتاب ورد عليه .

عن : (القلقشندى . صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٢٦ — ١٣٠)

أدام اللهُ ظلَّ الديوان العزيز النبوىّ ، الإمامىّ ، الشريفِ الناصرىّ ؛ ومَدّه على الأمة ظليلا ، وجعلَ الأنوارَ عليه دليلا ؛ وحاطَهُ بلُطْفه وتقبلَّ أعمالَهُ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها ، وأرْغَم أعداءه وكَبَتها ، ومسَّها بعذابٍ من عنده وسَحَتها ؛ ولا زالتْ رايتُه السوداء بيضاءَ الخَبر ، محمرَّةَ المَخْبَرِ فى الغُداة مسْوَدَّةَ الأثَر .

ورد على الخادم ما كُوتِب به من الديوان العزيزِ رائداً فى استخلاصه ، مُبَرْهِناً عن اختصاصه ، مُطْلِقاً فى الشُكْر للِسانِه ، وفى الحَرْب لِعنانه ؛ ومقْتَضِياً لأُمْنِيَّةٍ كان يتهيَّبُها ، ومُفيضاً لمَكْرُمة لو سمَتْ نفسُه إليها ، كان يتهمها ، فللهِ هو ! من كتابٍ كأنَّه سورةٌ وكلُّ آيةٍ منه سَجْدة ، قابَلَه بالخُشُوع كأنما قلَمُ الكِتَابِ القضيبُ وطِرْسُه البُرْدة ؛ وتلَاه على من قِبَلَهُ من الأولياء مستَرْهِفاً به لعَزَائمهم ، مستَجْزِلاً به لمَغَانمهم ؛ مستثبتاً به للازمهم ، مستدْعِياً به الخدمةَ للَوَازِمهم ؛ مُرْهِفاً به ظُباهم فى القتال ، فاسِحاً به خُطَاهم يومَ النِّزال ؛ فأثَّر فيهم كالاقتداح فى الزَّنْد ، وكالانبجاس من الصَّلْد ، وكالاستِلال من الغِمْد ، فشمَّرَ مَنْ كان قد أسْبَل ، وانتهى مَنْ كان قد أجْبَل ؛ وكأنّما أُعْطُوا كتاباً من الدّهْر بالأَمَان ، أو سمِعُوا منادِياً يُنادى لِلْإيمان ؛ وقالوا سَمِعْنا

وأطَعْنا ، وعلينا من الخِدْمة ما استطَعْنا ؛ هذا مع كونهم أنضاءَ زُحُوف ، وأشْلاءَ حتُوف ، وضَرائبَ سُيُوف ؛ قد وسَمتْ وُجوهَهُم علاماتُ الكِفَاح ، وأحالت غرضهم أقلامُ الرِّماح ؛ صابرين مُصابِرين ، مُكاثِرين مُكابِرين ، مُناضِلين مُناظِرين ؛ قد قامُوا عن المسلمين بما قَعَد عنه سائِرُهم ؛ ونزلوا بقارعة القِرَاع فلا يَسِيرُ عنها سائِرُهم ؛ وسَدَّسَتْ كعوبُ الرِّماح أنملَهم ، وأثبَتُوا فى معتَرَكِ الموتِ أرجُلَهم ؛ كلٌّ ذلك طاعةً لله ولرسوله ولخليفتهما ، و إذا رمَوْا فأصابُوا ، قالُوا : ولكنَّ اللهَ رَمَى .

ومن خَبَرِ الكفَّار أنهم إلى الآنَ ، عَلَى عَكاَّ يمدّهم البحْرُ بمراكبَ أكثَرَ عدّةً من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمَرُّ من أُجَاجه ؛ قد تعاضدتْ ملوكُ الكُفْر على أن يُنْهِضُوا إليهم من كلِّ فرقةٍ منهم طائفة ، و يقَلِّدوا لهم من كل قِرْن يُعْجِز بالكرَّة واصِفَه ؛ فإذا قتل المسلمون واحداً فى البَرِّ ، بعث البحرُ عِوضَه ألفا ، و إذا ذهب بالقتل صنفٌ منهم ، أخلفَ بَدلَه صِنْفا ؛ فالزَّرْع أكثَرُ من الجِدَاد ، والثمرةُ أنمَى من الحِصَاد . وهذا العدوّ المقاتل — قاتله الله — قد زرّ عليه من الخَنَادق أدراعاماتينة ، واستجَنّ من الجَنَويات بحُصُون حَصينة ؛ مصْحِراً ومُتَمنِّعا ، وجاسراً ومتدرِّعاً ، ومُواصِلاً ومُنْقطعاً ، وكُلَّما أخرج رَأْسا قد قُطِعت منه رُءوس ، وكُلَّما كَشَف وجْها كُشِفت من غِطَاء أجسادها نفُوس ؛ فكم من يوم أرسَلُوا أعِنَّة السوابق فذمُّوا عُقْبيَ إرسالها ، وكم من ساعةٍ فَضُّوا فيها أقفالَ الخَنَادق ، فأفضَى إليهم البَلاء عند فَضِّ أقفالها ؛ إلا أنَّ عدَدَهم الجَمّ قد كاثَرَ القَتْل ، ورقابَهم الغُلْبَ قد قطَعت النَّصل لِشِدّة ما قطَعها النصل ، ومَنْ قَبلَ الخادم من الأوليــاء قد أثرت المدة الطويلة والكلف الثقيلة فى استطاعَتِهم ، لا فى طاعتِهم ، وفى أحوالهم لا فى شَجَاعتهم ؛ فالبَرْكُ قد أنضَوْه ،

والسِّلاح قد أحفَوْه ، والدِّرهمَ قد أفْنَوْه ، وكل من يَعْرِفهم من أهل المَعْرِفة ، ويراهم بالعَيْن فما هُم مثل مَنْ يراهم بالصِّفَة ؛ يناشِدُ الله المُناشدةَ النبويَّة ، فى الصَّيحة البَدْرية ؛ اللهم أن تَهْلِكْ هذه العِصَابة ، ويُخْلِص الدعاء ويَرْجُو عَلَى يَدِ أمير المؤمنين الإجابة .

هذا والساحلُ قد تماسَكَ ، وما تَهالَكَ ؛ وتجَلَّد ، وما تبَلَّد ؛ وشجَّعته مَوَاعِد النَّجْدة الخارِجَة . . وأسْلَته عن مصارع العِدَة الدَّارجة ؛ فكَيْفَ به إذا خرج داعيةُ الألْمان ، ومُلوك الصُّلْبان ؛ وجموعُ ما وراء البحر ، وحُشُودُ أجناسِ الكُفْر ؟ وقد حَرَّم باباهم — لعنة الله عليهم وعليه — كلَّ مباح واستخرج منهم كلَّ مذْخُور ، وأغاق دُونَهم الكنائس ، ولَبِس وألبَسَهم الحِدَاد ، وحَكَم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخْلِصُوا المَقْبَرة ، ويُعِيدوا القُمامة . (وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وإنِّى جارٌ لَكُمْ) .

أللهم أخْفِرْ جِواره ، واصْرِفْ جَوْره ، وأخْلِفْ وَعْده ، واكْسِرْ ضَمانَه ، وأنْكِصْه عَلَى عَقِبه ، وعَجِّل فى الدنيا والآخرة منهم تَبابَه . وما بَدأْتَنا به من نعمتك فلا تقطَعْه ، وما وهبْتَنا من نَصْرك فلا تَسْلُبْه ، وما سَتَرْتَه من عَجْزِنا فلا تَهْتِكْه . وفى دُونِ ما الدِّينُ مستقْبِلُه ، وعدوُّه خذله الله يؤمِّله ؛ ما يستَفْرِغُ عزائمَ الرجال ، ويستَنْفِدُ خزائنَ الأموال ؛ ويُوجِب لإمام هذه الأمةِ أن يحفَظ عليها قِبْلتها ، ويُزِيحَ فى قتل عَدُوّها علّتَها ؛ ولولا أنَّ فى التصريح ، ما يعودُ على عدالته بالتَّجْرِيح ، لقال ما يُبْكِى العَينَ ويُبكى القلوب ، وتَنْشَقُّ له المرائر وتُشَقُّ له الجُيوُب ، ولكنَّه صابرٌ محتَسِب ، منتظرٌ لنصر الله مُرْتقِب ، قائمٌ من نَفْسِه بما يجب ؛ (رَبِّ إنى لا أملِكُ إلاّ نَفْسِى وأخى) ، وها هو قد هاجَرَ

إليك هجرةً يرجُوها عنـدك مقبولة ، ووُلْدِى وقد أبرزتُ لعَدُوِّك صَفَحاتِ وجوههم ، وهانَ علىّ محبوبُكَ بمكْروهى فيهم ومَـكْروهِهم . و نَقِف عندَ هذا الحدّ ، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْد ، و إن لم يشتَكِ الدِّينُ إلى « ناصره » والحقُّ إلى مَنْ قام بأوّلِهِ و إلى اليوم الآخر يقُوم بآخِره ؛ فإلى مَنْ يُشْتَـكَى البثّ ، وعند من يتفرج بالنفْث ؟ ومنفعةُ الغَوث قبل العَطَب ، والنَّجاء قبل أن يَصِل الحِزامُ الطُّبْيَيْن ، والبَلاَغ قبل أن يَصِل السيلُ الزُّبى .

فياعَصَبَة محمد — صلّى الله عليه وسلم — اخْلُفْه فى أمّته بما تطمئن به مَضاجِعُه ، ووَفِّه الحقَّ فينا فإنّا و إنّ المسلمين عندك ودائعُه ، وما مثَّل الخادمُ نفسَه فى هذا القول إلا بحالةِ مَنْ وقفَ بالباب ضارعا ، وناجىَ بالقول صادِعا ؛ ولو رُفِعتْ عنه العوائقُ لهاجر ، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مَسِيحَه بالداء الذى خامر ؛ ولو أمِنَ عدوَّ اللهِ أنْ يقول فرَّ لسافر ، و بعدُ ففيه و إن عَضَّ الزمانُ بقيـــة ، و قِبَلَه و إن تدارَأَتِ الشُّهَّاد دَرِيَّة ؛ فلاَ يزالُ قائماً حتّى يُنْصَر أو يُعْذَر ، فلا يصل إلى حُرَم ذرّية أحمدَ — صلّى الله عليه وسلم — ومن ذُرّيةِ أيُوبَ واحدٌ يُذْكَر .

أنجز الله لأمير المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْره ! وتمم مساعَدَةَ دهره ! وأصفَى مَوَارِدَ إحسانه ! وأرسىَ قواعد سلطانه ! وحَفِظه وحفظ به فهو خَيْرٌ حافظا ، ونَصَره ونصر عَلَى يَدَيْه فهو أقوىَ ناصِرا ، إن شاء الله تعالى .

نسخة العهد المكتوب به من ديوان الخلافة ببغداد
إلى السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب — أخى السلطان
الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب —

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٩٩ — ١١١)

الحمد لله الذى اطمأنت القلوبُ بذكره ، ووجب على الخلائق جزيلُ حَمْدِه وشُكْره ، ووسعتْ كلَّ شىء رحمتُه ، وظهرتْ فى كل أمر حكمته ، ودلَّ على وحدانيته بعجائب ما أحكمه صنعا وتدبيراً ، وخلق كل شىء فقَدَّره تقديرا ؛ مُمِدِّ الشاكرين بنعمه التى لا تحصى عددا ، وعالم الغيب الذى لا يظهر على غيبه أحـــداً ؛ لا مُعقب لحكمه فى الإبرام والنقض ، ولا يؤده حفظ السموات والأرض ؛ تعالى أن يحيط بحكمه الضمير ، وجل أن يبلغ وصفه البيان والتفسير : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ) .

والحمد لله الذى أرسل — محمداً صلى الله عليه وسلم — بالحق بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ؛ وابتعثه هادياً للخلق ، وأوضح به مناهج الرشد وسبل الحق ؛ واصطفاه من أشرف الأنساب وأعز القبائل ، واجتباه لإيضاح البراهين والدلائل ؛ وجعله لديه أعظم الشفعاء وأقرب الوسائل ، فقذف — صلى الله عليه وسلم — بالحق على الباطل ، وحمل الناس بشريعته الهادية على المحجة البيضاء والسنن العادل ، حتى استقام اعوجاج كل زائغ ، ورجع إلى الحق كل حائد عنه ومائل ؛ وسجد لله كل شىء تتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه

الكرام الأفاضل ، صلاةً مستمرة بالغدوات والأصائل ؛ خصوصاً على عمّه وصنو أبيه العباس بن عبد المطلب الذى اشتهرت مناقبه فى المجامع والمحافل ؛ ودرّت ببركة الاستسقاء به أخلاف السحب الهواطل ، وفاز من تنصيص الرسول على عقبه فى الخلافة بما لم يفز به أحد من الأوائل .

والحمد لله الذى حاز مواريث النبوة والإمامة ، ووفر جزيل الأقسام من الفضل والكرامة ، لعبده وخليفته ، ووارث نبيّه ومحيي شريعته ، الذى أحله الله عز وجل من معارج الشرف والجلال فى أرفع ذروة ، وأعلقه من حسن التوفيق الإلهى بأمتن عصمة وأوثق عروه ؛ واستخرجه من أشرف نجار وعنصر ، واختصه بأزكى منحة وأعظم مفخر ؛ ونصبه للمؤمنين علما ، واختاره للمسلمين إماماً وحكما ؛ وناط به أمر دينه الحنيف ، وجعله قائماً بالعدل والإنصاف بين القوى والضعيف ؛ إمام المسلمين ، وخليفة رب العالمين ؛ أبى جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ؛ ابن الإمام السعيد التقى ، أبى نصر محمد الظاهر بأمر الله ، ابن الإمام السعيد الوفى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله ، ابن الإمام السعيد أبى محمد المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وعلى آبائه الطاهرين ، الأئمة المهديين ؛ الذين قضوا بالحق و به كانوا يعدلون ، ولقوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ ، وهم عنه راضون .

و بعد ، فبحسب ما أفاضه الله على أمير المؤمنين — صلوات الله عليه وسلامه — من خلافته فى الأرض ، وفوضه إلى نظره المقدس فى الأمور من الإبرام والنقض ، وما استخلصه له من حياطة بلاده وعباده ، ووكله إلى شريف نظره ومقدس اجتهاده ؛ لا يزال — صلوات الله عليه — يكلأ العباد بعين الرعاية ، و يسلك بهم فى المصالح العامة والخاصة مذاهب الرشد وسبل

الهدايه ؛ وينشر عليهم جناحى عدله وإحسانه ، وينعم لهم النظر فى ارتياد الأمناء والصلحاء من خلصاء أكفائه وأعوانه ؛ متخيراً للاسترعاء من استحمد إليه بمشكور المساعى ، وتعرف إليه فى سياسة الرعايا بجميل الأسباب والدواعى ؛ وسلك فى مفترض الطاعة الواجبة على الخلائق قصد السبيل ، وعلم منه حسن الاضطلاع فى مصالح المسلمين بالعبء الثقيل ، والله عز وجل يؤيد آراء أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — بالتأييد والتسديد ، ويمده أبداً من أقسام التوفيق الإلهى بالموفور والمزيد ؛ ويقرن عزائمه الشريفة باليمن والنجاح ، ويسنى له فيما يأتى ويذر أسباب الخير والصلاح ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه ينيب .

ولما وفق الله تعالى نصير الدين محمد بن سيف الدين أبى بكر بن أيوب من الطاعة المشهورة ، والخدم المشكورة ، والحظوة فى جهاد أعداء الدين بالمساعى الصالحة ؛ والفوز من المراضى الشريفة الإمامية — أجابها الله تعالى — بالمغانم الجزيلة والصفقة الرابحة ؛ لما وصل فيه سالف شريف الاختصاص بآنفه ، وشفع تالده فى تحصيل مأثور الاستخلاص بطارفه ؛ واستوجب بسلوكه فى الطاعة المفروضة مزيد الإكرام والتفضيل ، وضرع فى الإنعام عليه بمنشور شريف إمامى يسلك فى اتباعه هداه والعمل بمراشده سواء الصراط وقصد السبيل — اقتضت الآراء الشريفة المقدسة — زادها الله تعالى جلالا متألق الأنوار ، وقدسا يتساوى فى تعظيمه من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار — الإيعاز بإجابته إلى ما وجّه أمله إلى الإنافةِ فيه به إليه ، والجذب بضبعيه إلى ذروة الاجتباء الذى تظهر أشعة أنواره الباهرة عليه ؛ فقلده — على خيرة الله تعالى — الزعامة والغلات ، وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والضياع والصدقات ، والجوالى وسائر وجوه الجبايات ، والعرض والعطاء ، والنفقة فى الأولياء ؛ والمظالم

والحسبة فى بلاده ، وما يفتتحه و يستولى عليه من بلاد الفرنج الملاحين ، و بلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده من الشاذين عن الإجماع المنعقد من المسلمين ؛ و [من] يتعدى حدود الله تعالى بمخالفة من يصل (؟) من الأعمال الصالحات بولائه المفروض على الخلائق مقبولة ، وطاعته ضاعف الله جلاله بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم موصولة ؛ حيث قال عز من قال :

(يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم)

واعتمد — صلوات الله عليه وسلامه — فى ذلك على حسن نظره ومدد رعايته ، وألقى مقاليد التفويض إلى وفور اجتهاده وكمال سياسته ؛ وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما يبقى له على تعاقب الدهر واستمراره ، ويخلد له على مر الزمان حسن ذكره وجزيل فخاره ؛ وحباه بتقليد يوطد له قواعد الممالك ، ويفتح بإقليده رتاج الأبواب والمسالك ؛ ويفيد قاعدته فى بلاده زيادة تقرير وتمهيد ، ويطير به صيته فى كل قريب و بعيد ، ووسمه بالملك الأجل ، السيد ، الكامل ، المجاهد ، المرابط ؛ نصير الدين ، ركن الإسلام ، أثير الأنام ، تاج الملوك والسلاطين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، غازى بك محمد ، بن أبى بكر ، ابن أيوب ، معين أمير المؤمنين ، رعاية لسوابق خدمه وخدم أسلافه وآبائه ، عن وفور اجتبائه ، وكمال ازدلافه ، وإنافة من ذروة القرب إلى محل كريم ، واختصاصاً له بالإحسان الذى لا يلقاه إلا من هو كما قال تعالى : (ذو حظ عظيم) . وثوقا بصحة ديانته التى يسلك فيها سواء سبيله ، و إستنامة إلى أمانته فى الخدمة التى ينصح فيها لله تعالى ولرسوله ، وركونا إلى [كون] الإنعام عليه موضوعاً بحمد الله تعالى فى أحسن موضع ، واقعا به لديه فى خير مستقر ومستودع .

وأمير المؤمنين — صلوات الله عليه — (لا زالت الخيرةُ موصولةً بآرائه ،

والتأييد الإلهى مقرونا بإنفاذه و إمضائه) يستمد من الله عز وجل حسن الإعانة فى اصطفائه الذى اقتضاه نظره الشريف واعتماده ، وأدى إليه ارتياده المقدس الإمامى و اجتهاده ؛ وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

أمره بتقوى الله تعالى التى هى الجنة الواقية ، والنعمة الباقية ؛ والملجأ المنيع ، والعماد الرفيع ؛ والذخيرة النافعة فى السر والنجوى ، والجذوة المقتبسة من قوله سبحانه : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وأن يدرع بشعارها ، فى جميع الأقوال والأفعال ، و يهتدى بأنوارها ، فى مشكلات الأمور والأحوال ، وأن يعمل بها سراً وجهراً ، و يشرح للقيام بحدودها الواجبة صدرا ؛ قال الله تعالى : (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجراً) .

وأمره بتلاوة كتاب الله متدبراً غوامض عجائبه ، سالكا سبيل الرشاد والهداية فى العمل به ، وأن يجعله مثالا يتبعه و يقتفيه ، ودليلا يهتدى بمراشده الواضحة فى أوامره ونواهيه ؛ فإنه الثقل الأعظم ، وسبب الله المحكم ، والنور الذى يهدى به إلى التى هى أقوم ؛ ضرب الله تعالى فيه لعباده جوامع الأمثال ، و بين لهم بهداه الرشد والضلال ، وفرق بدلائله الواضحة الحرام والحلال ؛ فقال عز من قائل : (هذا بيانٌ للناس وهدى وموعظة للمتقين) . وقال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) .

وأمره بالمحافظة على مفروض الصلوات ، والدخول فيها على أكمل هيئة من قوانين الخشوع والإخبات ، وأن يكون نظره فى موضع سجوده من الأرض ، وأن يمثل لنفسه فى ذلك موقفه بين يدى الله تعالى يوم العرض ؛ قال الله تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون) ، وقال تعالى : (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا) . وأن لا يشتغل بشاغل عن أداء فروضها

الواجبة ، ولا يلهو بسبب عن إقامة سُنَنْها الذاتية ؛ فإنها عماد الدين الذى نمت أعاليه ، ومِهاد الشرع الذى تمت قواعده ومبانيه ؛ قال الله تعالى : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) ، وقال سبحانه : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) .

وأمره أن يسعى إلى صلوات الجُمَع والأعياد ، ويقوم فى ذلك بما فرضه الله تعالى عليه وعلى العباد ؛ وأن يتوجه إلى الجوامع والمساجد متواضعا ، ويبرز إلى المصليات الضاحية فى الأعياد خاشعا ؛ وأن يحافظ فى تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمندوب ، ويعظم باعتماد ذلك شعائر الله التى هى من تقوى القلوب ، وأن يشمل بوافر اهتمامه واعتنائه ، وكمال نظره وإرعائه ؛ بيوت الله التى هى محال البركات ، ومواطن العبادات ؛ والمساجد التى تأكد فى تعظيمها وإجلالها حكمه ، والبيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ وأن يرتِب لها من الخدم من يتبتل لإزالة أدناسها ، ويتصدى لإذكاء مصابيحها فى انظلام وإيناسها ؛ ويقوم لها بما تحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات ، ويحضر إليها ما يليق من الفُرُش والكسوات

وأمره باتباع سنة النبى صلى الله عليه وسلم التى أوضح جددها ، وثقف — عليه السلام — أودها ؛ وأن يعتمد فيها على الأسانيد التى نقلها الثِقات ، والأحاديث التى صحت بالطرق السايمة والروايات ؛ وأن يقتدى بما جاءت به من مكارم الأخلاق التى ندب صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بسببها ، ورغب أمته فى الأخذ بها والعمل بأدبها ؛ وقال الله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) . وقال سبحانه وتعالى : (من يطع الرسول فقد أطاع الله).

وأمره بمراعاة أحوال الجند والعسكر فى ثغوره ، وأن يشملهم بحسن نظاره

وجميل تدبيره ؛ مستصلحاً نياتهم بإدامة التلطف والتعهد ، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التفحص والتفقد ؛ وأن يسوسهم سياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم ، ويهديهم فى انتظامها واتساقها إلى الصراط المستقيم ، ويحماهم على القيام بشرائط الخدم ، والتمسك منها بأقوى الأسباب وأمتن العصم ؛ ويدعوهم إلى مصلحة التواصل والائتلاف ، ويصدهم عن موجبات التخاذل والاختلاف ؛ وأن يعتمد فيهم شرائط الحزم فى الإعطاء والمنع ، وما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض والرفع ؛ وأن يثيب المحسن على إحسانه ، ويسيل على المسىء ما وسعه العفو واحتمله الأمر ذيل صفحه وامتنانه ؛ وأن يأخذ برأى ذوى التجـــارب منهم والحنكة ، ويجتنى بمشاورتهم فى الأمر ثمر الشركة ؛ إذ فى ذلك أمن من خطإ الانفراد ، وتزحزح عن مقام الزيغ والاستبداد .

وأمره بالتبتل لمـا يليه من البلاد ، ويتصل بنواحيه من ثغور أولى الشرك والعناد ؛ وأن يصرف مجامع الالتفات إليها ، ويخصها بوفور الاهتمام بها والتطلع عليها ؛ وأن يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقل بالإحكام والإتقان ، وينتهى فى أسباب مصالحها إلى غاية الوسع ونهاية الإمكان ، وأن يشحنها بالميرة الـكثيرة والذخائر ، ويمدها من الأسلحة والآلات بالعدد المستصلح الوافر ، وأن يتخير لحراستها [من يختاره] من الأمناء الثقاة ، ولسدها من ينتخبه من الشجعان الـكماة ؛ وأن يؤكد عليهم فى استعمال أسباب الحفظة والاستظهار ، ويوقظهم للاحتراس من غوائل الغفلة والاغترار ؛ وأن يكون المشار إليهم ممن ربوا فى ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد ، وتدربوا فى نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمراصد ، وأن يعتمد هذا القبيل بمواصلة المدد ، وكثرة العدد ، والتوسعة فى النفقة والعطاء ؛ والعمل معهم بما يقتضيه حالهم وتفاوتهم فى التقصير والغناء ؛ إذ فى ذلك حسم لمـادة الأطماع فى بلاد الإسلام ، ورد لـكيد المعاندين

من عبدة الأصنام ؛ فمعلوم أن هذا الفرض أولى ما وجهت إليه العنايات وصرفت، وأحق ما قصرت عليه الهمم ، ووقفت . فإن الله تعالى جعله من أهم الفروض التى كرم فيها القيام بحقه ، وأكبر الواجبات التى كتب العمل بها على خلقه ؛ فقال سبحانه وتعالى هادياً فى ذلك إلى سبيل الرشاد ، ومحرضاً لعباده على قيامهم بفروض الجهاد : (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) . وقال تعالى : (فاقتلوهم حيث ثقفتموهم) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من نزل منزلا يخيف فيه المشركين ويخيفونه ، كان له كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة ، وأجر قائم لا يقعد إلى يوم القيامة ، وأجر صائم لا يُفطر » . وقال عليه السلام : «غدوة فى سبيل الله أو روحة خير مما طلعت عليه الشمس». هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حق من سمع هذه المقالة فوقف لديها، فكيف بمن كان كما قال عليه السلام : « ألا أخبركم بخير الناس : ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » .

وأمره باقتفاء أوامر الله تعالى فى رعاياه ، والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان بمراشده الواضحة ووصاياه؛ وأن يسلك فى السياسة [بهم] سُبُل الصلاح ، ويشملهم بلين الكنف وخفض الجناح ، ويمد ظل رعايته على سلمهم ومعاهدهم ويزحزح الأقذاء والشوائب عن مناهلهم فى العدل ومواردهم ، وينظر فى مصالحهم نظراً يساوى فيه بين الضعيف والقوى ، ويقوم بأودهم قياما يهتدى به ويهديهم فيه إلى الصراط السوى ؛ قال الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

وأمره باعتبار أسْبابِ الاستظهار والأَمنَه . واستقصاء الطاعة والقُدرة الممكنَة ، فى المساعدة على قضاء تَفَث حُجاج بيت الله الحرام ، وزُوار نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن يُمدهم بالإعانة فى ذلك على تحقيق الرجاء وبُلُوغ المَرَام ، ويحرسهم من التخطف والأذى فى حالتى الظعن والمقام ؛ فإن الحج أحدُ أركان الدين المشيَّدة ، وفرُوضه الواجبة المؤكدة ؛ قال الله تعالى « ولله على الناس حج البيت » .

وأمره بتقوية أيدى العاملين بحكم الشرع فى الرعايا ، وتنفيذ مايصدر عنهم من الأحكام والقضايا ؛ والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوى الاستحقاق ، والشد على أيديهم فيما يرونه من المنع والإطلاق ، وأنه متى تأخر أحد الخصمين عن أجابة داعى الحكم أو تقاعس فى ذلك لما يلزم من الأداء والعدم ، جذبه بعنان القسر إلى مجلس الشرع واضطره بقوة الانصاف إلى الأداء بعْد المنْع . وأن يتوخّى عُمال الوقوف التى تقرَّب المتقربون بها ، واستمسكُوا فى ثواب الله بمتين حبلها . وأن يمدهم بجميل المعاونة والمساعدة ، وحسن الموازرة والمعاضدة ، فى الأسباب التى تُؤذن بالعمارة والاستنماء ، وتعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء ؛ قال الله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

وأمره أن يتخير من أولى الكفاءة والنزاهة من يستخلصه للخدم والأعمال ، والقيام بالواجب : من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال . وأن يكونوا من ذوى الاضطلاع بشرائط الخدم المعينة وأمورها ؛ والمهتدين إلى مَسَالك صلاحها وتدبيرها . وأن يتقدم إليهم بأخذ الحُقوق من وُجُوهها المتيقنة ، وجبايتها فى أوقاتها المعينة ؛ إذ ذاك من لوازم الُجند وَوُفور الاستظهار ، وموجبات قوة الشوكة بكثير الأعوان والأنصار ، وأسباب الحيْطة التى تُحمى بها البلاد والأمصار ؛ ويأمرهم بالجرى فى الطسوق والشروط على النمط المعتاد ، والقيام فى مصالح الأعمال

على أقدام الجد والاجتهاد . وإلى العاملين على الصدقات بأخذ الزكوات على مشروع السنن المهيع ، وقصد الصراط المتبع ؛ من غير عُدول فى ذلك عن المنهاج الشرعى ؛ أو تساهل فى تبديل حكمها المفروض وقانونها المرْعى ، فإذا أخذت من أربابها الذين يُطهرون ويزكون بها ؛ كان العمل فى صرفها إلى مستحقها بحكم الشريعة النبوية وموجبها . وإلى جُبَاةِ الجزية من أهل الذمة بالمطالبة بأدائها فى أول السنة ، واستيفائها منهم حسب أحوالهم بحكم العادة فى الثروة والْمَسْكنة ؛ إجراء فى ذلك على حكم الاستمرار والانتظام ، ومحافظة على عظيم شعائر الإسلام .

وأمره أن يتطلع على أحوال كل من يستعمله فى أمر من الأمور ، ويُصرفُه فى مصلحة من مصالح الجمهور ، تَطلُّعا يقتضى الوقوف على حقائق أماناتهم ، وموجب تهذيبهم فى حركاتهم وسكناتهم ، ذهاباً مع النصح لله تعالى فى بريته وعملا فيه بقول النبى صلى الله عليه وسلم « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته » .

وأمره أن يستصلح من ذوى الاضطلاع والغناء ، من يرتب العَرض والعطاء والنفقة فى الأولياء ، وأن يكونوا من المشهورين بالحزم والبصيرة ، والموسومين فى المناصحة بإخلاص الطويّة وإصفاء السريرة ، حالين من الأمانة والصون بما يزين ؛ ناكبين عن مظان الشبه والطمع الذى يَصِمُ ويَشين ؛ وأن يأمرهم باتباع عادات أمثالهم فى ضبط أسماء الرجال ، وتحلية الأشخاص والأشكال ، واعتبار شيات الخيول وإثبات أعدادها ، وتحريض الجند على تخيرها واقتناء جيادها ، وبذل الجهد فى قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم والعمل بقوله تعالى :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم) .

فإذا نطقت جرائد الجند المذكورين بما أثبت لديهم ، وحقق الاعتبار والعيان

قيامهم بما وجب عليهم ، أطلقت لهم المعايش والأرزاق بحسب إقراراتهم وأوصلت إليهم بمقتضى واجباتهم واستحقاقهم : فإن هذا الحال أصل حراسة البلاد والعباد ، وقيام الأمر بما أوجبه الله تعالى من الاستعداد بفرض الجهاد ، قال تعالى :

(والَّذِين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لمع المُحْسِنِينْ) .

وأمره بتفويض أمر الحسبة إلى من يكون بأمرها مضطلعا ، وللسنة النبوية فى إقامة حدودها متبعاً ، فيعتمد فى الكشف عن أحوال العامة فى تصرفاتها الواجب ، ويسلكُ فى التطلع إلى معاملاتهم السبيل الواضح والسنن اللاحب ، فى الأسواق لاعتبار المكاييل والموازين . ويقيمه [مقامه] فى مؤاخذة المطففين ، وتأديبهم بما تقتضيه شريعة الدين ، ، ويحذرهم فى تعَدى حدُود الإنصاف شدة نكاله ، ويقابل المستحق المؤاخذة بما يرتدع به الجمع الكثير من أمثاله ، قال الله تعالى :

(وَأوفوا الكيل ولا تكُونُوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ،ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولاتعثوا فى الأرض مفسدين) .

وقال سبحانه :

(ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم .يوم يقوم الناس لرب العالمين) .

فليتول الملكُ السيدُ الكامل ، المجاهدُ ، المرابطُ ، نصيرُ الدين ، ركن الإسلام ، أثير الأنام ، جلالُ الدولة ، فخر الملة ، عزُ الأمة ، سندُ الخلافة ، تاجُ الملوك والسلاطين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، أمير المجاهدين غازى بك معين أمير المؤمنين — ما قلده عبدُ الله وخليفتُه فى أرضه ، القائم له

بحقه الواجب وفرضه ، أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين ، تقليد مطمئن بالإيمان ، وينصح لله ولرسوله وخليفته — صلوات الله عليه — في السر والإعلان ، وليشرح بما فُوض إليه من هذه الأمور صَدْرا ، ولْيَقُم بالواجب عليه من شُكْر هذا الإنعام الجزيل سراً وجهراً ، وليعمل بهذه الوصايا الشريفة الأمامية ، ولْيَقفُ آثار مراشدها المقدسة النبوية ، وليظهر من أثر الجد في هذا الأمر والاجتهاد ، وتحقيق النظر الجميل لله والإرشاد ، ما يكون دليلا على تأييد الرأى الأشرف المقدس — أجله الله تعالى — في اصطناعه واستكفائه ، وإصابة مواقع النجح والرشد في التفويض إلى حسن قيامه وكمال اعتنائه ، فليقدر النعمة في هذه الحال حق قدرها ، ولْيَمْتر بأداء الواجب بما غلب عليه من جزيل الشكر غزير درها ، وليطالع مع الأوقات بما يُشكل عليه من الأمور الغوامض ، ولْيُنْه إلى العلوم الشريفة المقدسة — أجلها الله تعالى — ما يلتبس عليه من الشكوك والغوامض (؟) ليرد عليه من الأمثلة ما يُوضح له وَجه الصواب في الأمور . ويستمد من المراشد الشريفة التي هي شفاء لما في الصدور بما يكون وروده عليه وتتابعه إليه نُوراً على نور ، إن شاء الله تعالى .



مرسوم بقلم القاضى الفاضل صادر عن صلاح الدين لتحويل السنة الخراجية إلى سنة هلالية .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ٧١ — ٧٤)

خرجتْ الأوامرُ الصلاحية بكَتْب هذا المنشورِ وتلاوة مُودّعه بحيث يستمر ، ونَسْخِه فى الدواوين بحيث يستقر ؛ ومضمونه .

إنَّ نظرنا لم يزل تتجلَّى له الجلائلُ والدقائق ، ويتوخى من الحسنات ما تسير به الحقائبُ والحقائق ، ويُخلِّد من الأخبار المشروعة ، كلَّ عَذْبِ الطرائقِ رائق ، ويجدّد من الآثار المتبوعة ، ما هو بِثَناء الخلائق لائق ، ولا يغـــادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير إلا جهدنا أن نـكتسبها ، ولا يُثَوِّب بنا الداعى إلى مَثُوبة إلا رأينا أن نحتسبها ، لا سيما ما يكون للسنين المـاضية مُمْضِيا ، وإلى القضايا العادلة مُفْضياً ، ولمحاسن الشريعة مُجَلِّيا ، ولعوارضِ الشُّبَه رافعا ، ولتناقض الخبر دافعا ، ولأبواب المعاملات حافظا ، ولأسباب المغالطات لافظا ، وللخواطر من أمراض الشكوك مصحِّحا ، وعن حقائق اليقين مفصحاً ، وللأسماع من طَيْف الاختلاف مُعْفياً ، ولغاية الإشكال من دُرُق الأفهام معفِّيا .

ولمـا استهلَّت سنةُ كذا الهلالية ، وقد تباعد ما بينها وبين السنة الخراجية إلى أن صارت غَلَّاتُها منسوبةً إلى ما قبلها ، وفى ذلك ما فيه : من أخذ الدرهم المنقود عن غير الوقت المفقود ، وتسمية بيت المـال مُمْطلا وقد أَنْجَز ، ووَصْف

الحق المُتْلف بأنه دَيْنٌ وقد أعْجز ، وأ كل رِزْق اليوم وتسميته منسوباً إلى أمْسِه ، وإخراج المعتَدّ لسنةِ هلالِه إلى حساب المعتدّ إلى سنة شمسه .

وكان اللهُ تعالى قد أجرى أمر هذه الأمة على تاريخ منزَّه عن اللَّبْس ، مُوقَّر عن الكَبْس ، وصرَّح كتابُه العزيزُ بتحريمه ، وذكر ما فيه من تأخير وقتِ النَّسيء وتقديمه ، والأمَّةُ المحمدية لا ينبغي أن يدركها الكسر ، كما أن الشمس لا ينبغي أن تدرك القمر ، وسُنَنُها بين الحق والباطل فَارِقة ، وسَنَتُها أبداً سابِقَة ، والسِّنُون بعدها لاحِقَة ، يتعاورُها الكَسْر الذي يزحزح أوقات العبادات عن مواضِعِها ، ولا يُدْرِكُ عملَها إلا من دقَّ نظرُه ، واستُفْرغت فى الحساب فِكَرُه ، والسنةُ العربيةُ تَقْطَعُ بخناجرِ أهلّتها الاشتباه ، وتردُّ شهورَها حاليةً بعقودها موسومةَ الجِباه ، وإذا تقاعست السنةُ الشمسية عن أن تطأ أعْقابَها ، وتُوَاطِى حِسابَها ، اجتذبتْ قِوَاها قَسْراً ، وأوجبَتْ لحقِّها ذكراً ، وتزوجتْ سنةُ الشمس سنةَ الهلال وكان الهلالُ بينهما مَهْراً ؛ فسنتُهم المؤنثةُ وسنتُنا المذكَّرة ، وآيةَ الهلال هنا دون آية الليل هى المبصرة ، وفى السنة العربية إلى ما فيها من عربية الإفصاح وراحة الإيضاح الزيادة التى تظهر فى كل ثلاثٍ وثلاثين سنة توفى على عدد الأمم قَطْعاً ، وقد أشار الله إليها بقوله :

(وَلَبِثُوا فى كَهْفِهِم ثَلاَثمِائَةٍ سِنِينَ وازدَادُوا تِسْعا) . وفى السنة الزائدة زيادة ، من لطائف السعادة ، ووظائف العبادة ، لأن أهل مِلَّة الإسلام يمتازون على كل ملة بسنة فى نظير تلك المدة قصدوا صلاتها ، وأدُّوا زكاتها ، وحجُّوا فيها البيت العتيق الكريم ، وصاموا فيها الشهر العظيم ، واستوجبوا فيها الأجور الجليلة ، وأُنسِتْ فيها أسماءهم بالأعمار الطويلة ، ومخالفوهم فيها قد عطلت

صحائفهم فى عدوانهم ، و إن كانت عاطــــلة ، وخلتْ مواقفهم فى أديانهم ، و إن لم تــكن قطُّ آهلة .

وقد رأينا باستخارة الله سبحانه والتيمن باتباع العوائد التى سلـكها السلف ، ولم تَسْلُك فيها السَّرَف ، أن ينسخوا أسماءها من الخراج ، ويذهبَ ما بين السنين من الاضطراب والاعوجاج ، لا سيما والشهور الخراجيــة قد وافقت فى هذه الشهورِ الشهورَ الهلالية ، وألقى الله فى أيامنا الوفاق بين الأيام ، كما ألقى باعتلائنا الوفاق بين الأنام ، وأسـكن بنظرنا ما فى الأوقات من اضطراب وفى القلوب من اصطرام .

فليستأنف التاريخ فى الدواوين المعمورة ، لاستقبال السنة المذكورة ، بأن توسم بالهلالية الخراجية لإزالة الالتباس ، ولإقامة القسطاس ، [و إيضاحا] لمن أمرُه عليه غُمَّةٌ من الناس ، وعلى هذا التقرير تُـكتب سجلات التحضير ، وتنتظم الحسبانات المرفوعة ، والمشارع الموضوعة ، وتطرد القوانين المشروعة ، وتثبت المـكلفات المقطوعة ، ولو لم يكن بين دواعى نقلها ، وعوارض زللها وزوالها ، إلا أن الأجناد إذا قبضوا واجباتهم عن منشورٍ إلى سنة خمس فى أواخر سنة سبع وسقط ساقطُهم بالوفاة ، وجرى بحكم السمع لا بالشرع إلى أن يرث وارثُه دون بيت المـال مستغَلَّ السنة الخراجية التى يلتقى فيها تاريخ وفاته من السنة الهلالية وفى ذلك ما فيه ، مما يباين الإنصاف و ينافيه [لـكفى] .

و إذا كان العدلُ وَضْعَ الأشياء فى مواضعها فلسنا نَحْرِم أيَّامنا المحرَّمة بذمامِنا ما رُزِقَتْه أبناؤُها من عدل أحكامنا ، بل نخلع عن جديدها المس كل المس ، و [نمنع] تبعة الضَّلال أن تُسند مهادنَتُه إلى نور الشمس ، ولا نجعلَ أيامنا

معمورةً بالأسقاط التى تجمعها ، بل مغمورةً بالأقساط التى تنفعها ، فليُبْنَ التاريخُ على بنيانه وليُحْسَم الْخُلْف الواقع فى السنين ، بهذا الحقّ الصادع المبين ، وليُنْسخ المشهودُ به فى جميع الدواوين ، وليكاتَبْ بُحكْمه من الخراج إلى من يمكنه من المستخدمين ؛ ومنها أن المستجدّ من الأجناد لو حُمِل على السنة الخراجية فى استغلاله ، وعلى الهلالية فى استقباله ، لكان مُحالاً على ما يكون مُحالاً ، وكان يتعجل استقبالا ، ويُباطِن استعلالاً ، وفى ذلك ما ينافِرُ أوصافَ الإنصاف ، ويصون الفلاح إن شاء الله .



خطاب بقلم القاضى الفاضل مرسل من السلطان صلاح الدين
إلى صاحب مكة ، جواباً عن كتاب ورد منه عليه فى معنى
وصول غلالٍ بعث بها إلى مكة .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ١٠٩ — ١١٠)

وصل كتابُك ، أيُّها الشريفُ مُعْرِباً عن المُشايَعةِ الشائعةِ أنباؤُها ، والمُخالَصَة الخالصةِ أسرارها الوافرةِ أنصباؤُها ؛ وحسانِ الخلال ، التى اقتسم طرفَى الحمد إعادتُها و إبداؤها ، ومَكْرُمات الآل ، التى تساوى فى اقتناء المجد أبناؤها وآباؤُها ؛ وفضائلِ الإفضال التى لا تخِفُّ على غير أهل العَباءَ صلوات الله عليهم أعباؤُها . ونَشَر كتابُك من محاسنك ما انطوى ، ووردنا منه مَنهَلا أروى واردَه وارتَوى ؛ ووقَفْنا منه على أثَرِ فضْلٍ اشتمل على عيْنِ الكَرَم واحتَوى ، ووفقنا وإياه من الحمد مالا نُخْلِفه نحنُ ولا هو مَكاناً سُوَى ؛ فاقتضانا مزيداً فى رفع قدرِه ، واختصاصِه من الإنعام بكلِّ غريبِ المَوْقِع نَدْرِه ، وأصَرْنا كتابَه إلى مستقَرِّ كاتبه من قلب الوُدِّ وصَدْره ؛ وكيف لا يكون ذلك وقد اشمَخرَّتْ لبَيْته الأنساب ، وخرّتِ الأنْصاب ، وسجَدتِ الرِّقاب ، ورُدّتْ له بعدما توارَتْ بالحِجاب ، وشَهد بفَضْل توقيعهم الحربُ و بفضل ليلهم المِحْراب .

فأمَّا ما أشار إليه من الشُّكْر على ما سُيِّر من الغَلاَّت التى كان الوعدُ بها علينا نَذْرا ، وروَّحنا بإرسالها قَلْباً ،وشَرَحْنا بتسييرها صَدْرا ،وأنَّها حلّت رِبْقَة

الجَدْب وفَـكَّتْها ، وجَلَتْ هَبْوَةَ القَحْط وكَفَّتْها ؛ وهوّنَتْ مَصاعب المَساغب ، وخلّفَتْ سواحبَ السحائب ، وأطفأَتْ — ولله الحمد — بَوَار النَّوائب ؛ فقد سُرِرْنا بحسنتنا جعله الله ممن تَسُرّه الحسنة ، وقد نَبَّهنا من سنتِنا لأنْ نستَقْبِلَ بالحمد الولى السنة ، وقد قوّى النيةَ وقوّمها ، واستزاد لهم بلسان الشكرِ الفصيح ، وتناوَلَ لهم بباع التلَطُّف الفَسيح ، وألقَحَ لهم سحائبَ ، محلُّه منها مَحلُّ مُلْقِحها من الرِّيح ، واقتضى ما يعرِضُه أن خرج الأمرُ بأن يضاعَفَ المحمولُ فى كل عام ، ولا يُخَصَّ به خاصٌّ دُونَ عام ؛ وأمَرْنا أن يوفَّر جَلبُ الجُلاَّب ، وتُوقَر ظهورُ الرِّكاب ، ليُجْمَع للحرم الشريف بين بِرِّ البر والبحر . وبين حَمْل البَطْن والظَّهْر ؛ فتظَلُّ السنةُ وَدُودا وَلُودا ، ويُشاهَدُ المحلُّ الشريفُ وقد نأى عنه المَحْلُ شَرِيدا ؛ وتُحطُّ القلوعُ عما يُحطُّ عنه أمثالها من السحائب ، وتستريحُ الأنفُسُ اللواغِب ، فأما ما ألقاه إلى رسوله ، فقد أُسْمِعَ ما أسنده إليه ، وأُعِيدَ بمـا يُعِيده عليه ؛ وقد تـكاثرت بوَلاء الشريف الأشهاد ، فغنى عن الاستشهاد ، وأغنَتْه الُحظْوة بجميل رأينا عما نأى أخذه لشُفْعة العطاء ، بل لشَفَاعة الاجتهاد ، إن شاء الله تعالى .



خطاب أرسله القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين
يوسف بن أيوب يهنئه بمولودٍ وُلِدَ له .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٩٠ — ٩١)

المملوكُ يقبِّل الأرضَ بالمَقَام العالى الناصرىِّ ، نصرَ اللهُ الإسلام بمقامه ، وأهلكَ أعداءَ الحقِّ بانتقامِه ، ولا أعْدم الأمةَ المحمديةَ عَقْد اعْتِزائه بكَفالتها ومَضَاء اعتزامه .

يهنِّىء المملوكُ المولى بنعمة الله عنده وعند الإسلام وأهله بمَنْ زاده فى ولده ، وكَثَّره فى عدده ؛ وهو الأمير « أبو سليمان داود »[1] أنشأه اللهُ إنْشَاء الصالحين ، ومَنَّ اللهُ بكمال خَلْقه ، ووَسَامةِ وجهه ، وسلامة أعضائه ، وتهلُّل غُرَّته ، وابتسام أَسِرَّته ، ودلَّ على أن هذا البيتَ الكريمَ فلكُ الإسلام ، لايطلُع فيه إلا البُدُور ، كما دلَّ على عناية الله بأبيه ، فإنَّ اللهَ تعالى قال :

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا ويَهَبُ لِمَنْ يَشَاء الذُّكُور) .

فطريقُ المولى هذه قد توالَتْ فيها البَشَائر ، ونَصَرَ اللهُ فيها بألطافٍ أغنَتْ بلُطْف الخواطر عن قُوَّة العساكر واشتملتْ عليه (؟) فى الغائبِ من أمره

(١) الملك الزاهر أبو سليمان مجير الدين داود — شقيق الملك الظاهر — وابن صلاح الدين ولد فى مصر فى ذى القعدة سنة ٥٧٣ هـ ، فهذا إذن هو تاريخ كتابة هذه الوثيقة ، انظر : (أبو شامة : الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٢٤) .

والحاضِر (وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لاتُحْصُوها) وكيف يحصيها ويحصُرها الحاصر ، أيحيطُ ما يَفْنَى بما لا يَنْفَد ؟ .

فالحمدُ لله الذى جعل كتُبَ المولى إلى أوليائه وكتُبَهم إليه مبْتسِمةً عن المَسارّ ، ناطقةً بأطيب الأخْبار ، منكشِفةً أسرارُها عمَّا يُروِّح الأسرار .

وهذا الولدُ المبارَكُ هو المُوفِّى لاثْنَىْ عشر ولدا ، بل اثْنَىْ عَشَرَ نَجْما متوقِّدا ؛ فقد زاد اللهُ فى أنجمه عن أنجم يوسفَ عليه السلام نَجْما ، ورآهم المولى يقظةً ورأى ذلك الأنْجُمَ حُلُما ؛ ورآهم ساجدين له ورأينا الخَلْقَ له سُجُودا ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُدودَ المولى إلى ان يراهم آباءً وجدودا .



نسخة خطاب مرسل إلى الملك العادل أبى بكر بن أيوب
فى جواب كتاب ورد منه بالبشارة بفتح خلاط .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٨٨ — ٨٩)

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل وزاده من فضله ! ، ومدَّ على خَلْقه وارِفَ ظلِّه ، وأظهرَ به دينَه على الدِّين كلِّه ؛ وأوضح إلى مرضاته ما يَسْلكُه من سُبُله ، ولا عَدِمت يدُ الإسلام والمسلمين التعلُّقَ بوثيق حَبْله ؛ وفَرَّج به الخُطَط المُطْبِقة ، وفتح به البلادَ المستغلِقة ، وأخضع لطاعته الأعناق ، وعمَّ بفتوحه الآفاق ؛ ودَمَّر الكُفْرَ بمقامه ، وطوى أيَّامَهم بما ينشُره ويُديمه من أيامه ، وأنزل النصرَ فى مواقف النِّزال بما ترفعه راياتُه من أعلامه .

وقف المملوكُ على ما أنعم به مولانا : من كتابِ البِشارة التى وصلَتْ إلى كلِّ قلبٍ وسَمْع ، وأمَّل بها كلُّ مسلم كلَّ خير ونَفْع ؛ وعَلِمَ ما وراءها من جَمْعِ شَمْلٍ كان عزيزَ الجمع ، وعلم ما يتبَعُها من عواطف مولانا التى عوّدها منه أكرمُ طبْع ؛ وتحقَّق أن الله سبحانه قد قلَّد الدين منه سيفاً خَلَقه للوصل ، وخلق السُّيوفَ للقطع .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلى هذه المِلَّة بنظر مولانا لها ، وكَفالتِه لأهلها ، وسياستهم بشَرَفِ السجيَّة وعَدْلها ؛ وإنَّ كل ما اختَلَس الملِكُ الناصرُ — رحمه الله — فإن الله يُتِمُّه على يديه ، ويجبرُ به تارة بصَفْحه وتارة بحَدَّيه ، ويَهَبُ له

عُمرا نُوحِيًّا إلى أن لا يَذَر على الأرض من الـكافرين دَيَّارا ، و إلى أن يُورِث الإسلامَ بسيفِه منهم أرضاً ومالاً ودِيَارا ؛ وهذه مخايِلُ لا يُخْلِف اللهُ بارِقَتَها ، بل يَرُدُّ إلى جهة الـكفر صاعقَتَها ؛ فما يَحْسَب المملوكُ أنَّ جانباً يتلوَّى على طاعة مولانا ولا يَنْحرِف ، ولا أنَّ كلمةً عليه بعد اليوم تَخْتَلِف ، ولا أنَّ ممتنِعاً بالأمس يكون معه اليوم إلا أن يرضى عنه مولانا وعليه يَنْعطِف .

وعلى هذا فالشام الفَرَنْجِىُّ متأخِّذ بجناح إلى الأخذ و بقية عمر المؤمن كما قال — صلى الله عليه وسلم — لا ثَمَن لها ، والفُرَصُ تمرّ مَرَّ السحاب ، والمستعاذُ بالله من حَسَرات الفَوْت بعد الإمكان (ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُره) ، وما يشخص لخطاب الله تعالى بالجهاد إلا مولانا ، النيةُ خالصة ، والبصيرةُ ثاقبة ، والعزيمةُ ماضِيَة ؛ والشجاعة منحةٌ من الله له موهوبة ، والسماحةُ خليقةٌ من خلائقه الـكريمة موجودة ؛ والرجال تَطَأُ عَقِبَيْه ، والملوك تُطِيع أمرَه ، والشُّجعانُ تَبْذُل أنفسهم بين يدَيْه ، والعدوّ يَعْرِف منه خَصْما طالما خاطبه بلسان السيف منهُ إليه ، وليس كلُّ من قَدَر عليه أراده . وعَـكّا أقربُ من (خِلاَط) وأنفع للمسلمين فَتْحا ، ، وأعظمُ في الـكُفَّار قَدْحا ؛ فوالله لئن انغلق بابُ الشام في وجه الـكُفْر ، لتنقَطِعنَّ آمالُ أهل البحر والبَرّ ، وما دام في الشام بقيةٌ من الـكُفْر فهو يَقْبَل الزِّيادة ، وينتظر النَّجْدة ويؤمِّل الاستعادة ؛ وما كررَّ المملوك هذا الحديثَ جَهْلا بما يجبُ في خدمة الملوك من الأدَب في أن لا يتـكَلَّمَ في القضية إلا من استُشِير فيها ، ولا يَجترِئَ على الـكلام إلا إذا كان مُجيباً بما يؤمَرُ بالإجابة عنه ، ولـكن المملوك غُلِب على الصُّحْبة ، وانقطع عن الخِدْمة ؛ وعلم أنه لو كان حاضراً لـكان مولانا يَبْسُطه ولا يَقْبِضه ، ويستشِفُّ ما عنده ، يستعرضه ، ويُشَفِّعُ قلبَه في لسانه إذا هَفَا ، ويحمله على صَفَاء ضميره فيما يقوله فلا يقابِلُ

بالتكدير مَنْ صَفَا ؛ فقد علم اللهُ أن المملوك يتمنّى للمسلمين أن يُردَّ عليهم حقُّهم ، وترْجِع إليهم بلادُهم ؛ وأن تكون هذه الأُمنِيَّةُ جاريةً على يد مولانا ومستفادةً من عزيمته ، ومكتوبةً فى صحيفته ؛ ومغتنَمةً فيما يَمُدّه الله فى حياته ؛ فإن الأمورَ فيما بعدُ ملموحه ، ولكن أبوابَ قدرةِ الله مفتوحه ، فالله يجعل منها أن يَفْتَح على مولانا فيه بلادَ الساحل ، وأن يأخذ للإسلام به أُهْبَةَ المقيم وللمُقِيم أُهْبة الراحل ؛ وما يخلط المملوكُ هذا المهمَّ بغيره ، طالع به ، ولمولانا علوّ الرأى .



نسخة توقيع صادر عن السلطان صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل أبى بكر بإقطاع بالديار المصرية ، و بلاد الشام ، و بلاد الجزيرة ، وديار بكر ، وذلك فى سنة ٥٨٠ هـ بعد الانفصال من حرب الفرنج بعكا وعقد الهدنة معهم .

عن : (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٤٤ — ١٤٨)

الحمد لله الذى جعل أيامنا حسانا ، وأعلى لنا يداً ولسانا ، وأطاب محتدنا أوراقاً وأغصانا ، ورفع لمجدنا لواء ولجدنا برهانا ؛ وحقق فينا قوله : (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا) .

نحمده على سبوغ نعمته ، ونسأله أن يجعلنا من الداخلين فى رحمته .

ثم نصلى على رسوله محمد الذى أيده بحكمته ، وعصمه من الناس بعصمته ، وأخرج به كل قلب من ظلمته ؛ وعلى آله وأصحابه الذين خلفوه فأحسنوا الخلافة فى أمته .

أما بعد ، فإن فروع الشجرة يأوى بعضها إلى بعض لمكان قربه ، و يؤثر بعضها من فضل شربه ؛ ونحن أهل بيت عرف منا وفاق القلوب وداً ، و إيثار الأيدى رفدا ، وذلك و إن كان من الحسنات التى يكثر فيها إثبات الأقلام ، فإنه من مصالح الملك التى دلت عليها تجارب الأيام ، وكلا هذين الأمرين مشكورة مذاهبه ، محمودة عواقبه ، مرفوعة على رءوس الأشهاد مناقبه ، وما من أحد من أدانينا إلا وقد وسمناه بعوارف يختال فى ملابسها ، و يسر فى كل حين بزفاف

عرائسها ، ولم نرض فى بل أرحامهم بمواصلة سلامها دون مواصلة برها وإدناء مجالسها ؛ ولإخوتنا من ذلك أوفر الأقسام ، كما أن لهم منا رحما هو أقرب الأرحام ؛ وقد أمرنا بتجديد العارفة لأخينا الملك العادل ، الأجلّ السيد ، الكبير ؛ سيف الدين ، ناصر الإسلام « أبى بكر » أبقاه الله . ولو لم نفعل ذلك قضاء لحق إخائه الذى ترف عليه حوانى الأضالع ، لفعلناه جزاء لذائع خدمه التى هى نعم الذرائع ؛ فهو من لزوم آداب الخدمة بعيد وقف منها على قدم الاجتهاد ، وفى لحمة شوابك النسب قريب وصل حرمة نسبه بحرمة الوداد ؛ وعنده من الغناء ما يحكم لآماله ببسطة الخيار ، ويرفع مكانته عن مكانة الأشباه والأنظار ، ويجعله شريكا فى الملك والشريك مساو فى النقض والإمرار ؛ فكم من موقف وقفه فى خدمتنا فجعل وعره سهلا ، وفاز فيه بإرضائنا وبفضيلة التقدم فانقلب بالمجندين إرضاء وفضلا ، ويكفى من ذلك ماأبلاه من لقاء العدو الكافر الذى استشرى فى هياجه ، وتمادى فى لجاجه ، ونزل على ساحل البحر فأطل عليه بمثل أمواجه ، وقال : لا براح ، دون استفتاح ، الأمر الذى عسرت معالجة رتاجه ؛ وتلك وقائع استضأنا فيها برأيه الذى ينوب مناب الكمين فى مضمره ، وسيفه الذى ينسب من الاسم إلى أبيضه ومن اللون إلى أخضره ، ولقد استغنينا عنهما بنضرة لقبه الذى تولت يد الله طبع فضله ، وعنيت يد السيادة برونق صقله ، فهو يفرى قلوب الأعداء قبل الأجساد ، ويسرى إليهم من غير حامل لمناط النجاد ، ويستقصى فى استلابهم حتى ينتزع من عيونهم لذة الرقاد ، وليس للحديد جوهر معدنه المستخرج من زكاء الحسيب ، وإذا استنجد قيل له : ياذا المعالى ! كما يقال لسميّه : ياذا الشطب ، ولو أخذنا فى شرح مناقبه ، لظل القلم واقفاً على أعواد منبره ، وامتد شأو القول فيه فلم ينته مورده إلى مصدره ، فمهما خولناه من العطايا فإنه يسير فى جنب غنائه ، ومهما أثنينا عليه فإنه سطر فى كتاب ثنائه .

وقد جعلنا له من البلاد ماهو مقتسم من الديار المصرية والشامية ، و بلاد الجزيرة وديار بكر : ليكون له من كل حظ تفيض يده فى أمواله ، و يركب فى حشد من رجاله ؛ ويصبح وهو فى كل جانب من جوانب ملكنا كالطليعة فى تقدم مكانها ، وكالربيئة فى إسهار أجفانها . فليتسلم ذلك بيد معظم قدراً ، ولا يستكثر كثرا ، ويحمل منها رفدها غيثاً أو بحراً ؛ كذلك فليعدل فى الرعيّة الذين هم عنده ودائع ، وليجاوز بهم درجة العدل إلى إحسان الصنائع ، فإذا أسند هذا الأمر إلى ولاته فليكونوا تقاة لايجد الهوى عليهم سبيلا ، ولا يجد الشيطان عندهم مقيلا ، و إذا حملوا ثقلا لايجدون حمله ثقيلا .

وقد فشا فى هذا الزمن أخذ الرشوة ، وهى سحت أمر رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم بنبذه ، ونهى عن أخذه ، وعن الرغبة فى تداوله ، وهو كأخذ الربا الذى قرنت اللعنة بمؤكله وآكله .

وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد ، ولأعضاء أحكامها أجناد ، ولحفظ علومها كنوز لايتطرق إليها النفاد ، فينبغى أن يعول فيهم على الواحد دون الإثنين ، وأن يستعان منهم فى الفصل بذى الأيدى ، وفى اليقظة بذى اليدين ، ومن رام هذا المنصب سائلا فليلمه وليغلظ القول فى تجريع ملامه ، وليعرف أنه ممن رام أمراً فأخطأ الطريق فى استجلاب مرامه ، وأمرُ الحكام لايتولاه من سأله ، و إنما يتولاه من غفل عنه وأغفله .

و إذا قضينا حق الله فى هذه الوصايا فلنعطفها على ما يكون لها تابعاً ، ولقواعد الملك رافعاً ، وذاك أن البلاد التى أضفناها إليك : فيها مدن ذات أعمال واسعة ، ومعاقل [ذات] حصانة مانعة ، وكلها يفتقر إلى استخدام الفكر فى تدبيره ، وتصريف الزمان فى تعميره ، فولِّ وجهك إليها غير وان فى تكثير قليلها ،

وترويض مخيلها ، وبث الأمنة على أوساطها ، وإهداء الغبطة إلى أفئدة أهلها حتى تسمع باغتباطها ، وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ، ويتمثل بقوله تعالى : (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور) .

واعلم أنه قد يجاورك فى بعضها جيران ذو بلاد وعساكر ، وأسرة ومنابر ، وأوائل للمجد وأواخر ، وما منهم إلا من يتمسك منا بود سليم ، وعهد قديم ، وله مساعدة نعرف له حقها (والحق يعرفه الكريم) .

فكن لهؤلاء جاراً يودون جواره ، ويحمدون آثاره ، وإن سألوك عهداً فابذله لهم بذل وفيّ واقف على السنن ، مساو بين السر والعلن ، ولا يكن وفاؤك لخوف تتّقى مراصده ، ولا لرجاء ترقب فوائده ، فالله قد أغناك أن تكون إلى المعاهدة لاجياً ، وجعلك بنا مخوفاً ومرجوا لاخائفاً ولا راجياً ، وقد زدناك فضلة فى محلك تكون بها على غيرك مفضلا ، وقد كنت من قبلها أعز فأوفت بك أغر محجلا ، وذاك أنّا جعلناك على آية الخيل تقودها إلى خوض الغمار ، وتصرفها فى منازل الأسفار ، وترتب قلوبها وأجنحتها على اختلاف مراتب الأطوار ، فنحن لانلقى عدواً ولا ننهد إلى بلد إلا وأنت كوكبنا الذى نهتدى بمطلعه ، ومفتاحنا الذى نستفتح المغلق بيمن موقعه ، ونوقن بالنصر فى ذهابه وبالغنيمة فى مرجعه ، والله يشرح لك صدراً ، وييسر لك منا أمراً ، ويشد أزرنا بك كما شد لموسى بأخيه أزراً ، والسلام .

الفهارس

١

فهرس الموضوعات

للجزء الثالث

من كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

الصفحات

الصفحات

الصفحات

الصـفحات

٢

فهرس الملاحق

الصفحات

الصفحات

الصفحات

٣

فهرس الأعلام

٤

فهرس الأعلام التي ترجم لها في الحواشي (1)

---

(١) الرقم الاول يرمز للصفحة والثاني للحاشية .

٥

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

٦

فهرس المواقع والأمكنة والبلدان

٧
فهرس المصطلحات

٨

فهرس المصطلحات التى عرف بها فى الحواشى

فهرس الكتب التي ذكرت بالمتن

١٠

فهرس الوثائق

الصفحات

فهرس الشعر والشعراء

اسم الشاعر	رقم الصفحة	القافية
الملك الأفضل على بن صلاح الدين	٣٧ – ٣٨	سنين
لم يذكر	٤٠	ستر
ابن سناء الملك	٤٩ – ٥٠	مانينام
الملك الأفضل على بن صلاح الدين	٦٩	على
الناصر لدين الله (الخليفة العباسى)	٦٩	طاهر
الملك الافضل على بن صلاح الدين	٦٩	طالبى
الملك الافضل على بن صلاح الدين	٦٩ ، هـ ٣	يحصل
شرف الدين بن عنين	٧٢	عدول
عماد الدين الكاتب الاصفهانى	٧٤	سامة
لم يذكر	٧٤ ، هـ ١	السلامة
ابن سناء الملك	٧٧	المقدم
الملك العادل ابو بكر بن أيوب	١١٣	تحسب
الملك العادل ابو بكر بن أيوب	١١٤	شفيع
شرف الدين بن عنين	١٣٠	غيب
صفى الدين بن شكر	١٤٢	قريب
بهاء الدين اسعد بن يحيى السنجارى	١٤٣ – ١٤٥	والامل
سالم بن سعادة الحمصى	١٤٧ – ١٤٨	طائره
سالم بن سعادة الحمصى	١٤٩ – ١٥٠	ومى
كمال الدين على بن النبيه المصرى	١٥٧ – ١٥٨	رمانة
لم يذكر	١٧٨ – ١٧٩	صانع
شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلى	١٨٥ – ١٨٦	شفا
شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلى	١٩٨ – ١٩٩	مسددا
شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلى	٢١٤ – ٢١٥	مدرا
كمال الدين على بن النبيه المصرى	٢١٦ – ٢١٧	بديجور
شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلى	٢٢١ – ٢٢٢	ماتقابله
الشيخ تقى الدين على بن ابى بكر الهروى	٢٢٤ ، هـ ١	عنساه
شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلى	٢٣٠ – ٢٣١	الردى
كمال الدين بن النبيه المصرى (القاضى)	٢٣١	الجواد
شرف الدين راجح بن اسماعيل الحلى	٢٤٤ – ٢٤٥	يعذب
مهذب الدين أبو المحاسن ماجد بن محمد ابن القيسرانى	٢٤٥	والمثانى

تصويبات

ندت عن العين اثناء الطبع بعض الحروف والنقط فوقعت بعض الاخطاء وفيما يلي ثبت بالهام وما عداه يدركه القارىء بفطنته ويدل عليه الاسلوب

الصحيفة	السطر	الصواب	الصحيفة	السطر	الصواب
ح	٦	يناقش	١٤٨	١١	الضرب
٧	١٣	تقع	١٥٠	٢	الخضم
٢٢	١	المعزية	١٥٢	١٤	يقصده
٤٨	١١	ذكر	١٥٤	١٤	عن انطاكية
٧٩	٧	حـران	١٧٣	١٣	ومالت
٨١	٢	بيـده	١٧٤	٣	وكـثرت
٨١	٥	دركوش	١٧٥	١٠	صـارت
٨١	٨	بن قلج	٢٠٩	١٨	جهاركس
٨٥	١٥	وجمت وجمة	٢٣٦	٣	غنمه
٩٣	١٢	التـاجي	٢٣٩	٦	بنفى
٩٣	١٢	المفاردة	٢٥٥	١٣	نـازل
٩٣	٨ هامش	المملوكي	٢٦٦	١٢	مالت
٩٦	٤	على دمشق	٢٦٧	١٢	براعـة
١٠٣	٢٥ هامش	العصور	٢٨٥	٢	كذلك
١٣٥	٣ هامش	ص ٦٠	٢٨٧	٢٢	الادماء
١٤٢	٢ هامش	يستقيم	٣٤٧	٢١	الفـولة
١٤٨	٧	كرت	٣٦٤	٢	الإجماع
			٣٧١	١٢	اولوا

مطابع دار القلم بالقـــاهرة

DUR HERITAGE

MUFARRIJ AL-KURUB

FI 'AKHBAR BANI 'AYYUB

(THE HISTORY OF THE AYYUBIDS)

BY

GAMAL EL-DIN MOHAMMED IBN SALIM IBN WASIL

(Ob. 697 A. H. = 1298 A. D)

Volume III.

EDITED

BY

GAMAL EL-DIN EL-SHAYYAL.

Professor of Islamic History, Alexandria University

UNITED ARAB REPUBLIC



Publications of the Section of Arabic Manuscripts
Ministry of Culture and National Guidance.
General Culture Administration.

DAR EL KALUM, CAIRO